

لوسي مود مونتغومري
FIFA WORLD CUP
Qatar2022
2.12.2022
إميلي
@ketab_n
فتاة القمر الجديد
ترجمة: نور الشعار
رواية
مسكلياني

لوسي مود مونتغومري



فتاة القمر الجديد

ترجمة: نور الشعار



عنوان الكتاب الأصليّ المعتمد في هذه الترجمة عن الإنجليزيّة

L.M. Montgomery

Emily of New Moon

المؤلّفة: **لوسي مود مونتغومري**

عنوان الكتاب: **إيميلي فتاة القمر الجديد**

ترجمة: **نور الشعّار**

خط الغلاف: **الفنّان سمير بن قويعة**

تصميم الغلاف: **عبد الفتّاح بوشندوقة**

تنضيد: **سعيد البقاعي**

ر.د.م.ك: **978-9938-74-047-9**

الطبعة العربيّة الأولى: 2023



مسكيلياني للنشر والتوزيع

الإمارات: مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر، المنطقة الحرّة، الشارقة، الإمارات
الهاتف: 561936632(971+) أو 504731882(971+)

تونس: 13 شارع محمّد الخامس، المدينة الجديدة2، تونس
الهاتف: 561936632(971+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

المحتويات

إضاءة

لجأت الكاتبة في هذه الرواية إلى نقل أخطاء لغويّةٍ بأسلوبٍ طفوليٍّ عفويٍّ في رسائلِ إيميلي وقصائدِها كأنّها كُتِبَت حقًّا بيد طفلةٍ صغيرةٍ، ثمّ عمَدَتْ إلى تحسينِ أسلوبِ الفتاة تدريجيًّا.

وعليْهِ، فإنّ كلّ الأخطاء الواردة في الرّواية هي في الواقع محاكاةٌ للأخطاء المُتعمَّدة في النّص الإنجليزي، وقد وُضعت عليها علاماتٌ لتنبيه القرّاء والقارئات إليها مع الإشارة إلى الصّواب في الحواشي.

المترجمة

منزل الوادي

كان منزل الوادي «في منأى عن كلّ شيء»، كما يقول أهل مايوود. ويقبع المنزل في وادٍ معشوشبٍ صغير، وكأنّه لم يشيّد كسائر المنازل، بل نبت هناك واشتدّ عوده كما لو كان قطعة فطر رماديّة ضخمة. ويمتدّ أمامه طريق طويل أخضر، بينما يخفيه عن العيان جمعٌ من أشجار البتولا الفتيّة المحيطة به. ورغم أنّ القرية تقع على قمّة التّل، فإنّه من المُحال أن ترى أيّ بيتٍ آخر من ذاك المنزل. قالت إيلين غرين إنّه أكثر الأماكن وحدة في العالم، وأقسمت أنّها ما كانت لتقضي فيه يومًا واحدًا لولا شفقتها على تلك الطّفلة.

لم تكن إيملي تعلم أنّها محلّ شفقة، ولم تُدرك معنى الوحدة. بل كان لها عدّة رفاق: كان معها والدها، ومايك، وسوسي سال. وكانت سيّدة الريح موجودة دومًا، ناهيك عن شجرتي آدم وحواء، والصنوبر الدّيك، وجميع شجرات البتولا الأنثى اللّطيفة.

وكان هنالك *البرق* أيضًا. لم تكن تعلم متى ينهال عليها، فتظلّ في شوقٍ وانتظارٍ لمجرّد إمكانيّة قدومه.

تسلّلت إيميلي لتتنزّه في صقيع الشّفق، وظلّت صورة نزهتها

تلك ماثلةً في ذهنها بأدنى تفاصيلها طيلة حياتها. ربّما كان ذلك بسبب ذاك السحر الغامض الّذي تغمّد الكون آنذاك، أو لأنّ *البرق* جاءها للمرّة الأولى منذ أسابيع، والأرجح أنّ ذلك يعود إلى ما حدث بعد عودتها من النّزهة.

كان يومًا مملًّا، باردًا من شهر أيار، من تلك الأيّام الّتي تنذر فيها السّماء بالمطر دون أن تذرف قطرة. أمضى والدها يومه مستلقيًا في غرفة الجلوس، وتواترت عليه نوبات السّعال، فلم يتحدّث كثيرًا إلى إيميلي، وهو ما لم يعتد عليه. وفي معظم الأوقات، كان يتمدّد شابكًا يديه تحت رأسه، ويحدّق حالمًا شاردًا في السّماء الملبّدة بالغيوم بعينين واسعتين، عميقتين، داكنتي الزّرقة. فتتراءى له السّماء من بين أغصان شجرتي التنّوب الضخمتين، تينك اللّتين سُمّيتا بآدم وحوّاء لشبهٍ طريفٍ وجدته إيميلي بين شكلهما مع شجرة التّفاح الصّغيرة الّتي تتوسّطهما وشكل آدم وحوّاء مع شجرة المعرفة في صورة قديمة ضمن أحد كتب إيلين غرين. كانت شجرة المعرفة شبيهة تمام الشّبه بشجرة التّفاح القزمة، وعلى جانبيها يقف آدم وحوّاء في ثبات وصرامة مثل شجرتي التّنوب.

تساءلت إيميلي عن خواطر أبيها، ولكنّها تأبى إزعاجه بالأسئلة حينما يشتدّ عليه السّعال. كانت تريد أن تجد أذنًا صاغية فحسبُ، فحتّى إيلين غرين كانت واجمة في ذلك اليوم. ولم تنفكّ عن التّأفف، وإن تأفّفت إيلين فثمّة ما يشغل بالها. لقد تأفّفت ليلة أمس بعد أن همس لها الطّبيب شيئًا ما في المطبخ، وتأفّفت حينما

أعطت إيميلي لمجة ما قبل النّوم وهي خبز بالعسل الأسود. ورغم أنّ إيميلي لم تكن تحبّ ذلك، فقد أكلته مراعاةً لمشاعر إيلين. قلّما كانت إيلين تأذن لها بأكل شيءٍ ما قبل النّوم، وإن فعلت فذلك على سبيل المحاباة الاستثنائية، لسبب أو لآخر.

ظنّت إيميلي أنّ نوبة التّأفف ستنزاح عن إيلين في الليل كالعادة، ولكنّها لم تنته، فلم يكن من سبيل لمجالستها آنذاك -وهي على كلّ حالٍ ليست خير جليس في أيّ وقتٍ آخر. وقد أخبر دوغلاس ستار إيميلي ذات مرّة، إذ انتابه السّخط، بأنّ «إيلين غرين كائنٌ بدين كسول عديم الأهميّة». وكلّما نظرت إيميلي إلى إيلين بعد قوله ذاك، بدا لها وصفه منطبقًا عليها تمام الانطباق. وتكوّرت إيميلي إذن في الكرسي المجنّح المريح رغم قِدَمه ورثّ هيئته، وراحت تقرأ *رحلة الحاجّ*[1]. كانت إيميلي تعشق هذا الكتاب، وكم مرّة قطعت ذاك الدّرب المستقيم الضّيق برفقة كريستيان وكريستيانا -رغم أنّ مغامرات كريستيان كانت أحبّ إلى قلبها بكثير من رحلة كريستيانا، لا سيّما وأنّ كريستيانا كانت دومًا مصحوبة بحشدٍ غفير، وما كان لذلك أن يسحر إيميلي بقدر ما يسحرها البطل الوحيد المقدام الّذي يجابه ظلال وادي الظّلمات بمفرده ويخوض صراعًا مع أبوليون. لا أهمّية تُذكر للظّلمات والأغوال متى كان المرء مع رفاقه. أمّا من واجهها منفردًا -آه، ارتجفت إيميلي من لذّة الفكرة وهولها! ولمّا

(1) رحلة الحاجّ رواية للكاتب الإنجليزيّ جون بنيان صدرت في عام 1678، وتُعَدُّ هذه القصّة الرّمزية المسيحيّة من أهمّ الأعمال ذات المنحى الدّينيّ في الأدب الإنجليزيّ.

أعلنت إيلين أنّ العشاء جاهز، أمر دوغلاس ستار إيميلي بالذّهاب لتناوله قائلًا: «لا أرغب في شيءٍ اللّيلة. سأتمدّد هنا لأرتاح في انتظار عودتك، وعندها سنتحدّث مليًّا، صغيرتي».

ابتسم لها ابتسامته المعتادة الحلوة النّاضحة بالمحبّة، وما أعذب تلك الابتسامة على قلب إيميلي. تناولت الطّفلة عشاءها في سرورٍ رغم أنّه لم يكن لذيذًا. فالخبز مبتلّ والبيضة غير ناضجة تماما؛ ولكن سُمح لها، لحسن الحظّ، بأن تُبقي معها سوسي سال ومايك. ولم تتأفّف إيلين إلّا عندما أطعمتهما إيميلي قليلًا من الخبز والزّبدة.

كان مايك ينتصب على قائمتيه الخلفيّتيْن في صورة طريفة، ثمّ يلتقط أجزاء الطّعام بقائمتيه الأماميّتين. أمّا سوسي سال فكانت تلجأ إلى لمس كعب إيميلي على نحوٍ شبه آدميّ إذا ما طال بها انتظار دورها. وكانت إيميلي تحبّ كليْهما، ولو أنّها تفضّل مايك. وكان القطّ رماديّ الفرو داكنه، ذا عينين تضاهيان عيني البومة حجمًا، وكان ربيلًا، ناعم الملمس، منفوش الفرو. وفي المقابل، كانت سال نحيفة مهما أكلت من كمّيات طائلة من الطّعام، ممّا جعل إيميلي تعرض عن احتضانها أو التّربيت عليها، على الرغم من حبّها لها. ولكن كان فيها شيءٌ من السّحر الغامض لا يُقاوم. كان فروها مزيجا من الرّمادي والأبيض- الأبيض النّاصع، فائق النّعومة، ولها وجه طويل حادّ وأذنان كبيرتان وعينان عميقتا الخضرة. وكانت مقاتلة شرسة تطرح القطط الغريبة أرضًا في غضون دقائق، بل هي

شعلة متّقدة تصل بها الشّجاعة إلى الهجوم على الكلاب وإذاقتهم شرّ الهزائم.

كانت إيميلي تعشق قططها وتردّد بكلّ فخرٍ أنّها تحمّلت مسؤوليّة تربيتهم بنفسها، إذ كانت مدرّسة يوم الأحد قد أهدتها إيّاهم منذ كانوا هريْرات صغيرة. وقالت لإيلين: «كم رائعٌ أن تكون الهدية *كائنًا حيًّا*، فهي لا تنفكّ تزداد جمالًا». ولكنّها شعرت بقلق عظيم إزاء سوسي سال الّتي لم ترزق بهرِيرات. واشتكت إلى إيلين قائلةً: «لا أدري لمَ لم تنجب سوسي سال بعدُ، فمعظم القطط لها صغارٌ أكثر مما تسمح لها به طاقتها».

عادت إيميلي إلى الغرفة بعد العشاء ووجدت أباها يغطّ في سبات عميق. كانت تعلم أنّه لم يحظ بالكثير من النّوم في اللّيلتين الماضيتين فأسعدها الأمر، رغم شعورها بشيء من خيبة الأمل لأنّها لن «يتحدّثا مليًّا». كان الحديث «المليّ» مع أبيها ممتعًا جدًّا. ولكنّ أفضل بديل له سيكون جولةً، جولة حلوة برفقة نفسها الوحيدة تشقّ فيها عتمة مساءٍ ربيعيّ فتيّ، لا سيّما أنّها لم تتنزّه منذ فترة طويلة.

حذّرتها إيلين: «ضعي قلنسوتك، وسارعي بالعودة إذا ما داهمك المطر. لا يجدر *بكِ* أن تستهتري بنزلات البرد مثلما يفعل بعض الأطفال».

أجابت إيميلي ساخطة: «ولمَ لا؟» لماذا كُتِبَ *عليها* أن تُسلب حقّ «الاستهتار بنزلات البرد» من بين سائر الأطفال؟ هذا ليس عدلًا.

ولكنّ إيلين اكتفت بالتّأفّف، فهمهمت إيميلي خفيةً لترضي نفسها: «ما أنتِ إلّا عجوز بدينة لا قيمة لها!» وراحت تجلب قلنسوتها من الطّابق العلوي على مضضٍ، فهي تعشق السّير عارية الرأس. ووضعت القلنسوة الباهتة الزرقة على شعرها الطّويل اللّامع المنساب في ضفيرة سميكة سوداء كالفحم، وابتسمت بحرارة لصورتها المنعكسة على المرآة المخضرّة الصّغيرة. انفرج ركنا فمها عن بداية ابتسامة اتّسعت شيئا فشيئا على كامل وجهها، في حركة لطيفة رائعةٍ لطالما راقت لدوغلاس ستار. إنّها ابتسامة المرحومة أمّها، تلك الابتسامة الّتي لفتت نظره منذ زمن مضى وأوقعته في شراك جوليات موراي عندما رآها لأوّل مرّة. ويبدو أنّها السّمة الجسديّة الوحيدة الّتي ورثتها إيميلي عن أمّها، إذ كانت تبدو له وريثة آل ستار في سائر سماتها - في عينيها الواسعتيْن بلونهما الرّمادي البنفسجيّ ورموشهما الطّويلة وحاجبيْهما الأسوديْن، وفي جبينها الأبيض العريض - عرضًا يتنافى مع الجمال-، وفي تقاسيم وجهها الشّاحب البيضاوي وفمها الرّقيق، وفي أذنيْها المذبّبتيْن الدّالّتيْن عن انتسابها إلى قبائل العفاريت.

قالت إيميلي: «ها أنا ذاهبة في جولة مع سيّدة الرياح، يا عزيزتي. ليتني كنت أستطيع اصطحابك معي. لا أدري حتّى إن كنت تغادرين غرفتك *أصلا* أم لا. ستخرج سيّدة الرّياح إلى البراري اللّيلة. إنّها طويلة وضبابيّة، ولها ملابس رماديّة من الحرير الرّقيق تتطاير حولها، وجناحان شبيهان بأجنحة الخفافيش

-ولكنّهما شفّافان-، وعينان كالنّجمتيْن يتراءى بريقهما من وراء خصلات شعرها الطّويل المنساب. وهي قادرة على الطّيران، ولكنّها ستتمشّى معي الليلة عبر البراري. إنّها صديقة عزيزة على قلبي، سيّدة الرّياح. أعرفها منذ كنت في السّادسة من عمري، وتعود صداقتنا إلى عهد بعيد، *بعيد جدًّا*. ولكنّها ليست أقدم من صداقتي بكِ، يا إيميلي-الصّغيرة-في-المرآة. فنحن صديقتان منذ أبد الآبدين، أليس كذلك؟».

أرسلت إيميلي خارج المرآة قبلة في الهواء صوب إيميلي -في- المرآة ثمّ انصرفت.

كانت سيّدة الرّياح في انتظارها خارجًا، تسوّي سبلات العشب المخطّط الصّغيرة النّاتئة بعنادٍ من المشتل تحت نافذة غرفة الجلوس، وتتلاعب بأغصان آدم وحوّاء الضّخمة، وتهمس من بين فروع البتولا الخضراء النديّة، وتداعب الصّنوبر الدّيك وراء المنزل. إنّه حقًّا لشبيه بديك ضخم مضحك يفرد ريش ذيله الطّويل ويرمي رأسه إلى الوراء متأهّبًا للصّياح.

لم تخرج إيميلي في نزهةٍ منذ زمنٍ طويلٍ، فكانت تكاد تطير فرحًا. لقد مرّ عليها شتاء هائج، وكان الثّلج سميكًا إلى درجة أنّه لم يُسمح لها بالخروج. أمّا شهر نيسان فقد تواترت فيه الرياح والأمطار. وما حلّ شهر أيار حتّى شعرت إيميلي بأنّها سجينة قد فكّ أسرها. إلى أين الذّهاب؟ هل تتوجّه إلى النّهر أم تشقّ البراري وصولًا إلى حقول التّنّوب؟ فضّلت إيميلي الخيار الثّاني.

كانت تحبّ حقول التّنّوب، تلك الّتي تمتدّ في أقصى المراعي المديدة المنحدرة. كان المكان حريًّا بصنع المعجزات، وما من مكانٍ يُشعر إيميلي بانتمائها إلى صنف الحوريّات أكثر من ذاك. وما كان أحدٌ ليحسدها إن لمحها تتسلّل إلى ذاك الحقل الأجدب، فرأى طفلة ضئيلة، شاحبة، نحيلة الملابس، ترتجف أحيانًا في سترتها الخفيفة. بيد أنّ الملوك ذاتهم قد يقايضون تيجانهم عن طيبة خاطرٍ في سبيل شيءٍ من رؤاها وأحلامها الفريدة. فهي الّتي تجعل الأعشاب البنيّة المجمّدة تحت قدميْها مخملًا؛ وهي الّتي تحوّل شجرة تنّوب عجوز نصف ميّتة ذات جذع يابس مطحلب -تلك الّتي تقف تحتها إيميلي للحظة تأمّل في السّماء- إلى عمود من الرّخام في قصر الآلهة؛ وهي الّتي تنقلب التّلال العاتمة، بفعلها، أسوار مدينة مدهشة. أمّا رفاقها فكانوا من حوريّات الرّيف -كان بوسعها أن تؤمن بهنّ هناك-، وحوريات النّفل الأبيض وعسيل الصفصاف النّاعم، والمخلوقات الخضراء الصّغيرة الّتي تسكن الأعشاب، وأقزام أشجار التّنوب الفتيّة، وعفاريت الرّيح والسّرخس البريّ وحزمات النّبات الشّائك. كلّ شيءٍ مُباحٌ هناك -كلّ شيءٍ قد يتحقّق.

كانت الحقول مكانا رائعًا لتلعب فيه إيميلي لعبة الغميضة مع سيّدة الرّياح. إنّها تبدو حقيقيّة جدًّا هناك، وحسبك أن تركض بسرعة فائقة حول جمعٍ من التّنّوب -وهو أمر مستحيل- لتراها، بل تشعر بها وتسمعها. ها هي ذي، ها هو فحيح ثوبها الرماديّ ينساب أرضًا -لا، إنّها تضحك هناك على قمم الأشجار العالية -

لقد انطلقت المطاردة مجدّدًا، إلى أن بدا لها أنّ سيّدة الرّياح اختفت تمامًا في طرفة عين. غرق المساء في صمتٍ ساحر، وانشقّت فجأةً السّحب المتكتّلة غربًا لتفرج عن رقعة شاحبة من السّماء الورديّة المخضرّة، يتوسّطها قمر جديد.

رفعت إيميلي رأسها الصغير الأسود إليه ووقفت تحدّق فيه شابكةً يديها. لا بدّ لها أن تعود إلى البيت لتحرّر عنه وصفًا في دفتر الحسابات الأصفر. كان آخر ما خُطّ فيه من كلمات هو «سيرة مايك». ستظلّ صورة القمر تعذّبها إلى أن تكتب عنها شيئًا ما، وستقرؤه لأبيها لاحقًا. يجب ألّا تنسى صورة قمم الأشجار على التلّ الّتي بدت وكأنّها ضربٌ من التّرخيم الأسود الرّفيع على شفا السماء الورديّة المخضرّة.

وفي غضون لحظة عظيمة، حاسمة، جاءها «*البرق*».

هكذا سمّته إيميلي، ولو أنّها شعرت بأنّ الاسم لا يفي بالمسمّى. تعوزها الكلمات فلا تقدر عن وصفه، ولا حتّى لأبيها الّذي لطالما اندهش لأمره. ولم تخبر به إيميلي أيّ شخصٍ آخر.

منذ بدأت تتذكّر، كان يبدو لها أنّها على قاب قوسين أو أقرب من عالم جمالٍ مذهل، عالم فريد لا يفصلها عنه إلّا ستار رفيع. وإن كان يتعذّر عليها رفع ذاك السّتار، فإنّه يصادف أحيانًا أن يتنحّى جانبًا في مهبّ الرّيح. حينئذٍ، يبدو لها أنّها فرصة سنحت لتسترق نظرة خاطفة من العالم الخرافي الكامن وراءه -مجرّد لمحة- وتترامى إلى مسمعها نوتة موسيقى ملائكيّة.

قلّما يحدث ذلك. وسرعان ما تنقضي اللّحظة وتتركها منقطعة الأنفاس من شدّة النّشوة، نشوة لا تفي الكلمات بوصفها. ولا تستطيع استحضار تلك اللّحظة، ولا استدعاءها، ولا التّظاهر بها، ولكن تلازمها نشوتها أيّامًا عديدة. ولا يأتي *البرق* مع الشّيء ذاته أكثر من مرّة. أثارته اللّيلةَ قممُ الأشجار على سماءٍ بعيدة. وسبق أن جاءها مع صفير ريحٍ حادٍّ قويٍّ مزّق صمت اللّيل، ومع تراقص ظلٍّ مترامٍ على حقل ناضج المحاصيل، ومع عصفور رماديّ حطّ على حافّة نافذتها ذات ليلةٍ عاصفة، ومع نشيد القدّيسين في إحدى الكنائس، ومع لمحة من نار المطبخ بعد عودتها إلى البيت في ليلة خريفيّة ليلاء، ومع لون أزرق روحانيٍّ رأته في رقاقات الجليد المتكتّلة على بلّور النّافذة تحت ضوء خافت، ومع كلمةٍ جديدة مناسبة في سياق «وصفٍ» كانت بصدد تحريره. وكلّما حلّ *البرق* شعرت إيميلي بأنّ الحياة شيءٌ رائع الغموض، دائم الجمال.

اندفعت نحو الوادي عائدة إلى المنزل عبر سديم الشّفق، تتحرّق لهفة للوصول وكتابة «وصفها» قبل أن تتلاشى في ذهنها صورة ما رأته . كانت تعرف كيف ستبدأ جملتها بالتحديد –وبدأت ملامح الجملة ترتسم في ذهنها: «ناداني التّل فسمعته، وشيء ما فيَّ لبّى النّداء».

وجدت إيلين غرين في انتظارها على درجة المدخل الرّئيسي السّفلى. وفي تلك اللّحظة، كانت فرحة إيميلي عارمةً لدرجة أنّها أحبّت كلّ شيءٍ، حتّى العجائز البدينات اللّاتي لا قيمة لهنّ.

وطوّقت ركبتي إيلين بذراعيْها ثمّ عانقتهما. أطرقت إيلين بنظرةٍ قاتمةٍ إلى وجهها الصّغير النّشوان، وقد علته حمرة طفيفة من شدّة حماسها، ثمّ أطلقت تنهيدة ثقيلة وقالت:

«أتعلمين أنّه لم يبق لأبيك سوى أسبوع أو اثنان في الحياة؟».

يقظةٌ في اللّيل

تسمّرت إيميلي في مكانها ورفعت رأسها نحو وجه إيلين العريض الأحمر -كانت ثابتة ثبوت تمثال من الحجر، وبدا لها وكأنّها انقلبت حجرًا بالفعل، وذُهلت كأنّها تلقّت ضربة جسديّة قاضية من إيلين. وامتقع وجهها الصّغير، واتّسعت حدقتا عينيْها إلى أن التهمتا القزحيّتيْن، فانقلبت عيناها إلى حوضين من السّواد العميق. كان أثر الخبر في إيميلي مروّعًا لدرجةٍ أربكت إيلين وأحرجتها، فقالت لها:

«أقول لك هذا لأنّني أرى أنّه آن الأوان لإخبارك بالأمر. ألححت على أبيك منذ أشهر ليعلمك به، ولكنّه فضّل تأجيله مرّة تلو الأخرى. فعندما أقول له «إنّك تعلم كم هي حسّاسة، ولو هَلِكْتَ فجأةً ذات يوم، فلا شكّ في أنّها ستموت بعدك إن لم تهيّئها لذلك. يتعيّن عليك أن تهيّئها»، يقول لي «ما زال لدينا متّسع من الوقت يا إيلين». ولكنّه لم يقل لك شيئًا. ولمّا أخبرني الطبيب ليلة أمس بأنّ نهايته أصبحت وشيكةً، قرّرت أن أفعل بنفسي ما أراه صوابًا وألّمح لكِ عن الموضوع لتستعدّي. بحقّ الإله يا طفلة، دعي عنك هذه الحال! سوف يُعتنى بكِ. ستحرص على ذلك عائلة

أمّك، باسم كبرياء آل موراي، إن لم يكن لهم سبب آخر. لن يتركوا ممّن لحمهم ودمهم يتضوّر جوعًا أو يلجأ إلى غرباء -حتّى وإن كانوا يكرهون أباك كما يكرهون أن يُقذَفوا في النّار. سيكون لكِ بيتٌ لائق -أحسن حتّى ممّا كان لكِ هنا، فلا داعي للقلق. أمّا بالنّسبة إلى والدك فيجب أن تحمدي الرّب الّذي سيجازيه بالرّاحة. لقد كان يحتضر شيئًا فشيئًا طيلة السنوات الخمس الماضية. وقد أخفى عنك الأمر، ولكنّه ذاق من العذاب ألوانًا. يُقال إنّ قلبه انفطر لّما تُوفّيت والدتك -نزل عليه الأمر نزول الصّاعقة-، فالمرض لم يلازمها إلّا ثلاثة أيّام. هذا ما دفعني إلى إخبارك بما سيحدث، لكي لا تحزني عند حدوثه. بحقّ السّماء يا إيميلي بيرد ستار، كفّي عن التحديق هكذا! إنّك ترعبينني! لست أولى طفلة يُتِّمت، ولن تكوني الأخيرة. حاولي أن تتعقّلي. وإيّاك أن تزعجي والدك بما أخبرتك به. هيّا، ادخلي الآن وكفى وقوفًا في الرّطوبة. سأعطيكِ كعكة لتأكليها قبل النّوم».

نزلت إيلين وهمّت بأخذ يد الطّفلة. دبّت الحركة مجدّدًا في إيميلي - لو تجرّأت إيلين حتّى على لمسها *الآن* فستصرخ. تحاشت يد إيلين في صرخة مفاجئة، حادّة، مريرة، ثمّ هرعت إلى الباب داخل المنزل تطوي درجات السّلم المظلم طيًّا.

هزّت إيلين رأسها بأسفٍ، وتهادت عائدة إلى مطبخها. وفكّرت: «لقد قمت *بواجبي*، على كلّ حال. لو تركت الأمر بيديه، لظلّ يقول «متّسع من الوقت» ويسوّف إلى أن يموت، وسبحان

من يقدر على تدبير أمرها عندئذٍ. لديها الآن ما يكفي من الوقت لتتأقلم مع الأمر، وستتماسك بعد يوم أو يومين. وأقرّ بأنّ لها قسطًا من الشّجاعة -وهذا من حسن حظّها، بحسب ما أعلمه عن آل موراي. سيصعب عليهم السّيطرة *عليها*. ولديها شيء من كبريائهم أيضًا، وسيساعدها ذلك على تجاوز محنتها. ليتني أُقدِمُ على مراسلة بعض أفراد عائلة موراي لأعلمهم بموته الوشيك، ولكن لن تذهب بي الجرأة إلى ذاك الحدّ. اللهّ أعلم بما *سيفعله* آنذاك. على كلّ حال، ها أنا ذي قد صمدت هنا إلى آخر رمق، ولا ندم لي على ذلك. ما كانت نساء كثيرات ليقبلن بالأمر، نظرًا إلى نمط عيشهنّ. إنّه لمن المؤسف أن تُربّى الطّفلة على ذاك النّحو -لم تلتحق حتّى بالمدرسة. على كلّ حال، أخبرته برأيي في الموضوع بما فيه الكفاية -وليست المسؤوليّة على عاتقي، هذا ما يريح بالي. هيّا يا سال، اخرجي من هنا! عليّ أن أجد مايك أيضًا، أين هو؟».

لم تعثر إيلين على مايك لسبب بسيط، وهو أنّه كان في الطّابق العلوي، مندسًّا في حضن إيميلي الجالسة على فراشها الصّغير في عتمة حجرتها. وفي خضم وجعها وشجنها، كان ملمس فروه النّاعم ورأسه المخمليّ يمنحها شيئًا من الارتياح. لم تبكِ إيميلي، بل حدّقت في الظّلام وحاولت أن تجابه الخبر الفظيع الّذي أنبأتها به إيلين. ولم تشكّك في صحّته بالمرّة -كانت تشعر في قرارة نفسها بأنّ تلك هي الحقيقة. لمَ لا تموت هي الأخرى؟ لن تستطيع مواصلة العيش دون أبيها.

وقالت: «إن كنتُ أنا الرّب، فلن أسمح بحدوث أشياء من هذا القبيل».

وشعرت بأنّها اقترفت ذنبًا بقولها ذاك -أخبرتها إيلين ذات مرّة بأنّ أبشع ما قد يقدم عليه المرء من ذنبٍ هو أن يجد في الرّب نقائص. ولكن لم يهمّها ذلك. ربّما ستذنب بما فيه الكفاية ليقضي الله عليها، فيتسنّى لها البقاء مع أبيها.

ولكن لم يحدث شيء -إلّا أنّ مايك سئم البقاء في قبضتها المُحكمة وتملّص منها. ها هي ذي وحيدة الآن، ولا شيء معها إلّا تلك الحُرقة الأليمة الّتي غمرتها دون أن تكون جسديّة. لم تستطع التخلّص منها، ولم تفدها الكتابة عن الأمر في دفتر الحسابات الأصفر القديم. كانت قد كتبت فيه عن رحيل مدرّس يوم الأحد، وعن جوعها وقت النّوم، وعن إيلين لمّا وصفتها بالجنون لأنّها تحدّثت عن سيّدات رياح وأبراق، فكان ألمها ينجلي بمجرّد أن تكتب عن تلك الحوادث. أمّا هذا، فهو ممّا لا يُكتب عنه بالمرّة؛ ولا سبيل حتّى لتقصد أباها كي يواسيها، مثلما فعل يوم مسكت المسعار الحامي دون قصدٍ فحرقت يدها بشدّة. أخذها أبوها في أحضانه طيلة اللّيل وروى لها شتّى القصص ليُنسيها ألمها. ولكن سيموت أبوها بعد أسبوع أو أسبوعيْن كما قالت إيلين، وشعرت إيميلي كما لو أخبرتها بذلك منذ سنوات خلت. لا يمكن أن يكون قد مضى أقلّ من ساعة منذ كانت تلعب مع سيّدة الرّياح في البراري وتتأمّل القمر الجديد في كبد السّماء الورديّة المخضرّة.

قالت في نفسها: «لن يعود *البرق* مجدّدًا -هذا محال».

لكنّ إيميلي ورثت عن أسلافها العظماء بعض الخصال -قدرةٌ على المقاومة، والألم، والشّفقة، والحبّ العميق، والفرح، وطاقة التّحمّل. كانت كلّ تلك الخصال كامنة فيها وتطلّ من خلال عينيها ذات اللون الرمادي الأرجواني. وهبّ إليها آنذاك موروثها من التّحمل فاستندت إليه. يجب ألّا يعلم أبوها شيئًا ممّا قالته لها إيلين -قد يجرحه ذلك. عليها أن تكتم الأمر وتغدق أباها بحبّها، حبّ عميق خالص، في ما تبقّى لهما من اللّحظات معًا. ترامى إلى مسمعها سعاله من الغرفة السفلى: يجب أن يجدها في فراشها عندما يصعد إليها. نزعت ملابسها بأسرع ما سمحت لها به أصابعها الباردة، وانزلقت داخل فراشها الصّغير أمام النّافذة المفتوحة. ومن جوف تلك اللّيلة الرّبيعية اللّطيفة، نادتها أصوات لم تلق آذانًا صاغية، وصفّرت لها سيّدة الرّياح فذهب صفيرها سُدى. هكذا هنّ الحوريات، لا يحيين إلّا في مملكة الهناء. ولا روح لهنّ، فلا يطأن مملكة الشّقاء.

بينما كانت مستلقية هناك في البرد، بلا حركة ولا دمعة، دخل والدها الغرفة. يا لبطء خطواته! ويا لبطء حركاته وهو ينزع ملابسه!... كيف لم تلاحظ تلك التّفاصيل من ذي قبلُ؟ ولكنّه لم يسعل البتّة. أوه، ماذا لو أخطأت إيلين؟ -ماذا لو- اجتاح قلبها الأليم أملٌ جامح، وأطلقت شهقة طفيفة. أطلّ دوغلاس ستار على فراشها، فشعرت بقربه العزيز وهو يجلس حذوها على الكرسي في

ثوبه الأحمر العتيق. آه، كم تحبّه! لا وجود لمثيله بين الآباء في العالم -وما كان له نظير قبلُ-، ذاك الأب الحنون المتفهّم الرّائع! لطالما كانا صديقيْن حميمْين -فكلاهما متعلّق بالآخر أيّما تعلّق-، ولا يُعقل أن يُكتب عليهما الفراق الآن.

«صغيرتي، هل أنتِ نائمة؟».

همست إيميلي: «لا».

«وهل أنتِ نعسانة، حبيبتي الصغيرة؟».

«لا-لا، لست نعسانة».

أخذ دوغلاس ستار بيدها وأحكم عليها قبضته.

«إذن سنتحدّث كما وعدتك يا عزيزتي. لم يغمض لي جفن أنا الآخر. ثمّة شيء أريد أن أخبرك به».

انفجرت إيميلي قائلة: «أوه -إنّني أعلم به، أعلم! آه يا أبتِ، أعلم! لقد أخبرتني إيلين».

ظلّ دوغلاس ستار واجمًا لوهلة، ثمّ همس قائلًا: «تلك العجوز الغبيّة - تلك العجوز *الشّحيمة* الغبيّة!» وكأنّ وزن إيلين فاقم حجم حماقتها. وتسلّل الأمل إلى قلب إيميلي مجدّدًا، وللمرّة الأخيرة. لعلّ الأمر لم يكن إلّا خطأ فادحًا - وبعضًا من حماقة إيلين الجسيمة.

وهمست: «هذا ليس -ليس صحيحًا يا أبتِ، أليس كذلك؟».

فأجابها والدها: «صغيرتي إيميلي، لا أملك القوّة الكافية لحملك، فهلّا أتيْتِ لتجلسي على ركبتي؟ مثلما كنّا نفعل في الأيّام الخوالي؟».

انزلقت إيميلي من فراشها، وجلست على ركبة أبيها. فأحبك عليها ثوبه القديم واحتضنها بقوّة، ضامًّا وجهه إلى وجهها.

واعترف قائلًا: «صغيرتي العزيزة -حبيبتي إيميلي، إنّ ذلك صحيح. أردت أن أخبرك بنفسي اللّيلة. وها هي إيلين السّخيفة تخبرك -بقسوة، على ما أعتقد- وتسبّب لكِ آلامًا فظيعة. إنّ لها عقل دجاجة وقلب بقرة. فلتقبع الثّعالب على قبر جدّتها! ما كنت لأؤلمكِ، عزيزتي».

كانت إيميلي تقاوم خنقة على وشك أن تسدّ حلقها.

«أبتِ، لا أستطيع -لن أتحمّل».

«بلى، تستطيعين، وستتحمّلين. ستعيشين لأنّي أؤمن أنّ لكِ شيئًا في هذه الحياة. لقد وُهبتِ مَلَكَةً ورثتها عنّي -فضلًا عن شيءٍ آخر كنتُ أفتقره. ستنجحين حيث فشلت أنا يا إيميلي. لم يتسنّ لي أن أفعل لك الكثير يا حبيبتي، ولكنّني فعلت ما بوسعي. وأظنّ أنّني علّمتكِ شيئًا ما، على الرّغم ممّا تقول إيلين غرين. إيميلي، هل تذكرين أمّك؟».

«ذكريات قليلة، هنا وهناك، وكأنّها ومضات خاطفة من حلم جميل».

«كنت في الرّابعة فقط من عمرك عندما توفّيت. ولم أحدّثك عنها كثيرًا، لم أستطِعْ. ولكنّني سأخبرك عنها اللّيلة. لا يؤلمني أن أتحدّث عنها الآن، فلي معها ميعاد قريب. أنتِ لا تشبهينها يا إيميلي -إلّا عندما تبتسمين. أمّا في سائر سماتك، فأنت نسخة عن تلك الّتي

تحملين اسمها، والدتي. عند ولادتك، كنت أريد أن أسمّيك جوليات أيضًا، ولكنّ والدتك رفضت هذا الاسم. قالت لي إنّني سأضطر إلى أن أناديها بـ«ماما» لأفرّق بينكما، وهي لن تتحمّل *ذلك*. وقالت إنّ خالتها نانسي أخبرتها ذات مرّة أنّ «المرّة الأولى الّتي يناديك فيها زوجك بـ«ماما» تمثّل نهاية الرّومانسية بينكما». فقرّرنا أن نسمّيك على والدتي -إيميلي بيرد هو اسمها قبل الزّواج. كان اسم إيميلي أحلى الأسماء في العالم في نظر أمّك، إذا ترى فيه شيئًا من الأصالة والفخامة والبهاء. إيميلي، كانت أمّك أحلى امرأة على وجه الأرض».

ارتعش صوته، واندسّت إيميلي في حضنه.

«تعرّفت إليها منذ اثنتي عشرة سنة، لمّا كنت محرّرًا فرعيًّا في صحيفة *المشروع الجديد* بشارلوتتاون، وكانت هي تقضّي عامها الأخير في كوينز. كانت طويلة، ناعمة، زرقاء العينين. وفيها شبه طفيف بخالتك لورا، ولكن لم تكن لورا تضاهيها جمالًا. تتشابه عيونهما -وصوتاهما أيضًا- إلى حدّ كبير. كانت تنتمي إلى آل موراي من بلير واتر. لم أخبرك الكثير عن أهل والدتك يا إيميلي. إنّهم يقطنون الساحل الشّمالي القديم في معبد المياه، بمزرعة القمر الجديد. ذاك مسكنهم منذ جاء أوّل فرد من عائلة موراي من البلد القديم في عام 1790. كان قد أتى على متن سفينة اسمها *القمر الجديد*، وأسمى عليها مزرعته».

اشتدّ اهتمام إيميلي للحظة فقالت: «اسمٌ جميل -فالقمر الجديد شيء في غاية الرّوعة».

«ومنذ ذاك اليوم، كانت مزرعة القمر الجديد منزل أفراد عائلة موراي. إنّها عائلة ذات كبرياء، حتّى إنّ «كبرياء مورياي» باتت كلمة مأثورة يتناقلها سكّان السّاحل الشّمالي يا إيميلي. ولن ننكر أنّ لديهم ما يستحقّ الفخر والاعتزاز -بيد أنّهم بالغوا في الأمر أكثر مما يُعقل. يلقّبهم السّكان هناك بـ«شعب الله المختار». ورغم أنهم تكاثروا وارتفع عددهم وتبعثروا في كلّ مكان، كادت تخلو المزرعة القديمة من سكّانها. إذ لا يعيش فيها الآن إلّا خالتاك إليزابيث ولورا، برفقة ابن عمّهما جيمي موراي. لم تتزوّجا -لم تجدا من يليق بمقام آل موراي، كما قيل سابقًا. ويعيش خالاك أوليفر ووالاس في ضفّة الصّيف، فيما استقرّت خالتك روث في مطمر الفأر، وعمّة أمّك نانسي في غدير الكاهن».

أعقبت إيميلي: «غدير الكاهن... إنّه اسم مثير للاهتمام. ليس جميلا مثل القمر الجديد أو معبد المياه، ولكنّه يلفت النّظر».

كان ذراع أبيها يطوّقها ويبدّد عنها الأسى، ولو بصفة مؤقّتة. ولوهلة من الزّمن، لم تعد تصّدق الخبر.

سوّى دوغلاس ستار ثوبه عليها بمزيد من الإحكام، ثمّ لثم جبينها وواصل حديثه.

«كانت إليزابيث ولورا ووالاس وأوليفر وروث أبناء الشيخ أرشيبالد موراي. وكان قد أنجبهم من زوجته الأولى. ثمّ تزوّج مرّة أخرى وهو في السّتين من عمره من فتاة في عنفوان شبابها، ولكنّها توفّيت في ولادة أمّكِ. كانت جوليات أصغر بعشرين عامًا من

أفراد عائلتها غير الشّقيقة، مثلما كانت تطلق عليهم. كانت آية في الجمال والرّقة، وجميعهم يحبّونها ويدلّلونها ويفتخرون بها أيّ فخر. فلمّا وقعت في حبّي، أنا، الصحفي الشّاب الفقير الّذي لا زاد له في الحياة سوى قلمه وطموحه، تصدّعت أركان العائلة لهول الصّدمة، وأصيب كبرياء آل موراي في مقتل. لن أنبش في الماضي الآن، ولكن قيلت أشياء لا يمكنني أن أنساها أو أصفح عنها. تزوّجتني أمّك يا إيميلي، فقطع آل موراي أواصر علاقتهم بها. أتصدّقين أنّها، رغم كلّ ذلك، لم تندم يومًا على ارتباطها بي؟».

وضعت إيميلي راحتها على خدّ أبيها الأجوف ولاطفته قائلة:

«طبعًا لن تندم. طبعًا ستفضّلك على أيٍّ شخصٍ من آل موراي من أيّ قمر، جديدًا كان أم قديمًا».

ضحك الوالد قليلًا، ضحكًا يشوبه نغم الانتصار.

«أجل، يبدو أنّها كانت تشاطرك الرأي. وكم كنّا سعيدَيْن -آه يا حبيبتي إيميلي، لم يكن هنالك أسعد منّا على وجه الأرض. إنّك ثمرة زواج السّعادة ذاك. أذكر ليلة ولادتك في منزل شارلوتتاون الصغير. كنّا في شهر أيار، وهبّت ريح غربيّة تلفظ بالغيوم الفضيّة فوق سطح القمر. وتراءت لنا في السّماء نجمة أو اثنتان هنا وهناك. وكانت حديقتنا الصّغيرة -كان كلّ ما نملكه صغيرًا، ما عدا حبّنا وسعادتنا- مزدهرة رغم عتمة اللّيل. سرت ذهابًا وإيابًا في الممرّ الفاصل بين مشاتل الأرجوان الّتي زرعتها والدتك، وصلّيت. كان الأفق الشّاحب قد بدأ يتوهّج بضياء الصّبح كلؤلؤة ورديّة، عندما

جاءني أحدهم ليخبرني بأنّني رُزقت ببنت. دخلت الحجرة -كانت أمّك ممتقعة الوجه، واهنة القوى، وابتسمت لي بتلك الابتسامة الحبيبة المتمهّلة الرّائعة، وقالت: «أنجبنا-الطفلة-الوحيدة-الّتي-لها-أهميّة-في-هذا-الكون-يا-عزيزي. فكّر-في-الأمر!»».

أردفت إيميلي: «ليتنا كنّا نستطيع تخزين الذكريات منذ لحظة الولادة. سيكون ذلك ممتعًا جدًّا». فضحك أبوها وقال: «أفترض أنّ ذلك قد يُثير فينا بعض الذكريات المحرجة. ليس من السّهل أن يتعوّد المرء على الحياة عند بدايتها، وليس ذلك بأسهل من التّعوّد على نهايتها. ولكن لم يبدُ لي أنّ الأمر شقّ عليك، فقد كنت من ألطف الرّضّع يا إيميلي. ونعمنا بعد ذلك بأربع سنوات أخرى من البهجة، ثمّ -هل تذكرين فترة وفاة أمّك يا إيميلي؟».

«أذكر الجنازة يا أبي. أذكرها بوضوح تامّ. كنت تقف في وسط الغرفة، وكانت ماما ممدّدة أمامنا في صندوق طويل أسود. وكنت تبكي -ولم أفهم سبب بكائك-، بينما كنت أتساءل لماذا تبدو ماما شاحبة، ولمَ لا تفتح عينيها. وانحنيت نحوها لألمس خدّها -آه، كم كان باردًا. ارتجفت لبرودته. وقال أحدهم في الغرفة: «مسكينة، تلك الصّغيرة!» كنت خائفةً، وغرست وجهي في كتفتك».

«أجل، أتذكّر ذلك. لقد توفّيت والدتك على حين غرّة. أظنّ أنّنا لن نتحدّث عن هذا. جاء جميع آل موراي إلى الجنازة، إذ كان لهم بعض التّقاليد الّتي لا يحيدون عنها قيد أنملة. فهم، مثلًا، لا ينيرون مزرعة القمر الجديد إلّا بالشّموع. ومن عاداتهم

أيضًا ألّا يحملوا الضّغينة بعد الموت. جاؤوا عند وفاتها -ولو علموا بمرضها لأتوا لزيارتها، والحقّ يُقال. وتصرّفوا بلباقة فائقة -أجل، كيف لا وهم آل موراي من القمر الجديد وما أدراك؟ ارتدت خالتك إليزابيث للجنازة أرقى فستان حريريّ أسود لديها. ولو لم تكن الجنازة لفرد من آل موراي، لكانت اكتفت بآخر عادي. كما أنّهم لم يُعارضوني معارضة شرسة لمّا أخبرتهم بأنّ أمّك ستُدفن بين آل ستار في مقبرة شارلوتتاون. كان بودّهم لو واروها التّراب في أرض موراي بمعبد المياه -لديهم مقبرة خاصّة هناك-، فهم لا يختلطون بغيرهم ولو في المقابر. ولكن أقرّ خالك والاس بكلّ شهامة بأنّ المرأة ملكُ بيت زوجها في المات كما في الحياة. ثمّ عرضوا عليّ أن يأخذوك لتتربّي معهم -ليُعطوك نصيب والدتك، ولكنّني رفضت أن أسلّم فيك -آنذاك. هل أصبتُ في قراري يا إيميلي؟».

همست إيميلي: «أجل-أجل-أجل!» وحضنته في كلّ «أجل» قالتها.

«أخبرت أوليفر موراي -وهو الّذي فاتحني في موضوع أخذك- بأنّه لن يفرّق بيني وبينك أحدٌ طالما حييت. فأجاب «إن غيّرت رأيك فاتّصل بنا». ولكنّني لم أغيّر رأيي -ولا حتّى بعد ثلاثة أعوام عندما أخبرني طبيبي أنّه يتعيّن عليّ ترك العمل. قال لي «لن يبقى لك إلّا عامٌ واحد في الحياة إن رفضت. وإن اتّبعت نصيحتي، وعشت خارج الجدران ما استطعت، فلديْك ثلاثة أعوام -أو ربّما أربعة».

وكان التّنبّؤ في محلّه، فقد انتقلت إلى هنا وأمضينا أربع سنوات حُلوة، أليس كذلك يا صغيرتي الجميلة؟».

«أجل -آه، كم كانت حلوة!».

«لم أترك لكِ ميراثًا إلّا ذكرى تلك السّنوات وما علّمتك فيها يا إيميلي. لقد عشنا بدخل ضئيل يأتينا ممّا تركه لي عمّ عجوز في عقّاره -وقد توفّي عمّي ذاك قبل أن أتزوّج. بات العقّار مستثمَرًا في الأعمال الخيريّة الآن، وما بيتنا الصّغير إلّا مسكن مستأجَر. ولا ريب في أنّ وضعي يُعدّ فشلًا ذريعًا من المنظور الدّنيوي. ولكن سيعتني بكِ أهل والدتك - أنا متيقّن من ذلك. فكبرياء موراي وحده كفيلٌ بذلك، ولن يسعهم إلّا أن يحبّوك. لعلّه كان يجدر بي أن أراسلهم بشأنكِ من قبلُ - لعلّه يجب أن أفعل ذلك الآن. ولكن لا يعوزني الكبرياء، أنا الآخر -ولا يخلو عيش آل ستار من تقاليد-، وقد خاطبني آل موراي بكلمات مريرة لّما تزوّجت أمّكِ. هل أتّصل بهم في مزرعة القمر الجديد لأطلب منهم القدوم يا إيميلي؟».

ردّت إيميلي بشيء من التّحدّي: «لا!».

أبت أن يكدّر أيٌّ كان صفو سعادتها، هي ووالدها، فيما تبقّى لهما من أيّامٍ ثمينة. بدا لها الأمر مريعًا. فحسبها أن تتحمّل فظاعتهم إن وجب مجيئهم... لاحقًا. ولكنّها لن تبالي بشيءٍ... آنذاك.

«سنظلّ معًا إلى آخر رمق إذن، صغيرتي. ولن نفترق ولو دقيقةً واحدة. وأريدك أن تتحلّي بالشّجاعة. يجب ألّا تخافي من *أيّ شيء*، إيميلي. ليس الموت برهيب. فالكون يزخر بالحبّ -وما الموت إلّا

بابٌ يُفتح ثمّ يُغلق، وتكمن وراءه أشياء حُلوة. سأجد والدتك هناك -ومهما شكّكت في أشياء، فـ *ذاك* ما لم أشكّ فيه بالمرّة. كنت أخاف أحيانًا من أنّها ستسبقني في دروب الدّهر ولن أستطيع اللّحاق بها. أمّا الآن فأشعر بأنّها في انتظاري. وسننتظركِ -لن نستعجل الأمر-، سنتلكّأ ونتريّث إلى أن تلحقي بنا».

همست إيميلي: «ليتك -ليتك تأخذني معك لنمرق من الباب معًا».

«ستعدلين عن هذه الأمنية بعد فترة. مازال بيدك متّسع من الوقت لتدركي أنّ الزّمن رحيم، وأنّ لكِ شيئًا في هذه الحياة -هذا ما أشعر به. فلا تخافي وامضي قُدُمًا لنيله، حبيبتي. أعلم أنّك لا ترغبين في ذلك الآن -ولكنّك ستتذكّرين كلماتي بمرور الوقت».

لم تكن إيميلي تتحمّل إخفاء أيّ شيء عن أبيها، فقالت: «أشعر، في هذه اللّحظة، بأنّني لم أعد أحبّ الله».

ضحك دوغلاس ستار -بتلك الضّحكة الحبيبة إلى قلب إيميلي. يا لها من ضحكة عزيزة -تكاد إيميلي تفقد أنفاسها من فرط إعجابها بها. وشعرت بذراعيه يطوّقانها بشدّة.

«بلى، إنّك تحبّينه يا حبيبتي. لا يسعك إلّا أن تُحبّيه. فالله هو الحبّ ذاته. وبطبيعة الحال، يجب أن تميّزي بينه وبين إله إيلين غرين».

لم تفهم إيميلي قصد والدها تمامًا. ولكنّها شعرت فجأة بأنّها لم تعد خائفة، وأنّ المرارةَ انزاحت عنها والألمَ هجر قلبها: بدا لها

وكأنّ الحبّ يغمرها من كلّ الأنحاء، نابعًا من حنانٍ عظيم، غامرٍ، لامرئي. فكيف للخوف أو المرارة أن يتسلّلا حيث يوجد الحبّ، والحبّ موجود في كلّ مكان. سيعبر والدها الباب -كلّا، بل هو سيرفع ستارًا -كانت تفضّل هذه الصّورة على الأخرى، لأنّ الستار ليس في سرعة الباب وصلابته- وسيلج ذاك العالم الّذي منحها *البرق* منه ومضات. وسيكون هناك، وسط الجمال -أي ليس بعيدًا جدًّا عنها. كانت قادرةً على أن تتحمّل أيّ شيء طالما شعرت بأنّ أباها ليس ببعيد -وراء ذاك السّتار المتموّج فحسبُ.

حملها دوغلاس ستار إلى أن غلبها النّوم. أخذها آنذاك، على الرّغم من ضعفه الشّديد، ومدّدها على فراشها الصّغير.

وهمس في نبرة منكسرة: «ستحبّ حبًّا عميقًا، وستتألّم ألمًا لاذعًا، وستعيش لحظات عظيمة تتدارك بها الألم، مثلما فعلت، وكما يتعامل معها أهل والدتها، فليكن الرّب حسيبهم».

من لم يشابه أهله فقد ظلم

عاش دوغلاس ستار أسبوعين بعد ذلك. وظلّت إيميلي تتذكّرهما بعد سنوات، حينما نفضت عنهما غبار الألم، بوصفهما أزكى ما لديها من ذكريات. كانت أربعة عشر يومًا جميلًا -جميلة هي تلك الأيّام، لا حزينة. وذات ليلة، بينما كان دوغلاس ستار مستلقيًا على كنبة غرفة الجلوس، بجانب إيميلي على كرسيّها المجنّح، مرق من السّتار -وذهب في هدوء وسلاسة لدرجة أنّ إيميلي لم تنتبه لرحيله، إلى أن شعرت فجأة بـصمتٍ غريبٍ يتغمّد الغرفة- ولا نفسَ فيها إلّا نفَسُها.

صاحت: «أبتِ -أبتِ!» ثمّ صرخت تنادي إيلين.

لّما جاء آل موراي أخبرتهم إيلين غرين بأنّ إيميلي تصرّفت على أحسن وجه، نظرًا إلى الظروف الرّاهنة. وبطبيعة الحال، لم يجفّ دمعها طيلة الليل ولم يغمض لها جفن؛ ولم يتمكّن أحدٌ من أهل مايوود من مواساتها خلال زيارتهم الودّيّة. ولكن نضب سيل دمعها في الصباح الموالي، وكانت شاحبة، ساكنة، مطيعة.

خاطبتها إيلين قائلة: «أحسنتِ، أرى أنّ هذه نتيجة تهيّئك للأمر. لقد جنّ جنون والدك لّما علم أنّني أخبرتك، حتّى أنّه لم

يعاملني باحترام منذ يومها -وهو يحتضر. ولكنّني لا أكنّ أيّ ضغينة تجاهه. لقد قمت بواجبي. السيّدة هابرد بصدد إعداد فستان أسود لكِ، سيكون جاهزًا وقت العشاء. وسيأتي أقارب والدتكِ اللّيلة، بحسب ما ورد في برقيّتهم، وسأحرص على أن تكوني في هيئة محترمة عند وصولهم. إنّهم أثرياء وسيتولّون إعالتك. لم يترك لكِ والدك ولو سنتًا، ولكنّه لم يخلّف أيّة ديونٍ، والحقّ يُقال. هل رأيت الجثّة؟».

انقبضت أسارير إيملي وصاحت: «لا تطلقي عليه *تلك الكلمة*». إنّه لمن المريع أن تسمعها تنعت أباها *بتلك الكلمة*.

«ولِمَ لا؟ إنّك حقًّا لطفلة غريبة! بدا لي جثمانه أجمل ممّا توقّعت، نظرًا إلى هزالته. لطالما كان وسيمًا، ولو أنّه نحيف جدًّا».

قاطعتها إيميلي فجأة وقالت: «إيلين غرين، لو قلت كلمة أخرى عن أبي، سأسلّط عليك لعنةً سوداء!».

حدّقت فيها إيلين غرين.

«الله أعلم بما تقصدين. ولكن لن أسمح لكِ بأن تخاطبيني بهذه النّبرة بعد كلّ ما فعلته معكِ. وإيّاكِ أن يسمعك أحدٌ من آل موراي تتحدّثين بمثل هذه اللّهجة، وإلّا فلن يقربَكِ منهم أحد. اللّعنة السّوداء، تقول لي! ما شاء الله على الاعتراف بالجميل!».

شعرت إيميلي بألم في عينيها. باتت مجرّد مخلوق وحيد، منعزل، صغير. وأحسّت بأنّ لا صديق لها في الكون. ولكنّها لم تندم البتّة على ما قالت لإيلين، ولن تتظاهر بالنّدم.

أمرتها إيلين: «تعالي لتساعديني على غسل الأواني. من الأفضل أن تشغلي بالك بشيء مّا بدلاً من أن تسلّطي اللّعنات على أشخاص يبست أياديهم في خدمتك».

ألقت إيميلي على يدي إيلين نظرة ثقيلة الإيحاء، ثمّ أخذت منشفة أوانٍ.

وقالت: «يداك شحيمتان منتفختان، ولا أرى فيهما أثر تيبّس».

«كفّي عن السّخرية! كيف تجرئين ووالدك ميّتٌ هناك. ولكن لو أخذتك خالتك روث، فستشفيك من كلّ هذه الأسقام».

«هل ستأخذني خالتي روث معها؟».

«لا أدري، ولكن يجدر بها أن تفعل. فهي أرملة لا طفل لها ولا دابّة، كما أنّها ميسورة الحال».

فكّرت إيميلي للحظة، ثمّ قالت عمدًا: «أظنّ أنّني لا أريد أن تأخذني خالتي روث».

«وأنا أظنّ أنّ الخيار ليس *بيدك*. عليك أن تكوني ممتنّة لحصولك على مسكن أينما كان. وتذكّري، ليست لك أهميّة تذكر».

صاحت إيميلي بكبرياء: «أنا مهمّة لنفسي».

همهمت إيلين: «لن يكون من السّهل تربيتك. وبحسب رأيي، خالتك روث هي الّتي ستتكفّل بك، وهي لن تقبل هراءك. إنّها امرأة رفيعة، وهي أفضل ربّة بيت في كامل جزيرة الأمير إدوارد. يمكن للمرء أن يلعق الأكل من أرضيّتها».

«لا أريد أن ألعق الأكل من أرضيتها. لا يهمّني إن كانت الأرضيّة قذرة طالما كان مفرش المائدة نظيفًا».

«أعتقد أنّ مفارشها أيضًا نظيفة. ولديها منزل فخم في مطمر الفأر، فيه نوافذ بارزة وزخارف خشبيّة حول السّقف. أنيقٌ جدًّا، ذاك المنزل. سيكون لكِ نعم المسكن. وستعلّمك شيئًا من اللّياقة، وفي هذا خيرٌ لكِ».

نفثت إيميلي من بين شفاهها المرتجفة: «لا أريد اللّياقة ولا الخير. أريد -أريد بعض الحُبّ فحسبُ».

«حسنًا، عليك إذن أن تحسني التّصرّف إن أردت أن تكسبي حظوة النّاس. ولا يُلام عليكِ كثيرًا، فوالدك هو الّذي أفرط في دلالك. وكم مرّةً أخبرته بذلك، ولكنّه اكتفى بالضّحك. أتمنّى ألّا يكون قد ندم على ذلك الآن. فالحقيقة هي أنّك طفلة غريبة الأطوار، إيميلي ستار والنّاس لا يحبّون الأطفال غريبي الأطوار».

سألت إيميلي: «ما الّذي يجعلني غريبة الأطوار؟».

«تتكلّمين كلاما غريبًا، وتتصرّفين بغرابة، وأحيانًا تبدين غريبة المظهر. وأنت أكبر من سنّك -ولو أنّ ذلك ليس *بذنبكِ*. فأنتِ لم تخالطي أطفالًا آخرين. ولطالما ألححت على والدك ليرسلك إلى المدرسة -فالدراسة المنزلية لا تضاهي مزاولة المدارس -ولكنّه طبعًا لم يصغِ إليّ. لا أنكر أنّك قد تعلّمت من الكتب ما يجدر بكِ أن تتعلّميه إلى حدّ الآن، ولكنّ ما عليك أن تدرسيه حقًّا هو أن تكوني طفلةً كسائر الأطفال. ولعلّ ذهابك مع خالك أوليفر سيكون

مفيدًا لكِ إلى حدٍّ ما، فأسرته عديدة الأفراد. وقد يأخذك خالك والاس، بما أنّه يخال نفسه سيّد العائلة، وليس له إلّا بنتٌ واحدة. ولكنّ زوجته حسّاسة -أو تظنّ أنّها كذلك».

تضرّعت إيميلي: «أتمنّى أن تأخذني خالتي لورا»، وقد تذكّرت أنّ أباها يقول إنّ في خالتها لورا شيئًا من أمّها.

«خالتك لورا! لن يكون لها رأيٌ في الموضوع -إليزابيث هي الفاتقة النّاطقة في القمر الجديد. يشرف جيمي موراي على المزرعة، ولكنّه ليس حاضرًا تمام الحضور، بحسب ما قيل لي..».

سألت إيميلي بفضول: «أي جزءٍ منه غير موجود؟».

«رحمتك يا ربّ، هنالك شيءٌ ما في ذهنه يا طفلة. إنّه أبله قليلًا -سمعت أنّه مرّ بحادث أو شيء من هذا القبيل في طفولته، وهذا ما أفسد عقله نوعًا ما. يبدو أنّ إليزابيث تورّطت في هذه القصّة بطريقة أو بأخرى -لم أتأكّد من صحّة الخبر. لا أظنّ أنّ أهل القمر الجديد سيرغبون في إقحامك بينهم. خذي بنصيحتي وحاولي إرضاء خالتك روث. كوني مهذّبة -وحسنة السّلوك-، وربّما ستُعجب بكِ. يجدر بك أن تصعدي إلى الطابق العلوي وألّا تزعجي أحدًا».

سألت إيميلي: «هل لي أن آخذ مايك وسوسي سال؟».

«لا، لا يحقّ لكِ ذلك».

حاججت إيميلي قائلة: «سأستأنس بوجودهما».

«بالأنس أو بعدمه، لا سبيل إلى أخذهما معك. إنّهما خارج المنزل الآن وسيبقيان خارجه. لن أسمح لهما بالجولان في كلّ الأرجاء. لقد فرغت لتوّي من فرك الأرضيّة».

سألتها إيميلي: «لِمَ لمْ تفركي الأرضيّة في حياة أبي؟ كان يحبّ النّظافة، ونادرًا ما كنت تفركينها آنذاك. ما الّذي طرأ عليك الآن؟».

«اسمعوها يا ناس! هل كان عليّ أن أفرك الأرضيّة صباحًا مساء مع ما أعاني من روماتيزم؟ اذهبي إلى الطابق العلوي، ومن الأفضل أن تستلقي قليلًا».

ردّت إيميلي: «سأصعد، ولكنّني لن أستلقي. عليّ أن أفكّر تفكيرًا طويلًا مليًّا».

فقالت إيلين، مصمّمة على ألّا تفرّط في أيّ فرصة للقيام بواجبها: «ثمّة شيء واحد سأنصحك به، وهو أن تخرّي ساجدة وتدعي الرّب أن يجعلك طفلة صالحة ومحترمة وممتنّة بالجميل».

توقّفت إيميلي على أسفل الدّرج والتفت قائلة بصوت جِدّي عميق:

«قال أبي إنّه لا شأن لي بإلاهك».

شهقت إيلين شهقة بلهاء، ولكنّها لم تجد أيّ جواب ملائم لهذه الزّندقة المبينة. فاستَجْدَت بكلّ ما في الكون:

«هل سمع أحدٌ قطُّ قولًا كهذا!».

أضافت إيميلي: «أعرف إلاهك جيّدا. لقد رأيت صورته في

كتاب آدم وحوّاء الخاص بك، ولديه شوارب ويرتدي بيجاما. لا يعجبني إلاهك، ولكنّني أحبّ إلاه أبي».

فسألت إيلين باستفزاز: «وكيف هو إلاه أبيك، لو سمحت؟».

لم تكن لإيميلي أدنى فكرة عن شكل إلاه والدها، ولكنّها صمّمت على ألّا تُعَجِّزها إيلين.

فقالت بانتصار: «إنّه مشعٌّ كالقمر، مشرقٌ كالشّمس، مَهيبٌ كجيشٍ حامل راية النّصر».

أجابت إيلين، وقد سلّمت في أيّة نوايا للنّقاش: «حسنًا، قرّرت أن تكون لكِ الكلمة الأخيرة، ولكن سيعلّمك آل موراي ما لكِ وما عليكِ. إنّهم يتّبعون المذهب المشيخي اتّباعًا صارمًا، ولن يقبلوا بأي هراءٍ ممّا يقوله لكِ والدك. اصعدي الآن».

وانصرفت إيميلي إلى الغرفة الجنوبية بقلب مثقلٍ بالأشجان.

تكوّرت على فراشها حذو النّافذة وقالت: «لا أحد في العالم يحبّني الآن». ولكنّها كانت مصمّمة على أن تمسك عن البكاء. كان آل موراي يبغضون والدها، ولن تسمح لهم بأن يروا دموعها. شعرت أنّها تكرههم كلّهم، ربّما باستثناء خالتها لورا. كم بات العالم في نظرها كبيرًا وخاليًا... لا شيء فيه سيلفت نظرها بعد ذاك اليوم. لا يهمّها إن غدت شجرة التّفاح القزمة بين آدم وحوّاء آيةً في الجمال بأزهارها الورديّة والبيضاء –ولا إن تراءت لها التّلال وراء الوادي في حلّة حريريّة خضراء مزدانة بالنّدى الأرجوانيّ– ولا إن انبثق النّرجس في أرجاء الحديقة –ولا إن

بدا شجر البتولا موشّحًا بشرابات من الذّهب الخالص -ولا إن نفثت سيّدة الرّياح غيومًا بيضاء بضّة في القبّة الزّرقاء. وبدت لها آنذاك كلّ تلك الأشياء خالية من السحر أو العزاء؛ وسوّلت لها قلّة خبرتها أنّها لن تستمتع بها مجدّدًا. ثمّ همست وهي تشدّد قبضة يديها الصّغيرتين: «لقد وعدت أبي بأن أكون شجاعة. وسأكون. ولن أسمح لآل موراي بأن يروا خوفي منهم -بل *لن* أخاف منهم أصلًا!».

ولمّا ترامى إلى مسمع إيميلي صفير ناءٍ نفثه قطار المساء من وراء التّلال، تسارعت دقّات قلبها. فضمّت يديها ورفعت رأسها إلى السّماء قائلةً: «ساعدني يا إلاهي، إله أبي -لا إله إيلين-، ساعدني لأصمد في وجه آل موراي ولا أبكي أمامهم».

وسرعان ما سمعت صوت عجلات آتٍ من الأسفل -وأصواتًا، أصواتًا عاليةً، حازمةً. وهرعت آنذاك إيلين ترتقي السّلم حاملة الفستان الأسود -وما هو إلّا ثوب رديء من الصّوف الرّخيص.

«أشكر الرّب أنّ السّيدة هابرد أتمّته في الوقت. ما كنت لأسمح بأنّ يراك آل موراي إلّا باللّون الأسود مهما كلّفني الأمر، ولن يقولوا إنّني تخاذلت في أداء واجباتي. لقد جاؤوا على بكرة أبيهم -سكّان القمر الجديد، وأوليفر وزوجته -خالتك آدي، ووالاس وزوجته -خالتك إيفا، وخالتك روث -السّيدة داتن، هذا هو *اسمها*. حسنًا، ها أنتِ جاهزة. تعالي معي».

سألت إيميلي: «هل لي أن ألبس عقد الخرز الفينيسي؟».

«وهل يعقل هذا! عقد خرز فينيسي مع فستان حداد! عيبٌ عليك! هل هذا وقتٌ مناسبٌ لتفكّري في الزّينة؟».

صاحت إيميلي: «ليست زينةً! أبي هو الّذي أهداني ذاك العقد في عيد الميلاد الماضي -وأردت أن يرى آل موراي أنّني أملك *شيئًا ما*!».

«كفاكِ هراءً! تعالي، قلت لك! وراقبي سلوكك -قد يتحتّم مصيرك بالانطباع الّذي ستخلّفينه لديهم».

نزلت إيميلي إلى الرّدهة بخطى ثقيلة أمام إيلين. كان هنالك ثمانية أشخاص جالسين فيها -وفجأةً، شعرت بستّ عشرة عينًا غريبة تنهال عليها بنظراتٍ ثاقبة. كانت تبدو شاحبة جدًّا ومجرّدة في ثوبها الأسود، وقد حفر البكاء في وجهها هالتين بنفسجيّتين زادت عينيها وسعًا وعمقًا. كانت خائفة أيّما خوف، وواعية بخوفها، ولكنّها لن تُبيّن منه شيئًا لآل موراي. رفعت رأسها عاليًا وواجهت المحنة الّتي تنتظرها بثباتٍ.

أخذتها إيلين من كتفيها لتديرها نحوهم وقالت: «هذا خالك والاس».

ارتجفت إيميلي وقدّمت له يدها ببرود. لم يُعجبها الخال والاس -وتيقّنت من ذلك في الإبّان- فقد كان أظلم الوجه، قاتم الأسارير، بشعًا، عاقدًا حاجبيه الخشنيْن وزامًّا فمه القاسي. كانت له ترهّلات واسعة تحت عينيْه، وشارب إنجليزي مشذّب بعناية. وفي تلك اللّحظة بالتّحديد، قرّرت إيميلي أنّها لا تحبّذ الشوارب الإنجليزية.

خاطبها ببرود قائلًا: «كيف حالك يا إيميلي؟» وانحنى إليها انحاء لا يقلّ برودًا ليقبّل خدّها. وفجأةً، شعرت إيميلي بموجة من الاستنكار تغمر كيانها. كيف تجرّأ على تقبيلها، وهو الّذي بغض أباها وعادى أمّها! فليحتفظ بقبلاته! وأخرجت منديلها في لمح البصر فمسحت به خدّها الغاضب.

ارتفع صوتٌ بشع من الجانب الآخر بالغرفة يتعجّب: «يا سلام!».

بدا الخال والاس على وشك أن يصدر وابلًا من الأقوال اللّاذعة، ولكن لم تسعفه الكلمات. أمّا إيلين، فقد تنهّدت في يأسٍ ودفعت بإيميلي إلى الشخص الموالي، ثمّ قالت:

«خالتك إيفا».

كانت الخالة إيفا متلفّعة في شال، جالسة بوجه عبوس وكأنّها «المريض الوهمي»[1]. وصافحت إيميلي دون أن تنبس بكلمة، فقابلتها إيميلي بالمثل.

وأعلنت إيلين: «خالك أوليفر».

أعجبت إيميلي بمظهر خالها أوليفر إلى حدّ ما، فقد كان ضخمًا بدينًا متورّدًا ضحوكًا. وفكّرت أنّها لن تمانع إن قبّلها، على الرّغم من شاربه الأبيض الكثّ. ولكن اتّعظ الخال أوليفر من حادثة الخال والاس، فهمس بلطفٍ:

---

(1) مسرحيّة لموليار (القرن السابع عشر) تدور أحداثُها حول شخصيّتها الرّئيسيّة أرغان، وهو رجل بخيل مُصاب بهوس الأمراض المُتخيَّلة.

«سأعطيك ربع سنت مقابل قبلة». وكان الخال أوليفر يظنّ أنّ مزحته تلك بادرة ودٍّ وطِيبة. ولكن لم يبدُ الأمر كذلك لإيميلي، واستاءت منه فقالت:

«أنا لا أبيع قبلاتي»، ورفعت أنفها إلى السّماء بغطرسة ليست بغريبة عن آل موراي. فضحك الخال أوليفر عن طيبة خاطر، ولم تبدُ عليه أيّة علامة استياء. ولكن سمعت إيميلي أحدهم يتأفّف من طرف الغرفة.

أتى دور الخالة آدي، وكانت على شاكلة زوجها، بدينةً متورّدةً ضحوكةً. وأخذت يد إيميلي الباردة فشدّت عليها بودٍّ ولطف. وقالت: «كيف حالكِ، عزيزتي؟».

فرحت لإيميلي بكلمة «عزيزتي» ولانت لسماعها. ولكن سرعان ما جمدت مجدّدًا بمجرّد أن رأت الشخص الموالي، ألا وهو الخالة روث -وقد عرفتها إيميلي من قبل أن تعرّف بها إيلين، مثلما أدركت أنّها هي الّتي سمعتها تلفظ «يا سلام» وتتأفّف. وعرفت عينيْها الرّماديّتين القاتمتيْن، وشعرها البنّي المربوط المملّ، وقامتها المكوّرة القصيرة، وفمها الرفيع المزموم القاسي.

وقدّمت إليها الخالة روث أطراف أصابعها، ولكن لم تأخذ بها إيميلي.

فهمست إليها إيلين غاضبة: «صافحي خالتك».

ردّت إيميلي بوضوحٍ تامّ: «إنّها لا تريد مصافحتي، فلن أفعل».

سحبت الخالة روث يدها المنبوذة ووضعتها على حرير فستانها الأسود. ثمّ قالت:

«إنّك طفلة سيّئة التربية، ولكنّ ذلك أمرٌ مُتوقّعٌ طبعًا».

شعرت إيميلي في تلك اللّحظة بتأنيب الضّمير. هل أثار سلوكها تشكيكًا في سيرة أبيها؟ ربّما كان يجدر بها أن تصافح خالتها روث. ولكن فات الأوان، فها هي إيلين تسحبها إلى الشّخص التّالي.

قالت إيلين: «هذا ابن عمّك، جايمس موراي»، وكان صوتها يوحي بأنّها بصدد أداء عمل مقرف ولا تريد إلّا أن تتخلّص منه.

فقال المعني بالأمر: «ابن العمّ جيمي فحسبُ». نظرت إليه إيميلي نظرة ثابتة، وعلمت في الإبّان أنّها تحبّه دون أيّ تحفّظ. كان وجهه صغيرًا متورّدًا كوجوه الأقزام، تطوّقه لحية رماديّة شعثاء. وكان على رأسه شعر مجعّد تتناثر خصلاته البنّية اللّامعة في فوضى لا تليق بآل موراي، ورأت في عينيه الواسعتين البنّيّتين طيبة الأطفال وصدقهم. وصافح إيميلي بحرارة، ولو أنّه ألقى في الأثناء نظرة ارتياب إلى السّيدة الجالسة إزاءه.

وقال: «مرحبًا أيّتها القطّة!».

بدأت إيميلي تبتسم له، ولكن ابتسامتها كانت تنفرج ببطءٍ كالعادة، فجرّتها إيلين إلى الأمام قبل أن تتفتّح تمامًا، وكان اكتمال الابتسامة من نصيب الخالة لورا.

قالت لورا بصوت يكاد لا يُسمع: «إنّها ابتسامة جوليات!».

و مرّة أخرى، تأفّفت الخالة روث.

لم تكن الخالة لورا تشبه أيّ أحدٍ في الغرفة. تكاد تكون جميلة، ولها تقاسيم رقيقة وشعرٌ كثيفٌ ناعم أشقر غزاه بعض الشّيب، وقد ربطته ربطًا محكمًا على رأسها. ولكنّ ما أسر قلب إيميلي هما عيناها. عينان مستديرتان زرقاوان، عميقتا الزّرقة. يكاد المرء لا يصدّق وقع تلك الزّرقة على نظره. ومتى تكلّمت، رنّ صوتها بنغمةٍ بديعة ناعمة.

قالت: «مسكينةٌ، طفلتي الصّغيرة العزيزة»، وطوّقت إيميلي بذراعها ثمّ حضنتها برفق، فبادلتها إيميلي العناق. وكانت على وشك أن تُمسك متلبّسة بدموعها أمام آل موراي، لو لم تنقذها إيلين حينما دفعت بها نحو الرّكن حذو النّافذة.

«وهذه خالتك إليزابيث».

أجل، تلك خالتها إليزابيث. لن يختلف في ذلك عاقلان. كانت ترتدي فستانًا رسميًّا من الحرير الأسود، قُدَّ من قماش مستوٍ وفخمٍ أوحى إلى إيميلي بأنّه أفضل ما لديها من لباس. وسُرّت إيميلي بهذه الفكرة، فمهما كان رأي خالتها إليزابيث عن أبيها، فإنّها أكرمت ذكراه بارتدائها أفضل فساتينها. وكانت الخالة إليزابيث حسنة المظهر رغم طول قامتها وشدّة نحافتها وصلابة هيئتها؛ وهي امرأة حادّة الملامح، ذات شعرٍ رماديّ يحاكي الحديد لونًا، مربوطٍ في ضفيرة خشنة تكلّل رأسها المكسوّ بغطاء من الدّانتيل الأسود. وكانت عيناها، رغم لونهما الأزرق المعدنيّ، تنافسان عيني الخالة

روث جفاءً؛ وزادتها قسوةً شفتاها الدّقيقتان المزمومتان في تجهّم. وإزاء تلك النّظرة الفاترة النّاقدة، انطوت إيميلي على نفسها وأطبقت أبواب روحها. كان بودّها لو كسبت حظوة خالتها إليزابيت - «الفاتقة الناطقة» في القمر الجديد، ولكنّها شعرت بأنّ ذلك مُحال.

صافحتها الخالة إليزابيث في صمتٍ -وهي في الحقيقة لم تدرِ ما تقول. ما كانت إليزابيث موراي لتشعر بـ«الاضطراب» ولو وقفت أمام ملكٍ أو حاكمٍ عامّ، فقد كان كبرياء موراي حريًّا بإسعافها آنذاك، بيد أنّها ارتبكت في حضرة هذه الطّفلة الغريبة الجريئة الّتي سبق وبيّنت أنّها غير وديعة ولا متواضعة. ولم تشأ إليزابيث، ولو كتمت الأمر تمامًا، أن يطالها ما طال والاس وروث من احتقار.

قالت إيلين لإيميلي آمرة: «اجلسي على الكنبة».

فجلست إيميلي مطرقة ناظريْها، قاتمة الوجه، مكفهرّة الأسارير. وجعلت يديها على ركبتيها ثمّ شبكت كاحليْها، إذ يجب أن يرى جميعهم أنّها حسنة السّلوك. وانسحبت إيلين إلى المطبخ وهي تحمد الرّب أنّها انتهت من *تلك* المهمّة. لم تكن إيميلي تحبّ إيلين، ولكنّها شعرت بوحشة رهيبة في غيابها، إذ غدت وحيدة آنذاك، وحيدة أمام لجنة آل موراي. كانت تودّ أن تبذل الغالي والنّفيس لتغادر تلك الغرفة. ولكنّ ذهنها كان يعصف أفكارًا، وبدأت تتراءى لها ملامح القصّة الّتي ستكتبها لاحقًا في دفتر الحسابات القديم. ستكون القصّة شيّقة، ويمكنها أن تصفهم واحدًا واحدًا -كانت متيقّنة من قدرتها على وصفهم. بل وجدت حتّى الكلمة المناسبة لوصف عيني

الخالة روث -«رماديّة كالحجر»، بما أنّ عينيها تحاكيان الحجر قساوة وبرودة وعنادًا. وشعرت فجأةً بألمٍ يمزق قلبها: لن يستطيع والدها قراءة ما تكتب في دفتر الحسابات بعد اليوم. ورغم ذلك، رأت أنّه من الأفضل لها أن تكتب عن كلّ ما يحدث. كيف ستصف عينيْ خالتها لورا؟ عيناها رائعتان، ولا معنى لوصفهما بـ«الزّرقاويْن» – فالعيون الزّرقاء منتشرة لدى مئات الأشخاص. «ينابيع من الزّرقة»، هذه هي الكلمة.

ثمّ نزل عليها *البرق*!

كانت تلك المرّة الأولى منذ اللّيلة اللّعينة الّتي قابلت فيها إيلين على عتبة الباب. وظنّت أنّه لن يعود مجدّدًا -وها هو يفاجئها الآن، في أغرب ما يمكن من زمان ومكان-، فرأت، بالبصيرة لا بالبصر، عالم العجائب وراء السّتار، وتسلّحت روحها المرتجفة الصّغيرة بسيل من الشّجاعة والأمل انهال عليها كموجة ضياءٍ ورديّة، ورفعت آنذاك رأسها لتلقي حولها نظرةً ثابتة -أو «وقحة» كما وصفتها الخالة روث لاحقًا.

أجل، يجب أن تكتب عنهم جميعًا في دفتر الحسابات، وتصفهم واحدًا تلو الآخر -خالتها لورا الحُلوة، وابن عمّها جيمي اللّطيف، وخالها والاس العجوز العبوس، وخالها أوليفر ذو الوجه المكوّر، وخالتها إليزابيث المهيبة، وخالتها روث البغيضة.

بادرت الخالة إيفا بالقول بصوتها المرتعش المملّ: «إنّها طفلة نحيفة جدًّا».

فردّت الخالة آدي: «وهل انتظرت غير هذا؟» وتنهّدت على نحوٍ بدا لإيميلي مفعمًا بالمعاني. ثمّ استأنفت: «إنّها شاحبة للغاية – لو تورّد وجهها قليلًا لكانت مقبولة».

وحدّق الخال أوليفر في إيميلي قائلًا: «لا أدري بمن أشبّهها».

فأضافت الخالة إليزابيث بنبرة قاطعة مستنكرة: «ليست من آل موراي، هذا واضح وضوح الشّمس في كبد السماء».

وقالت إيميلي في قرارة نفسها: «إنّهم يتحدّثون عنّي وكأنّي لم أكن هنا»، وكاد قلبها ينفطر من شدّة بذاءة الموقف.

قال الخال أوليفر: «لا تبدو لي من آل ستار أيضًا. أرى أنّها أشبه بآل بيرد –فهي ورثت شعرها وعينيها عن جدّتها».

وعلّقت الخالة روث: «أنفها شبيه بأنف جورج بيرد العجوز»، بنبرة لا لُبس فيها بشأن رأيها عن الأنف المذكور.

أضافت الخالة إيفا، مستنكرةً هي الأخرى: «جبينها مثل جبين أبيها».

قالت الخالة لورا: «أمّا ابتسامتها فمثل ابتسامة أمّها»، ولكنّ صوتها كان خافتًا، فلم يسمعها أحد.

واصلت الخالة آدي: «ورموش جوليات الطّويلة –ألم يكن لجوليات رموش طويلة جدًّا؟».

طفح الكيل بإيميلي، فانفجرت ساخطة:

«أشعرتموني بأنّني مصنوعة من قصاصاتٍ ورُقع!».

شخص فيها آل موراي بأنظارهم. لعلّهم أحسّوا بشيء من تأنيب الضّمير -فهم، في نهاية الأمر، ليسوا غيلانًا، وما هم إلّا بشر -تقريبًا. ويبدو أنّ جميعهم عجزوا عن الكلام، ولكن انكسر صمتُ الصّدمة لّما ضحك ابن عمّها جيمي -ضحكًا خافتًا، مرحًا، خاليًا من أيّ نوايا سيّئة. وقال لها: «أحسنت يا قطّة، لا تسكتي لهم وخذي حقّك».

فنهرته الخالة روث: «جيمي!».

تراجع جيمي.

حدجت الخالة روث إيميلي قائلة:

«عندما كنت صغيرة، لم أكن أتكلّم إلّا إذا خاطبني أحد».

وأجابت إيميلي مجادلة: «ولكن لو لم نتحدّث إلّا إذا خاطبنا أحد، فلن توجد حوارات».

وواصلت الخالة روث بصرامة: «ولم أكن أردّ على أحد. في تلك الأيّام الخوالي، كانت تُربّى البنات تربية لائقة. وكنّا مهذّبات ونحترم كبارنا. تعلّمنا حدودنا ولم نتجاوزها».

قالت إيميلي: «أظنّ أنّك لم تتسلّي كثيرًا في طفولتك». -ثمّ شهقت في هلع. ما كان يجدر بها أن تقول ذلك بصوتٍ عالٍ، كان تنوي *التفكير* فيه فحسب. ولكنّها تعوّدت في الماضي على التّفكير بصوتٍ عالٍ أمام أبيها.

قالت خالتها روث في استنكار شديد: «أتسلّى! ما كنت أفكّر في التّسلية في صِغري».

قالت إيميلي واجمة: «أجل، أعلم ذلك»، وقد نمّ صوتها وحركاتها عن احترام عميق، إذ أرادت أن تتلافى ضرر نزوتها اللاإراديّة. ولكن بدت لها الخالة روث على وشك أن تقرص أذنيْها. لقد أشفقت عليها هذه الطّفلة، بل أهانتها بالإعراب عن أسفها لها -لطفولتها المتزمّتة المثاليّة. كان الموقف لا يُطاق، ولا سيّما من قِبل فرد من آل ستار. وها هو ذاك الوغد جيمي يضحك مرّة أخرى! يجب على إليزابيث أن تؤدّبه!

ولحسن الحظ، ظهرت إيلين في تلك اللّحظة لتعلن عن أوان العشاء.

همست في أذن إيميلي: «عليكِ أن تنتظري. ليس هنالك ما يكفي من المقاعد على الطّاولة لتجلسي معهم».

شعرت إيميلي بالارتياح. كانت تعلم أنّها لن تستطيع أكل لقمة واحدة تحت نظرات آل موراي. وبرح أقاربها الغرفة على عجل دون أن ينظروا إليها -ما عدا خالتها لورا الّتي التفتت وأرسلت إليها قبلة صغيرة خفيّة في الهواء. ولم تجد إيميلي فرصة لتردّ عليها، إذ سرعان ما أغلقت إيلين الباب.

ظلّت إيميلي وحيدةً في تلك الغرفة الّتي بدأت تزخر بظلال الغروب. وانزاح عنها فجأة ذاك الكبرياء الّذي ربطت به جأشها أمام آل موراي، فأدركت أنّ الدّموع ستغلبها. وسارعت إلى الباب المغلق في آخر الرّدهة، وفتحته، ودخلت. كان نعش والدها يتوسّط الغرفة الصّغيرة -غرفة نوم سابقًا. وكان مدجّجًا بالأزهار -وفي

ذلك أيضًا، لم يقصّر آل موراي في أداء واجبهم كالعادة. وعلى الطّاولة الصّغيرة حذو رأس التابوت، انتصبت مرساة الخال والاس، مرساةٌ مُخيفة من الورد الأبيض. ولم تتمكّن إيميلي من رؤية وجه أبيها، فقد وُضعت على البلّور وسادة الياقوتيّات البيضاء ذات العطر النّافذ، وهي من طرف الخالة روث، فلم تجرؤ إيميلي على تحريكها. ولكنّها تكوّرت على الأرض ووضعت خدّها على الجهة المصقولة من النّعش. ولمّا عادوا من العشاء، وجدوها نائمةً هناك. فحملتها الخالة لورا وقالت:

«سآخذ الطّفلة المسكينة إلى سريرها -إنّها خائرة القوى».

فتحت إيميلي عينيها وألقت حولها نظرة نعسانة، ثمّ قالت:

«هل يمكنني أن آخذ مايك معي؟».

«من هو مايك؟».

«إنّه قطّي -قطّي الرّمادي الكبير».

تعجّبت الخالة إليزابيث وقالت في استنكار: «قطّ! لا يُسمح بدخول قطٍّ إلى غرفتك!».

توسّلت لورا: «ولمَ لا – مرّة واحدة فحسب؟».

أجابت الخالة إليزابيث: «مستحيل! وجود القطط في غرف النّوم غير صحّي بالمرّة. أعجب لأمركِ يا لورا! خذي الطّفلة إلى فراشها واحرصي على أن يكون لها ما يكفي من الأغطية، فالبرد قارسٌ اللّيلة. ولكن لن أسمع مزيدًا من الحديث عن النّوم مع القطط».

قالت إيميلي: «مايك قطّ نظيف. إنّه يغتسل -كلّ يوم».

تجاهلتها الخالة إليزابيث وقالت: «خذيها إلى فراشها يا لورا!».

أذعنت لورا وحملت إيميلي إلى الطّابق العلوي، فساعدتها على تغيير ثيابها، ثمّ وضعتها في فراشها. كانت إيميلي على وشك أن تستسلم للنّوم. ولكن قُبيْل نومها، شعرت بشيء ناعم، دافئ، يخرخر حذوها ويلاطفها، ثمّ يندسّ في جوف كتفها. كانت خالتها لورا قد تسلّلت إلى الأسفل للبحث عنه، فوجدته وأخذته إليها. لم تعلم الخالة إليزابيث بالأمر؛ أمّا إيلين فلم تجرؤ على التّفوه بكلمة اعتراض -ألم تكن لورا من آل موراي، سكّان القمر الجديد؟

خلوةٌ عائليّة

استيقظت إيميلي مع مطلع فجر اليوم التّالي. ومن نافذتها الدّانية العديمة السّتار، تسرّبت إلى الغرفة روعة الفجر المنبلج في الأفق، ولاحت في السّماء المخضرّة نجمة ضئيلة بيضاء تتباطأ وتستقرّ على قمّة الصّنوبر الدّيك، وهبّت نسائم الصبح المنعشة تلاطف سطوح المنازل. كانت إيلين نائمة في الفراش الكبير، وقد علا شخيرها. وباستثناء سمفونيّتها تلك، كان البيت الصّغير غارقًا في سكون تامّ. ها قد سنحت الفرصة الّتي كانت إيميلي في انتظارها.

انسلّت من فراشها بحذر شديد، وشقّت الغرفة على أطراف أصابعها ثمّ فتحت الباب. ونهض مايك من البساط المفروش وسط الغرفة وسار يتبعها ويفرك جسده الدّافئ على كاحليْها الصّغيريْن الباردَيْن. ونزلت إيميلي درجات السّلم الأظلم القافر بشيء من النّدم. يا لأزيز هذه الدّرجات! لا ريب في أنّه سيوقظ الجميع! ولكن لم يظهر أحد، ونزلت إيميلي متسلّلة إلى الرّدهة، وما إن أغلقت الباب وراءها حتّى تنفّست الصّعداء. لقد كادت تجري إلى الباب الآخر لتفتحه.

مازالت وسادة أزهار الخالة روث تغطّي بلّور النّعش. زمّت إيميلي شفتيْها على نحوٍ أضفى عليها شبهًا غريبًا بخالتها إليزابيث، ثمّ أزاحت الوسادة وطرحتها أرضًا.

وهمست: «أبتِ -آه، يا أبتِ!» وجعلت يدها على حلقها لتكتم شيئًا ما. وقفت هناك، مرتجفة، جامدة، شاحبة، شاخصة في والدها. سيكون هذا وداعها، وكان عليها أن تودّعه وهما على انفرادٍ -كان وجهه شبيهًا بوجه ولد صغير، ما عدا شعره الفضّي. وكان يبتسم- ابتسامةً جميلة، طريفة، ذكيّة، وكأنّما اكتشف لتوّه شيئًا ممتعًا ومفاجئًا لم ينتظره. لقد سبق لها أن رأت عددًا من الابتسامات في حياتها، ولكن ليس فيها ما يضاهي تلك الابتسامة.

قالت بصوتٍ خافت: «أبتِ، إنّني لم أبكِ أمامهم. أنا متأكّدة أنّني لم أسئ لسمعة آل ستار. لا أظنّ أنّ في رفضي مصافحة الخالة روث إساءة لسمعتنا، أليس كذلك؟ فهي لم ترغب في مصافحتي -آه يا أبي، أظنّ أنّني لم أعجب أحدًا فيهم. باستثناء الخالة لورا، ربّما أعجبتها نوعًا ما. والآن سأبكي قليلًا يا أبتِ، فلا قدرة لي على كتم دموعي *طول* الوقت».

ألقت بوجهها على البلّور البارد، وأخذت تنتحب بمرارة، ولكنّها لم تُطِل. عليها أن تودّعه قبل أن يتفطّن إليها أحدهم. رفعت رأسها ونظرت إلى ذاك الوجه المحبوب نظرة طويلة، عميقة. وهمست بغصّة في حلقها:

«وداعًا، يا أغلى الأحبّة».

مسحت دموعها الحارّة، وأعادت وسادة الخالة روث إلى مكانها، حاجبة عنها وجه أبيها إلى الأبد. ثمّ تسلّلت إلى الخارج قصد العودة بسرعة إلى حجرتها. بيد أنّها كادت تسقط على ابن العمّ جيمي في عتبة الباب، وقد كان جالسًا على كرسيّ أمام الغرفة، متلفّعًا في ثوب واسع ذي مربّعات ويلاطف مايك.

همس وهو يربّت على كتفها: «ش-ش-شش! لقد سمعتك نازلة وتتبّعتك، فأدركت ما تريدين. وجلست هنا لإبعادهم في حال ما إذا جاء أحدهم باحثاً عنكِ. تعالي يا قطّة، خذي هذا وسارعي بالعودة إلى فراشك».

كان «هذا» حزمة من حلوى النعناع. قبضت عليها إيميلي وهربت تداري إحراجها بعدما أدركت أنّ ابن عمّها جيمي رآها وهي في ثوب النّوم. كانت تكره حلوى النّعناع ولا تأكلها أبدًا، ولكن أدخلت هديّة ابن عمّها جيمي وكرمه على قلبها بهجة عارمة. وكان يناديها بـ«القطّة الصغيرة» أيضًا -وقد أعجبها ذاك الاسم. كانت تظنّ أن لا أحد سيطلق عليها مثل هذه الأسماء اللّطيفة من هنا فصاعدًا.

كان والدها يستنبط من تلك الأسماء ألوانًا -«عزيزة قلبي»، و«حبيبتي»، و«صغيرتي إيميلي»، و«طفلتي الغالية»، و«عسلي»، و«عصفورتي». كان يجد لكلّ مزاجٍ اسمًا جديدًا، وهي تحبّها جميعًا. أمّا فيما يخصّ ابن عمّها جيمي فقد بدا لها لطيفًا؛ وأيًّا كان عطبه، فهو لم يصب قلبه. وكانت إيميلي ممتنّة له شديد الامتنان بعد أن لزمت

فراشها مرّة أخرى، فأرغمت نفسها على أكل قطعة من الحلوى، ولو أنّها لم تبتلعها إلّا بجهد جهيد.

أُقيمت الجنازة في ضحى ذاك اليوم. ولأوّل مرّة، كان بيت الوادي الصّغير الوحيد يعجّ بالنّاس. ووُضع النّعش وسط الرّدهة، بينما جلس آل موراي حوله في حداد متكلّف ظاهريّ. وكانت إيميلي معهم، شاحبة الوجه، لائقة المظهر في ثوبها الأسود. وبحكم جلوسها بين خالتها إليزابيث وخالها والاس، لم تجرؤ على أن تحرّك ساكنًا. لم يحضر الجنازة أحدٌ من آل ستار، فلم يبق لأبيها أي أحد من عائلته المقرّبة. وجاء سكّان مايوود يحدّقون في وجهه الميّت بحرّية وفضول جريء ما كانوا ليقدموا عليه في حياته. شقّ على إيميلي أن تراهم يتفحّصون أباها على ذاك النّحو. لا يحقّ لهم ذلك -فهم لم يعاملوه بالحسنى في حياته، بل قالوا فيه شتّى الأقاويل، وكانت إيلين غرين تنقلها إليهم أحيانًا. فانفطر قلب إيميلي مع كلّ نظرة يلقونها عليه، ولكنّها جلست في سكونٍ ولم تظهر شيئًا ممّا يتّقد داخلها. وقالت الخالة روث لاحقًا إنّه لم يسبق لها أن رأت طفلة عديمة الأحاسيس مثلها. ولمّا انتهى القداس، نهض آل موراي لأداء واجب نظرة الوداع. أخذت الخالة إليزابيث بيد إيميلي قصد أخذها معهم، ولكنّها سحبت يدها وهزّت رأسها رفضًا -كانت قد ودّعت أباها سلفًا. وللحظةٍ، بدت الخالة إليزابيث على وشك الإلحاح عليها، ثمّ مضت قُدُمًا لوحدها، منقبضة الأسارير، وكلّ شبر فيها يصرخ باسم موراي. يجب ألّا تُثار أيّ ضجّة خلال الجنائز.

سيؤخذ دوغلاس ستار إلى شارلوتتاون ليُدفن إلى جانب زوجته، وكلّ آل موراي ذاهبون إلّا إيميلي. وشاهدت الطّفلة مسيرة الرّكب الجنائزي وهو يشقّ طريقه على التّل العظيم المُعشوشب، تحت زّخات خفيفة من المطر الرّمادي. وفرحت إيميلي ببداية هطول المطر، فكم مرّة سمعت إيلين غرين تقول إنّ الجثمان يسعد لمّا تمطر عليه السّماء. كما أنّ رحيل والدها في ذاك الضّباب الرّماديّ الخفيف الرّحيم كان أيسر عليها من أن تشهد وداعه تحت شمس مشرقة ضاحكة.

اقتربت منها إيلين غرين وقالت عند كتفها: «أرى أنّ الجنازة سارت على أحسن ما يُرام، ولم نُقصّر في شيء. ولو أطلّ علينا والدك من الجنّة يا إيميلي، لسُرّ بما يرى».

فقالت إيميلي: «إنّه ليس في الجنّة».

«ربّاه! ما هذه الطّفلة!» وعجزت إيلين عن قول المزيد.

«إنّه ليس هناك بعدُ. مازال في طريقه إليها. لقد قال إنّه سينتظرني ويتباطأ حتّى أموت أنا أيضًا، لكي أستطيع اللّحاق به. لذلك أتمنّى أن أموت قريبًا».

فنهرتها إيلين: «عيبٌ يا طفلة، عيبٌ كبير أن تتمنّيْ ذلك».

وعندما توارت آخر عربة عن الأنظار، عادت إيميلي إلى غرفة الجلوس، وأخذت كتابًا من المكتبة ثمّ انغرست في كرسيّها المجنّح. فرحت النّساء اللّائي جئن لتنظيف المكان بهدوئها وبقائها بعيدة عنهنّ. وقالت السّيدة هابرد بصوت متجهّم: «من الجيّد أنّها تجيد القراءة. فمعظم الفتيات الصّغيرات لا يُحافظن على هدوئهنّ -جيني

هود لم تكفّ عن الصّياح، ثمّ فقدت وعيها لمّا أخرجوا والدتها. آل هود أشخاص في منتهى *الحساسيّة*».

لم تكن إيميلي تقرأ، بل تفكّر. كانت تعلم أنّ آل موراي سيعودون بعد الظّهر، وتعرف أنّه من المُحتمل أن يُحدّد مصيرها آنذاك. وقد سمعت الخال والاس يقول ذاك الصّباح بعد الفطور: «سنناقش المسألة لمّا نعود». وأخبرها حدسها بما ستكون تلك «المسألة»، وكانت لتبذل إحدى أذنيْها المدبّبتيْن لتسمع المناقشة بالأذن الأخرى. ولكنّها تعرف حقّ المعرفة أنّها ستُستبعد من المكان. ولم تتفاجأ عندما جاءتها إيلين وقت الغسق قائلة:

«يجدر بك أن تذهبي إلى الطّابق العلوي يا إيميلي. سيأتي أقاربك هنا ليتحدّثوا في الموضوع».

فسألتها إيميلي: «ألا يمكنني أن أساعدك على تقديم العشاء؟» ظنًّا منها أنّها قد تلتقط كلمة أو اثنتيْن في ذهابها وإيّابها من المطبخ وإليه.

«كلّا. ستزعجينني أكثر ممّا ستساعدينني. انطلقي حالًا».

تهادت إيلين خارجة من المطبخ دون أن تنتظر استجابة إيميلي لأمرها، ونهضت إيميلي عن مضض. كيف سيُغمض لها جفنٌ اللّيلة وهي لا تعرف إلامَ سيؤول أمرها؟ وكانت شبه متيقّنة من أنّ لا أحد سيخبرها إلى صباح يوم الغد، هذا إن أخبروها أصلًا.

حينئذٍ، وقعت عيناها على الطّاولة المستطيلة وسط الغرفة. كان مفرشها بالغ الطّول، تنسدل أطرافه على الأرض في طيّات واسعة.

وفي لمح البصر، وثبت على البساط قدمان سوداويْ الجوارب، وسُمعت خشخشة قماش -ثمّ خيّم الصّمت. عدّلت إيميلي جلوسها على الأرض تحت الطّاولة في ارتياح وانتصار. ستسمع كلّ ما سيُقرّر في شأنها ولن يعلم أحدٌ أكثر ممّا تعلمه هي. لم يُخبرها أحدٌ بأنّ اختلاس السّمع فعلٌ مُشين، ولم تسنح الفرصة لدرسٍ في هذا الشّأن مع أبيها، فاعتبرت أنّ فكرة اختبائها تحت الطّاولة ضربة حظّ، لا غير. وتمكّنت حتّى من الرؤية -رؤيةً ضبابيّة- من وراء المفرش. وتسارعت دقّات قلبها من شدّة حماسها، حتّى خافت أن يسمعوها، إذ لم يشب سكون الغرفة أيّ صوتٍ آخر، ما عدا غناء الضّفادع الخافت البعيد تحت المطر، آتٍ من النّافذة المفتوحة.

ها قد جاؤوا، وفي أرجاء الغرفة جلسوا. كتمت إيميلي أنفاسها. ومضت دقائق دون أن ينبس فيهم أحدٌ ببنت شفة، ولم يكسر الصّمت إلّا تنهيدات الخالة إيفا الطّويلة. ثمّ تنحنح الخال والاس وقال:

«حسنًا، ما الّذي يجب فعله بالطّفلة؟».

لم يكن أحدٌ في عجل ليجيب. وخالت إيميلي أنّهم لن يتكلّموا *أبدًا*. وفي نهاية الأمر، قالت الخالة إيفا وهي تئنّ:

«إنّها طفلة صعبة المراس -وغريبة جدًّا. لا *أستطيع* فهمها البتّة».

قالت الخالة لورا في حياء: «أظنّ أنّ لها ما قد يُسمّى بمزاج الفنّانين».

وردّت عليها الخالة روث بصوتٍ قاطع: «إنّها طفلة مدلّلة. وأمامنا الكثير ممّا يجب فعله لإصلاح *سلوكها*، بحسب رأيي».

(تحت الطّاولة، أدارت المختلسة الصّغيرة رأسها صوب الخالة روث وألقت عليها نظرة ازدراء من وراء المفرش. «أظنّ أنّ سلوكك هو الّذي فيه عطب يحتاج إلى الإصلاح». ولم تجرؤ إيميلي حتّى على همس تلك الكلمات، ولكنّها رسمتها بشفاهها الصّامتة، فشعرت بالارتياح والرّضا).

قالت الخالة إيفا: «أشاطرك الرأي. وأنا، شخصيًّا، أشعر بأنّني لست أهلًا للمسؤوليّة».

(فهمت إيميلي من كلامها أنّ الخال والاس لا ينوي أخذها معه، وسرّها ذلك).

قال الخال والاس: «في الحقيقة، يجدر بعمّتي نانسي أن تأخذها، فهي أترف منّا جميعًا».

فأجابه الخال أوليفر: «لن تأخذها عمّتي نانسي ولو في الأحلام، وأنت أدرى النّاس بهذا! وفضلًا عن ذلك، لا يسمح لها سنّها المتقدّم بتربية طفلة -هي وتلك السّاحرة الشّمطاء كارولين. أقسم بأغلى ما لديّ أنّهما ليستا من البشر. أودّ أن آخذ إيميلي -ولكنّني أشعر بأنّه سيصعب عليّ تأمين عيشها، فأنا أعيل أسرة عديدة الأفراد».

قالت الخالة إليزابيث بحزم: «أظنّ أنّها لن تزعج أحدًا بالعيش طويلًا. من الأرجح أن تموت بالسّل مثل أبيها».

(هتفت إيميلي: «كلّا! لن أموت!» -أو بالأحرى، فكّرت في ذلك تفكيرًا شديدًا فكاد يكون هتافًا. لقد نسيت أنّها تمنّت الموت بسرعة لتلحق بوالدها. أمّا الآن، فصارت تريد أن تحيا، لا لشيء بل لمعارضة ما يقوله آل موراي. «لا أنوي الموت بالمرّة. وسأعيش -عصورًا طويلة-، وسأصبح كاتبة مشهورة. سترَيْن إن لم أفعل ذلك، يا خالتي إليزابيث موراي!).

أقرّ الخال والاس: «إنّها فعلًا ضامرة».

(هوّنت إيميلي عن نفسها من الغضب بالتّكشير صوب الخال والاس من وراء المفرش. وفكّرت: «لو صار لي خنزيرٌ يومًا ما، فسأطلق عليه اسمك *أنت*». وأعجبها هذا الانتقام).

قال الخال أوليفر: «ولكن طالما مازالت حيّة، يجب أن يتكفّل بها أحدٌ ما».

(فكّرت إيميلي: «فلينفعكم موتي إن متُّ *حقًّا*! ستعضّون بنان النّدم طيلة حياتكم». ثمّ توقّفت للحظةٍ دراميّة وهي تتخيّل جنازتها، فاختارت من سيحمل نعشها، وشرعت في انتقاء بيت شعريّ ليُنقَش على شاهدة قبرها. ولكن قبل أن تحسم في الأمر، استأنف خالها والاس الحديث).

«حسنًا، إنّنا لم نمضِ قُدُمًا إلى حدّ الآن. علينا أن نتكفّل برعاية الطّفلة».

(فكّرت إيميلي بمرارة: «ليتكم لا تسمّونني بـ«الطّفلة»»).

«-يتعيّن على بعضنا أن يفتحوا لها بيتهم. لا سبيل إلى ترك ابنة جوليات بين أيادٍ غريبة. وأرى شخصيًّا أنّ صحّة إيفا لا تسمح لها بالعناية بطفلةٍ وتربيتها-».

فحدّدت الخالة إيفا: «بطفلة من *هذا القبيل*».

(أخرجت إيميلي لسانها نحو الخالة إيفا).

قالت الخالة لورا برفقٍ: «يا لروحٍ صغيرةٍ مسكينة!».

(شيءٌ ما في قلب إيميلي ذابَ في تلك اللّحظة بعد طول جمادٍ. وابتهجت بهجة يرقّ لها القلب بمجرّد أن سمعت من يسمّيها في حنوّ «روحًا صغيرة مسكينة».

فردّ الخال والاس بلا تردّد: «أظنّ أنّها لا تستحق منك هذا القدر من الشّفقة يا لورا. من الواضح أنّها تكاد أن تكون عديمة المشاعر. لم أرها تذرف دمعة واحدةً منذ قدومي».

قالت الخالة إليزابيث: «وهل لاحظتم كيف رفضت حتّى أن تلقي نظرة وداع على والدها؟».

أخذ ابن العمّ جيمي يصفّر آنذاك صوب السّقف.

قالت الخالة لورا: «فيها من الألم ما لم يسعها إلّا إخفاؤه».

فنخر الخال والاس باستخفاف.

واصلت لورا بتحفّظ: «ألا ترين أنّه قد يجدر *بنا* أخذها، إليزابيث؟».

كانت الخالة إليزابيث تهتزّ بلا هوادة.

«أظنّ أنّه لن يطيب لها العيش في القمر الجديد مع ثلاثة عجائز مثلنا».

(قالت إيميلي في نفسها: «بلى -سيطيب!»).

سأل الخال والاس: «وماذا عنكِ يا روث؟ سيكون من الجيّد لكِ أن تحظي ببعض الرّفقة».

فردّت الخالة روث بحدّة: «لا تُعجبني. إنّها خبيثة كالأفعى».

(فكّرت إيميلي: «كلّا، *لست* خبيثة!»).

قال الخال والاس بنبرة طنّانة: «يجب أن تُدرَّبَ تدريبًا محكمًا حصيفًا لعلاج نقائصها».

(«لا *أريد* علاجًا!» كان غضب إيميلي يحتدم تحت الطّاولة. «أفضّل نقائصي على أيٍّ من... من..». -جاهدت لتجد كلمة ملائمة، ثمّ ظفرت ذاكرتها بعبارة كان يقولها والدها- «...من مزاياك *المقيتة!*»).

علّقت الخالة روث: «أشكّ في ذلك. من شبّ على شيءٍ شاب عليه. أمّا بالنّسبة إلى دوغلاس ستار فأرى أنّه من العار عليه أن يموت تاركًا تلك الطّفلة بلا ملّيم».

فسأل ابن العمّ جيمي بصوت محايد: «هل فعل ذلك عن قصدٍ؟» وكانت تلك أولى كلمات نطقها في المجلس.

نفثت الخالة روث: «لم يكن إلّا فاشلًا حقيرًا».

فصرخت إيميلي: «لا! لم يكن فاشلًا!» وبرز رأسها فجأة من

تحت المفرش وبين سيقان المائدة. ولوهلة من الزّمن، تسمّر آل موراي في مكانهم واجمين، وكأن انفجارها قد قلبهم حجرًا. ثمّ وقفت الخالة روث، وتوجّهت نحو الطّاولة رافعة المفرش، حيث ارتدّت إيميلي في ارتباكٍ، بعدما أدركت جسامة ما أقدمت عليه.

قالت الخالة روث: «قفي واخرجي من هنا، إيمْـ-لي ستار!».

وقفت «إيمْـ-لي ستار» وخرجت من مكمنها. ولم تكن خائفة تمامًا، فقد كانت سطوة غضبها أقوى. واسودّت عيناها واحتقنت وجنتاها.

قال ابن العمّ جيمي: «يا لها من حسناء صغيرة! يا لكمال حسنها!» ولكن لم يسمعه أحد، فقد بات الأمر بيد الخالة روث.

قالت: «أيّتها المختلسة الوقحة! ها هو دم ستار يتجلّى فيك - من المُحال أن يقترف آل موراي أفعالًا من هذا القبيل».

هتفت إيميلي، وقد خنق الغضب صوتها: «لم يكن أبي فاشلًا! لم يكن لك الحقّ في نعته بالفشل. من كان محبوبًا مثله لا يعرف الفشل. ولا أظنّ أنّك كنت محبوبة *أبدًا*. إذن *فأنتِ* هي الفاشلة. وأنا *لن* أموت من السّل».

سألتها الخالة روث بصوتٍ جليديّ حانقٍ: «هل تدركين بشاعة الذّنب الّذي اقترفته؟».

صاحت إيميلي: «أردت أن أعرف ما سيكون مصيري. لم أدرِ أنّ في ذلك ما يُعاب -ولم أعلم أنّكم ستقولون تلك الأشياء

الشّنيعة عنّي». فقالت الخالة إليزابيث بصوتٍ جهوريّ: «لا يسمع المتصنّتون إلّا ما يكرهون. ما كانت أمّك لتفعل شيئًا مثل هذا يا إيميلي».

تجرّدت إيميلي من كلّ ما لديها من جرأة. وشعرت بالذّنب والبأس -آه، كم كانت بائسة. إذ كانت، دون علمٍ منها، قد اقترفت ذنبًا عظيمًا.

قالت الخالة روث: «اصعدي إلى غرفتك».

فأذعنت إيميلي دون احتجاج. ولكنّها نظرت حولها قبل أن تصعد وقالت: «عندما كنت تحت الطّاولة، كشّرت صوب خالي والاس وأخرجت لساني إلى خالتي إيفا».

قالتها بأسف شديد، رغبة منها في الاعتراف بجميع ذنوبها بصدقٍ. ولكن سرعان ما آل الأمر إلى سوء تفاهم، فقد خال آل موراي أنّها تتمادى في وقاحتها مرّة أخرى. وما إن أُغلق الباب حتّى هزّ الجميع رؤوسهم مستنكرين ومتأفّفين -ما عدا الخالة لورا وابن العم جيمي.

صعدت إيميلي إلى غرفتها جارّة أذيال الخزي المرير. وشعرت بأنّها أقدمت على فعلٍ يبرّر كره آل موراي لها، وجعلهم يتّهمونها بدناءة انتمائها إلى آل ستار، فضلًا عن بقاء مصيرها قيد المجهول.

في غمار فشلها الذّريع، نظرت إلى إيميلي -في- المرآة الصّغيرة، وهمست: «لم أكن أعلم... لم أكن أعلم». ثمّ أضافت بحزم شديد:

«ولكن ها أنا ذا قد عرفت، ولن أعيد الكرّة أبدًا، *أبدًا*». ولفترة وجيزة، ظنّت أنّها ستستلقي على فراشها وتطلق العنان لدموعها. لم يكن بوسعها تحمّل كمّ الألم والخجل الّذي يلذع ألبابها. ثمّ وقع بصرها على دفتر الحسابات الأصفر القديم المرميّ على طاولتها الصّغيرة. وفي غضون دقيقة واحدة، تربّعت إيميلي على فراشها وشرعت تخطّ الأسطر في حماسٍ شديد بقلمها القصير في الكتاب القديم. ومع تراقص أصابعها بين الأسطر القديمة المتلاشية، دبّت الدّماء إلى وجنتيها ولاح بريقٌ في عينيها. وتحدّثت عن آل موراي فنسيتهم، ووصفت تفاصيل ما حدث فتلاشى خزيها، ومكثت هناك طيلة ساعة تكتب بانتظام على الضّوء الضّعيف المنبعث من مصباحها المدخّن الصّغير، بلا انقطاع، ما عدا لحظات بين الفينة والأخرى تحدّق فيها عبر النّافذة في سحر اللّيلة النّدية الخافت، وهي تفتّش في طيّات ذهنها عن كلمة معيّنة. وإن وجدتها، تنهّدت بارتياح وانكبّت على الدّفتر مجدّدًا.

لمّا سمعت خطى آل موراي صاعدين إلى الطابق العلوي، سارعت بإخفاء كتابها. كانت قد فرغت من الكتابة، ودوّنت وصفًا مفصّلًا لأحداث خلوة مواري العائليّة، ثمّ ختمت بوصف رثائي لفراش موتها، جعلت فيه آل موراي يقفون حولها ملتمسين مغفرتها. وفي بداية الأمر، وصفت الخالة روث راكعة تذرف دمع النّدم اللّاذع. ثمّ توقّفت عن الكتابة وفكّرت: «من *المُحال* أن تشعر الخالة روث *بمثل* هذا الألم، مهما كان الأمر» -فشطبت ما سبق.

اندثر الألم والخزي في عداد الكتابة، ولم يبق إلّا شيءٌ من التّعب والسّرور. لقد استمتعت *حقًّا* ببحثها عن كلمات تلائم خالها والاس، ويا للذّة انتصارها عندما وصفت خالتها روث بـ«المرأة البحترة».

همست وهي تتمدّد في فراشها: «يا تُرى ماذا سيقول أقاربي إذا ما علموا برأيي *الحقيقي* فيهم».

لا يفلّ الحديد إلّا الحديد

تجاهل آل موراي إيميلي تمامًا خلال فطور الصّباح، ثمّ نادوها إلى الرّدهة بعدما فرغوا من الأكل.

كان جميعهم هناك – أعضاء الكتيبة بالكامل. ولمّا نظرت إيميلي إلى خالها والاس جالسًا تحت أشعّة شمس الرّبيع، خطر ببالها أنّها لم تجد المفردة المثلى للتّعبير عن تجهّمه الفريد من نوعه. وعلى الطّاولة، جلست الخالة إليزابيث دون أدنى ابتسامة، وفي يدها قطعٌ من الورق.

قالت: «إيميلي، لم يتسنّ لنا ليلة أمس اختيار شخصٍ منّا ليأخذك معه. وليكن في علمك أنّ لا أحد منّا راغبٌ جدًّا في تحمّل هذه المسؤوليّة، نظرًا إلى سوء سلوكك في عدد من النّواحي..».

احتجّت لورا: «أوه يا إليزابيث، إنّها-إنّها ابنة أختنا».

رفعت إليزابيث يدها في شموخ.

«أنا الّتي أتحدّث الآن يا لورا، ورجاءً ألّا تقاطعيني. كما كنت أقول، لم يستقرّ رأينا على الشخص الّذي سيتكفّل بكِ. ولذلك قرّرنا أن نتّبع اقتراح ابن العمّ جيمي، وهو أن نحسم المسألة بالقرعة. ها

هي أسماؤنا هنا، مخطوطةً على قطع الورق الّتي ترين. ستسحبين إحداها وسيُكلّف الشّخص ذو الاسم المُختار باستقبالك في بيته».

وقدّمت إليها الخالة إليزابيث قطع الورق. وفي بداية الأمر، كانت فرائص إيميلي ترتعد من فرط الرّهبة فعجزت عن الاختيار - بدا لها الأمر وكأنّها ستُحدّد مصيرها تحديدًا أعمى.

أمرتها الخالة إليزابيث: «اسحبي».

فأطبقت إيميلي أسنانها، ورمت برأسها إلى الوراء كمن يتحدّى القدر، وسحبت. وأخذت الخالة إليزابيث قطعة الورق من يدها المرتجفة وفتحتها. كانت تحمل اسمها هي - «إليزابيث موراي». فسارعت الخالة لورا بمسح عينيها بمنديلها، ونهض الخال والاس بشيء من الارتياح وقال: «حسنًا، ها قد حُسم الأمر. عليّ الآن أن أُسرع لكي ألحق قطاري. وبطبيعة الحال، لن أتهاون عن واجبي فيما يخصّ مسألة المصاريف».

ردّت الخالة إليزابيث بشيء من البرود: «لسنا مدقعي الفقر في القمر الجديد. وطالما تحتّم عليّ أخذها، سأفعل ما يجب فعله يا والاس. لن أتملّص من مهمّتي».

فكّرت إيميلي: «أنا مهمّتها. يقول أبي إنّ لا أحد يحبّ المهامّ. وبالتّالي فلن تحبّني خالتي إليزابيث أبدًا».

ضحك الخال والاس قائلًا: «للديكِ من كبرياء موراي قسطٌ يفوق ما لنا جميعًا يا إليزابيث».

تبعه الآخرون إلى الخارج -جميعهم، ما عدا الخالة لورا؛ إذ توجّهت إلى إيميلي الّتي ظلّت واقفة لوحدها في جوف الغرفة، فضمّتها بين ذراعيها وهمست:

«كم أنا سعيدة يا إيميلي - سعيدة جدًّا. لا تخافي يا طفلتي العزيزة. فأنا أحبّك سلفًا، ومزرعة القمر الجديد مكان لطيف يا إيميلي».

قالت إيميلي وهي تجاهد لتتمالك نفسها: «إنّه -إنّه اسمٌ جميل. ولطالما... لطالما تمنّيت... أن أذهب معكِ أنتِ، خالتي لورا. أظنّ أنّني سأبكي الآن -ولكن لست أبكي حزنًا على ذهابي هناك. وليس سلوكي سيّئًا كما قد تظنّين، خالتي لورا -وما كنتُ لأصغي إليكم ليلة أمس إن علمت أنّه لا يجوز».

وقالت الخالة لورا: «طبعًا لا».

«ولكنّني لست من آل موراي، لو تعلمين».

حينئذٍ، أجابت الخالة لورا بشيءٍ على غاية من الغرابة -من ابنة موراي.

«حمدًا لله على ذلك!».

عندما خرجت إيميلي، تبعها ابن العمّ جيمي ووقف حيالها في البهو الضّيق. ألقى حواليه نظرة حذرٍ ليتأكّد من عدم انتهاك خلوتهما، ثمّ همس قائلًا:

«إنّ خالتك لورا تتقن صنع معمول التّفاح يا قطّة».

وظنّت إيميلي أنّ معمول التّفاح أكلة شهيّة، رغم أنّها لم تدرِ ما قد يكون. فهمست إليه بدورها سؤالًا ما كانت لتطرحه على خالتها إليزابيث، ولا حتّى على خالتها لورا.

«ابن عمّي جيمي، إذا ما أعددنا كعكة في القمر الجديد، هل سيُسمح لي بلعق ما تبقّى من العجينة من وعاء الخلط وأكلها؟».

فقال جيمي بصوت خافت وجدّي: «ستسمح لك لورا-أمّا إليزابيث فلا».

«وماذا عن وضع قدميّ في الفرن إذا ما بردتا؟ وأكل البسكويت قبل النّوم؟».

قال جيمي: «هي الإجابة ذاتها. أمّا أنا فسألقي عليك قصائدي. ولا أفعل ذلك إلّا نادرًا. نظمت ألف قصيدة، ولكنّني لم أدوّنها -بل أحملها هنا»، وطبطب ابن العمّ جيمي على رأسه.

فسألت إيميلي، وقد باتت تكنّ له قدرًا عظيمًا من الاحترام: «هل من الصّعب أن تكتب الشّعر؟».

ردّ ابن العمّ جيمي: «بل هو أسهل من دحرجة ألواح الخشب، إن وجدتِ ما يكفي من القوافي».

في صباح ذاك اليوم، رحل جميعهم ولم يبق منهم سوى سكّان القمر الجديد. وأعلنت الخالة إليزابيث أنّهم سيمكثون هناك ليلة أخرى لحزم الأغراض قبل أن يأخذوا إيميلي معهم.

وتابعتْ: «معظم ما هنالك من أثاث مِلكٌ للبيت، وبالتّالي فلن

يطول وقت استعدادنا. ليس لنا أن نحزم إلّا كتب دوغلاس ستار وأمتعته الخاصّة القليلة».

سألت إيميلي في قلقٍ: «وكيف سأحمل قططي؟».

حدّقت فيها الخالة إليزابيث وقالت:

«قطط! لن تأخذي معكِ أيّة قططٍ يا آنسة».

هتفت إيميلي بإلحاح شديد: «أوه، يجب أن آخذ معي مايك وسوسي سال! لا أستطيع تركهما. ولا يمكن لي أن أعيش بلا قطط».

«ما هذا الهراء! ستجدين قطط الحظيرة في القمر الجديد، ولكن لا يحقّ لها الدّخول إلى المنزل».

فسألتها إيميلي بفضول: «ألا تحبّين القطط؟».

«كلّا، لا أحبّها».

أصرّت إيميلي: «ألا يحلو لك ملمس قطّ بدين، ناعمٍ، لطيف؟».

«لا. أنفر منها نفوري من الثّعابين».

قالت الخالة لورا: «هنالك دمية جميلة من الشّمع كانت لوالدتك. سأعدّ لها لباسًا جديدًا لتلعبي بها».

هتفت إيميلي: «أنا لا أحبّ الدّمى -إنّها لا تتكلّم».

«والقطط أيضًا لا تتكلّم».

«أتظنّين حقًّا أنّها لا تتكلّم! مايك وسوسي سال يتكلّمان. أوه، يجب أن آخذهما معي. أرجوكِ، خالتي إليزابيث. أنا أعشق ذيْنك القطّيْن، ولم يبق لي أحدٌ يحبّني في الكون سواهما. أرجوكِ!».

تدخّل ابن العم جيمي قائلًا وهو يفرك لحيته الشّعثاء: «وماذا سيغيّر وجود قطّ إضافي من عدمه، في مساحة مائتيْ هكتار؟ فلنأخذهما يا إليزابيث».

لوهلة من الزّمن، فكّرت الخالة إليزابيث في الأمر. لم تفهم سرّ حُبّ النّاس للقطط، وكانت من أولئك الّذين لا يفهمون شيئًا إلّا إذا ما شُرح لهم في لغة بسيطة وصُكّ على رؤوسهم صكًّا. وحينئذٍ، يفهمونه بعقلهم فحسبُ، لا بقلوبهم.

قالت في نهاية الأمر، وكأنّها تتنازل تنازلًا جبّارًا: «يمكنك أن تأخذي واحدًا منهما. واحدًا فقط -لا أكثر. لا، لا فائدة من النّقاش. ويجب أن تعلمي نهائيًّا، يا إيميلي، أنّني إن قلت كلمةً فلا ثانية تليها. كفى يا جيمي».

فأمسك ابن العمّ جيمي عن شيء ما همّ بقوله، ودسّ يديْه في جيبيْه وراح يصفّر إلى السّقف.

«إنّها لا تحيد عن رفضها إن رفضت. هكذا هو طبع موراي. كلّنا جُبلنا على هذه العُقدة يا قطّتي الصّغيرة، وعليك أن تتحمّلي الأمر. ومن المنطلق ذاته، فأنت تحملينها أيضًا، لو تعلمين. وتزعمين أنّك لست من آل موراي! إنّك لا تنتمين إلى آل ستار إلّا شكلًا».

فصاحت إيميلي: «كلّا! أنا ابنة ستار بأتمّ معنى الكلمة! -بل *أريد* أن أكون كذلك. آه، كيف لي أن أختار بين مايك وسوسي سال؟».

كانت تلك مشكلة بالفعل، وقد صارعتها إيميلي طيلة اليوم

حتّى كاد قلبها ينفجر. كانت تميل أكثر إلى مايك -لا ريب في ذلك، ولكنّها لا تستطيع ترك سوسي سال تحت رحمة إيلين. فهي تكره سوسي سال، بينما تحبّ مايك إلى حدّ مقبول وستعامله بلطف. كانت إيلين ستعود إلى بيتها الصّغير في قرية مايوود، وتودّ أن تأخذ معها قطًّا. وفي نهاية المساء، اتّخذت إيميلي قرارها المرير، واختارت أخذ سوسي سال.

قال لها ابن العمّ جيمي: «يجدر بكِ أخذ الذّكر، لكيلا تنشغلي بإنجاب الهررة».

فنهرته الخالة إليزابيث بصرامة: «جيمي!».

تساءلت إيميلي عن سبب صرامتها. لمَ لا يجب الحديث عن الهررة يا ترى؟ ولكن لم يرق لها إطلاق ابن العمّ جيمي اسم «الذّكر» على مايك، وبدا لها أنّ في ذلك شيئًا من التّحقير.

انقبض قلبها من ضجيج حزم الأمتعة وهيجانه. وافتقدت سكون الماضي، وتلك المحادثات الحلوة الطّويلة مع والدها، حتّى شعرت بأنّ وابل آل موراي قد دفعه بعيدًا عنها.

وفجأة توقّفت الخالة إليزابيث عن الحزم لحظةً، وقالت: «ما هذا؟» فرفعت إيميلي بصرها، ويا لفزعها لمّا رأت دفتر الحسابات القديم في يد الخالة إليزابيث -ورأتها تفتحه- ورأتها *تقرأ* ما فيه. فنطّت إيميلي من مكانها وانتشلت الكتاب.

ثمّ صاحت في استنكار: «لا يجوز أن تقرئيه يا خالتي إليزابيث، فهذا لي -إنّه *ملكي الخاصّ*».

حدّقت فيها الخالة إليزابيث وقالت: «أعلمكِ، يا فخامة الآنسة ستار، أنّه يجوز لي قراءة كتبك. فأنا مسؤولة عنك الآن، وثقي بأنّني لن أسمح لك بمخادعتي أو إخفاء أيّ شيء عنّي. ولا شكّ في أنّ هنالك شيئًا ما تخجلين من إظهاره للعيان في ذاك الكتاب، وأنا مصمّمة على رؤيته. هاتي الكتاب».

تقهقرت إيميلي وضمّت إليها كتابها الثّمين وهتفت: «*لا* أخجل منه، ولكنّني لن أسمح لكِ -أو *لغيرك*- برؤيته».

فتقدّمت الخالة إليزابيث نحوها قائلةً:

«إيميلي ستار، هل سمعت ما قلته لك؟ هاتي الكتاب -*حالا*».

«لا -لا!» التفتت إيميلي ولاذت بالفرار. لن تترك *أبدًا* ذاك الكتاب بين يدي خالتها إليزابيث. وهرعت إلى موقد المطبخ، فسحبت الغطاء وزجّت بالدّفتر في قلب النّيران المتوهّجة. وسرعان ما التهب الكتاب واحترق احتراقًا بهيجًا. وظلّت إيميلي تشاهده وتذوق الأمرّين، وكأنّ جزءًا منها يلتهب هناك. ولكن ما كان للخالة إليزابيث أن تراه -وترى تلك التّفاصيل الدّقيقة الّتي كانت تكتبها ثمّ تقرؤها لوالدها، وكلّ أحلامها عن سيّدة الرّياح، وعن إيميلي-في-المرآة، وكلّ حواراتها الصّغيرة مع القطط وعنها، وكلّ ما قالته ليلة أمس عن آل موراي. وشاهدت قطع الورق الصّغيرة تنكمش وترتعش، وكأنّها كائناتٌ ذات وعيٍ، ثمّ تستحيل سوادًا. وتراءى لها على إحداها سطرٌ بالخطّ الأبيض، واضحًا جليًّا: «خالتي إليزابيث باردةٌ جدًّا *ومتعجرفة*». ماذا لو رأت الخالة إليزابيث *تلك*

الجملة؟ وماذا لو تراها الآن! وألقت إيميلي نظرة توجّس وراءها. لا، كانت الخالة إليزابيث قد عادت إلى الغرفة وصفعت الباب بما قد يسمّى، لدى أيٍّ كان إلّا آل موراي، عنفًا. وها هو ذا دفتر الحسابات قد أضحى قشرة بيضاء رقيقة على سطح الجمرات. فجلست إيميلي حذو الموقد وأخذت تبكي، إذ كانت تشعر بأنّها فقدت شيئًا لا يُقدّر بثمن. كم كان مريعًا أن تفكّر بفقدان كلّ تلك القصص العزيزة إلى قلبها. لن تستطيع كتابتها مرّة أخرى –أو بالأحرى، لن تكتب مثلها تمامًا. وحتّى لو كانت لها القدرة، فهي لن تجرؤ على كتابة *أيّ شيء* من هنا فصاعدًا، لأنّ كلّ ما ستكتبه سيمرّ حتمًا برقابة الخالة إليزابيث. لم يكن والدها يلحّ في الاطّلاع على نصوصها، بل كانت تقرؤها له *طوعًا* –ولو أرادت ألّا تقرأها، فما كان ليجبرها على ذلك.

وفجأة، سالت على وجنتي إيميلي دموع الحرقة، فخطّت على دفتر حسابات خياليّ:

«خالتي إليزابيث باردةٌ جدًّا *ومتعجرفة، وهي ليست عادلة*».

في صباح الغد، بينما كان ابن العمّ جيمي يثبّت الصّناديق خلف العربة ذات المقاعد المزدوجة، وكانت الخالة إليزابيث تملي على إيلين آخر تعليماتها، ودّعت إيميلي كلّ ما في البيت وحواليه: الصّنوبر الدّيك، وآدم وحوّاء –وقالت حزينةً: «ستفتقدني كلّها بعد رحيلي، إذ لن يبقى أحدٌ ليحبّها هنا»–، والكسر العنكبوتيّ في شبّاك المطبخ، والكرسيّ المجنّح القديم، ومنبت العشب المخطّط، وشجرات

البتولا الأنثى الفضّية. ثمّ صعدت إلى نافذة غرفتها القديمة، وكانت تلك النّافذة بمثابة منفذ إلى عالم من العجائب، وألهمتها مقطعًا كتبته في دفتر الحسابات المحروق تفتخر به فخرًا خاصًّا: «*وصفُنْ للمنظَر مِنْ نافذَتي*». وجلست هناك مطلقة العنان لأحلامها، وكان ذاك مجلسها كلّ ليلة للرّكوع وتلاوة صلواتها، فتارة تشعّ منها نجوم اللّيل، وطورًا تنقرها قطرات المطر، ومرّاتٍ تزورها موّاءات رماديّة وسنونوات، ومرّاتٍ أخرى تحوم حولها سيّدة الرّياح وهي تضحك وتتنهّد وتغنّي وتصفّر -كانت إيميلي تسمع صوتها أحيانًا من هناك، آتيًا من قلب اللّيل الدّامس أو من عواصف الشّتاء البيضاء العاتية. ولم تودّع إيميلي سيّدة الرّياح، إذ تعلم أنّها ستجدها في القمر الجديد أيضًا. بيد أنّها ودّعت نافذتها الصّغيرة، والتّل الأخضر المحبوب، والحقول المسكونة بالحوريّات، وصديقتها الصّغيرة إيميلي -في- المرآة. وربّما ستجد نسخة أخرى من إيميلي -في- المرآة في القمر الجديد، ولكنّها لن تكون مثل القديمة. ثمّ انتزعت من الحائط صورة فستان حفل قصّتها من مجلّة أزياء، ودسّتها في جيبها. يا له من فستان بديع - إنّه مُحاكٌ من الدّانتيل الأبيض ومزدانٌ ببراعم ورد، ويجرّ وراءه ذيلًا متناهي الطّول من كشاكش الدّانتيل يمتدّ على طول غرفةٍ بأكملها. وكم مرّة تخيّلت إيميلي نفسها في ذلك الفستان، وهي تجتاح باب المرقص منافسةً ملكات الجمال في جمالهنّ.

كان الجميع ينتظرها في الأسفل. وودّعت إيميلي إيلين بشيء من اللّامبالاة -لم تكن تحبّ إيلين غرين قطُّ، ومنذ أخبرتها إيلين

بموت أبيها الوشيك في تلك اللّيلة المشؤومة، صارت تكرهها وتخاف منها.

ويا لدهشة إيميلي عندما عانقتها إيلين وانفجرت بكاءً، وتوسّلت إليها بألّا تنساها وأن تراسلها، ونادتها بـ«طفلتي المباركة».

فقالت إيميلي: «لست بطفلتكِ المباركة، ولكنّني سأراسلك. وهل ستعتنين بمايك كما ينبغي؟».

قالت إيلين من بين عبراتها: «أظنّ أنّك ستتألّمين لفراق هذا القطّ أكثر من ألمك لفراقي».

أجابت إيميلي: «طبعًا، لا شكّ في ذلك»، وتعجّبت لتساؤل إيلين في هذا الشأن.

استجمعت إيميلي كلّ ما لديها من قوّة كي لا تبكي وهي تودّع مايك، وقد كان متكوّرًا تحت الشّمس على العشب الدّافئ حذو الباب الخلفي.

احتضنته وهمست: «ربّما سأراك يومًا ما. أنا متأكّدة من أنّ القطط *الصّالحة* تُرسل إلى الجنّة».

انطلقوا على متن العربة ذات المقاعد المزدوجة والظّلّة المهدّبة، الحاملة لطابع آل موراي من القمر الجديد. لم يسبق لإيميلي أن ركبت في شيء بهذه الرّوعة، ولا أن سافرت كثيرًا على العربات. صادف أن استعار والدها مرّة أو مرّتيْن حنطور السّيد هابرد ومهره الرّمادي للذّهاب إلى شارلوتتاون. وكان الحنطور مخشخشًا والمهر

بطيئًا، فعمد والدها إلى تسليتها طيلة الطّريق جاعلًا منه فسحةً ممتعة.

احتلّ ابن العمّ جيمي الصّدارة جانب الخالة إليزابيث، وكانت مهيبة الطّلعة بقبّعة وعباءة من الدّانتيل الأسود. أمّا إيميلي والخالة لورا، فقد جلستا في المقاعد الخلفيّة وبينهما سلّة سوسي سال، وقد علا زعيقُها الأليم.

وبينما مضت العربة ترتقي الطّريق المعشوشب، ألقت إيميلي نظرةً وراءها إلى بيتها البنّي القديم الصّغير في الوادي، فبدا لها مكسور الخاطر، وتمنّت أن تركض إليه لتواسيه. ورغم العهد الّذي قطعته على نفسها، اغرورقت عيناها بالدّموع. سارعت خالتها لورا بمدّ يدها المكسوّة بقفازٍ فوق سلّة سوسي سال، وضمّتها بحرارةٍ وتفهّم.

همست إيميلي: «آه، كم أحبّكِ، خالتي لورا».

لقد كانت عينا الخالة لورا عميقتيْ الزّرقة، بحريْنِ سحيقيْن من الطّيبة.

القمر الجديد

راقت لإيميلي رحلة العربة عبر براعم حزيران المتفتّحة. لم يُتبادل الكثير من الحديث، وحتّى سوسي سال كانت لازمةً صمتها في يأس. وبين الفينة والأخرى، يقول ابن العمّ جيمي ملاحظة تبدو موجّهة لنفسه أكثر من أيّ شخصٍ آخر. وتجيبه الخالة إليزابيث تارةً، وطورًا تتجاهله. وكان كلامها مقتضبًا دائمًا، فلا تنبس بكلمة إن لم تكن لها ضرورة.

توقّف الرّكب في شارلوتتاون لتناول العشاء. وبما أنّ إيميلي فقدت شهيّتها منذ وفاة والدها، لم تستطع أكل اللّحم المشويّ الّذي وضعته أمامها نادلة اللّوكاندة. حينئذٍ، همست الخالة إليزابيث شيئًا ما إلى النّادلة، فذهبت ثمّ عادت بطبق من قطع الدّجاج البارد -كانت شرائح بيضاء رفيعة، مشذّبة الأطراف حسنة التقّديم، ترافقها أوراق خسّ للزّينة.

سألتها الخالة إليزابيث بصرامة، كما لو سألت مجرمًا في محكمة: «هل يمكنك أكل *هذا؟!*» .

فهمست إيميلي: «سـ-سأحاول».

كانت آنذاك تحت سطوة الخوف، فلم تجرؤ على التّفوّه بكلمة أخرى. ولكن بعد أن أرغمت نفسها على ابتلاع شيء من الدّجاج، سوّلت لها نفسها الفتيّة بأن توضّح المسألة لخالتها. فقالت:

«خالتي إليزابيث».

أجابت الخالة إليزابيث: «نعم، ماذا؟» وحوّلت عينيها ذاتي الزّرقة المعدنيّة إلى عيني ابنة أختها المهمومتيْن.

قالت إيميلي بلهجة رسميّة ودقيقة لتضمن إيصال فحوى رسالتها: «أريدك أن تفهمي أنّني لم أعزف عن أكل اللّحم المشويّ لأنّه لم يعجبني، بل لأنّني لست جائعة بالمرّة. وأكلت شيئًا من الدّجاج إكرامًا لكِ، لا لأنّني أحببته أكثر من اللحم».

فقالت الخالة إليزابيث بنبرة صارمة: «يجدر بالأطفال أن يأكلوا ما يوضع أمامهم وألّا يتعالوا عن أيّ أكلٍ جيّد وصحّي».

خاب ظنّ إيميلي، إذِ أدركت أنّ خالتها إليزابيث لم تفهم قصدها في نهاية الأمر.

وبعد العشاء، أخبرت الخالة إليزابيث أختها لورا بأنّ عليهما الذّهاب للتّسوّق، وقالت:

«يجب شراء بعض الأغراض للطّفلة».

هتفت إيميلي: «أوه، أرجوكِ لا تناديني بـ«الطّفلة». فهذا يشعرني بأنّني لا أنتمي إلى أيّ مكان. ألا يعجبك اسمي، خالتي إليزابيث؟ كان يروق لأمّي كثيرًا. وأنا لست في حاجة إلى أيّة

«أغراض». لديّ طاقمان كاملان من الملابس الدّاخليّة، وأحدهما فقط مرقّع-».

«ش-ش-ششش!» حذّرها ابن العمّ جيمي، وركل رجلها برفق من تحت الطّاولة.

كلّ ما أرادها ابن العمّ جيمي أن تفهمه هو أنّه يجدر بها أن تترك الخالة إليزابيث تشتري لها «أغراضًا» طالما كان مزاجها حسنًا. ولكنّ إيميلي ظنّت أنّه استنكر حديثها عن مواضيع من قبيل الملابس الدّاخليّة، فالتهب وجهها خجلًا. أمّا الخالة إليزابيث، فاستأنفت حديثها مع الخالة لورا وكأنّها لم تسمع شيئًا.

«يجب ألّا تلبس ذاك الفستان الرّخيص الأسود في معبد المياه، فهو لا يصلح إلّا بتنخيل رقائق الشوفان. ولا يُعقل أن نطالب طفلة بارتداء اللّون الأسود أصلًا. سأقتني لها فستانًا أبيض جميلًا ذا حزامٍ أسود، وملابس قطنية ذات مربّعات للمدرسة. جيمي، سنترك الطّفلة معك. إنّها في رعايتك».

كانت رعاية ابن العمّ جيمي تتمثّل في أخذ إيميلي إلى مطعم في آخر الشارع وإتخامها بالمثلّجات. قلّما أُتيحت لإيميلي فرصة لأكل المثلّجات، ولم تكن في حاجة إلى الإلحاح لكي تأكل فنجانيْن كامليْن منها، حتّى بشهيّتها المفقودة. ورمقها ابن العمّ جيمي بسرور قائلًا:

«لا فائدة من إعطائك ما قد تراه إليزابيث. ولكن أنّى لها أن ترى ما في داخلك. اغتنمي فرصتكِ هذه، اللهّ أعلم متى ستحين الفرصة القادمة».

«ألا تتناولون المثلّجات في القمر الجديد؟».

هزّ ابن العمّ جيمي رأسه نفيًا.

«خالتك إليزابيث لا تحبّ أحدث الصّيحات. كلّ من في ذاك البيت ينتمي إلى خمسين عامٍ خلت، ولكنّها تتنازل فيما يخصّ شؤون المزرعة. أمّا في المنزل فإضاءةٌ بالشّموع، وأمّا في صنع مشتقات الألبان فأوعية جدّتها الضّخمة لتخمير الحليب. ولكن ثقي، يا قطّة، بأنّ القمر الجديد مكانٌ جميل في نهاية الأمر. وسوف تحبّينه يومًا مّا».

سألت إيميلي بصوتٍ حزين: «وهل فيه حوريّات؟».

فقال ابن العمّ جيمي: «تعجّ بها الغابة، وكذلك أزهار الأنقولية في البستان القديم. نزرع الأنقولية هناك خصّيصًا لاستقبال الحوريّات».

تنهّدت إيميلي. فمنذ بلغت سنّ الثامنة، أدركت أنّه لا وُجود للحوريّات في أيّ مكانٍ الآن. بيد أنّها لم تستسلم تمامًا، وظلّت تأمل في العثور على حوريّة أو اثنتين تجولان شاردتيْن في بعض البقاع القديمة المكنونة. وهل من مكانٍ ملائمٍ أكثر من القمر الجديد؟

وسألت: «حوريّات حقيقيّة حقًّا؟».

فقال ابن العمّ جيمي بنبرة جدٍّ: «ولكنّكِ تعلمين أنّ الحوريّات الحقيقيّة حقًّا لا يمكنها أن تكون حوريّات. أليس كذلك؟».

قبل أن تتمعّن إيميلي في سؤاله، عادت خالتاها وسرعان ما

استأنفت العربة طريقها. ووصلت إلى معبد المياه عند الشّفق وكان شفقًا ورديًّا يغدق بضيائه الزّهري على ساحل الرّمل، فتضاربت حمرة الطّريق مع عتمة سطح التلّ المكسو بشجر التّنوب وتراءى بينهما، للحظة عابرة، خطٌّ واضح يفصل بين الظّلمات والنّور. ونظرت إيميلي حولها لاستكشاف محيطها الجديد، وراق لها ما رأت. إذ لمحت منزلًا كبيرًا يلوح بياضه من بين ستار أشجار طويلة عتيقة -لم تكسُها الفطريّات كأشجار البتولا القديمة، ولكنّها كانت أشجارًا أَحَبَّت ثلاثة أجيال من النّاس وبادلوها الحبّ- وتراءت لها مياه فضّية تتلألأ بين صفوف التّنوب الدّاكنة، وأدركت أنّ ذاك هو معبد المياه بعينه. ورأت برج كنيسة أبيض ينتصب شامخًا من بين غابات القيقب في الوادي السّفلي. ولكن لم يكن شيء ممّا سبق حريًّا باستحضار *البرق* -بل جاءها عندما لمحت روشنًا صغيرًا، لطيفًا، ودودًا، بارزًا على السّطح بين أغصان الكروم -وكان فوقه قمرٌ جديدٌ فعلًا، يتوهّج شعاعه الرّهيف الذّهبي في سماء بهيّة. ارتجفت إيميلي من شدّة تأثّرها بينما حملها ابن العمّ جيمي لينزلها من العربة ويأخذها إلى المطبخ.

جلست على مقعد خشبي أملس من وقع السّنين والفرك الشّديد، وشاهدت خالتها إليزابيث تشعل الشّمع هنا وهناك، في شمعدانات نحاسيّة ضخمة لامعة. وضعتها على الرّف بين النّافذتيْن، وعلى الخزانة العالية حيث رحّبت بها صفوف الصّحون البيضاء والزرقاء، وفوق الطّاولة الرّكنيّة الطّويلة. وبينما كانت

تشعل الشموع، لاحت لإيميلي «شموع الأرانب»[1] من بين الأشجار خارج النّافذة.

لم يسبق لإيميلي أن رأت مطبخًا من هذا القبيل. كان ذا حيطانٍ من الخشب الدّاكن وسقفٍ منخفضٍ تعبره روافد سوداء، وتتدلّى منها أفخاذ الخنازير واللّحم المقدّد وشتّى أنواع الأعشاب وجوارب وقفّازات جديدة، وغيرها من الأشياء الّتي لا تعرف لها إيميلي اسمًا ولا مغزىً. وكانت الأرضية مصقولة، ناصعة النّظافة، بيد أنّ ألواحها فُركت فركًا مبالغًا على مرّ السّنوات إلى أن نتأت عقدها وشكّلت حدبات صغيرة غريبة. وأمام الموقد، اعوجّت الألواح فصار بينها فراغٌ شبيه بواد صغير أجوف. وكان هنالك في أحد أركان السّقف ثقب مربّع شاسع يضفي عليه ضوء الشّموع سوادًا وريبةً، وخافت منه إيميلي -لربّما ينطّ منه شيءٌ *ما* إذا ما أساء المرءُ السّلوك. وفضلًا عن ذلك، كانت الشّموع ترمي بظلال غريبة مرتعشة. ولم تدرِ إيميلي ما إذا كان مطبخ القمر الجديد يعجبها أم لا، فالمكان مثير للاهتمام -وخطر ببالها أنّها تودّ وصفه في دفتر الحسابات القديم، لو لم يحترق-، ولكنّها وجدت نفسها ترتجف فجأة وتكابد رغبتها في البكاء.

سألتها خالتها لورا بحنوّ: «هل تشعرين بالبرد؟ مازالت ليالي حزيران باردة. تعالي إلى غرفة الجلوس، ها قد أوقد جيمي جمراتٍ في المدفأة».

---

(1) شَكْلُ ضَوء الشّموع حينما ينعكس على بلّور النّافذة يبدو مثل أرانب مشعّة.

وبعد أن تمالكت إيميلي نفسها بجهد جهيد، ذهبت إلى غرفة الجلوس، فوجدتها أبهج من المطبخ بكثير. كانت الأرضيّة مكسوّة بزربيّة مخطّطة زاهية الألوان، وعلى الطّاولة مفرش قرمزيّ فاقع لونه، بينما امتدّ على الجدران ورق جميل مزركش بشكل الألماس، وانسدلت أمام النّوافذ ستائر رائعة من البروكار الدّمشقي المرجانيّ المزدان بسراخس بيضاء. وكانت تلك السّتائر فاخرة مهيبةً، على غرار آل موراي، ولم يسبق لإيميلي أن رأت لها مثيلًا. ولكنّ أفضل ما في الغرفة هي شرارات المدفأة، تختلج وتترامى من الجمرات فتلّطف من حدّة ضوء الشّموع الشبحيّ بنورها الدافئ الذّهبيّ الضّارب إلى الحمرة. ودفّأت إيميلي أصابع قدميْها أمامها، فاحتدم اهتمامها بما حولها. ما أحلى الزّجاج المرصّص في أبواب دولابيْ الأواني حذو رفّ المدفأة الأسود المصقول العالي! ويا له من ظلّ طريف ترميه زخارف الصّوان على الحائط وراءها! -وكأنّها صورة جانبيّة لشخصٍ أسود، هكذا خمّنت إيميلي. وكم سرًّا غامضًا تخفيه المكتبة ذات الأبواب الزّجاجية المبطّنة بالقماش! كانت الكتب أصدقاء إيميلي أينما عثرت عليها. وهرعت إلى المكتبة وفتحتها، ولكنها لم ترَ أكثر من أغلفة كتبٍ تبدو ضخمة، حينما دخلت الخالة إليزابيث بكوب حليب وطبق فيه كعكتان صغيرتان من الشّوفان.

قالت الخالة إليزابيث بصوتها الصّارم: «إيميلي، أغلقي ذاك الباب. ومن هنا فصاعدًا، تذكّري أنّه يمنع عليك لمس ما ليس ملكك».

فقالت إيميلي: «كنت أظنّ أنّ الكتب ملك الجميع».

ردّت الخالة إليزابيث: «كتبنا ليست كذلك»، بنبرة توحي بأنّ كتب القمر الجديد تُصنّف في مرتبة خاصّة بها. واستأنفت: «ها هو عشاؤك يا إيميلي. لقد بلغنا درجة من التّعب لا تسمح لنا إلّا بتناول أكلة سريعة. كليها قبل أن نخلد للنّوم».

شربت إيميلي حليبها، وابتلعت الكعكتين بصعوبة شديدة، وظلّت في الأثناء تفحص محيطها. ما أجمل ورق الجدران، بأكاليل الورد تلك الّتي تتوسّط الألماس المذهّب! وتساءلت إيميلي عمّا إذا كانت تستطيع «رؤيته في الهواء». وجرّبت -أجل، تستطيع-، ها هو ذا مسمّر، على بعد ذراع من عينيها، كما لو كان حوريّة مزخرفة صغيرة تنتصب وسط الهواء وكأنّها ستار منسدل. واكتشفت إيميلي أنّ لها تلك القدرة المدهشة منذ سنّ السادسة. فبفضل حركةٍ معيّنة في عضلات عينيها -ويصعب وصف هذه الحركة- كان بإمكانها أن تُنشئ في الهواء نسخة دقيقة من ورق الجدران أمامها -كانت تثبّته هناك وتتأمّله قدر ما تشاء -وتقدّمه وتؤخّره بالمسافة الّتي تريد، فتجعله أكبر أو أصغر بحسب قربه إليها أو بعده عنها. وكانت «رؤية الورق في الهواء» متعة سرّية تُتاح لها كلّما دخلت غرفة جديدة. أمّا ورق جدران القمر الجديد، فقد كان من أروع أوراق الجدران الّتي رأت، وأكثرها سحرًا.

عادت إليها الخالة إليزابيث فجأة فسألتها: «ما لك تحدّقين في الفراغ بهذه الطّريقة الغريبة؟».

انكمشت إيميلي على نفسها. لم تكن قادرة على شرح الأمر لخالتها إليزابيث -فهي ستكون حتمًا مثل إيلين غرين وتنعتها بـ«المجنونة».

«لم -لم أحدّق في شيء».

ردّت الخالة إليزابيث: «لا تعارضي -أقول لكِ أنّك فعلت. لا تعيدي الكرّة، فذلك يضفي على وجهكِ تعبيرًا غير طبيعي. هيّا -فلنذهب إلى الطّابق العلوي. ستنامين معي».

شهقت إيميلي شهقة هلع. كانت تودّ أن تنام مع خالتها لورا، وبدا لها قضاء اللّيلة مع خالتها إليزابيث أمرًا جسيمًا، ولكنّها لم تجرؤ على الاحتجاج. وصعدتا إلى غرفة الخالة إليزابيث الكبيرة العاتمة، حيث كان على الجدران ورقٌ داكن قاتم لا يمكن تحويله إلى ستار سحريّ، وفيها مكتب عالٍ أسود فوقه مرآة متحرّكة صغيرة- ولكنّ علوَّ المكتب حال دون إدراكها، فلن تكون هنالك إيميلي-في-المرآة-، وستائر داكنة الخضرة أمام النّوافذ المغلقة بإحكامٍ، وإطار فراشٍ شاهق تعلوه ستارة خضراء داكنة، وحشية ضخمة، كثيفة، خانقة بكثرة ريشها، ترافقها وسائد عالية صلبة.

سألت الخالة إليزابيث: «لمَ لا تنزعين ثيابك؟».

تلعثمت إيميلي قائلةً: «لا -لا أريد أن أتعرّى أمامكِ».

فحدجتها الخالة إليزابيث بنظرة باردة من خلال نظّاراتها، وقالت:

«انزعي ثيابكِ *حالا*».

أذعنت إيميلي، وفرائصها ترتعد من السّخط والخزي. كان الأمر مريعًا -هي تنزع ثيابها بينما تقف الخالة إليزابيث لتشاهدها. لا يفي الكلام بوصف فظاعة المشهد. ثمّ شقّ عليها أكثر وأكثر أن تتلو صلواتها أمام الخالة إليزابيث، وشعرت إيميلي بأنّ لا فائدة تُرجى من الصّلاة في ظلّ تلك الظّروف. وبدا لها ربّ أبيها متناهي البُعد، فيما أيقنت من أنّ ربّ الخالة إليزابيث لا يختلف كثيرًا عن ربّ إيلين غرين.

قالت الخالة إليزابيث وهي تسحب الأغطية: «ادخلي إلى الفراش».

رمقت إيميلي النّافذة المحجوبة بستار.

«ألن تفتحي النّافذة يا خالتي إليزابيث؟».

نظرت إليها الخالة إليزابيث وكأنّها طالبتها بخلع السّقف. وهتفت متعجّبة:

«أفتح النّافذة -وأطلق العنان لهواء اللّيل في الغرفة! مستحيل!».

فصاحت إيميلي: «أنا وأبي كنّا دائمًا نفتح نافذتنا».

قالت الخالة إليزابيث: «لا عجب من موته بالسّلّ إذن، فهواء اللّيل هواء مسموم».

سألت إيميلي: «وهل من هواءٍ في اللّيل سوى هواء اللّيل؟».

ردّت الخالة إليزابيث بنبرة جليديّة: «إيميلي، ادخلي -إلى- الفراش».

ودخلت إيميلي.

لكنّها لم تستطع النّوم بتاتًا وهي مستلقية في ذاك الفراش الخانق الّذي يبدو على وشك ابتلاعها، وحولها غيوم الظّلام الدّامس لا بصيص نورٍ يشوبها -وبجانبها الخالة إليزابيث، تمتدّ طويلة يابسة عجفاء.

فكّرت إيميلي: «أشعر بأنّني نائمة مع فتخاء. أوه-أوه-أوه- أظنّ أنّني سأبكي -بل سأبكي حتمًا».

حاولت بكلّ ما أوتيت من قوّة يائسة أن تمسك دموعها، بلا جدوى -ستسيل لا محالة. شعرت إيميلي بوحدة قاهرة، مطبقة - كانت وحيدة هناك في الظّلام، ومعها غريبة، وحولها عالم موحش -غدا موحشًا آنذاك. ترامى إلى مسمعها صوت غريب، غامض، شجين، واضح رغم بعده. كان ذلك خرير مياه البحر، ولكن لم تكن إيميلي تعرفه، فخافت. آه، لو كانت في فراشها الصّغير في بيتها الآن، -آه، لو سمعت أنفاس والدها الخافتة في الغرفة -آه، لو رأت بريق النّجوم الأليفة وهي تطلّ عليها بودٍّ من شبّاكها المفتوح! يجب أن تعود إلى بيتها -لن تستطيع البقاء هنا- لن تعرف السّعادة أبدًا هنا! ولكن إلى أين العودة؟ فلا بيت لها الآن، ولا أب. انفجرت من حنجرتها شهقة بكاء حادّة، وتلتها أخرى، ثمّ أخرى. لا فائدة من إحكام قبضتها أو زمّ أسنانها، ولا حتّى من عضّ داخل خدّيْها -فقد انتصرت غريزة الحزن على الكبرياء والجأش.

سألتها الخالة إليزابيث: «لماذا تبكين؟».

ولإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه، كانت الخالة إليزابيث لا تقلّ عن إيميلي حرجًا وارتباكًا. فهي لم تتعوّد على رفقة في الفراش، ولم ترغب في النّوم مع إيميلي أكثر ممّا رغبت إيميلي في النّوم معها. لكنّها لم تقبل بالمرّة أن تُترك الطّفلة بمفردها في إحدى غرف القمر الجديد الواسعة الموحشة. وكانت لورا خفيفة النّوم، سريعة الاضطراب، في حين أنّ الأطفال كثيرو الحركة -بحسب ما سمعت إليزابيث موراي- فلم تجد بدًّا من أخذ إيميلي معها. وها هي ذي تضحّي براحتها وميولها لأداء واجب غير مرغوب فيه، فتقابلها هذه الطّفلة الجاحدة المدلّلة بعدم الرّضا.

وكرّرت: «لقد سألتك لماذا تبكين يا إيميلي؟».

أجابت إيميلي منتحبة: «أظن أنّني -اشتقت إلى بيتي».

تضجّرت الخالة إليزابيث، وقالت بحدّة:

«يا له من بيت رائع تشتاقين إليه».

فردّت إيميلي من بين عبراتها: «لم -لم يكن أنيقًا مثل منزل القمر الجديد، ولكن كان فيه/بي. أظنّ أنّني اشتقت إلى أبي، خالتي إليزابيث. ألم تشعري بوحدة شديدة لمّا فقدت أباك؟».

تذكّرت الخالة إليزابيث، دون قصدٍ، شعور الارتياح المُخجِل المكتوم الّذي تملّكها عند موت العجوز أرشيبالد موراي -ذاك الشّيخ الوسيم والدّكتاتور المتزمّت الّذي تحكّم في عائلته بقبضة

حديديّة طيلة حياته فجعل من الحياة في القمر الجديد محنةً، ولا سيّما خلال الاضطهاد العنيف الّذي مارسه في سنواته الخمسة الأخيرة وهو مُقعد. تصرّف خلفاؤه من أبناء موراي على أحسن وجه، فذرفوا دمعًا شكليًّا، وكتبوا نعيًا طويلًا بالغ الإطراء. لكن هل رافقه إلى قبره إحساسٌ واحد من الحزن الصّادق؟ لم تَرُق تلك الذّكرى لإليزابيث، وغضبت من إشارة إيميلي إليها.

قالت ببرود: «لقد رضيت بما قدّره الرّب لي. إيميلي، آن لكِ أن تفهمي أنّ عليك أن تكوني ممتنّة ومطيعة وأن تقدّري قيمة ما يُفعل لكِ. ولن أقبل دموعًا ولا تذمّرًا. ماذا كنت لتفعلي لو لم يكن لكِ أصدقاء لاستقبالكِ؟ أجيبيني».

اعترفت إيميلي: «كنتُ أموت جوعًا»، وتخيّلت في الحال صورةً دراميّة لنفسها وهي ميّتة، على غرار ضحايا المجاعة في الهند الّتي رأت صورهم في إحدى مجلّات إيلين التّبشيرية.

«ليس تمامًا، ولكنّك كنت تُرسلين إلى أحد ملاجئ الأيتام، ومن الأرجح أنّك ستعانين آلام الجوع. أنت لا تعلمين ما نجوت منه. لقد أتيت إلى بيت جيّد حيث سيُعتنى بك وستتلقّين تربية لائقة».

ولم ترق لإيميلي عبارة «تربية لائقة»، ولكنّها أجابت بتواضع: «أعلم أنّه كرمٌ منك أن جلبتني معك إلى القمر الجديد، خالتي إليزابيث. ولن أزعجكِ طويلًا، لو تعلمين. سأكبر قريبًا وأصبح راشدةً قادرةً على كسب قوتي بنفسي. ما هو أدنى سنٍّ يصبح فيه المرء راشدًا، خالتي إليزابيث؟».

قالت الخالة إليزابيث باقتضاب: «لا تشغلي بالك بهذا. لم تُطالَب نساء موراي يومًا بكسب قوتهنّ بنفسهنّ. وكلّ ما نطلبه منكِ هو أن تكوني طفلة صالحة قنوعة، وأن تتصرّفي بما يجب من رصانة واحتشام».

يبدو ذلك صعبًا للغاية.

قالت إيميلي، مصمّمة على أن تتحلّى بالبسالة، مثل بطلة القصص الّتي قرأتها: «سأفعل. وربّما لن يصعب عليّ ذلك في نهاية المطاف، خالتي إليزابيث»، -وتذكّرت إيميلي جملة سمعتها من والدها مرّة، وظنّت أنّ فرصةً جيّدة قد سنحت لتوظّفها - «فالرّب رحيمٌ وقد يكون الشّيطان أسوأ، كما تعلمين».

مسكينةٌ، الخالة إليزابيث! كُتب عليها أن تسمع كلامًا من هذا القبيل في جوف اللّيل، ومن طفلة غير مرغوب فيها جاءت تتطفّل عليها وتبلبل نظام حياتها وسلام فراشها! لا عجب أنّها تسمّرت في مكانها لوهلة من الزّمن، غير قادرة على الرّد! ثمّ صاحت من شدّة الهول:

«إيميلي، *إيّاك ثمّ إيّاك* أن تقولي هذا مجدّدًا!».

فقالت إيميلي في خنوع: «حسنًا»، ثمّ أضافت بصوت خافتٍ، متحدّية: «ولكنّي سأظلّ أفكّر فيه».

قالت الخالة إليزابيث: «والآن أودّ أن أعلمك أنّ الحديث طيلة اللّيل ليس من عاداتي، لو هو من عاداتكِ أنتِ. وها أنا ذي آمرك بالنّوم، وأنتظر منكِ السّمع والطّاعة. ليلة سعيدة».

كانت نبرة الخالة إليزابيث وهي تتمنّى لها ليلة سعيدة حَرِيّةً بإفساد أحلى اللّيالي في العالم. ولكن استلقت إيميلي في هدوء تامّ وتوقّفت عن النّحيب، رغم الدّموع الصّامتة الّتي ظلّت تسيل على وجنتيْها في الظّلام لمدّة ما. ولم تحرّك ساكنًا حتّى ظنّت الخالة إليزابيث أنّها خلدت إلى النّوم، فنامت بدورها.

قالت إيميلي في قرارة نفسها، وهي تداري مرارة وحدتها: «يا ترى هل في العالم شخص آخر صاحٍ دوني؟ ليت سوسي سال كانت معي على الأقل! إنّها ليست حنونًا كمايك، ولكنّ وجودها أفضل من عدمه. يا ترى هل أطعموها أم لا؟».

كانت الخالة إليزابيث قد ناولت جيمي سلّة سوسي سال وقالت له في ضجر: «خذ اعتنِ بهذه القطّة»، فأخذها جيمي معه. أين وضعها؟ ربّما خرجت سوسي سال وعادت إلى البيت، سمعت إيميلي أنّ القطط تعود دائما إلى ديارها. وتمنّت لو عادت هي إلى بيتها وتخيّلت نفسها تسابق الرّيح مع قطّتها تحت ضوء النّجوم في العتمة، على الطّريق إلى بيتها الصّغير في الوادي، وتعود إلى أشجار البتولا وآدم وحوّاء ومايك، وكرسيّها المجنّح القديم، ومهدها العزيز، ونافذتها المفتوحة على صوت سيّدة الرّياح تغنّي لها، وعلى ضياء الصّبح حيث ترى زرقة الضّباب فوق قمم تلال موطنها.

فكّرت إيميلي: «هل سيطلع الصباح يومًا؟ لعلّ الأمور لن تسوء إلى هذا الحدّ في الصّباح».

ثمّ سمعتها، سمعت سيّدة الرّياح من النّافذة، سمعت في مساء حزيران همْسَ النّسائم الخافت الرقيق، بنغماته اللّطيفة المحبوبة.

تمطّت إيميلي قائلة بصوت خافت: «أوه، أنت هنا يا حبيبتي، أليس كذلك؟ أوه، كم أنا سعيدة بسماع صوتك. إنّك خير رفيقةٍ، يا سيّدة الرّياح. لم أعد أشعر بالوحدة. وقد جاءني *البرق* أيضًا! خشيت ألّا يعود في القمر الجديد».

انسحبت روحها فجأة من قبضة فراش الخالة إليزابيث المحشوّ بالرّيش، وستارتها القاتمة، ونافذتها الموصدة. وانطلقت في الفضاء مع سيّدة الرّياح وسائر رحّالة المساء -اليراع والعثّ والأنهار والغيوم. هامت بعيدًا في الوجود الفسيح، على متن أجنحة خيالها السّحرية، إلى أن حطّت بسلام على برّ الأحلام وغرقت في سباتٍ عميق على الوسادة الكثيفة الصلبة، بينما هدهدتها سيّدة الرّياح بغناء لطيف أخّاذ من بين غصون الكرم المتجمّع حول بيت القمر الجديد.

كتاب الأمس

ظلّت ذكرى أوّل سبت أمضته إيميلي في القمر الجديد راسخة في ذهنها، ذكرى يوم جميل مفعم بالانطباعات الجديدة والحلوة عمومًا. وإن صحّ قول إنّنا «نقيس الزّمن بدقّات قلوبنا»، فقد عاشت إيميلي آنذاك عاميْن كامليْن، لا يوميْن فحسبُ. كلّ ما رأته خلب ألبابها، منذ نزلت السّلم الطّويل اللّامع إلى البهو المربّع فوجدته غارقًا في نور خافت ورديّ ينبعث من ألواح البلّور الأحمر على الباب الرّئيسي. حدّقت إيميلي من خلال الألواح الحمراء منبهرة، يا له من عالم عجيب، ساحر، أحمر يمتدّ أمام ناظريْها، وتعلوه سماء حمراء غريبة وكأنّها، ظنّت إيميلي، سماء يوم الحساب.

كان للبيت القديم سحرٌ شعرت به إيميلي بشدّة وتفاعلت معه، ولو أنّ صغر سنّها لا يسمح لها بفهمه. فقد شهد ذاك البيت، على مرّ العصور، عرائس وأمّهات وزوجات، وظلّت فحوى حبّهنّ وحياتهنّ تعبق في أرجائه، ولم تبدّدها تمامًا عهدة العنوسة مع إليزابيث ولورا.

فكّرت إيميلي: «أظنّ أنّني *سأحبّ* القمر الجديد»، وأذهلتها الفكرة.

كانت الخالة لورا ترتّب طاولة الفطور في المطبخ الّذي اكتسى إشعاعًا وبهجةً في ضوء الصّباح. وحتّى الثّقب الأسود في السّقف لم يعد مخيفًا، بل بدا مجرّد نقطة مرور إلى الدور العلوي. وعلى عتبة الحجر الرّملي الحمراء، كانت سوسي سال جالسة تلعق فروها بهدوءٍ، كأنّها عاشت في القمر الجديد طيلة حياتها. لم تعلم إيميلي أنّ سوسي سال قد خاضت صباح ذاك اليوم معركة حاسمة مع أقرانها، قطط الحظيرة، فأوقفتها عند حدّها نهائيًّا. وذاق قطّ ابن العمّ جيمي، ذاك القطّ الأصفر الضّخم، خسارة فادحة شهدت عليها أطراف عديدة تنقص من جسده، بينما قرّرت قطّة سوداء متغطرسة مختالة أنّ تلك القطّة المتطفّلة الرمادية والبيضاء ذات الوجه الضّيق الّتي تنوي البقاء في القمر الجديد، لن تبقى فيه.

حملت إيميلي سوسي سال بين ذراعيها وقبّلتها، ما أثار استنكار الخالة إليزابيث وهي تأتي من وراء طاولة الطّبخ حاملة طبقًا من اللّحم المقدّد السّاخن.

أمرتها: «لا أريد أن أراكِ تقبّلين قطًّا بعد الآن».

فأذعنت إيميلي بسرور: «أوه، حسنًا. من هنا فصاعدًا، سأقبّلها عندما لا ترينْني».

«أنا في غنىً عن وقاحتكِ يا آنسة. لا يُسمح لكِ بتقبيل القطط بالمرّة».

«ولكنّني لم أقبّلها على فمها طبعًا، خالتي إليزابيث. قبّلتها بين أذنيها فحسبُ. وهذا لطيف–ألا تريدين أن تجرّبي مرّة واحدة لتري؟».

«كفى يا إيميلي. تحدّثتِ بما فيه الكفاية». سارت الخالة إليزابيث نحو المطبخ متعاليةً، تاركة إيميلي في شقاء مؤقّت. وأدركت الطّفلة أنّها أهانت خالتها إليزابيث، ولم تكن لها أدنى فكرة عن السبب أو الطّريقة.

ولكن شغلها المشهد الّذي يدور أمامها عن قلقها إزاء الخالة إليزابيث، وترامت إلى أنفها روائح لذيذة من المطبخ الخارجي -وهو بمثابة غرفة صغيرة ركنيّة ذات سقف أعوج يوضع فيها موقد الطّبخ الكبير في الصّيف، واجتاحتها نباتات الكرم المتسلّقة، مثل معظم المباني في القمر الجديد. يقع على اليمين البستان «الجديد»، وكان آنذاك آية في الرّوعة بفضل براعمه المتفتّحة. ولكنّه مكان عاديّ في نهاية الأمر، إذ زرعه ابن العمّ جيمي بأحدث الأساليب وأنبت الحبوب في الفضاء الشّاسع بين صفّيْن مستقيميْن من الأشجار المتشابهة. لكن إذا نظرتَ إلى الجهة المقابلة من ممرّ الحظيرة، ووراء البئر تمامًا، وجدتَ «البستان القديم». قال ابن العمّ جيمي إنّه يزخر بزهر الأنقولية، وكان على ما يبدو مكانًا لطيفًا نمت فيه الأشجار بحرّية مطلقة، فأضحت كلٌّ منها فريدة الطّول والشّكل، وتشابكت فيه منابت العشقة الزّرقاء، بينما تمرّد الورد الياقوتيّ البرّي، فغزا السّياج الخشبيّ الرّماديّ. وفي الأمام، إذا ما نظرت بين البستانيْن، وجدت هنالك مرتفعًا صغيرًا تغطّيه أشجار بتولا شاهقة بيضاء، وبينها حظائر القمر الجديد الكبرى. ووراء البستان الجديد، يمتدّ درب صغير

ظريف أحمر يلتوي شيئًا فشيئًا على سطح تلّ حتّى يبدو وكأنّه يلامس زرقة السّماء السّاطعة.

جاء ابن العمّ جيمي من الحظائر يحمل دلاء مليئةً حليبًا، وركضت إيميلي معه إلى الملبنة خلف المطبخ الخارجي. لم يسبق لها أن رأت موقعًا بذاك الجمال، إذ كان عبارةً عن مبنى أبيض كالثّلج يبزغ بين حزمة من أعشاب بلسم جلعاد. وكان سقفه الرّماديّ مرقّطًا بكريّات طحالب شبيهة بفئران سمينة من المخمل الأخضر. وما إن نزلتَ ستّ درجات من الحجر الرّملي محفوفة بالسّراخس، حتّى تصل إلى باب أبيض وسطه لوح زجاجي ينفتح على ثلاث درجات أخرى. وبمجرّد نزولها، تجد نفسك في مكان نظيف، بارد، نديّ، تفوح منه رائحة التّراب، ذي أرضيّة ترابيّة ونوافذ تحجبها خضرة زمرديّة رقيقةٌ من أوراق النّباتات المتسلّقة الفتيّة. وفي كلّ أرجائه، ثمّة رفوف خشبيّة عريضة فوقها أوانٍ واسعة جوفاء من الخزف البنّي اللّامع، يملؤها حليب فوقه طبقة قشدةٍ استحالت صفراء من شدّة دسامتها.

كانت الخالة لورا في انتظارهما، وفي الأثناء أخذت تصفّي الحليب وتسكبه في الأوعية الفارغة، ثم تقشد بعضه من الأوعية الملأى. راق لإيميلي قَشد الحليب فأرادت أن تجرّبه. أرادت أيضًا أن تجلس لتكتب وصفًا لتلك الملبنة العزيزة، ولكن لم يعد لها كتاب حسابات، للأسف. ورغم ذلك، كان بوسعها أن تكتبه في ذهنها، فجلست على مقعدة ثلاثيّة السّيقان في ركن

أظلم، وشرعت في مهمّتها بهدوء تامّ، لدرجة أنّ جيمي ولورا نسياها وغادرا المكان، ثمّ ظلّا يبحثان عنها ربع ساعة لاحقًا. وبالتّالي، تأخّر فطور الصّباح فاستشاطت الخالة إليزابيث غضبًا. ولكنّ إيميلي وجدت الجملة الملائمة تمامًا لوصف النّور الّذي يملأ الملبنة، فلم تبالِ بالخالة إليزابيث ونظراتها السّوداء من فرط سرورها بجملتها.

بعد فطور الصباح، أخبرت الخالة إليزابيث إيميلي أنّها ستُكلَّف باصطحاب البقرات إلى المرعى كلّ صباح.

«يعمل جيمي حاليًا بلا خادم مأجور، وستُربِحِينه بذلك بضع دقائق».

وأضافت الخالة لورا: «لا تخافي، فالبقرات تعرف طريقها جيّدًا وستمضي بمفردها. وما عليك إلّا أن تتبعيها وتغلقي البوّابة».

فقالت إيميلي: «لست خائفة».

لكنّها كانت خائفةً حقًّا، إذ لا دراية لها بالبقرات. ورغم ذلك، كانت مصمّمة على ألّا يستشفّ آل موراي خوف ابنة ستار. فربطت جأشها رغم تسارع دقّات قلبها، ومضت قُدُمًا مع البقرات، فأدركت صحّة ما قالته لها الخالة لورا، إذ لم تكن البقرات بالحيوانات الشّرسة في نهاية الأمر. كانت تمضي أمامها في هدوء ولم يكن عليها إلّا أن تتبعها عبر البستان القديم، ثمّ بين شجر القيقب المهجّن وراءه، في درب ملتوٍ محفوف بالسّراخس، حيث كانت سيّدة الرّياح تخرخر وتصفّر بين أغصان القيقب.

تلكّأت إيميلي حذو بوّابة المرعى إلى أن روت ظمأ عينيْها النّهمتيْن من تفاصيل المشهد. وترامت أطراف المرعى أمامها في مرتفعات صغيرة خضراء إلى حدّ معبد المياه الشّهير -وهي غدير صغير دائريّ، ذو ضفافٍ معشوشبة، منحدرة، خالية من الأشجار. لاح وراءه وادي معبد المياه يزخر بالبيوت، وأبعد عنه الخليج العظيم المكلّل بالبياض. كان المشهد، في نظر إيميلي، بمثابة أرض بديعة تتمازج فيها أطياف خضراء بمياه زرقاء. وفي أقصى ركن المرعى، كانت المقبرة الصّغيرة الخاصّة بالرّاحلين من آل موراي رابضة وراء حاجز صخريّ. أرادت إيميلي أن تنطلق في رحلة استكشافيّة هناك، لو لم يثنها خوفها ممّا قد يحصل في ربوع المرعى.

حسمت الأمر قائلة: «سأذهب حالما أتعوّد على رفقة البقرات».

وعلى يمينها، في قمّة تلّ ضئيل تعلوه أشجار بتولا وتنّوب فتيّة، كان هنالك بيت أثار دهشة إيميلي وفضولها. فرغم أنّه كان رماديّا متآكلًا من تواتر الفصول عليه، لم يبدُ عليه القِدَم، ولم ينتهِ تشييده، فقد كان سقفه كاملًا دون جانبيْه، بينما حُجبت نوافذه بألواح خشبيّة. لمَ لم يكتمل تشييده يا ترى؟ إنّه مشروع بيت صغير رائع الجمال -بيت لا يسع المرء إلّا أن يحبّه، بيتٌ يزخر بالكراسي الوثيرة والنّيران الدّافئة ورفوف المكتبات، فضلًا عن القطط اللّطيفة والأركان الطّريفة. أطلقت عليه آنذاك اسم «المنزل المُحبَط»، وأمضت ساعاتٍ عديدةٍ لاحقًا في ربوع خيالها تتمّ ما ينقصه من بناء، وتؤثّثه على أحسن ما يُرام، وتختلق الأشخاص والحيوانات المناسبة للعيش فيه.

على يسار المرعى، وجدت بيتًا آخر يختلف عن الأوّل، بيتًا كبيرًا، عتيقًا، تغمره النّباتات المتسلّقة، ذا سقف مسطّح ونوافذ سنديّة، تفوح منه رائحة الإهمال واللّامبالاة. امتدّت حديقته المتروكة بعشبها الطّويل وأعشابها الطّفيليّة وأشجارها غير المشذّبة إلى حدود البركة، حيث تدلّت أشجار صفصاف ضخمة فوق الماء. واعتزمت إيميلي أن تسأل ابن العمّ جيمي عن هذين المنزلين متى تسنّى لها ذلك.

شعرت بأنّ عليها أن تتّبع سياج المرعى قبل عودتها، لكي تستكشف طريقًا رأته ينساب بعيدًا ويشقّ أيكة التّنوب والقيقب. فعلت فاكتشفت أنّه يؤدّي بها مباشرة إلى بلاد العجائب. على امتداد ضفّة نهر واسع لطيف، كان هنالك درب برّي صغير حلوٌ، ترنو إليه سراخس أنثى وتتمايل، وعلى جانبيْه أشجار التّنوب ترمي بظلالها على جُريسات ساحرة خجولة، وتنبعث منه نفحاتٌ من البهاء في أدنى ثناياه. استنشقت عطر الشّوح البلسميّ ملء رئتيْها، ولاح لها بريق شبكات العنكبوت أعلى الأغصان، وطاب بصرها لمرأى الأشعة والظّلال الجذّابة تمرح في كلّ الأرجاء. تشابكت هنا وهناك أغصان شجر القيقب الفتيّ، وكأنّها تحوك حجابًا لوجوه عذارى الغابة -كانت إيميلي تعلم كلّ ما يجب علمه عن عذارى الغابة بفضل والدها، بينما بدت لها رُقع الطّحالب تحت الأشجار خليقة بإيواء تيتانيا، ملكة الحوريات.

قالت إيميلي بسعادة: «هذا مكان من تلك الّتي تنمو فيها الأحلام».

كانت تودّ لو امتدّ الطّريق إلى ما لا نهاية له، ولكنّه حاد آنذاك عن النّهر وأدّى بها إلى سياج قديم مطحلب وثبت فوقه فوجدت نفسها في «الحديقة الأماميّة» بالقمر الجديد، حيث كان ابن العمّ جيمي يشذّب مجموعة من ملتفّات الثّمار.

قالت إيميلي وهي تلتقط أنفاسها: «آه يا ابن عمّي جيمي، لقد عثرت على درب صغير من أروع ما يكون».

«ذاك الّذي يشق أيكة جون المتغطرس؟».

ردّت إيميلي، وقد خاب أملها: «أليست تلك أيكتنا؟».

«كلّا، ولكنّها كانت لنا. فمنذ خمسين عامٍ مضت، باع عمّي أرشيبالد قطعة الأرض تلك إلى والد جون المتغطرس، الشيخ مايك سوليفان. فشيّد منزلا صغيرًا هناك حذو الغدير، وعاش فيه إلى أن نشب خصام بينه وعمّي أرشيبالد –وسرعان ما حدث ذلك، طبعًا. فنقل آنذاك مسكنه إلى الجانب الآخر من الطّريق، حيث يعيش جون المتغطرس الآن. حاولت إليزابيث أن تسترجع الأرض وتشتريها منه –بل وعرضت عليه سعرًا يربو على قيمتها الحقيقيّة–، ولكن رفض جون المتغطرس بيعها –نكاية بها ليس إلّا، بما أنّ لديه ضيعة جيّدة خاصّة به ولا حاجة له إلى تلك الأرض الّتي لا تسمن ولا تغني من جوع. وكانت ترعى فيها بعض مواشيه فحسبُ، أمّا الجزء الشّاغر منها فقد نما فيه شجر القيقب المهجّن. لقد أصيبت إليزابيث في مقتلٍ بفعله، وسيظلّ الأمر على حاله طالما حمل جون المتغطرس في قلبه حقدًا وضغينةً».

«ولماذا يُسمّى بجون المتغطرس؟».

«لأنّه شخص متعالٍ ومتغطرس. ولكن لا تعبئي به. أودّ أن أريك حديقتي يا إيميلي. إنّها لي وحدي. إليزابيث تتحكّم في الضّيعة، لكنّها سلّمت لي في شؤون الحديقة -لتعوّض عن دفعها بي في البئر».

«هل فعلت ذلك حقًّا؟».

«أجل. عن غير قصدٍ، بطبيعة الحال. كنّا مجرّد أطفال -وجئت في زيارة هنا-، وكان العمّال بصدد تنظيف البئر ووضع غطاء جديد عليه، بينما كنّا نلعب لعبة الملاحقة حوله. أغضبت إليزابيث -نسيت ما قلته لها، ولكنّها سريعة الغضب كما تعلمين-، فهمّت بضربي على رأسي. ولمّا تفطّنتُ لنواياها، تقهقرت بخطوة لتفادي الضّربة -وسقطت فوقعت على رأسي. هذا كل ما أتذكّره. لم يكن هنالك في أسفل البئر إلّا الوحل، ولكن ارتطم رأسي بحجارة الجدار. ظنّ الجميع أنّني لقيت حتفي -فقد انفتح في رأسي جرح عميق. كانت إليزابيث المسكينة..». وهزّ ابن العمّ جيمي رأسه وكأنّما يشير إلى استحالة وصف حال إليزابيث المسكينة. «ولكنّني تماثلت للشّفاء بعد مدّة، كأنّ شيئًا لم يكن. يقول النّاس إنّني لم أعد إلى طبيعتي تمامًا -ولكنّهم لا يقولون ذلك إلّا لأنّني شاعر، ولأنّ لا شيء يزعجني أبدًا. الشّعراء عملة نادرة في معبد المياه، فلا يفهمهم النّاس، ومعظم الأشخاص ينزعجون لأبسط الأشياء، ثمّ يصمونك إن لم تنزعج مثلهم».

سألت إيميلي بحماس: «هلّا قرأت لي شيئًا من شعرك يا ابن عمّي جيمي؟».

«سأفعل عندما تتحرّك مهجتي. لا فائدة من سؤالي إذا لم تتحرّك مهجتي».

«ولكن كيف لي أن أعرف متى تتحرّك مهجتك يا ابن عمّي جيمي؟».

«سأشرع في إلقاء مؤلّفاتي عليك بمحض إرادتي، ولكن سأخبرك بهذا: عادة ما تتحرّك مهجتي وأنا أغلّي البطاطس للخنازير في الخريف. تذكّري هذا، وكوني في الموعد».

«ولمَ لا تدوّن شعرك؟».

«الأوراق عملة نادرة في القمر الجديد. فتوفير أوراق الكتابة، أيًّا كان نوعها، يُعدّ من الإجراءات الاقتصاديّة المفضّلة لدى إليزابيث».

«ولكن أليس لديك مالٌ خاصٌّ بك يا ابن عمّي جيمي؟».

«بلى، إنّ الأجور الّتي تدفعها لي إليزابيث جيّدة. لكنّها تودع كلّ أموالي في المصرف ولا تترك لي إلّا بضعة دولارات تمنّ بها عليّ من فترة إلى أخرى، فهي ترى أنّه لا يعوّل عليّ في الحفاظ على الأموال. عندما أتيت هنا لأعمل عندها، سلّمتني راتبي في نهاية الشّهر، وذهبت إلى مصرف مطمر الفأر لإيداعه. اعترض سبيلي صعلوك -وكان المسكين بائسًا لا يملك سنتًا واحدًا، *فأعطيته*

المال كلّه. ولمَ لا؟ *فأنا* عندي مسكن جيّد ومهنة قارّة وثياب تغطّي حاجتي طيلة سنوات. لعلّه أغبى -وأطيبُ- شيءٍ فعلته. ولكن لم تغفر لي إليزابيث زلّتي تلك، فصارت هي الّتي تدير أموالي منذئذٍ. هيّا، تعالي أريكِ حديقتي قبل أن أنصرف لغرس اللّفت».

كانت الحديقة مكانًا رائعًا، جديرًا بفخر ابن العمّ جيمي. ويبدو للنّاظر أنّ الحديقة لا تذبل لجليدٍ ولا تنحني لرياحٍ -بل هي حديقةٌ تحمل في طيّاتها ذكرى مائة صيفٍ خلت. كان فيها حاجز عالٍ من شجر التّنوب المشذّب، تفصلها أحيانًا شجرات حور لومباردي الشّاهقة. كان شمالها مغلقًا بأيكة كثيفة من شجر التّنوب اجتاحتها مجموعة من أزهار الفاوانيا، فرصّعت براعمها الحمراء الجذّابة سواد الأشجار. ووسط الحديقة، انتصبت شجرة تنّوب عظيمة يقبع أسفلها مقعد حجري قُدّ من أحجار البحر المسطحة الملساء من وقع الرياح والأمواج. وفي الركن الجنوبي الشّرقي، كانت هنالك حزمة ضخمة من اللّيلك شُذّبت في شكل شجرة كبيرة متدلّية الأغصان ومكلّلة بالأرجوان. أمّا الرّكن الجنوبي الغربيّ، فكان يأوي بيتًا صيفيًّا تغطّيه النباتات المتسلقة. وكانت هنالك مزولة من الحجر الرّمادي في الشّمال الغربي، وتحديدًا حيث كان الممرّ الواسع المحفوف بالأعشاب المخطّطة والمرصّع بالأصداف الورديّة ينحرف ليدخل إلى أيكة جون المتغطرس. لم يسبق لإيميلي أن رأت مزولة قطُّ، وظلّت عالقة بها تتأمّلها في انبهار.

قال ابن العمّ جيمي: «لقد جلبها جدّ جدّك، هيو موراي، من البلد القديم، ولا مثيل لها في المقاطعات البحرية. أمّا تلك الأصداف، فقد أتى بها جورج موراي من جزر الهند. كان قبطانًا بحريًّا».

نظرت إيميلي حولها بإعجاب، وبدت لها الحديقة جميلة والمنزل خلّابًا في نظرها الطّفولي. كانت فيه سقيفة أماميّة فسيحة ذات أعمدة إغريقية، ولطالما انبهر سكّان معبد المياه بأناقة تلك الأعمدة، حتّى إنّهم برّروا بها كبرياء موراي، بل قال عنها مدير مدرسة ذات مرّة إنّها تضفي على المنزل صبغة كلاسيكيّة. وفي الواقع، اضمحلّ الآن ذاك المظهر الكلاسيكي تحت وطأة النباتات المتسلّقة الّتي اكتسحت السقيفة بأكملها وتدلّت في شكل أكاليل فاتحة الخضرة فوق أزهار الجيرانيوم القرمزيّة المرصّفة في أوعيتها على درجات المدخل.

ملأ الفخرُ قلب إيميلي الصّغير.

وقالت: «إنّه بيت راقٍ».

سأل ابن العم جيمي بشيء من الغيرة: «وماذا عن حديقتي؟».

فردّت إيميلي بجدّ وصدق خالصيْن: «إنّها تليق بالملوك».

هزّ جيمي رأسه بسرور، ثمّ دبّت في صوته نبرة غريبة، ولاح في عينيه بريق مريب.

«هنالك تعويذة تحمي أرجاء هذه الحديقة. فلا وباء يمسّها، ولا ديدان تقربها. ومنها الجفاف يفرّ، وفيها المطر بلطفٍ يمرّ».

تراجعت إيميلي في خطوة لاإراديّة، وشعرت برغبة في الهروب أو كادت. ولكن ها هو ذا ابن العمّ جيمي يعود إلى طبيعته.

«ألا يبدو لك العشب المحيط بالمزولة شبيهًا بالمخمل الأخضر؟ لقد بذلت فيه مجهودًا جبّارًا، صدّقيني. لكِ أن تتصرّفي على راحتك في هذه الحديقة». وأضاف ابن العمّ جيمي ملوّحًا بيده في حركة واسعة: «أمنحك الحرّية المطلقة فيها. فحظًّا سعيدًا لكِ، وعساكِ أن تجدي الألماسة المفقودة».

فتساءلت إيميلي: «الألماسة المفقودة؟» ما هو هذا الشيء العجيب؟

«ألم تسمعي قصّتها؟ سأخبرك بها غدًا، فالأحد يوم الكسل في القمر الجديد. عليّ أن أذهب إلى لفتي الآن، وإلّا سأجد إليزابيث أمامي تنظر إليّ. لن تقول شيئًا -ستكتفي *بالنّظر*. هل سبق لك أن رأيت نظرة موراي الحقيقيّة؟»

أجابت إيميلي بحسرة: «أظنّ أنّني رأيتها عندما جذبتني خالتي روث من تحت الطّاولة».

«لا -لا. كانت تلك نظرة روث داتن -تلك الّتي يمتزج فيها السّخط والمكر والقسوة. إنّني أمقت روث داتن، فهي تسخر من شِعري -رغم أنّها لم تسمع منه شيئًا، فمهجتي لا تتحرّك في حضورها. لا أدري من أيّ طينة صُنعت. صحيح أنّ إليزابيث غريبة الأطوار ولكنّها لا تضرّ أكثر من بعوضة. أمّا لورا، فهي ملاك طاهر. ولكنّ روث لئيمة حقًّا. ستعرفين نظرة موراي عندما ترينها، إنّها مشهورة تمامًا مثل كبرياء موراي. إنّنا فعلًا لعائلة

عجيبة، ولكنّنا خير أناس وجدوا على هذه البسيطة. سأخبرك بكلّ شيءٍ عنّا غدًا».

وفى ابن العمّ جيمي بوعده عندما ذهبت الخالتان إلى الكنيسة، واستقرّ رأي العائلة في خلوتها على أنّ إيميلي لن تذهب إلى الكنيسة يومها.

قالت الخالة إليزابيث: «إنّها لا تملك ثيابًا ملائمة، وسيكون فستانها الأبيض جاهزًا يوم الأحد القادم».

خاب ظنّ إيميلي عندما علمت بأنّها غير ذاهبة إلى الكنيسة. لطالما اهتمّت بالكنائس كلّما أتيحت لها فرصة الذّهاب إليها، وقلّما ذهبت. فكنيسة مايوود كانت بعيدة بعدًا لا يسمح لأبيها بالذّهاب إليها مشيًا، ولكن كان أخُ إيلين غرين يأخذها هناك برفقة إيلين أحيانًا.

قالت إيميلي بحزنٍ: «خالتي إليزابيث، هل تظنّين أنّ الرّب سيستاء إذا ما لبست فستاني الأسود في الكنيسة؟ أعلم طبعًا أنّه رخيص -أظنّ أنّ إيلين دفعت ثمنه من جيبها- ولكنّه يسترني تمامًا».

قالت الخالة إليزابيث: «على البنات الصّغيرات اللّاتي لا يفهمن الأشياء أن يمسكن ألسنتهنّ. لا أحبّذ أن يرى سكان معبد المياه ابنةَ أختي في مثل ذاك الفستان الصّوفي الأسود القبيح. وطالما اشترته لكِ إيلين، فعلينا سداد ثمنه لها. كان يجدر بك أن تخبرينا قبل أن نغادر مايوود. لا، لن تذهبي إلى الكنيسة اليوم. يمكنك أن تلبسي الثّوب الأسود في المدرسة غدًا، وربّما سنغطّيه بمئزر».

سلّمت إيميلي أمرها إلى الله وهي تتنهّد من فرط خيبتها لبقائها في البيت، ولكن كان ذلك ممتعًا جدًّا في نهاية الأمر. فقد أخذها ابن العمّ جيمي في جولة إلى الغدير، وأطلعها على المقبرة فاتحًا لها كتاب الأمسِ الأغبر.

سألت إيميلي: «لماذا دُفن كلّ أفراد عائلة موراي هنا؟ هل هو فعلًا لأنّهم أرقى من أن يختلطوا بعامّة النّاس؟».

«لا -لا يا قطّة. لا يذهب بنا الكبرياء إلى *ذاك* الحدّ. عندما استقرّ الشّيخ هيو موراي في القمر الجديد، لم يكن هنالك إلّا البراري الممتدّة على بعد أميال، وكانت أقرب مقبرة إليه في شارلوتتاون. هذا هو سبب دفن أسلافنا من آل موراي هنا -ثمّ حافظنا على تلك العادة لاحقًا لأنّنا نفضّل دفننا بين أهلنا وذوينا، هنا، تحت خضرة العشب اليانع في معبد المياه القديم».

قالت إيميلي: «يبدو قولك شبيهًا ببيتٍ شعريّ، ابن عمّي جيمي».

«أجل -إنّه بيت من إحدى قصائدي».

قالت إيميلي بنبرة واثقة: «تروق لي نوعًا ما فكرة مقبرة حسريّة[1] من هذا القبيل»، وألقت حولها نظرة راضية إلى العشب الأخضر المنساب نحو زرقة البركة السّاحرة، والدّروب الدّقيقة، والقبور المَصونة.

---

(1) الصواب: حصريّة. خطأٌ إملائيٌّ مقصود يُحاكي الخطأ المذكور بالإنجليزية.

فاستهزأ ابن العمّ جيمي قائلًا:

«ويقولون إنّكِ لست بموراي. بل فيك موراي وبيرد وستار -فضلًا عن شيء من شيبلي أيضًا، إن صحّ قولي».

«شيبلي؟».

«أجل - كانت زوجة هيو موراي، أي جدّة جدّك، من آل شيبلي -وهي إنجليزية. هل سمعت كيف أتى آل موراي إلى القمر الجديد؟».

«كلّا».

«كانوا قد انطلقوا نحو كيبيك، ولا نيّة لديهم للمجيء إلى جزيرة الأمير إدوارد. طالت رحلتهم وشقّت عليهم، وندر ماؤهم، فأرسى قبطان سفينة *القمر الجديد* هنا لجلب بعض الماء. كادت ماري موراي أن تلقى حتفها لشدّة ما أصابها في الرّحلة من دوار البحر -يبدو أنّها لم تتعوّد على ركوب البحر قطُّ. فأشفق عليها القبطان وسمح لها بالنزّول على اليابسة مع الرّجال لترتاح حوالي ساعة. نزلت بكلّ سرور، ولّما وصلت إلى الشاطئ قالت: «هنا أبقى». وهناك بقيت فعلًا، ولم يقدر أحدٌ ولا شيءٌ على زحزحتها. أمّا الشيخ هيو -كان شابًا آنذاك-، فقد هاج وماج وجادل وخاصم -بل وبكى، بحسب ما قيل لي-، ولكن رفضت ماري الرجوع عن قرارها. وفي نهاية المطاف، استسلم وأنزل حمولته واستقرّ هنا بدوره. وهكذا حلّ آل موراي بجزيرة الأمير إدوارد».

قالت إيميلي: «أنا سعيدة بمجرى الأمور على هذا النّحو».

«وكذلك كان الشّيخ هيو في نهاية المطاف. ولكن لم يدم صفوه يا إيميلي، لم يدم. فهو لم يغفر لزوجته تمام المغفرة. ها هو ذا قبرها في ذاك الرّكن -ذاك الّذي يحمل حجرًا أحمر مسطّحًا. انظري ما كتب عليه». ركضت إيميلي إليه في فضول، فاكتشفت على شاهدته الحمراء مرثيّة طويلة مفصّلة مثل الّتي كانت تُكتب في الأيّام الخوالي. ولكن لم يكن تحتها أيّة آية منقوشة أو مزمور ورع، بل سطر واضح دقيق رغم وقع السّنين وغزو الأشنة، يقول: «هنا أبقى».

أضاف ابن العمّ جيمي: «وهكذا أخذ بثأره منها. لقد كان زوجًا صالحًا لها -وكانت هي نعْمَ الزّوجة وأنجبت له ذرّية صالحة-، وتغيّر كثيرًا بعد وفاتها. ولكن ظلّت الضغينة تختلج في صدره إلى أن حان وقت خروجها».

ارتعدت فرائص إيميلي. فقد كانت فكرة جدّها العجوز وهو يكنّ في قلبه ضغينة لأقرب النّاس إليه وأعزّهم عليه مُرعبةً نوعًا مّا.

قالت في نفسها: «أشكر الرّب أنّني *نصف* موراي فحسبُ». ثمّ أضافت جهرًا: «قال لي أبي إنّه من عادات آل موراي ألّا يحملوا الضّغينة إلى ما بعد الموت».

«هكذا الحال الآن. ولكن تعود القاعدة إلى هذه الحادثة بالذّات، فقد استنكرت عائلته هذا السّلوك، وكاد الأمر ينقلب فضيحة. أوّلَ بعضهم ذاك القول على أنّ الشيخ هيو لا يؤمن بالبعث، ثمّ دارت إشاعات عن رفع الشّاهدة، ولكن سكتت الأقاويل بعد مدّة من الزّمن».

انتقلت إيميلي إلى شاهدة أخرى غزتها الأشنة.

«إليزابيث برنلي –من هي يا ابن عمّي جيمي؟».

«إنّها زوجة الشّيخ ويليام موراي، وهو أخ هيو الّذي حلّ هنا بعد خمس سنوات من قدوم أخيه. وكانت زوجته آية في الجمال، وتُعدّ من حسناوات البلد القديم. ولكن لم ترق لها غابات جزيرة الأمير إدوارد. لقد حنّت إلى بلادها يا إيميلي –وأفناها الشّوق إليها. فهي لم تنزع غطاء رأسها طيلة أربعة أسابيع بعد قدومها –بل ظلّت ترتديه أينما حلّت، وتطالب بالعودة إلى بلادها».

فسألت إيميلي: «أما كانت تنزعه قبل النّوم؟».

«لا أدري إن كانت تنام أصلًا. على كلّ حال، رفض ويليام إرجاعها إلى موطنها، وبمرور الوقت سلّمت بالأمر المحتوم ونزعت قبّعتها. تزوّجت ابنتها من ابن هيو، ما يجعل إليزابيث جدّة جدّك».

أطرقت إيميلي رأسها للنّظر إلى القبر الأخضر المغمور وتساءلت إن غَمَرَ الشّوقُ أحلام إليزابيث في سباتٍ دام مائة عام. وفكّرت متعاطفة: «إنّه لمريع أن يشتاق المرء إلى موطنه –أعلم ذلك جيّدًا».

قال ابن العمّ جيمي: «ستيفن موراي الصّغير مدفونٌ هناك. كان قبره أوّل قبر توضع عليه شاهدة من الرّخام. وهو شقيق جدّك –توفّي وهو يبلغ اثني عشر عامًا من العمر». وأضاف ابن العم جيمي بصوت خاشع: «لقد غدت ذكراه تقليدا من تقاليد آل موراي».

«لماذا؟».

«كان وسيمًا جدًّا وذكيًّا وطيّبًا. ولم يكن له أيّ عيب -فكُتب عليه الموتُ طبعًا. ويُقال إنّه لم يكن هنالك طفل يضاهيه جمالًا في العائلة. وكان محبوبًا لدى الجميع. ومرّت على وفاته تسعون عامًا -لم يعاصره أيّ فرد من أفراد موراي الأحياء اليوم-، وظلّ رغم ذلك يُذكر في اجتماعات العائلة، فوجوده حقيقي أكثر من أحياء عدّة. ها أنتِ ترين إذن، يا إيميلي، أنّه كان طفلًا فريدًا من نوعه، ولكنّه آل إلى هنا..». وأشار ابن العم جيمي إلى القبر المعشوشب والشاهدة البيضاء الصّلبة.

تساءلت إيميلي سرًّا: «يا ترى هل *يتذكّرني* أحد بعد مرور تسعين عامًا على موتي...».

شرح ابن العمّ جيمي قائلًا: «امتلأت هذه السّاحة العتيقة أو كادت. لم يبق إلّا مكانٌ في الرّكن الأقصى لإليزابيث ولورا -ولي أنا. لا مكان لكِ هنا، يا إيميلي».

فهتفت إيميلي: «لا أريد أن أُدفَن هنا. إنّه لرائعٌ أن يكون لكم مقبرة خاصّة بالعائلة -أمّا أنا فسوف أدفن في مقبرة شارلوتتاون، حذو أبي وأمّي. ولكن هنالك شيءٌ ما يقلقني يا ابن عمّي جيمي. هل *تظنّ* أنّني سأموت حقًّا من السّل؟».

عاينها ابن العم جيمي بنظره، ثمّ قال: «لا. لا يا آنستي القطّة. لديك من الحياة ما يكفيك لتبلغي أبعد ما تبتغين. لست مجعولة للموت».

أومأت إيميلي برأسها إيجابًا وقالت: «هذا ما أشعر به أيضا. قل لي الآن يا ابن عمّي جيمي، لماذا يبدو ذاك المنزل محبطًا؟».

«أيّ منزل؟ -أوه، تقصدين منزل فريد كليفورد. لقد شرع فريد كليفورد في بناء ذاك المنزل منذ ثلاثين عامًا خلت. كان ينوي الزّواج فغيّرت حبيبته خطّتها. وكانت الأشغال في البيت قد وصلت إلى ما ترَيْن عندما هجرته يا إيميلي -هجرته، بكلّ بساطة. ومنذئذ، لم يُغرس أيّ مسمار في ذاك المنزل، وهاجر فريد إلى كولومبيا البريطانيّة. وما زال يعيش هناك الآن، متزوّجًا وسعيدًا. ولكنّه رفض أن يبيع البيت إلى أيّ أحد -أظنّ أنّه مازال يشعر بطعم المرارة إلى اليوم».

«آسفةٌ أنا لذاك البيت. كم *أتمنّى* لو أنهى تشييده. بل البيت نفسه *يريد* أن يكتمل -مازال، حتّى الآن، *يريد* أن يكتمل».

«أظنّ أنّه لن يكتمل أبدًا. كان في فريد قليلٌ من خصال شيبلي أيضًا، إذ كانت جدّته من بنات الشّيخ هيو. أمّا الدّكتور برنلي، الّذي يعيش هناك في ذاك المنزل الرّمادي الفسيح، ففيه من شيبلي أكثر من القليل».

«هل هو أيضًا قريبنا، يا ابن عمي جيمي؟».

«إنّه ابن عمّنا على الدّرجة الثّانية والأربعين. كان له سلف عريق من أقارب ماري شيبلي في الماضي البعيد،عندما كانوا يعيشون في البلد القديم -وقد غادره أسلافه ليحلّوا هنا بعد مجيئنا. إنّه طبيب جيّد ولكن غريب الأطوار -أغرب منّي بأشواط يا إيميلي، ورغم ذلك، لا تسمعين أحدًا يقول عنه إنّه ليس طبيعيًّا تمامًا. هل لكِ أن

تشرحي لي هذا؟ *إنّه* لا يؤمن بالرّب، *وأنا* لم تذهب بي الغباوة إلى هذا الحدّ».

«لا يؤمن *بأيّ* ربّ كان؟».

«لا يؤمن بأيّ ربّ كان. إنّه كافر يا إيميلي. وهو يربّي ابنته الصّغيرة على الأفكار ذاتها، ما أراه عارًا يا إيميلي»، قال ابن العم جيمي سرًّا.

«ألا تعلّمها والدتها الأشياء؟».

تردّد ابن العمّ جيمي لوهلة ثمّ أجاب: «والدتها ... ميّتة». وأضاف بمزيد من الحزم: «توفّيت منذ عشرة أعوام. إيلسي برنلي فتاة رائعة، شعرها يحاكي النّرجس لونًا وعيناها شبيهتان بألماستيْن صفراوتيْن».

صرخت آنذاك إيميلي في لهفة: «آه -ابن عمّي جيمي، لقد وعدتني بأن تحدّثني عن الألماسة المفقودة».

«طبعًا -طبعًا. حسنًا، إنّها هناك -في مكانٍ ما داخل البيت الصّيفي أو على مقربة منه يا إيميلي. منذ خمسين عامًا، جاء إدوارد موراي مع زوجته من كينغسبورت في زيارة هنا. يا لها من سيّدة عظيمة. كانت تلبس الحرير والألماس كالملكات، بيد أنّها لم تكن جميلة. وكان لها خاتم مرصّع بحجر تبلغ قيمته مائتي جنيه إسترليني يا إيميلي. إنّه مبلغ هائل لتلبسه امرأة واحدة صغيرة في إصبعها، أليس كذلك؟ كان بريقه يخطف الأنظار وهي ترفع فستانها لترتقي درجات سلّم البيت الصّيفي، وما إن نزلت السّلم حتّى اختَفَت الألماسة».

فسألت إيميلي وهي بالكاد تلتقط أنفاسها: «ولم يُعثر عليها قطُّ؟».

«أبدًا، رغم أنّهم لم يقصّروا في البحث عنها. كان إدوارد موراي يريد هدم البيت -ولكن لم يرضخ له العمّ أرشيبالد، لأنّه كان قد شيّده لعروسه. فنشب بين الأخوين خصام لم يشفَ منه قلباهما أبدًا. وانشغل كلّ من في المقاطعة بالتفتيش عن الألماسة. ويظنّ معظم النّاس أنّها وقعت خارج البيت الصّيفي، بين الأزهار والطّفيليّات. ولكنّني أعلم ما لا يعلمون يا إيميلي. أعلم أنّ الألماسة مازالت في بعض أرجاء ذاك المنزل العتيق. لقد لاح لي بريقها في ليالي اكتمال القمر يا إيميلي -رأيته يتألّق بإغراء. ولكنّه لا يلبث في مكان واحد، فما ذهبت إليه إلّا واختفى، ثمّ ترينه يهزأ بكِ من مكانٍ آخر».

ها هو ذاك الشيء العجيب الغامض يشوب، مرّة أخرى، صوت ابن العمّ جيمي أو نظرته، فترتعد له فجأة فرائص إيميلي. ولكنّها أحبّت أسلوب خطابه معها -كان يحدّثها وكأنّما كانت راشدةً-، وأحبّت أيضًا الأرض الجميلة المنبسطة حولها. ورغم ألم فقدان والدها وبعدها عن البيت الصّغير في الوادي، ذاك الألم الّذي لا ينفكّ عنها ويعصف بكيانها ليلًا إلى أن تبتلّ وسادتها بدموعٍ خفيّة، بدأت تستعيد شيئًا من سرورها مجدّدًا أمام الغروب وزَقزقة العصافير ولمعان أولى النّجوم واللّيالي المُقمرة والرّياح المُنشدة. وأدركت أنّ العيش سيطيب لها هنا، وستكون حياتها رائعة شيّقة، حياةٌ فيها مطابخ خارج البيت، ولبن مكلّل بالقشدة، ودروب نحو

الغدير، ومزاول، وألماسٌ مفقود، وبيوتٌ محبطة، ورجال لا يؤمنون بأيّ ربّ كان -ولا حتّى ربّ إيلين غرين. وتمنّت إيميلي أن ترى الدّكتور برنلي، شوقًا إليه لتكتشف شكل كافرٍ، كما أنّها أزمعت أمرها فعلًا على العثور على تلك الألماسة المفقودة.

اختبار النّار

في صباح اليوم الموالي، اصطحبت الخالة إليزابيث إيميلي إلى المدرسة على العربة. وكانت الخالة لورا ترى أنّه لا فائدة من «إرسال إيميلي إلى المدرسة» في حين أنّه لم يتبقّ إلّا شهر واحدٌ من الدّراسة قبل عطلة الصّيف. ولكن لم ترُق للخالة إليزابيث فكرة ابنة أختها الصّغيرة وهي تنطّ في أرجاء القمر الجديد وتلمس كلّ ما حولها بلا هوادة، فقرّرت وجوب ذهاب إيميلي إلى المدرسة لتتخلّص منها. أمّا إيميلي، وهي كعادتها متحمّسة للتّجارب الجديدة، فقد كانت تتوق إلى مزاولة المدرسة. ورغم ذلك، كانت تستعر غضبًا في الطّريق، إذ كانت خالتها إليزابيث قد انتشلت من سقيفة القمر الجديد مئزرًا قبيحًا من قماش فيشي القطني، وقبّعة تضاهيه قباحة من القماش ذاته، ثمّ أجبرت إيميلي على ارتدائهما. وكان المئزر أشبه بالكيس منه باللّباس، طويل الياقة، ذا كمّين. وبلغ هاذان الكمّان بإيميلي أعلى مستويات الإهانة، إذ لم يسبق لها أن رأت أيّ فتاة صغيرة ترتدي مئزرًا بكمّيْن. واحتجّت على ارتدائه إلى أن اغرورقت عيناها دموعًا، ولكن رفضت الخالة إليزابيث أن تصغي إلى هرائها. ورأت إيميلي آنذاك نظرة موراي، فلم تجد بدًّا

من كظم غيضها في أعماق قلبها، وتركت الخالة إليزابيث تُلبسها المئزر.

قالت لها الخالة لورا بشيء من الحنين، في محاولة لتسليتها: «هذا من المآزر الّتي كانت ترتديها والدتك في طفولتها يا إيميلي».

ردّت إيميلي، بلا حنين ولا سلوى: «لا غرابة إذن في أنّها هربت مع أبي عندما كبرت».

لمّا فرغت الخالة إليزابيث من تزرير المئزر، دفعت إيميلي أمامها بلا مداراة، وأمرتها قائلة:

«ضعي قبّعتكِ».

«آوه، أرجوك خالتي إليزابيث، لا تجبريني على لبس ذاك الشّيء البشع».

لم تكلّف الخالة إليزابيث نفسها عناء المزيد من الكلام، بل أخذت القبّعة وربطتها على رأس إيميلي. ولم يكن على الطّفلة إلّا الخنوع، بيد أنّ صوتًا آتيًا من أعماق ما تحت القبّعة كان يقول، مرتجفًا رغم جرأته:

«لا بأس يا خالتي إليزابيث، فأنتِ لن تقهري الرّب بجبروتكِ».

في الطّريق إلى المدرسة، لم تنبس الخالة إليزابيث بكلمة من فرط استيائها، وقدّمت إيميلي إلى الآنسة براونيل، ثمّ سارعت بالانصراف. كانت الدّروس قد «انطلقت» سلفًا، وعلّقت إيميلي قبّعتها على وتدٍ في السّقيفة ثمّ ذهبت لتجلس في الطّاولة الّتي أسندتها إليها الآنسة

براونيل. وكانت قد قرّرت نهائيًّا أنّها لا تحبّ الأنسة براونيل، ولن تحبها أبدًا.

كانت الآنسة براونيل تحظى بسمعة جيّدة في التّدريس لدى سكّان معبد المياه ويعود ذلك بالأساس إلى كونها مؤدّبة وصارمة، تفرض في قسمها «نظامًا» تامًّا. كانت امرأة نحيفة متوسّطة العمر، ذات وجه ممتقع، وأسنان بارزة ينجلي معظمها كلّما ضحكت، وعينيْن رماديّتيْن، يقظتيْن، باردتيْن -أبرد حتّى من عينيْ الخالة روث. شعرت إيميلي بأنّ عقيق عينيها القاسيتيْن قادرٌ على سبر أغوار روحها الرقيقة. ورغم أنّ إيميلي تحلّت أحيانًا برصيد كافٍ من الشّجاعة، فهي كلّما وجدت نفسها أمام من تدرك عداوته إدراكًا غريزيًّا، تنكمش فيما هو جفاءٌ أكثر ممّا هو خوف.

طيلة الصّباح، كانت إيميلي محلّ نظرات فضوليّة. وكانت مدرسة معبد المياه شاسعة، معها ما لا يقلّ عن عشرين فتاة في عمرها. التفتت إليهنّ إيميلي متطلّعة، فلمحتهنّ يوشوشن وراء الأيادي والكتب ويرمقمنها، واستنكرت فظاظة سلوكهنّ. شعرت فجأة بحنين جامح إلى بيتها، وغلبها الحزن والوحدة -كانت تريد أباها وبيتها القديم وكلّ الأشياء العزيزة إلى قلبها.

همست فتاة سوداء العينين من الجهة الأخرى في القسم: «فتاة القمر الجديد تبكي». ثمّ انبعثت ضحكة خافتة ماكرة.

وقالت آنذاك الآنسة براونيل بنبرة عتاب: «ما خطبكِ يا إيميلي؟».

لزمت إيميلي الصّمت. ما كان لها أن تخبر الآنسة براونيل بخطبها -ولا سيما بعد أن سمعت النبرة الّتي خاطبتها بها.

«عندما أطرح سؤالا على تلاميذي، فعادةً ما ألقى إجابة يا إيميلي. لماذا تبكين؟».

انطلقت من الضّفة المقابلة ضحكة أخرى. عندئذٍ، رفعت إيميلي عينيها البائستين، واستنجدت في محنتها بجملةٍ من كلام والدها، فقالت:

«إنّها مسألة تخصّني أنا لوحدي».

احمرّت فجأة وجنتا الآنسة براونيل الشّاحبتان، واشتعلت في عينيها شرارةٌ باردة.

ثمّ قالت: «ستلبثين في القسم وقت الرّاحة، عقابًا لوقاحتكِ». ولكنّها تركت إيميلي وشأنها في ما تبقّى من اليوم. لم تبال إيميلي بالبقاء في القسم وقت الرّاحة بالمرّة. فقد حدّثها إحساسها المرهف بمحيطها أنّ جوّ المدرسة، لسبب غاب عنها، كان مشحونًا بالعداء. لم تكن النّظرات الموجّهة إليها فضوليّة فحسبُ، بل خبيثة. لم ترغب في الخروج إلى السّاحة مع أولئك الفتيات، ولا حتّى في مزاولة مدرسة معبد المياه، ولكنّها لن تبكي مجدّدًا. وجلست منتصبة القامة، دون أن تحوّل ناظريْها عن كتابها. وفجأة، همس صوت خافت ماكرٌ من الجهة المقابلة.

«آنسة مغرورة -آنسة مغرورة!».

ألقت إيميلي نظرة إلى الفتاة، وحدّقت عيناها النّجلاوان الثّابتتان ذاتا اللّون الأرجواني الرماديّ في عينيْن سوداويْن خرزيّتيْن لامعتيْن -حدّقت بلا تهاون، فرأت فيهما شيئًا من الخوف والإكراه. ما كان للعينين السوداوين إلّا أن ارتبكتا وأطرقتا النّظر، فدارت صاحبتهما هزيمتها بضحكة أخرى، ورمت ضفيرتها القصيرة إلى الوراء.

فكّرت إيميلي بشيء من طعم الانتصار: «لن يصعب عليّ التحكّم *فيها*».

ولكنْ للكثرةِ غَلَبَةٌ على الوحدة، فوجدت إيميلي نفسها، مع منتصف النّهار، واقفة في السّاحة بمفردها أمام حشد من الوجوه العدوانيّة. وقد يكون الأطفال أحيانًا أقسى المخلوقات على الإطلاق، إذ تدفعهم غريزة القطيع إلى التّحامل ضدّ أي غريب يحلّ بينهم، دون أن تأخذهم به شفقة ولا رحمة. كانت إيميلي غريبة بينهم، فضلًا عن أنّها من آل موراي المتكبّرين -ها هما نقطتان ضدّها. ثمّ كان فيها، بصغر حجمها ومئزرها القطنيّ وقبّعتها، شيء من الوقار والهيبة والرّقة أثار غيظهم. استاؤوا أيضًا من شعرها الحالك السّواد ونظرتها المترفّعة ووجهها المحتقِر، بدلًا من أن تكون خجولة خنوعة كما يجدر بالدّخلاء المُراقَبين أن يكونوا.

قالت سوداء العينيْن: «إنّك فتاة مغرورة. هاه! ربّما تلبسين حذاء مزرّرًا، ولكنّك تعيشين على صدقة غيرك».

لم تكن إيميلي ترغب في ارتداء الحذاء المزرّر، كانت تفضّل أن تمشي حافية القدمين مثلما اعتادت أن تفعل في الصّيف، ولكن

أخبرتها الخالة إليزابيث أن لا طفل من القمر الجديد يذهب إلى المدرسة حافيًا.

ضحكت طفلة أخرى ذات شعر مجعّد كستنائي: «أوه، انظرن إلى مئزر الرّضّع هذا».

احتقن وجه إيميلي آنذاك. لقد أصابتها الطّفلة في مقتلها بالفعل. وسُرّت ذات الشّعر الكستنائي لنجاحها في إرباك إيميلي، فأعادت الكرّة.

«هل هذه قبّعة جدّتك؟».

انطلقت جلجلة من الضّحكات.

قالت طفلة من الأخريات: «أوه، إنّها تلبس قبّعة للحفاظ على بياض بشرتها. هذا هو كبرياء موراي. آل موراي أفسدهم الكبرياء، مثلما تقول أمّي».

قالت آنسة بدينة لا يضاهي طولها إلّا عرضها: «إنّكِ قبيحة جدًّا. وأذناك شبيهتان بآذان القطط».

وأضافت سوداء العينين: «لا حاجة لكِ بأن تكوني بهذا الغرور».

«سقف مطبخكم ليس مجصّصًا كما ينبغي».

قالت ذات الشعر الكستنائي: «وابن عمّك جيمي غبيّ».

فصاحت إيميلي: «كلّا! إنّه أذكى من أيّ واحدة فيكنّ. فلتقلن ما يحلو لكنّ بشأني، ولكن إيّاكنّ أن تشتمن *عائلتي*. ولو قلتنّ كلمة أخرى عنهم، فسأسلّط عليكنّ عين الشّيطان».

لم يفهم أحدٌ وعيدها، ولعلّ ذاك الغموض هو ما زاده فعاليّة، إذ خيّم صمت وجيز آنذاك. ثمّ استأنفت المضايقة في شكل آخر.

سألتها فتاة نحيفة، منمّشة، لم تخلُ ملامحها من جمال فاتن رغم نحافتها ونمشها: «هل تجيدين الغناء؟».

فأجابت إيميلي: «لا».

«هل تجيدين الرّقص؟».

«لا».

«هل تجيدين الخياطة؟».

«لا».

«هل تجيدين الطّبخ؟».

«لا».

«هل تجيدين حياكة الدّانتيل؟».

«لا».

«هل تجيدين تطريز الكروشيه؟».

«لا».

فسألتها المنمّشة بازدراء: «*ما الّذي* تجيدينه إذن؟».

انفلتت من إيميلي إجابة دون سابق تفكير: «أجيد نظم الشّعر». ولكنّها أدركت، في تلك اللّحظة، أنّها *قادرة* على نظم الشّعر. ومع ذاك الاعتقاد الغريب، نزل عليها... *البرق*! في تلك اللّحظة، عندما كانتْ أسراب العداء والشّكوك تداهمها من كلّ مكان، وهي تحارب لنفسها

بنفسها، بلا أنصار ولا مزايا، جاءتها تلك اللّحظة الرّائعة حيث تنسلخ روحها من قشور الجسد، وتحلّق عاليًا صوب النّجوم. وعلت على وجه إيميلي علامات النشوة والانبهار لدرجةٍ أثارت غيظ عدوّاتها. وظننّ أنّ ذاك ليس إلّا كبرياء موراي يتجلّى على إثر إنجازها الفريد.

قالت سوداء العينيْن بلهجة واضحة: «أنتِ تكذبين».

ردّت إيميلي: «آل ستار لا يكذبون». كان *البرق* قد انجلى، ولكن ظلّ زخمه ساري المفعول. ورمقتهنّ ببرود ولامبالاة، منتصرة عليهنّ للحظة.

ثمّ سألتهنّ بلا لفّ ودوران: «لماذا تكرَهنَني؟».

لا إجابة. نظرت إيميلي مباشرة إلى ذات الشّعر الكستنائي، وكرّرت سؤالها. فلم تجد الفتاة بدًّا من الإجابة، وغمغمت: «لأنّكِ لست مثلنا بالمرّة».

ردّت إيميلي بتهكّمٍ: «لا أريد أن أكون مثلكنّ».

سخرت سوداء العينين قائلة: «يا إلاهي، يبدو أنّكِ من شعب الله المختار».

أجابت إيميلي: «بطبيعة الحال».

ثمّ انصرفت إلى مبنى المدرسة، حاملة راية الانتصار.

ولكن لم تستسلم القوى المضادّة بسهولة. احتدمت الوشوشة والتّآمر بمجرّد دخولها، وانعقد اجتماع مع بعض الأولاد تبودلت فيه أقلام زينة مقابل قطع علكة متكافئة القيمة.

حفلت إيميلي بلذّة الانتصار وأثر *البرق* طيلة المساء، رغم أنّ الآنسة براونيل استهزأت بأخطائها الإملائية. كانت الآنسة براونيل تهوى الاستهزاء بتلاميذها. وضحكت كلّ الفتيات ما عدا واحدة لم تحضر حصّة الصّباح، وبالتالي جلست في مؤخّرة القسم. وتساءلت إيميلي عمّن تكون، فهي، على غرار إيميلي، مختلفة عن سائر فتيات الصّف، ولو كان ذلك بطريقة أخرى تمامًا. إذ كانت الفتاة طويلة، غريبة الملابس، ترتدي فستانًا أطول من اللّازم ذي قماش مخطّط باهت اللّون، وكانت حافية القدمين. لها شعر كثيف، قصير، كثّ، يكلّل رأسها وكأنّه عمامة حيكت من خيوط ذهبيّة، وعينان ذاتي لونٍ بنّي فاتحٍ شفّاف كقطرتيْن من العسل، ونتأ من تحت فمها الواسع ذقن بارز جريء. وقد لا تُوصَف بالجميلة، ولكن كان وجهها ينضح بالنّشاط والحيوية لدرجة أنّ إيميلي لم تستطع أن تحوّل عنها عينيها المفتونتيْن. وعلاوة على ذلك، كانت هي الوحيدة الّتي لم تتلقَّ سهام سخرية الآنسة براونيل، رغم أنّها لا تقلّ عن غيرها أخطاء.

في وقت الفسحة، ذهبت إلى إيميلي إحدى الفتيات حاملة بين يديْها علبة. وأدركت إيميلي أنّ تلك هي رودا ستيوارت، وبدت لها جميلة لطيفة. وعلى الرغم من أنّها اجتمعت مع الأخريات في منتصف النّهار، فهي لم تنبس معهنّ بكلمة. وكانت ترتدي ثيابا من القطن المجعّد الزهري، وانسدلت على كتفيها ضفيرتان سميكتان من الشّعر العسليّ النّاعم، بينما ازدان وجهها بزرقة عينيْن واسعتيْن

وحمرة فمٍ كبراعم الورد. وكانت ملامحها تُحاكي الدُّمى رقّة، وصوتها عذبًا جميلًا. ولو كان للآنسة براونيل أن تنتقي تلميذتها المفضّلة، لكانت رودا ستيوارت بلا نزاع؛ ثمّ إنّها تحظى بشعبيّة كبيرة بين زميلاتها، بالإضافة إلى حظوة أولئك اللّاتي يكبرنها سنًّا.

قالت لها رودا بلطفٍ: «تفضّلي، هذه هديّة لك». وأمام ابتسامة رودا الحَريّة بتبديد كلّ الشّكوك، تناولت إيميلي العلبة دون أن تساورها أدنى ريبةٍ. وللحظة وجيزة، تلهّفت إيميلي وهي تنزع الغطاء بسرُور، ثمّ ما كان إلّا أن زعقت وقذفت بها بعيدًا عنها، وتسمّرت في مكانها ممتقعة، مرتجفة من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها. كان في العلبة ثعبان -وسواءٌ عليها أكان حيًّا أم ميّتًا، فقد كانت إيميلي تخشى الثّعابين وتشمئزّ منها إلى حدّ ما لا يُطاق، وتتجمّد لمجرّد رؤية أحدها.

تعالت في الرّواق سمفونيّةٌ من القهقهات.

قالت سوداء العينيْن ساخرةً: «من يخاف من جثّة ثعبان ميّت؟».

واستهزأت بها ذات الشّعر الكستنائي: «هل لك أن تنظمي أبيات شعر عن *هذا*؟».

صاحت إيميلي: «*أكرهكنّ* -أكرهكنّ! ما أنتنّ إلّا فتيات لئيمات كريهات!».

قالت الفتاة المنمّشة: «لا تليق الشّتائم بالسّيدات. ظننت أنّ مقام آل موراي أعلى من هذا».

وأضافت سوداء العينيْن متعمّدةً: «لو أتيتِ إلى المدرسة غدًا، يا *آنسة* ستار، فسوف نطوّق رقبتك بذاك الثّعبان».

«جرّبي، وسنرى ما يحدث!» هتف بذلك صوتٌ صادحٌ جليّ. ونطّت وسطهنّ الفتاة ذات العينيْن العسليّتيْن والشّعر القصير، وقالت: «*أريني* كيف ستفعلين ذلك يا جيني سترانغ!».

فتجهّمت جيني وتمتمت: «الأمر لا يعنيك يا إيلسي برنلي».

«لا يعنيني، حقًّا؟ إيّاك أن تخاطبيني بهذه الوقاحة، يا ذات العيون المُخنزرة». وتقدّمت إيلسي صوب جيني الّتي تقهقرت في الإبّان، ولوّحت إليها بقبضتها السّمراء قائلة: «لو ضبطتك غدًا بصدد مضايقة إيميلي ستار بذاك الثّعبان، فسأقبض على ذيله وذيلك معًا وأصفعك به على وجهكِ. لا تنسي ذلك يا ذات العيون المُخنزرة. اذهبي الآن والتقطي ثعبانكِ الثّمين، ثمّ ألقي به في كومة الرّماد».

أذعنت جيني بالفعل وفعلت كلّ ما طُلب منها. أمّا إيلسي فالتفتت إلى الأخريات قائلةً:

«فلتنتشرنَ جميعًا، وتتركنَ فتاة القمر الجديد في حال سبيلها من هنا فصاعدًا. ولو سمعت بمزيدٍ من المكائد والتّطفّل، لأشنقنكنّ وأجتثّنَّ قلوبكنَّ وأفقعنَّ عيونكنّ. أجل، وسأقطع آذانكنّ أيضًا، وأزيّن بها فستاني!».

تراجعت عدوّات إيميلي خوفًا من تلك التّهديدات الشّرسة، أو من شيءٍ ما في شخصيّة إيلسي، وتوارينَ عن الأبصار. حينئذٍ،

التفتت إيلسي إلى إيميلي وقالت في ازدراء: «لا تبالي بهنّ. كلّهن يغرن منكِ، هذا كلّ ما في الأمر -يغرن لأنّك تعيشين في القمر الجديد وتُقادين إلى المدرسة في عربة ذات ظلّة مهدّبة وتلبسين حذاءً مزرّرًا. اصفعيهنّ لو أزعجنك مرّة أخرى».

وثبت إيلسي فوق السّياج وانطلقت نحو خميلة القيقب دون أن تعير إيميلي أيّ نظرة أخرى. ولم تبق معها إلّا رودا ستيوارت.

قالت رودا وهي تطرق عينيها الواسعتيْن الزّرقاويْن في حركة جذّابة: «كم أنا آسفة يا إيميلي. لم أكن أعلم أنّ هنالك ثعبانًا في تلك العلبة، أقسم لكِ أنّني لم أكن أعلم. قالت لي الفتيات إنّها هديّة لكِ فحسبُ. هل أنتِ غاضبةٌ منّي؟ فأنا مُعجبة بكِ».

صحيحٌ أنّ إيميلي شعرت «بالغضب» والإهانة والحنق، ولكن تلاشى كلّ ذلك في الإبّان أمام بوادر الصّداقة تلك. وفي غضون لحظة، شبكت الفتاتان ذراعيهما وشرعتا تجوبان ربوع ساحة اللّعب معًا.

قالت رودا: «سأطلب من الآنسة براونيل أن تسمح لكِ بالجلوس معي. كنت أجلس مع آني غريغ ولكنّها غادرت المدرسة. أتريدين الجلوس معي؟».

فقالت إيميلي بصوتٍ حميم: «سيسعدني ذلك»، كانت فرحتها في تلك اللّحظة تضاهي تعاستها الماضية. ها هي ذي صديقة أحلامها، وأحبّتها إيميلي منذ البداية، بل قدّستها.

قالت رودا بحزمٍ: «يجب أن نجلس معًا، فنحن أصيلتا أفضل عائلتيْن في معبد المياه. هل تعلمين أنّ أبي كان سيعتلي عرش إنجلترا، لو لم يُسلب حقّه؟».

هتفت إيميلي: «إنجلترا!» وقد أفقدتها الدّهشة صوتها.

«أجل. نحن ننحدر من ملوك اسكتلندا. وبطبيعة الحال، لا نخالط عامّة الشّعب. يدير أبي شؤون المتجر بينما أتلقّى دروس موسيقى. هل ستلقّنك خالتك إليزابيث دروس موسيقى؟».

«لا أدري».

«يجدر بها أن تفعل. إنّها واسعة الثّراء، أليس كذلك؟».

كرّرت إيميلي: «لا أدري». كانت تفضّل ألّا تطرح عليها رودا أسئلة من هذا القبيل، ورأت في ذلك إخلالًا بالآداب. ولكن من ذا الّذي سيتقن فنون الأخلاق وحسن السّلوك أكثر من حفيدة ملوك ستيوارت؟

سألت رودا: «إنّها عصبيّة جدًّا، أليس كذلك؟».

فهتفت إيميلي: «كلّا، ليست عصبيّة!».

قالت رودا: «ولكنّها كادت تودي بحياة ابن عمّك جيمي في إحدى نوبات غضبها. إنّها الحقيقة، وأمّي هي الّتي أخبرتني بها. ولمَ لا تتزوّج خالتك لورا؟ هل لديها حبيب؟ كم قيمة الأجر الّذي تدفعه خالتك إليزابيث لابن عمّك جيمي؟».

«لا أدري».

قالت رودا مدارية خيبة أملها: «حسنًا، أظنّ أنّكِ لم تُمضِ في القمر الجديد ما يكفي من الوقت للإلمام بما يحدث فيه. ولكن أظنّ أنّه مختلف تمامًا عمّا كنت فيه. ألم يكن والدك أفقر من فأرٍ في كنيسة؟».

فقالت إيميلي في ثباتٍ: «لقد كان أبي رجلًا ثريًّا، ثريًّا *جدًّا*».

حدّقت فيها رودا.

«ظننت أنّه لا يملك سنتًا واحدًا».

«صحيح. ولكن يمكن للمرء أن يكون ثريًّا دون أموال».

«لا يبدو لي ذلك ممكنًا. على كلّ حال، ستصبحين *أنتِ* ثريّة يومًا ما - من الأرجح أن تترك لك خالتك إليزابيث كلّ ثروتها، كما أخبرتني أمّي. لا يهمّني إذن إن كنتِ تعيشين *حقًّا* على الصّدقة -فأنا أحبّك وسوف أساندك. هل لديك حبيب يا إيميلي؟».

احتقن وجه إيميلي من شدّة الصّدمة وهتفت: «لا. ربّاه، إنّني لم أتجاوز الحادية عشرة من عمري».

«أوه، كلّ البنات في صفّنا لديهنّ حبيب. حبيبي هو تيدي كينت. صافحته بعد أن أحصيت تسع نجمات في تسع ليالٍ متتالية لا تنقصها واحدة. لو فعلت، فسيصبح أوّل صبيّ تصافحينه بعد ذلك حبيبَكِ. ولكن ليس الأمر بالهيّن، واستغرق بالنّسبة إليّ شتاءً كاملًا. غاب تيدي عن المدرسة اليوم -إنّه مريض منذ بداية شهر تمّوز. وهو أكثر أولاد معبد المياه وسامةً. عليك أن تجدي حبيبًا بدورك يا إيميلي».

ردّت إيميلي غاضبة: «لا. لا أعرف شيئًا عن الحبّ ولن يكون لي حبيب».

«أوه، لعلّك تظنّين أنّ لا أحد هنا جدير بكِ، فتاة القمر الجديد. على كلّ حال، لا يمكنكِ أن تلعبي «صفّق لي أصفّق لك» إذا لم يكن لديك حبيب».

لم تعلم إيميلي شيئًا عن أسرار لعبة «صفّق لي أصفّق لك»، ولم تبال بذلك. ومهما كان الأمر، فهي لن تتّخذ حبيبًا، وكرّرت ذلك في حزمٍ أثنى رودا عن التّوسّع في الموضوع.

فرحت إيميلي عندما رنّ الجرس. واستجابت الآنسة براونيل لطلب رودا عن طيبة خاطر، فنقلت إيميلي زادها وزوادها إلى مقعد رودا. ثمّ أمضت رودا معظم السّاعة الأخيرة توشوش لإيميلي فكان التّوبيخ من نصيب إيميلي، ولكنّها لم تبالِ بالأمر.

«سأنظّم حفلة عيد ميلادي في الأسبوع الأوّل من تمّوز، وسأدعوك لو سمحت لك خالتاك بالمجيء. ولكنّني لن أدعو إيلسي برنلي».

«ألا تعجبك إيلسي؟».

«لا. إنّها غلاميّة جدًّا، ثمّ إنّ والدها كافر –وهي مثله. فهي تكتب دومًا «ربّكم» بدلًا من «ربّي» في تمارين الإملاء. وتنهرها الآنسة براونيل كلّما فعلت ذلك، ولكنّها لا تتورّع عن إعادة الكرّة. ولا تجلدها الآنسة براونيل لأنّها مُعجبة بالدكتور برنلي، ولكن تقول أمّي إنها لن تفوز بحظوته لأنّه يكره النّساء. يبدو لي أنّه لا

يليق بنا أن نخالط أناسًا من هذا القبيل. إيلسي فتاةٌ متهوّرة غريبة الأطوار، وهي سريعة الانفعال. مثلها مثل أبيها. كما أنّها لا تُصادِق أحدًا. أليست تسريحة شعرها مضحكة؟ يجب أن تجعلي في شعركِ غرّة يا إيميلي. إنّها آخر صيحة في التّسريحات، وسوف تليق بوجهك لأنّ جبهتك عريضة جدًّا. ستجعلك آية في الجمال بالفعل. ربّاه، ما أجمل شعرك، ويداك أيضًا في غاية الرّقة. أمّا عيناك فهما من *أحلى* ما يكون».

لم يسبق لإيميلي أن تلقّت إطراءً بهذا الكمّ في حياتها. أرشفتها رودا سيلًا من الثّناء فتجرّعته إلى حدّ الثّمالة. ولمّا عادت إيميلي إلى المنزل، كانت مصمّمة على التّوسّل إلى خالتها إليزابيث لتقصّ لها في شعرها غرّة. فإن كان الأمر سيجعلها آية في الجمال، عليها أن تجد إليه سبيلًا. وستسألها أيضًا أن تسمح لها بارتداء عقد الخرز الفينيسي في المدرسة يوم الغد.

وقالت في قرارة نفسها: «ربّما سيجلب لي احترام الفتيات الأخريات».

ودّعت إيميلي رودا في مفترق الطّرقات، ثمّ انصرفت بمفردها تستحضر أحداث ذاك اليوم، وشعرت بأنّها شرّفت اسم عائلة ستار في نهاية المطاف، ما عدا كبوة صغيرة في حادثة الثّعبان. وكانت المدرسة مختلفة تمامًا عمّا كانت تظنّ، ولكن هكذا تمضي الحياة، مثلما سمعت إيلين غرين تقول ذات يومٍ، وما على المرء إلّا أن يستمتع بها قدر الإمكان. كانت رودا في غاية اللّطف، وأعجبها شيءٌ ما في

إيلسي برنلي، أمّا الأخريات فانتقمت منهنّ في خيالها، إذ تصوّرتهنّ يُشنقن الواحدة تلو الأخرى حتّى الموت جزاء جريمة إفزاعها بالثّعبان. وتلاشى بعد ذلك غيظها، وإن لازمتها مرارة بعض الأشياء الّتي قيلت لها طيلة أيّام. ولم يكن لها أبٌ لتشي إليه بهنّ، ولا كتاب حسابات لتكتب فيه عنهنّ، فلم تجد سبيلًا للتخلّص من أثرهنّ.

لم تسنح لها فرصة سريعة لتطالب بالغرّة، إذ وجدت في القمر الجديد ضيوفًا، وكانت خالتاها منهمكتيْن في إعداد عشاء فاخر. ولمّا وُضِعَت على المائدة علب الفواكه المحفوظة، اغتنمت إيميلي فرصة هدنة في المحادثة السّابقة فقالت:

«خالتي إليزابيث،.هل يمكنني أن أجعل في شعري غرّة؟».

نظرت إليها الخالة إليزابيث في ازدراء، وقالت:

«لا، أنا لا أقبل الغُرَر. إنّها أسخف ما يشهده عصرنا من صيحات سخيفة».

«أوه، أرجوك خالتي إليزابيث، *أرجوك* اسمحي لي بقصّ غرّة. ستجعلني آية في الجمال –هذا ما قالته لي رودا».

«سيتطلّب الأمر أكثر من مجرّد غرّة يا إيميلي. لن يكون لنا غُرَرٌ في القمر الجديد –إلّا لدى بقرات مولي. لا تليق الغرر إلّا *بالبقرات*».

ابتسمت الخالة إليزابيث بسمة الانتصار. *أجل*، كانت تبتسم من حين لآخر لمّا ترى أنّها أفحمت بسخريتها اللّاذعة شخصًا

حقيرًا. أدركت إيميلي آنذاك أنّ لا أملَ لها في غرّة. إنّه حقًّا لتصرّف لئيمٌ من طرف الخالة إليزابيث. تنهّدت في إحباطٍ وصرفت نظرها عن الفكرة مؤقّتًا، إذ كان هنالك شيء آخر تودّ معرفته.

سألت: «لماذا لا يؤمن والد إيلسي برنلي بالرّب؟».

فردّت السّيد سلايد ضاحكًا: «بسبب اللّعبة الّتي لعبتها له والدتها». كان السّيد سلايد رجلًا بدينًا، بشوشًا، أشعث الشّعر والشّارب. وسبق وقال عددًا من الأشياء لم تفهمها إيميلي، أشياء يبدو أنّها أخجلت زوجته المُحترمة خجلًا شديدًا.

سألت إيميلي وقد بلغ بها التّشوّق أوجه: «وما هي اللّعبة الّتي لعبتها والدة إيلسي؟».

تبادلت الخالتان إليزابيث ولورا النّظرات، ثمّ قالت لورا: «لمَ لا تذهبين لإطعام الدّجاج يا إيميلي؟».

فنهضت إيميلي رافعة رأسها، وقالت وهي تغادر المائدة: «كان بإمكانكما أن تخبراني بأنّه ينبغي ألّا أتحدّث عن والدة إيلسي، وسأذعن. لقد فهمت قصدكما تمامًا».

حين تبتسم الأقدار

منذ ذاك اليوم الأوّل في المدرسة، أدركت إيميلي أنّها لن تروق لها أبدًا. وكانت تعلم أيضًا أنّه يجب عليها مزاولتها لطلب العلم والاستعداد لكسب رزقها بعرق جبينها؛ ولكنّها ستظلّ بمثابة ما تسمّيه إيلين غرين بـ«المشقّة». ويا لعجب إيميلي، بعد أن تردّدت على المدرسة بضعة أيّام، اكتشفت أنّها راقت لها. طبعًا، لم تتحسّن الآنسة براونيل بمرور الوقت؛ ولكن لم تضايقها الفتيات الأخريات بعد ذلك اليوم -بل اكتشفت في ذهول أنّهنّ سرعان ما نسينَ ما حدث ورحّبن بها في صفوفهنّ. فانضمّت إلى المجموعة وانتهى العداء، صريحًا كان أم متسترًا، على الرّغم من بعض الملاحظات المستفزّة الّتي تتلقّاها بين الفينة والأخرى بشأن مئزر الرُّضّع وكبرياء موراي. وفضلًا عن ذلك، تعلّمت إيميلي أنّ تسدّد بدورها ملاحظاتٍ من ذاك القبيل عندما ازداد إلمامها بالفتيات ونقاط ضعفهنّ، وصارت بدورها تستفزّهنّ بإدراك كاملٍ وتهكّم لاذع، حتّى صرن يتجنّبن إثارة المشاكل معها. وتوطّدت أواصر الصّداقة بينها وبين ذات الشّعر الكستنائي -واسمها غرايس والز-، والفتاة المنمّشة -وهي كاري كينغ-، وجيني سترانغ؛ وغدت جيني ترسل إليها عبر ممرّ

القسم قطع العلكة والألعاب الورقيّة بدلًا من القهقهات السّاخرة. واستقبلتهنّ إيميلي في البلاط الخارجي من معبد صداقتها؛ ولكن لم تطأ حرمه المقدّس إلّا رودا. أمّا إيلسي برنلي، فهي لم تظهر للعيان منذ ذاك اليوم الأوّل. قالت رودا إنّ إيلسي تأتي إلى المدرسة وتغادرها كما يحلو لها، ولم يبالِ والدها يومًا بشأنها. راود إيميلي شوقٌ ملحّ لمعرفة المزيد عن إيلسي، ولكن بدت رغبتها صعبة المنال.

دون أن تشعر، دبّت إلى قلبها الفرحة مجدّدًا، وشعرت بأنّها تنتمي سلفًا إلى مَنشأ عائلتها القديم هذا. وكثيرًا ما كانت تفكّر في أسلاف موراي وتتخيّلهم يرتعون في أرجاء القمر الجديد؛ فتتراءى لها جدّة والدتها تلمّع شمعداناتها وتصنع الجبن؛ وخالة والدتها مريم تتسلّل باحثة عن كنزها المفقود؛ وخالة جدّتها إليزابيث تجوب المنزل بقبّعتها؛ والقبطان جورج، ملّاح البحار الوسيم الأسمر، عائدًا من جزر الهند بأصدافه المرقّطة؛ وستيفن، محبوب الجميع، يبتسم من نافذة إلى أخرى؛ ووالدتها تحلم بأبيها... وبدوا لها جميعًا حقيقيّين، كما لو عرفتهم فعلًا في الحياة.

لم تفارقها لحظات الشّجن حينما تتذكّر فقدان والدها فينتابها حزن جامح عندما لا تجد في رونق القمر الجديد عزاء عن بيتها الرّث الصّغير في الوادي حيث عاشا في نعيم الحبّ معًا. وفي تلك اللّحظات، تلجأ إيميلي إلى ركن معزول وتذرف كلّ ما لها من دموع، ثمّ تبرحه بعينيْن حمراويْن يثيران دومًا تبرّم الخالة إليزابيث. ولئن تعوّدت الخالة إليزابيث على وجود إيميلي معهم في القمر الجديد،

فهي لم توطّد علاقتها بها بالمرّة، وكان ذلك دائمًا ما يكسر خاطر الفتاة. ولكنّ خالتها لورا وابن عمّها جيمي يحبّانها حبًّا جمًّا، وكانت معها سوسي سال ورودا، وحقول نفلٍ بيضاء، وأشجار رقيقة داكنة على سماء بلون العنبر، والموسيقى المحمومة الّتي تعزفها سيّدة الرّياح لمّا تهوي من الخليج وتنفخ على شجر التّنوب وراء الحظائر. وأمست أيّامها مشرقة شيّقة، تزخر بالملذّات والمسرّات، وكأنّها براعم ذهبية صغيرة أزهرت على شجرة حياتها وتفتّحت. لو كان معها كتاب الحسابات الأصفر القديم، أو شيءٌ من هذا القبيل، لكانت راضية تمام الرّضا. كان ذلك أكثر شيء تفتقده بعد أبيها، وحمّلت خالتَها إليزابيث مسؤوليةَ حرقه القسري، فشعرت بأنّه من المحال أن تسامحها تمامًا. ويبدو أنّ الحصول على بديل له أمر شبه مستحيل، إذ كانت الأوراق عملة نادرة في القمر الجديد، مثلما قال ابن العمّ جيمي. فقلّما تُكتب الرّسائل، وتفي ورقة واحدة بالغرض إن كُتبت؛ وبالتّالي، لم تجرؤ إيميلي على طلب أوراق من خالتها إليزابيث. وصادف أن شعرت بأنّها على وشك الانفجار لو لم تُحرّر بالكتابة ذهنها من بعض الأفكار الّتي تتزاحم فيه. ووجدت بعض العزاء في الكتابة على لوحتها في المدرسة، ولكن ستُمحى تلك الخربشات عاجلًا أم آجلًا -وتترك إيميلي بمرارة الفقدان-؛ كما أنّها معرّضة لخطر أن تراها الآنسة براونيل، وهذا ما لن تُطيقه إيميلي. فلا يُسمح لعين غريبة بأن تدنّس بنظراتها قداسة تلك المؤلّفات. كانت تأذن لرودا بقراءتها أحيانًا، رغم أنّها تنزعج من ضحكها على

أرقى طفراتها الأدبيّة. ولو أنّ إيميلي تعتبرها أقربَ ما يكون البشر إلى الكمال، وعيبها الوحيد هو الضّحك.

ولكن تشاء الأقدار أن تحدّد مصير الآنسات اللّاتي وُلدن برغبة ملحّة في الكتابة تدغدغ أناملهنّ. وبمرور الزّمن، منّت تلك الأقدار على إيميلي بمبتغاها، بل منّت به عليها في اليوم ذاته الّذي كانت في أمسّ الحاجة إليه. وحدث الأمر ذات يومٍ، يوم منحوس، حينما قرّرت الآنسة براونيل أن تلقّن صفّ الخامسة درسًا في طريقة إلقاء *أنشودة الترومبيت*[1]، بالنّظريّة والتّطبيق.

اعتلت الآنسة براونيل المنصّة تقرأ تلك الأبيات الرّائعة الثّلاث، ولم يخلُ أداؤها في الظّاهر من براعة إلقائية. فما كان لإيميلي، الّتي كُلِّفت بإنجاز عمليّة حسابيّة لجمع الكسور، إلّا أن طرحت قلمها جانبًا لتصغي إليها في نشوة. لم يسبق لها أن سمعت *أنشودة الترومبيت*، ولكنّها سمعتها آنذاك، بل *رأتها* –حمرة ورديّة تخيّم على القمم المتفاوتة الثّلجيّة والقصور المتهدّمة؛ وأضواء لا يعرفها برّ ولا بحر تنساب على البُحيرات؛ وترامت إلى مسمعها أصداء صاخبة تدوّي عبر الوديان الأرجوانيّة والممرّات الضّبابيّة، فكان لصوت الكلمات وحده صدى عذبٌ يتردّد في روحها. ولمّا وصلت الآنسة براونيل إلى «هفّت في بلاد الحور أبواق خافتة»، سرت في جسد إيميلي قشعريرة من شدّة الطّرب، وخرجت الفتاة من عقلها

(1) قصيدة لألفريد تنيسون (1809–1892)، وهو شاعرٌ إنجليزيٌّ من أبرز شعراء العصر الفيكتوريّ.

فتلاشى كلّ ما حولها، ولم يبق إلّا سحر تلك الكلمات الفريدة – فسقطت اللّوحة من يدها تقعقع على الأرض، فيما نطّت إيميلي من مقعدها وانطلقت في الممرّ، فأمسكت بذراع الآنسة براونيل.

هتفت بصوتها المتلهّف الشّغوف: «آه، يا مدرّستي، أرجوك أن تقرئي ذاك البيت مرّة أخرى –أعيديه أرجوك!».

وعند تلك المقاطعة المباغتة لاستعراض الآنسة براونيل الإلقائي، نظرت المدرّسة إلى ذاك الوجه الجذل وهو يرنو إليها بعينين رماديّتيْن أرجوانيّتين لمع فيهما بريق الوحي الإلهي –فغضبت الآنسة براونيل. غضبت لخرق النّظام الصّارم المفروض في قسمها، وغضبت لاهتمام في غير محلّه من طرف تلميذة من الصّف الثّالث كان يجدر بها أن تركّز في أداء عمليّاتها الحسابية. فأطبقت الآنسة براونيل كتابها، وزمّت شفتيْها، وسدّدت إلى إيميلي صفعة مدوّية على وجهها.

زجرتها وشرار السّخط يتطاير من عينيها: «عودي إلى مكانك ولا تتدخّلي فيما لا يعنيك، إيميلي ستار».

هوت إيميلي على أرض الواقع، وعادت إلى مقعدها في ذهول. كانت وجنتها المُصابة قرمزيّة، ولكن انفتح في قلبها جرحٌ أعمق. فقد كانت، منذ لحظات، تحلّق في جنّات النّعيم، وها هي الآن تتخبّط في الألم والإهانة وسوء التّفاهم! لم تتحمّل الأمر. ما الّذي فعلت لتستحقّ ذلك؟ لم يصفعها أحدٌ في حياتها أبدًا. ونهش الذّل والظّلم روحها، فلم تذرف ولو دمعة –إذ كان «هذا الأسى أعمق من الدّموع». عادت إلى البيت كاتمة في صدرها حُرقة المرارة والخزي

والنّقمة -حُرقة لا مخرج لها، فهي لن تجرؤ على الإفصاح بقصّتها في القمر الجديد. كانت على يقينٍ بأنّ خالتها إليزابيث ستقول إنّ الآنسة براونيل محقّة، وحتّى خالتها لورا لن تتفهّمها، رغم لطفها وطيبة قلبها؛ بل ستحزن لأنّ إيميلي أساءت السّلوك في المدرسة وتوجّب عقابها.

فكّرت إيميلي: «آه، لو أمكن لي أن أخبر أبي!».

لم تقدر على أكل لقمة واحدة في العشاء -وظنّت أنّها لن تستعيد شهيّتها أبدًا. آه، كم كرهت الآنسة براونيل، تلك الظّالمة الفظيعة! لن تسامحها إلى أبد الآبدين! ليتها تجد سبيلًا للانتقام منها! كانت إيميلي تجلس إلى مائدة العشاء في القمر الجديد، صغيرة، شاحبة، ساكنة في الظّاهر، ولكن يضطرم في باطنها بركان من الأحاسيس الأليمة والبؤس والكبرياء -آه من الكبرياء! فما أنكى من الظّلم في حدّ ذاته إلّا وخز الإهانة الّتي أسفرت عنها الحادثة. كيف لها، إيميلي بيرد ستار، الّتي لم تمتدّ إليها يدٌ إلّا بلُطفٍ، أن تُصفع كصغير شقيّ أمام كامل المدرسة؟ كيف لها أن تعيش بهذا الألم؟

ثمّ تدخّلت الأقدار ودفعت بالخالة لورا إلى غرفة الجلوس لتبحث في درج المكتبة السّفلي عن رسالة ما تريد معاينتها، فأخذت معها إيميلي لتريها علبة سعوط قديمة طريفة كانت من ممتلكات هيو موراي. وبينما كانت بصدد التّفتيش عنها، سحبت حزمة هائلة من الأوراق الغابرة -أوراق ذات لون ورديّ عميق في شكل مستطيلات طويلة ضيّقة.

فقالت: «آن الأوان لتُحرق فواتير الرّسائل هذه. يا لها من كومة! ظلّت هنا تُراكِم الغبار طيلة سنوات ولا فائدة تُجنى منها. هل تعلمين، يا إيميلي، أنّ أبي أقام مكتب بريد هنا، في القمر الجديد؟ كان البريد يصلنا آنذاك ثلاث مرّات في الأسبوع، وتأتينا معه كلّ مرّة إحدى هذه الأوراق الطّويلة الحمراء، وكانت تُسمّى بـ«فواتير الرّسائل». دأبت أمّي على الاحتفاظ بها، رغم أنّها عديمة الفائدة بعد استعمالها مرّة واحدة. ولكنّني سأحرقها حالاً».

شهقت إيميلي، ممزّقة بين الرّغبة والخوف لدرجة أنّها بالكاد نطقت، وقالت: «أوه، لا تفعلي ذلك -بل أعطيها لي، *أرجوك* أن تعطيها لي».

«ربّاه، ماذا عساك أن تفعلي بها يا طفلة؟».

«آه يا خالتي، إنّ ظهورها فارغ لا تنتظر إلّا أن تملأها الحروف. أرجوك خالتي لورا، إنّه *لذنبٌ عظيم* لو أُحرقت هذه الفواتير».

«خُذيها يا عزيزتي. ولكن إيّاك أن تراها إليزابيث».

لهثت إيميلي قائلةً: «لن تراها -لن تراها».

جمعت ذخيرتها النّفيسة بين ذراعيْها، ثمّ انطلقت بها إلى السّقيفة، حيث كان لها «ملاذ أمين» تطلق فيه العنان لأفكارها كعادتها، وتسافر بها آلاف الأميال دون أن تنزعج منها الخالة إليزابيث. ويقع ملاذها ذاك في ركن الرّوشن، حيث يعمّ الهدوء وتتمايل الظّلال في رقّة ودلال فترسم على الأرضيّة العارية تفاصيل فسيفساء بديعة.

ومن الرّوشن، يلوّح المُشاهِد بنظره إلى ما وراء قمم الأشجار فيتراءى له معبد المياه. وكانت على الجدران حزم ضخمة من لفائف الصّوف النّاعمة على أتمّ الاستعداد للنّسج، ومعها خصلات من الغزل لم تفكّك بعدُ. وكانت خالتها لورا تجالسها أحيانًا في الطّرف الآخر من السّقيفة وتدير عجلة الغزل الضّخمة، فتطرب إيميلي لأزيزها الصّادح.

تربّعت إيميلي على عتبة الروشن، والتقطت أنفاسها وهي تتناول فاتورة رسالة وتجذب من جيبها قلم رصاص. وجعلت على ركبتيْها قطعة من الورق المقوّى القديم لتحلّ محلّ مكتب، ثمّ راحت تكتب في نسق محموم.

«أبي العزيز» -ثمّ انغمست تكتب حادثة ذاك اليوم بكلّ تفاصيلها -بنشوتها وألمها-، وانصبّ تركيزها في الكتابة فتلاشى من حولها العالم إلى أن غابت الشّمس وحلّ شفق مرصّع بالنّجوم. وظلّ الدّجاج يومها بلا أكل، وتكفّل ابن العمّ جيمي بإعادة البقرات بنفسه، وتولّت الخالة لورا غسل الأواني -ولكن هل لذلك من أهمّية تُذكَر؟ كانت إيميلي تحلّق في مهبّ التّأليف الأدبيّ، في منأى عن كلّ متاع الدّنيا.

لم تُشبع إيميلي نهم الكتابة إلّا بعدما ملأت ظهور أربع فواتير رسائل. ولكنّها أفرغت فيها جام روحها وتحرّرت من كلّ أهوائها الخبيثة، لدرجة أنّها لم تعد تكترث للآنسة براونيل. وطوت إيميلي رسائلها ثمّ كتبت على ظهر الحزمة بخطّ واضح:

السّيد دوغلاس ستار،

في الطّريق إلى الجنّة.

ثمّ توجّهت إلى ركن أعزل يأوي مقعدًا قديمًا باليًا، وجثت أمامه على ركبتيْها. كان هنالك لوح مثبّت أسفل المقعد وكأنّه رفّ صغير، فدسّت فيه رسالتها و«فواتير رسائلها» بإحكامٍ. وقد سبق لإيميلي أن اكتشفت ذاك الرّف وهي تلعب يومًا في السّقيفة، ولاحظت أنّه قد يكون موقعًا لطيفًا لإخفاء شتّى الوثائق السّريّة. لا أحد سيعثر عليها هنا، وها قد غدا بحوزتها من الأوراق ما يكفيها طيلة أشهرٍ -كان لديها مئاتٌ من أولئك الفواتير الزّاهية.

هتفت إيميلي راقصة على سلّم السّقيفة: «آه! أشعر وكأنّني صرتُ رذاذًا من النّجوم!».

قلّما مرّ يومٌ بعد ذلك دون أن تصعد إيميلي إلى السّقيفة لتكتب رسالة، طويلة أو قصيرة، لوالدها. فتلاشت المرارة من حزنها على فقدانه، وبدا لها والدها قريبًا منها كلّما راسلته، فأخبرته بكلّ شيء بتلك الصراحة الّتي تميّزها، صراحة الاعترافات. وروت له الانتصارات مثل الهزائم، والأفراح مثل الأتراح، وانصبّ كلّ ما يختلج في بالها على تلك الفواتير المتبقّية من حكومة لم تقصد أيّ الأوراق كما صارت تفعل لاحقًا. فقد كان في كلّ فاتورة نصف ياردة بالتّمام والكمال، وصغّرت إيميلي في خطّها لتستغلّ أدنى بوصة منها.

«تعجبني مزرعة القمر الجديد. كلّ ما فيها *فخم ورائع*. ويبدو لي

أنّنا من أرقا[1] الأرستوقراتيّين[2] لأنّ لدينا مزولة. لا أستطيع تمالك شعوري بالفخر، فأسأل الربّ كلّ ليلة أن يزيح عنّي مُعضمه[3] ولكن ألّا يأخذه كلّه. فمن السّهل أن تذيع سُمعة الغرور عن التّلاميذ في مدرسة معبد المياه، ويكفي أن تمشي منطصب[4] القامة وأن ترفع رأسك لتُوصف بالغرور. وَرودا فخورة أيظًا[5] لأنّه كان يجدر بوالدها أن يكون ملك إنجلترا. يا ترى ماذا سيكون شعور الملكة فيكتوريا لو علمت بالأمر. كم رائع أن تكون لي صديقة كانت ستصبح أميرة لو أُعطي كلُّ ذي حقّ حقّه. أحبّ رودا من أعماق قلبي. إنّها لطيفة وطيّبة. ولكنّني لا أحبّ ضحكها. ولمّا أخبرتها بأنّه يمكنني أن أرى ورق جدران المدرسة مصغّرًا في الهواء قالت أنتِ تكذبين. يؤلمني ألمًا شديدًا أن أسمع ذلك من أعزّ صديقاتي، ويؤلمني ذلك أكثر لمّا أستيقظ وسط اللّيل وأفكّر في الأمر. وظللت صاحية لمدّة طويلة أيضاً، لأنّني تعبت من النّوم على جانب واحد، وخفت أن أنقلب على جانبي الآخر فتظنّ خالتي إليزابيث أنّني أهتزّ.

«لم أجرؤ على إخبار رودا بسيّدة الرّياح لأنّني أظنّ أنّها كذبة إلى حدّ ما، ولو بدت لي حقيقيّة جدًّا. إنّني أسمعها الآن تغنّي فوق

---

(1) خطأ متعمّد من الكاتبة يبينّ قلّة خبرة إيميلي وتعثّرها اللّغوي والإملائي. الصّواب: أرقى.

(2) الصّواب: الأرستقراطيّين.

(3) الصّواب: معظمه.

(4) الصّواب: منتصب.

(5) الصّواب: أيضًا.

السّطح حول المدخنة الكبرى. ليست معي إيميلي-في-المرآة هنا، فالمرايا عالية جدّاً في الغرف الّتي زرتها. ولكنّني لم أزر الشّرفة لأنّها موصدة دائماً. كانت تلك غرفة أمّي، ويقول ابن عمّي جيمي إنّ والدها أقفلها بعد هروبها معك، وأبقتها خالتي إليزابيث على حالها إكراماً لذكراه، رغم أنّ ابن عمّي جيمي أخبرني بأنّ خالتي إليزابيث كانت تتشاجر مع والدها شجاراً شنيعاً في حياته، ولكن لا أحد من الغرباء يعلم بالأمر بسبب كبرياء موراي. وأنا أيظاً[1] أشعر بذلك، فعندما سألتني رودا هل تشعل خالتي إليزابيث الشّموع لأنّها دقّة قديمة، أجبتها بترفّع لا، ذلك تكليد[2] من تكاليد[3] موراي. أخبرني ابن عمّي جيمي بجميع تكاليد[4] آل موراي.

سوسي سال بخير وهي تتصلّط[5] على قطط الحظائر، ولكنّها لم تُرزق بصغار بعدُ ولا أفهم السّبب. وسألت خالتي إليزابيث عن الأمر فقالت إنّ الفتيات المهذّبات لا يتحدّثن في مواضيع من هذا القبيل، ولكنّني لا أفهم ما الّذي لا يليق في صغار القطط. نُسرّب أنا وخالتي لورا سوسي سال إلى المنزل في غياب خالتي إليزابيث، ولكنّني أشعر بالذّنب كلّما عادت وأتمنّى لو لم أفعل ذلك. *ولكنّني أعيد الكرّة في المرّة الموالية*. يبدو لي الأمر غريبًا جدًّا. لم تصلني

(1) الصّواب: أيضًا.
(2) الصّواب: تقليد.
(3) الصّواب: تقاليد.
(4) الصّواب: تقاليد.
(5) الصّواب: تتسلّط.

أخبار مايك العزيز. وسألت عنه إيلين غرين لمّا راسلتها فلم تذكر مايك في ردّها ولكنّها أخبرني عمّا تعاني من روماتيزم. وكأنّني أبالي بروماتيزم إيلين غرين.

«ستنظّم رودا حفل عيد ميلاد، وسأكون من المدعوّين. أنا متحمّسة جدّاً لذلك. أنت تعلم أنّني لم أحظر[1] حفلًا قطُّ. صرت أفكّر في الأمر كثيراً وأتخيّل تفاصيله. لن تدعو رودا كثيراً من الفتيات بل ثلّة من المقرّبات. آمل أن تسمح لي خالتي إليزابيث بأن ألبس فستاني الأبيض وقبّعة جميلة. آه يا أبتِ، لقد علّقت تلك الصّورة الجميلة لفستان السّهرة من الدّانتيل الأبيض على الحائط في غرفة خالتي إليزابيث، مثلما كانت في بيتنا تماماً، فنزعتها خالتي إليزابيث وأحرقتها وأنّبتي لأنّني تركت آثار دبابيس على ورق الحائط. فقلت لخالتي إليزابيث ما كان عليكِ أن تحرقي الصّورة. أردت أن أحتفظ بها إلى أن أكبر لأعدّ فستاناً مثل الّذي فيها لحظور[2] الحفلات. فسألتني خالتي إليزابيث أتتوقّعين حظور[3] الكثير من الحفلات لو سمحت لي بالسّؤال، فقلت أجل عندما أصبح ثريّة ومشهورة، فقالت خالتي إليزابيث أجل عندما تشرق الشّمس من الغرب.

«رأيت الدكتور برنلي أمس لمّا جاء لشراء بعض البيض من عند خالتي إليزابيث. وخاب أملي لأنّه لا يختلف عن سائر النّاس

---

(1) الصّواب: أحضر.

(2) الصّواب: حضور.

(3) الصّواب: حضور.

في شيء. ظننت أنّ شخصاً لا يؤمن بالرّب سيكون غريب المظهر نوعاً ما. وهو لم يتفوّه بكلام بذيئ[1] أيظاً[2]، وآسفني ذلك لأنّني لم أسمع كلاماً بذيئً[3] في حياتي، وكنت أنتظر ذلك بفارغ الصّبر. عيناه كبيرتان صفراوان كعيني إيلسي وصوته جهوريّ، وتقول رودا إنّك تسمعه في كلّ أنحاء معبد المياه عندما يصيح. ثمّة سرّ يحوم حول والدة إيلسي اصطعصى[4] عليّ فهمه. يعيش الدّكتور برنلي وإيلسي بمفردهما. وتقول رودا إنّ الدّكتور برنلي يقول عليّ اللّعنة لو أدخلت ظفر امرأة إلى بيتي. إنّه قول لاذع، ولكنّه مؤثّر. وتزورهما السّيدة سيمز العجوز لتطهو لهما الغداء والعشاء ثمّ تنصرف، ويتولّيان إعداد فطورهما لوحدهما. ويكنس الدّكتور البيت من حينٍ إلى آخر، أمّا إيلسي فلا تفعل شيئاً إلّا أن تسير وفق مشيئتها. ولا يبتسم الدّكتور أبداً، بحسب ما تقول رودا. من المؤكّد أنّه مثل الملك هنري الثّاني.

«أودّ أن أتعرّف إلى إيلسي برنلي. هي ليست لطيفة كرودا ولكن يعجبني مظهرها، هي الأخرى. ولكنّها لا تتردّد كثيراً على المدرسة ثمّ إنّ رودا تقول إنّه يجب ألّا تكون لي أيّة صديقة أخرى سواها، وإلّا فستذرف كلّ ما لديها من دموع. وسندعو الرّب لكي نعيش معاً ما حيينا، ونموت في اليوم ذاته.

---

(1) الصّواب: بذيء.
(2) الصّواب: أيضًا.
(3) الصّواب: بذيئًا.
(4) الصّواب: استعصى.

«خالتي إليزابيث تعدّ لي دائماً وجبة المدرسة. وهي لا تريد أن تظع[1] لي فيها إلاّ الخبز والزّبدة، ولكنّها تقطع لي شرائح كثيفة من الخبز وتظع[2] عليها كميّة وفيرة من الزّبدة أيضاً وزبدتها ليست سيّئة المذاق كزبدة إيلين غرين. وتُسرِّب لي خالتي لورا قطعة بسكويت أو معمول تفّاح خلسةً عن خالتي إليزابيث. تقول خالتي إليزابيث إنّ معمول التّفاح مظرّ[3] لي. لماذا كلّما كان الأكل لذيذًا ازداد ظرره[4] يا أبي؟ هذا ما كانت تقوله إيلين غرين أيضاً.

«مدرّستي تدعى الآنسة براونيل. وقد وقعت على قلبي وقع النّشاز على الأذن. (إنّها مصطلحاة[5] مقتبسة من الموسيقى سمعتها على لسان ابن عمّي جيمي. أعلم أنّني لم أكتب مصطلحاة[6] على النّحو الصّواب، ولكن ليس هنالك معاجم في القمر الجديد ولكنّها تُنطق بتلك الطّريقة.) إنّها شديدة السّخرية وتستمتع بئهانتنا[7]، ثمّ تظحك[8] منّا ظحكة[9] بشعة نخرة[10]. ولكنّني سامحتها بعدما صفعتني وقدّمت لها في اليوم الموالي باقة زهور في المدرسة التماساً

(1) الصّواب: تضع.
(2) الصّواب: تضع.
(3) الصّواب: مضرّ.
(4) الصّواب: ضرره.
(5) الصّواب: مصطلحات.
(6) الصّواب: مصطلحات.
(7) الصّواب: إهانتنا.
(8) الصّواب: تضحك.
(9) الصّواب: ضحكة.
(10) الصّواب: ناخرة، أي من خياشيمها.

للمعذرة. فتقبّلتها ببرود شديد وتركتها تذبل على مكتبها. في رواية أخرى، كانت ستبكي في حظني[1]. لا أدري إن كانت هنالك فائدة تُذكر من مسامحة الغير. أجل، الفائدة هي أن يرتاح بال المرء ويرظى[2]. أنت كنت ولداً يا أبي، فلم يسبق لك أن ارتديت مئزر رُظَّع[3] أو قبّعة، ولا يمكنك إذن أن تفهم ما أشعر حيالها. مئزري مصنوع من قماش جيّد لن يفسد أبداً، ولن أكبر عنه إلّا بعد سنوات طويلة. ولكن لديّ فستان أبيض ألبسه للذّهاب إلى الكنيسة مع وشاح حريريّ أسود وقبّعة من السّعف الأبيض ذات أشرطة سوداء ونعل أسود، وأشعر بالأناقة كلّما لبستها. وأتمنّى لو كانت لي غرّة، ولكن رفضت خالتي إليزابيث رفضاً قاطعاً. وقالت لي رودا إنّ عينيَّ جميلتان. لطالما شككت في أنّهما حلوتان، ولكن لم أكن متأكّدة. أمّا الآن، وقد تأكّدت، فأخشى أن أتساءل طيلة الوقت إن كان النّاس يلحظون جمالهما. عليّ أن ألزم الفراش على السّاعة الثّامنة والنّصف ولا يروق لي الأمر، ولكنّني أجلس في الفراش وأنظر من النّافذة إلى أن يخيّم الظّلام، لكي أنتقم من خالتي إليزابيث، وأظلّ أصغي إلى صوت البحر. صرت أحبّ صوته الآن، ولو أنّه يبعث فيّ الشّجن، ولكنّه شجن لطيف نوعاً مّا. وعليّ أن أنام مع خالتي إليزابيث، ولا يعجبني ذلك أيضاً لأنّها تقول إنّني أتقلّب لو

(1) الصّواب: حضني.
(2) الصّواب: يرضى.
(3) الصّواب: رُضَّع.

صدرت منّي أدنى حركة، ولكنّها تقرّ بأنّني لا أركلها. ولا تسمح لي بفتح النّافذة، كما أنّها لا تحبّ دخول الهواء النّقي أو الضّوء إلى المنزل. والرّدهة عاتمة كالقبر. دخلتها ذات يوم ورفعت كلّ السّتائر ففزعت خالتي إليزابيث ونعتتني بالوقحة وحدجتني بنظرة موراي. يكاد المرء يخال أنّني أقدمت على جريمة. شعرت بالإهانة لدرجة أنّني جئت إلى السّقيفة وكتبت على إحدى الفواتير وصفًا تخيّلت فيه نفسي أغرق، فشعرت بالارتياح. ومنعتني خالتي إليزابيث من دخول الرّدهة دون إذنٍ، ولكنّني لا أريد ذلك أصلاً. فأنا أخاف من الرّدهة. عُلّقت على جدرانها صور أسلافنا ولا أحد فيهم جميل، ما عدا جدّي موراي الّذي كان وسيماً ولكنّه شديد الصّرامة. وثمّة غرفة شاغرة في الطّابق العلوي، وهي على غرار الرّدهة، غارقة في الظّلام. ولا تسمح خالتي إليزابيث إلّا للظّيوف[1] الوُجهاء بالنّوم فيها. وأحبّ المطبخ في النّهار، وكذلك السّقيفة والمطبخ الخارجي وغرفة الجلوس والرّواق لأنّ فيه الباب الأحمر الجميل وأحبّ الملبنة أيضاً، ولكن لا تعجبني سائر غرف القمر الجديد. آه، نسيت خزانة السّرداب. أحبّ الذّهاب هناك لأشاهد أواني المربّى والمعجون مرصّفة في صفوف رائعة. يقول ابن عمّي جيمي إنّ تكاليد[2] القمر الجديد تقضي بألّا يفرغ منها إناء واحد. ما أكثر تكاليد[3] القمر

(1) الصّواب: للضّيوف.

(2) الصّواب: تقاليد.

(3) الصّواب: تقاليد.

الجديد. إنّه منزل فسيح، وأشجاره حلوة. أسميت أشجار حور لومباردي الثّلاثة حذو بوّابة الحديقة «الأميرات الثّلاثة»، وأطلقت على البيت الصّيفي القديم «عريش إيميلي»، أمّا شجرة التّفاح الكبيرة بجانب بوّابة البستان القديم فلقّبتها بـ«الشّجرة الخاشعة»، لأنّها تضمّ أغصانها الطّويلة تماماً كما يضمّ السّيد دير يديه للصّلاة في الكنيسة.

«أتاحت لي خالتي إليزابيث استعمال الدرج العلوي على يمين الخزانة لأضع فيه أغراضي.

«آه يا أبتِ، لقد اكتسفت[1] اكتسافًا[2] عظيمًا. ليتني اكتسفته[3] وأنت على قيد الحياة لأنّه كان ليعجبك. إنّني *أجيد نظم الشّعر*. ولعلّني كنت قادرة على ذلك منذ زمن طويل لو حاولت. ولكن بعد ذاك اليوم الأوّل في المدرسة شعرت بأنّ لي عهداً يجب أن أوفي به، وكان الأمر في غاية السّهولة. ثمّة كتاب ذو غلاف أسود مبطّن في مكتبة خالتي إليزابيث عنوانه *الفصول* للشاعر طومسون، فقرّرت أن أكتب قصيدة عن أحد الفصول، وها هي أبياته الثلاث الأولى:

حلّ الخريف ونضج الخوخ والإجّاس[4]،

ودوّى بوق الصّياد عبر البراري الخضراء،

---

(1) الصّواب: اكتشفت.

(2) الصّواب: اكتشافًا.

(3) الصّواب: اكتشفته.

(4) الصّواب: الإجّاص.

فسقط الحجل المسكين مرفرفًا ومات.

«ليس هنالك خوخ في جزيرة الأمير إدوارد طبعاً، ولم أسمع فيها بوق صيّادٍ قطّ، ولكن ليس الشّاعر مجبراً على الالتزام بالحقائق. ملأتُ فاتورة كاملة بقصيدتي ثمّ سارعت بقراءتها إلى خالتي لورا. ظننت أنّها ستطير فرحاً إذا ما اكتشفت أنّ ابنة أختها تجيد كتابة الشّعر، ولكنّها أصغت لي بلا اهتمام وقالت إنّه لا يبدو لها شعراً. فصحت إنّه شعر حُرّ. فقالت خالتي إليزابيث بتهكّم أجل مفرط الحرّية فعلاً، رغم أنّني لم أطلب رأيها. ولكن أظنّ أنّني سألتزم بالقوافي من هنا فصاعدًا لكي أرفع اللّبس عن شعري وأنا أنوي أن أصبح شاعرة مشهورة عندما أكبر. أتمنّى أيضاً أن أكون رشيقة. يجب أن تكون الشّاعرات رشيقات. ابن عمّي جيمي يؤلّف الشّعر أيضًا. وقد ألّف أكثر من 1000 قصيدة ولكنّه لا يدوّنها أبداً، بل يحفظها في ذهنه. واقترحت عليه بعظًا[1] من فواتيري -لأنّه لطيف جدًّا معي- ولكنّه قال إنّه أكبر ممّا يسمح له بتعلّم عادات جديدة. لم أسمع من شعره شيئاً لأنّ مهجته لم تتحرّك، ولكنّني أنتظر ذلك بفارغ الصّبر وآسف لأنّ الخنازير لا تُسمّن إلّا في الخريف. أحبّ ابن عمّي جيمي أكثر فأكثر كلّ يوم، ما عدا في تلك النّوبات الغريبة عندما ينظر في الفراغ ويتحدّث. أخاف منه حينها، ولكنّ ذلك لا يدوم. قرأت كتباً كثيرة من مكتبة القمر الجديد؛ منها *تاريخ الإصلاح البروتستانتي في فرنسا*، وهو

(1) الصّواب: بعضًا.

كتاب دينيّ وحزين جدّاً، ومنها كتاب ظخم[1] يصف الأشهر في إنجلترا، بالإظافة[2] إلى *فصول* طومسون الآنف الذّكر. أحبّ قراءتها لأنّ فيها كثيراً من الكلمات الجميلة، ولكن لا يروق لي ملمسها. فأوراقها حرشى[3] سميكة ويقشعرر[4] لها جسدي. وقرأت أيضًا *رحلات في إسبانيا*، وهو كتاب شيّق ذو أوراق ناعمة لامعة، وكتاباً تبشيريّاً عن جزر المحيط الهادي، فيه صور استرعت انتباهي بسبب تسريحة القادة الوثنيّين، ولكنّهم حلقوا شعرهم بعدما اعتنقوا المسيحيّة ويا للخسارة! وقرأت قصائد السّيدة هيمانس. أنا مولعة جدّا بالشّعر، وكذلك بقصص الجزر المهجورة. وشرعت في قراءة رواية *روب روي*، ولكن لم أقرأ منها إلّا قليلا لأنّ خالتي إليزابيث أمرتني بألّا أقرأ الرّوايات. ولكن اقترحت عليّ خالتي لورا أن أقرأها خلسة. ولا أدري ما الّذي يمنعني من اتّباع نصيحة خالتي لورا، ولكن ساورني شعور غريب ولم أفعل بعدُ. وقرأت *كتاب النّمور*، كتاب جميل يزخر بصور النّمور وقصصها وأشعر برجفة لذيذة كلّما قرأته. *درب الملوك*، وهو أيضًا كتاب دينيّ ولكنّه مسلٍّ، ما يجعله مطالعة مثلى ليوم الأحد. *روبن وغرايس*، وهو قصّة ولكن ليست رواية، لأنّ روبن وغرايس أخ وأختٌ ولن يتزوّجا. *كايتي الصّغيرة وجيم*

(1) الصّواب: ضخم.
(2) الصّواب: بالإضافة.
(3) الصّواب: حرشاء.
(4) الصّواب: يقشعرّ.

البشوش، وهو مثل العنوان السّابق ولكنّه أقلّ تشويقًا ومأساويّة. *قوّة عجائب الطّبيعة*، وهو جيّد ويعجبني أكثر فأكثر. *أليس في بلاد العجائب*، وهو رائع؛ ثمّ مذكّرات *أنتزونيتا ب. بيترز*، اعتنقت المسيحيّة في سنّ السّابعة وتوفّيت في الثّانية عشرة. وكلّما سُئلت سؤالًا، تجيب ببيت من ترنيمة. وحدث ذلك بعد اعتناقها الدّيانة المسيحية، أمّا قبلها فكانت تتحدّث الإنجليزية. وقالت لي خالتي إليزابيث إنّ عليّ أن أحاول الاقتداء بأنتزونيتا. وأظنّ أنّني قد أكون أليس لو سمحت لي الظّروف، ولكنّني على يقينٍ من أنّني لن أكون في استقامة أنتزونيتا، وأظنّ أنّني لا أريد ذلك لأنّ حياتها غير مسلّية بالمرّة. فهي أصيبت بمرض حالما صارت مسيحيّة، وذاقت آلامًا مريرة طيلة سنوات. ثمّ إنّي متأكّدة من أنّ الجميع سيسخر منّي لو تحدّثت بالتّرنيمات. وجرّبت ذلك مرّة إذ سألتني خالتي لورا إن كنت أفضّل الجوارب المخططّة بالأزرق على تلك المخططّة بالأحمر للشّتاء المقبل، فأجبت بمثل ما أجابت أنتزونيتا لمّا سُئلت عن ثيابها سؤالًا مشابهًا، ولو اختلف قليلاً، فقالت:

أيا يسوعُ، دمك الشّفيع

هو جمالي وثوبي البديع.

فقالت خالتي لورا إنّني مجنونة وقالت خالتي إليزابيث إنّني أستخفّ بالمقدّسات. وعلمت إذن أنّ الأمر لا ينفع. ثمّ إنّ أنتزونيتا لم تأكل شيئًا طيلة سنوات لأنّ لها قرحًا في معدتها وأنا مولعة بالأكل.

«السّيد وايلز العجوز سيموت من مرظ[1] الصرّطان[2]، وقالت جيني سترانغ إنّ زوجته أعدّت عدّتها للحداد.

«كتبت اليوم سيرة سوسي سال ووصفًا للطّريق المؤدّي إلى أيكة جون المتغطرس. سأرفقهما بالرّسالة لتقرأهما أيضًا. ليلةً سعيدةً يا أبي العزيز.

«خادمتك المتواضعة والمطيعة،

«*إيميلي ب. ستار.*

«تذييل: أظنّ أنّ خالتي لورا تحبّني. أحبّ أن يحبّني النّاس يا أبتِ.

«*إ. ب. س*».

(1) الصّواب: مرض.
(2) الصّواب: السرّطان.

آلام متفاقمة

دار في المدرسة حماس مكتومٌ في الأسبوع الأخير من حزيران، وسببه حفل عيد ميلاد رودا ستيوارت الّذي سيُقام في مطلع شهر تمّوز. كان الجميع يتحرّق شوقًا. يا ترى من سيُدعى إليه؟ كان ذاك سؤال الموسم. فبعضهم يعلمون أنّهم مدعوّون، وآخرون يدركون أنّهم لن يُدعَوا إليه، ولكن ظلّ السّواد الأعظم في تشويق قاتل. وباتت إيميلي محلّ الملاطفات لأنّها أعزّ صديقات رودا، ومن المعقول أن يؤخذ رأيها بعين الاعتبار في ما يخصّ انتقاء المدعوّين. بل وصل الأمر بجيني سترانغ إلى أن أهدت إيميلي علبة أقلام بيضاء جميلة على غطائها صورة رائعة للملكة فيكتوريا، بشرط أن تضمن لها دعوةً. ورفضت إيميلي الرّشوة قائلة بنبرة متعالية إنّها لن تتدخّل في مسألة حسّاسة من هذا القبيل. ولم تُخفِ إيميلي شيئًا من التّباهي، إذ كانت من القلائل الّذين لا ريبَ في دعوتهم، بل أخبرتها رودا عن الحفل منذ أسابيع وتناقشتا بشأنه نقاشًا مطوّلًا. ويبدو أنّه سيكون حفلًا عظيمًا -فستُقدَّم فيه كعكة عيد ميلاد مغطّاة بكريمة ورديّة ومرشّقة بعشر شموع طويلة ورديّة، ومثلّجات وبرتقال، وستُوزَّع دعوات ورديّة ذات حاشية ذهبيّة تُرسلها رودا عن *طريق* مكتب

البريد –وتلك لمسة خاصّة لإضفاء مزيد من الحصريّة. وحلمت إيميلي بالحفل صباحًا ومساءً وجهّزت هديّتها لرودا سلفًا –شريط شعر أنيق جلبته لها خالتها لورا من مطمر الفأر.

في يوم الأحد الأوّل من شهر تمّوز، وجدت إيميلي نفسها جالسةً حذو جيني سترانغ في أوّل تمارين دروس الأحد. كانت تجلس عادةً مع رودا، ولكنّ رودا تقدّمت أمامها بثلاثة صفوف وجلست مع فتاة صغيرة غريبة –فتاة زاهية تخطف الأنظار، ترتدي فستانًا من الحرير الأزرق وقبّعةَ سعف موشّحةً بالأزهار على شعر ملولب بإحكام، تنسدل من ناصيته غرّة إلى حدّ عينيها، وفي رجليْها المكتنزتين جوربان من الدّانتيل الأبيض. لكن لم ينفع عقّار بهرجها في ما أفسدته الطّبيعة، إذ لم تكن فيها ذرّة جمال، وكان وجهها لا ينمّ إلّا عن الغرور والفظاظة.

همست إيميلي: «من تلك الفتاة الّتي مع رودا؟».

فأجابت جيني: «آه، إنّها موريال بورتر. حضرتها بنتُ مدينة. جاءت لقضاء عطلة الصّيف مع خالتها، جاين بيتي. إنّي أكرهها. لو كانت لي بشرة سمراء كبشرتها لما *حلمت* بأن ألبس اللّون الأزرق. لكن آل بورتر أثرياء، وتخال موريال نفسها آية الله في خلقه. يُقال إنّها تقرّبت جدًّا من رودا منذ قدومها –هكذا هي رودا، تسعى دومًا وراء أيّ شخص من الطّبقات الرّاقية».

تصلّبت ملامح إيميلي. لن ترضى بسماع مثل هذه الملاحظات المهينة عن أصدقائها.

شعرت جيني بتصلّبها فغيّرت نبرتها.

«على كلّ حال، أنا سعيدة لأنّ رودا لم تدعُني إلى حفلتها. ما كنت لأريد الذّهاب كي أرى موريال بورتر تتبختر زهوًا هناك».

تساءلت إيميلي: «كيف علمت أنّك لست مدعوّة؟».

«لقد أرسلت الدعوات أمس. ألم تتسلّمي دعوتك؟».

«لا-ا-ا».

«هل جاءكم البريد؟».

«أجل، جلبه ابن عمّي جيمي».

«ربّما نسيت السّيدة بيتشر أن تعطيه الدعوة. ستصلك غدًا بالتّأكيد».

وافقت إيميلي على أنّ الأمر مؤكّدٌ فعلًا، ولكن ساورها ارتباك استفحل لمّا غادرت رودا مع موريال بعد الدّروس دون أن تعير الآخرين نظرة واحدة. وفي يوم الاثنين، قصدت إيميلي مكتب البريد بنفسها، فلم تجد ظرفًا ورديًّا في انتظارها هناك. انتحبت في تلك اللّيلة حتّى نامت، بيد أنّ الأمل لم يبرحها تمامًا إلّا بعد يوم الثّلاثاء. آنذاك لم تجد بدًّا من مواجهة الحقيقة المرّة، وهي أنّها، إيميلي بيرد ستار، لم تُدعَ لحضور حفل رودا. يكاد الأمر لا يُصدّق، فلا بدّ أنّ هنالك خطأً ما. هل أضاع ابن العمّ جيمي الدّعوة في طريقه إلى المنزل؟ هل غفلت أخت رودا الكبرى عن اسمها عند كتابة الدّعوات؟ هل... وتلاشت شكوك إيميلي إلى الأبد في مرارة

اليقين لمّا التحقت بها جيني أمام مكتب البريد. لاح في عيني جيني الخرزيّتيْن بريقٌ خبيث، فرغم أنّها تقرّبت من إيميلي بعد معركة لقائهما الأوّل في المدرسة، راق لها أن ترى كبرياء صديقتها يتذلّل أخيرًا.

«إذن لستِ مدعوّة إلى حفلة رودا في نهاية المطاف».

أقرّت إيميلي: «كلّا».

كانت اللّحظة مريرة جدًّا، وشعرت بكبرياء موراي يئنّ داخلها تحت وطأة الإهانة؛ ووراءه شيءٌ آخر مثخّن بجروح بليغة ولكن لم يمت بعدُ.

تعاطفت جيني تعاطفًا صادقًا مع إيميلي على الرّغم من شماتتها الخفيّة، فقالت لها: «إنّه اللّؤم بعينه. بعد كلّ ما أبدت لك من اهتمام وتعلّق! ولكن تلك هي رودا ستيوارت، والخيانة هي أقلّ ما يُقال *عنها*».

فقالت إيميلي، حريصة على الوفاء إلى آخر رمق: «لا أظنّها خائنة، لا بدّ أنّ هنالك خطأً ما تسبّب في ضياع دعوتي».

حدّقت فيها جيني.

«ألا تعلمين بالسّبب إذن؟ لقد أخبرتني بيث بيتي بالقصّة كلّها. موريال بورتر تكرهك، ولم تتردّد في الذّهاب إلى رودا وإخبارها بأنّها لن تحضر حفلها لو كنت من المدعوّين. كانت رودا ستموت شوقًا لاستقبال فتاة من المدينة في حفلها، فوعدتها بألّا تدعوَك».

شهقت إيميلي قائلة: «ولكن موريال بورتر لا تعرفني، كيف لها أن تكرهني؟».

فابتسمت جيني ابتسامة شيطانيّة.

«سأخبرك بالسّبب. إنّها معجبة بفريد ستيوارت إلى حدّ الجنون، وهو يعلم بالأمر، فأخذ يمازحها بالثّناء عليك أمامها -وأخبرها بأنّك ألطف فتاة في معبد المياه وأنّه ينوي الارتباط بك لّما تكبرين. فجنّ جنون موريال والتهبت نيران غيرتها لدرجة أنّها أجبرت رودا على إقصائك. ولو كنت محلّك لما اكترثت بالأمر، فمقام آل موراي من القمر الجديد أعلى من أن تطاله تلك القاذورات. أمّا عن خيانة رودا فأنا أؤكّد لك أنّها الحقيقة عينها. ربّاه، لقد قالت لك إنّها لا تعلم بأمر الثّعبان في العلبة، في حين أنّها صاحبة الفكرة منذ البداية».

عجزت إيميلي عن الإجابة من شدّة ما انفطر قلبها. وكانت سعيدة عندما ذهبت جيني في طريقها وتركتها في حال سبيلها. وسارعت إلى البيت، خشية أن تخونها دموعها قبل أن تصل هناك. وتلاشت خيبة إقصائها من الحفل والخزي الّذي انجرّ عن إهانتها، ليطغى عليها ألم خيانة الصّداقة وانتهاك الثّقة. مات في قلبها حبّ رودا نهائيًّا، وشعرت في أعماقها بألم الضّربة الّتي قضت عليه. كان الأمر مأساة في نظرها الطّفوليّ -وهذا ما زادها مرارة، إذ لم يكن لها أحدٌ ليفهمها. قالت لها خالتها إليزابيث إنّ حفلات أعياد الميلاد هراء لا طائل منه وإنّ عائلة ستيوارت ليست من العائلات الّتي يخالطها آل موراي. وحتّى خالتها لورا، رغم الطّبطبة والمواساة،

لم تدرك عمق جرحها ومدى ألمه -إذ كان عميقًا أليمًا حتّى أنّها لم تكتب عنه حتّى لوالدها، ولم تجد مخرجًا لكلّ الأشجان العنيفة الّتي زعزعت كيانها.

في يوم الأحد الموالي، جلست رودا بمفردها في دروس يوم الأحد، إذ اضطرّت موريال بورتر إلى العودة فجأة إلى المدينة بسبب مرض والدها؛ فنظرت رودا إلى إيميلي نظرة عذبة. ولكن تجاوزتها إيميلي مرفوعة الهامة، وقد علا الازدراء أدنى أساريرها. كان من المُحال أن تقرب رودا مجدّدًا -لن تستطيع، بل كنّت لها مزيدًا من الكره عندما حاولت الرّجوع إليها بعد أن هجرتها فتاة المدينة، تلك الّتي ضحّت رودا بها في سبيل إرضائها. لم تحزن على فقدان رودا في حدّ ذاتها، بل على تلك الصّداقة الّتي كانت عزيزةً على قلبها، فقد كانت رودا لطيفة وعزيزة عليها *بالفعل*، ظاهريًّا على الأقلّ، ونعمت إيميلي في رفقتها بسعادة خالصة. وها هي ذي الصّداقة تندثر الآن، ولن تستطيع إيميلي أن تحبّ أحدًا أو تثق فيه إلى *أبد الآبدين*، و*ذاك* هو الألم كلّ الألم.

أثّر الأمر سلبًا على كلّ ما لديها، فقد كانت إيميلي، بحكم طبعها الخاص، غير قادرة على أن تتعافى من صدمة من ذاك القبيل أو تنساها بسرعة، حتّى وهي طفلة. ظلّت تهيم في القمر الجديد كئيبةً، وفقدت شهيّة الأكل وهزل جسدها. غدت تكره الذّهاب إلى دروس الأحد لأنّ سائر الفتيات تشفّين فيها بعدما تخلّت عنها رودا وأهانتها. لعلّ في ذلك شيئًا من الحقيقة، ولكن هوّلت إيميلي

الأمر أكثر ممّا ينبغي، فلو رأت فتاتيْن تتهامسان أو تضحكان معًا، ظنّت أنّها موضع حديثهما وسخريتهما. ولو رافقتها أخرى إلى المنزل، خيّل لها أنّها تنظر إليها في شفقة متعالية لأنّها بلا أصدقاء، وطيلة شهرٍ كامل، كانت إيميلي أشقى كائن صغير في معبد المياه.

فكّرت في أسَى: «لا بدّ أنّ هنالك لعنةً سُلّطت عليّ عند ولادتي».

كان للخالة إليزابيث تفسير أكثر واقعيّة لحزن إيميلي وفقدانها شهيّتها، إذ توصّلت إلى استنتاج أنّ شعر إيميلي الكثيف «يمتصّ قوّتها» وأنّها ستستعيد حيويّتها لو قصّته لها. كان القرار لدى الخالة إليزابيث يفضي حتمًا إلى فعل، وذات صباح، أخبرت إيميلي ببساطة أنّ شعرها سوف «يُجزّ».

لم تصدّق إيميلي ما سمعت.

فهتفت: «أنتِ لا تنوين قصّ شعري يا خالتي إليزابيث».

ردّت الخالة إليزابيث: «بلى، هذا ما أنوي فعله بالضّبط. لديك من الشّعر ما يزيد عن اللّزوم، ولا سيّما في مثل هذا الطّقس الحارّ. أنا متأكّدة من أن ذلك سبب شقائك مؤخّرًا. هيّا، لا أريد البكاء».

ولكن إيميلي لم تتمالك دموعها.

توسّلت: «لا تقصّيه *كلّه*. قصّي الغرّة وخذي منها ما تشائين، فالكثير من الفتيات يخفّفن الشّعر من نواصيهنّ على شكل غرّة. سيذهب بذلك نصف شعري ولن يمتصّ الباقي منه كثيرًا من القوّة».

قالت الخالة إليزابيث: «لا يُسمح بالغرر هنا، أخبرتك بذلك مرّات عديدة. سأجزّ شعرك من كامل رأسك استعدادًا لحرارة الطّقس، وستمتنّين لي بذلك يومًا ما».

شعرت إيميلي آنذاك بكلّ شيء سوى الامتنان.

انتحبت قائلةً: «إنّها سمتي الجميلة الوحيدة، هي وأهدابي. أراهن أنّك تريدين قصّها، هي الأخرى».

وفي الحقيقة، كانت الخالة إليزابيث تمقت تلك الأهداب الطّويلة المقوّسة الّتي تكلّل جفني إيميلي -وقد ورثتها عن جدّتها الرّقيقة، زوجة أبِ الخالة إليزابيث- ولم تحبّذها لشدّة اختلافها عن أهداب آل موراي؛ ولكن ما بيدها حيلة ضدّها. أمّا الشّعر فيجب التّخلّص منه، وأمرت إيميلي باقتضابٍ أن تبقى في مكانها دون اضطراب إلى أن تجلب المقصّ.

انتظرت إيميلي في يأس، ستفقد شعرها الجميل، شعرها الّذي كان والدها شديد الفخر به. قد ينمو مجدّدًا بمرور الوقت -لو تركته الخالة إليزابيث- ولكن سيستغرق ذلك سنوات طويلة، وستظلّ بشعة المظهر في الأثناء! كان ابن العمّ جيمي والخالة لورا خارج المنزل، وفي غياب سند تعتمد عليه، سيحدث الأمر الشنيع حتمًا.

عادت الخالة إليزابيث حاملة المقصّ؛ وقد أنذر صوت انفتاحه بما لا يُحمد عقباه. بمجرّد أن سمعت إيميلي ذاك الصّوت، تحرّر في داخلها شيء ما وكأنّه ضربٌ من السّحر -وإذا بقوّة غريبة جامحة تنبثق من روحها. فدارت صوب خالتها وواجهتها، وشعرت

بحاجبيْها ينعقدان في جبينها على نحو غير معتاد -وطفحت من أعماقها طاقة جيّاشة لا تقاوم.

ونظرت إيميلي مباشرة في عيني سيّدة المقصّ وقالت: «خالتي إليزابيث، *لن تُقصّ شعرة واحدة من رأسي*، ولا أريد أن أسمع المزيد من النّقاش».

حدث آنذاك شيء عجيب للخالة إليزابيث، إذ امتقع وجهها، وطرحت المقصّ أرضًا، وحدّقت مذهولة في الطّفلة المتحوّلة أو الممسوسة أمامها -ثمّ تقهقرت إليزابيث موراي لأوّل مرّة في حياتها وهربت -هربت حرفيًّا- إلى المطبخ.

هتفت لورا وهي تدخل من المطبخ الخارجي: «ما خطبك يا إليزابيث؟».

لهثت إليزابيث وهي ترتجف: «رأيت -أبي -ينظر إليّ من خلال وجهها. قالت لي «لا أريد أن أسمع المزيد من النّقاش» -مثلما كان *يقول* دومًا، قالت كلماته بالضّبط».

ترامى الحديث إلى مسمع إيميلي، فسارعت إلى مرآة الخوان. كان قد راودها شعور غريب وهي تتحدّث، وكأنّها تتقمّص دور شخص آخر غيرها. تلاشى الشّعور آنذاك، ولكن تمكّنت إيميلي من إلقاء نظرة خاطفة على بقاياه -يبدو أنّها نظرة موراي. لا عجب في أنّها أفزعت الخالة إليزابيث، فقد فزعت هي نفسها ممّا رأت، وارتاحت لمّا تبدّدت تلك النّظرة. هرعت إيميلي ترتعش إلى ملاذها في السّقيفة فبكت؛ ولكنّها أدركت، بطريقة ما، أنّ شعرها لن يُقصّ.

لم يُقصّ شعرها فعلًا؛ إذ لم يجر ذكر المسألة على لسان الخالة إليزابيث بعد ذلك، ولكن مرّت أيّام عديدة قبل أن تتعامل مجدّدًا مع إيميلي.

من الغريب أنّ إيميلي لم تحزن على فقدان صديقتها منذ ذاك اليوم، وبدا لها الأمر كما لو حدث في ماضٍ سحيق، لدرجة أنّه لم يبق منه شيء سوى محض ذكرى عديمة الشّعور. وسرعان ما استعادت إيميلي شهيّتها وحيويّتها، واستأنفت كتابة الرّسائل لأبيها، وتلذّذت بطعم الحياة مجدّدًا، فلم يكدّر صفوها إلّا شعور غامض بأنّ الخالة إليزابيث تكنّ لها ضغينة بسبب حادثة الشّعر وستحاول الانتقام منها عاجلًا أم آجلًا.

و«انتقمت» الخالة إليزابيث قبل نهاية الأسبوع.

كُلّفت إيميلي ذات يوم بالذّهاب إلى المتجر لقضاء بعض الحاجيات، وكان اليوم قائظًا فسُمح لها بالمشي حافية القدميْن في المنزل، ولكنّها اضطرّت آنذاك إلى أن تلبس حذاءً وجوربيْن للخروج. واحتجّت إيميلي -فالجوّ حارّ وأغبر للغاية، ولن تستطيع المشي نصف ميل بذاك الحذاء المزرّر. ولكنّ الخالة إليزابيث لم تلِن. لن يُسمح لأحدٍ من آل موراي أن يمشي خارج المنزل حافي القدمين -وما إلى ذلك. ولكن حالما تجاوزت إيميلي بوّابة القمر الجديد جلست بحزم ونزعت حذاءها، ثمّ دسّته في حفرةٍ بالخندق وانطلقت حافية القدمين، فقضت حاجياتها مرتاحة الضّمير. يا له من عالم جميل، ويا لزرقة الماء في معبد المياه المستدير العظيم،

ويا لمعجزة زهر الحوذان منبثقًا في الحقل النّديّ وراء أيكة جون المتغطرس! وقفت إيميلي أمام المشهد في خشوع وألّفت مقطعًا شعريًّا.

أراك ناعمةً يا زهرة الحوذان،

ووجهك يضحك في سرور،

يحيّي ويلوّح إلى الزّهور

لا يعبأ بالزّمن ولا بالمكان.

في وحل الحقل أو على الطّريق

أو في حديقة غنّاء،

تعرضين بتلاتك الصّفراء

وتهوين في الوادي السّحيق.

هذا جيّد إلى حدّ الآن. ولكن أرادت إيميلي مقطعًا آخر لقفل القصيدة كما ينبغي، بيد أنّ الوحي الإلهي تبدّد ولم يعد. فسارت إلى البيت حالمة، وما إن بلغت القمر الجديد حتّى أكملت مقطعها الأخير، فأخذت تتلوه لنفسها مسرورة بإتمام ما بدأت.

أينما حللت، يحلّ معك الجمال

ويغمر الكون سحرًا وبهاء

فأنت، يا زهرة الحوذان الحسناء

تأسرين لمن يراك القلب والبال.

كانت إيميلي فخورة جدًّا بقصيدتها، فهي الثّالثة في رصيدها والأفضل بلا شكّ، وعليها أن تسرع إلى السّقيفة لتدوّنها على فاتورة، ولكن قابلتها خالتها إليزابيث على درجات المدخل.

«إيميلي، أين جواربك وحذاؤك؟».

هوت إيميلي من السّماء السّابعة على أرض الواقع في صدمة عنيفة، لقد نسيت أمر الحذاء والجوارب تمامًا.

قالت ببساطة: «في حفرةٍ جانب البوّابة».

«أذهبت إلى المتجر حافيةً؟».

«أجل».

«بعدما حذّرتك من ذلك؟».

بدا السّؤال عديم الجدوى فلم تجب إيميلي؛ ولكن صارت الكرة في ملعب الخالة إليزابيث.

إيلسي

حُبست إيميلي في الغرفة الشّاغرة وحُكِمَ عليها أن تبقى فيها إلى أن يحين وقت نومها، واحتجّت على هذا العقاب دون جدوى. وحاولت سدًى تسليط نظرة موراي، ولكن يبدو -بالنّسبة إليها، على الأقلّ- أنّها لا تأتي متى شاءت.

توسّلت: «أرجوك يا خالتي إليزابيث، لا تحبسيني هنا لوحدي. أعلم أنّني كنت شقيّة -ولكن لا تتركيني في الغرفة الشّاغرة».

لم تحد إليزابيث عن قرارها قيد أنملة. كانت تعلم أنّ حبس طفلة حسّاسة جدًّا مثل إيميلي في تلك الغرفة القاتمة عقابٌ قاسٍ للغاية. ولكن ظنّت أنّها تؤدّي واجبها، ولم تدرك، بل ما كانت لتصدّق لحظةً، أنّها في الحقيقة تصبّ جام غضبها على إيميلي جرّاء ما ذاقت من هزيمة وفزع أمامها في حادثة قصّ الشّعر. كانت الخالة إليزابيث على يقين من أنّها فرّت آنذاك بسبب شبه عائلي عرضي برز في لحظة توتّر، وشعرت بالخزي من ردّة فعلها تلك. أُصيب كبرياء موراي آنذاك بلسعة الذّل، ولم يتبدّد ألمه إلّا عندما أدارت إليزابيث القفل في الغرفة الشّاغرة على تلك المذنبة الشّاحبة.

بدت إيميلي صغيرة تائهة وحيدة، وامتلأت عيناها بخوف لا يليق بعيون الأطفال، فجثمت والتصقت بسطح باب الغرفة الشّاغرة. كان ذلك أفضل، فهي هكذا لن تستطيع تخيّل خفايا تلك الغرفة. وكانت واسعة وداجية لدرجة أنّ للمرء أن يتخيّل فيها ما لا يُحصى ولا يُعدّ من الأشياء المروّعة. وأمام وسعها ودجاها، اجتاح إيميلي رعبٌ لا يُقاوم؛ فقد كانت المسكينة، منذ نعومة أظفارها، تخشى البقاء محبوسة بمفردها في نصف العتمة. ولم تكن تخاف منها في الخارج، أمّا هذا الظّلام المظلّل المخنوق بين جدران الغرفة الشّاغرة فهو هوْلٌ ما بعده هول.

حُجبت النّافذة بستائر ثقيلة داكنة الخضرة معزّزة بحصيرة شبّاك مسحوبة. ومن الحائط إلى وسط الغرفة، امتدّ سرير مظلّل ضخم شاهق تنسدل عليه ستائر داكنة أيضًا. يمكن أن ينقضّ عليها أي شيء من ذاك السّرير. ماذا لو برزت منه يد طويلة سوداء وشقّت الحجرة زحفًا لتقبض عليها؟ وعلى غرار ما في الرّدهة، كانت جدران الغرفة الشّاغرة مزيّنة بصور الأقارب الرّاحلين؛ ويا لكثرة ما عُلّق عليها من أموات موزاي. كان بلّور إطارات صورهم يعكس أطيافًا غريبة من الضّوء تتسرّب بين شرائح حصائر الشّبابيك. ولكن الأنكى على الإطلاق كانت تلك البومة القطبية البيضاء المحنّطة الّتي ترمقها بنظرة غريبة من فوق الخزانة السّوداء المقابلة. أطلقت إيميلي شهقة عالية لّما رأتها، ثمّ انكمشت في ركنها، ذاهلة من الصّوت الّذي مزّقت به صمت تلك الغربة

الفسيحة ذات الصّدى، وتمنّت لو انقضّ عليها من الفراش شيء *بالفعل* ليقضي عليها.

فكّرت في انتقام: «يا ترى بمَ ستشعر الخالة إليزابيث لو متُّ».

على الرّغم من خوفها أطلقت العنان لخيالها وبدأت تتخيّل شدّة ندم الخالة إليزابيث، فشعرت به لدرجة أنّها قرّرت أن تكتفي بفقدان وعيها حتّى تعود إلى الحياة بعد أن ذاق الجميع ما يكفي من الهلع والنّدم. ولكن شهدت هذه الغرفة *فعلًا* موت عشرات الأشخاص؛ وبحسب ابن العمّ جيمي، تقضي تقاليد القمر الجديد بنقل أيّ فرد من العائلة إلى الغرفة الشّاغرة متى بدأ يحتضر، لكي توافيه المنيّة وسط ما يليق بمقامه من أبّهة، وكادت إيميلي *تراهم* يموتون أمامها، في ذاك الفراش اللّعين. شعرت بأنّها ستصرخ مرّة أخرى، ولكنّها كتمت صوتها بجهد جهيد. يجب على ابنة ستار ألّا تكون جبانة. آه من تلك البومة! ماذا لو أشاحت عنها نظرها، ثمّ نظرت مرّة أخرى فرأت أنّها قفزت من فوق الخزانة في صمت وانهالت عليها؟ لم تجرؤ إيميلي على النّظر خشية أن ترى حدوث ما تخيّلته بالضّبط. *أليست* ستائر الفراش تتمايل؟ شعرت إيميلي بحبّاتٍ من العرق البارد تندي جبينها.

ثمّ حدث شيء ما، تسرّب بصيص ضوئي من شقٍّ صغير في حصيرة الشّباك، فانهال مباشرة على صورة الجدّ موراي المعلّقة فوق المدفأة، وهي عبارة عن تكبيرٍ بالقلم لصورة داغيريّة معلّقة في الرّدهة السّفلى. وفي ضوء ذاك الشّعاع، اشتدّ تجهّم وجهه على نحوٍ

غريب وبدا فعلًا على وشك أن يخترق الظّلام ويهوي على إيميلي. انفلتت آنذاك أعصاب الفتاة واندفعت إلى النّافذة في نوبة انفعال محمومة، فأزاحت السّتائر ورفعت الحصيرة. اقتحم الغرفة سيل جارف من الضّياء المحمود، وانفتح لها العالم البشري بهيجًا ودودًا. ويا للعجب العُجاب لمّا وجدت على عتبة النّافذة سلّمًا في انتظارها! لوهلة من الزّمن، كادت إيميلي تؤمن بأنّ الرّب بعث لها معجزة ليساعدها على الفرار.

كان ابن العمّ جيمي قد وجد السّلم في صباح ذاك اليوم مرميًّا على القرطب بين أعشاب بلسم جلعاد وراء الملبنة وقد نخره العفن، فقرّر أن يتخلّص منه. وأسنده إلى المنزل كي لا يغفل عنه عند عودته من حقل القمح.

وفي أسرع من لمح البصر، تسلّقت إيميلي إلى النّافذة، واجتازت عتبتها إلى السّلم فنزلته، وقد أعمتها رغبتها في الفرار من تلك الغرفة المشؤومة عن تداعي درجات السّلم المتعفّنة. وحالما داست الأرض، عبرت ما بين أعشاب بلسم جلعاد ونطّت فوق السّياج إلى أيكة جون المتغطرس، ثمّ أخذت تجري بلا هوادة حتّى بلغت الدّرب المجاور للنّهر.

توقّفت آنذاك تلتقط أنفاسها في بهجة عارمة، وامتلأ قلبها فرحًا تتخلّله متعة عجيبة. ما أحلى نسمات الحرّية تهب من خلال السّراخس! ها هي ذي قد نجحت في الإفلات من الغرفة الشّاغرة وأشباحها وتغلّبت على خالتها إليزابيث العجوز اللّئيمة.

خاطبت نفسها قائلة: «أشعر وكأنّني عصفور هرب لتوّه من القفص»، ثمّ سارت في الدّرب السّاحر ترقص فرحًا، إلى أن وجدت في آخره إيلسي برنلي جاثمة فوق سياج لوحيّ، وقد بدا شعرها الذّهبي كنقطة لامعة وسط ظلام أشجار التّنوب الفتيّة المحيطة بها. لم ترها إيميلي منذ اليوم الأوّل في المدرسة، وفكّرت مرّة أخرى في أنّه لم يسبق لها أن رأت شخصًا مثل إيلسي أو تظاهرت بمعرفته.

قالت إيلسي: «إيميلي فتاة القمر الجديد، إلى أين تركضين؟».

فأجابت إيميلي بصراحة: «أنا هاربة. لقد ارتكبت حماقة –حماقة صغيرة جدًّا– فحبستني خالتي إليزابيث في الغرفة الشّاغرة. وهذا ظلمٌ لأنّ شقاوتي لا تستحقّ عقابًا من ذاك القبيل، فخرجت من النّافذة ونزلت على السّلم».

قالت إيلسي: «يا لك من عفريتة! لم أكن أخالك بمثل هذه الجرأة».

شهقت إيميلي، فهي لم تحبّذ أن يُطلَق عليها «عفريتة»، ولو أنّ إيلسي قالتها بإعجابٍ شديد.

قالت إيميلي بصدقٍ لم يسمح لها بقبول الثّناء: «لا أظنّ أنّها جرأة. لقد خفت البقاء في تلك الغرفة».

فسألتها إيلسي: «حسنًا، إلى أين مفرّك الآن؟ عليك أن تذهبي إلى مكانٍ ما. لا يمكنك أن تبقي في العراء، هنالك عاصفة وشيكة».

كانت السّماء تنذر فعلًا بعاصفة. لا تحبّ إيميلي العواصف، وأنّبها ضميرها فقالت:

«آه، هل تظنّين أنّ الرّب أنزل علينا العاصفة ليعاقبني لأنّني هربت؟».

أجابت إيلسي ساخرة: «لا، لو وُجد ربٌّ لما هوّل الأمور من عدمٍ».

«أوه، ألا تؤمنين بوجود الرّب يا إيلسي؟».

«لا أدري. أبي يقول إنّه لا وجود لربّ. ولكن كيف تحدث الأشياء لو هذا صحيح؟ أؤمن بوجود الرّب تارة، وأنكره طورًا. يجدر بك أن تأتي معي إلى بيتي. لا أحد هناك. قتلتني الوحدة فأتيت إلى الأيكة».

نزلت إيلسي من السّياج ومدّت يدها السّمراء لإيميلي، فأخذتها وركضتا معًا عبر حقل جون المتغطرس إلى منزل برنلي القديم، وكان يبدو شبيهًا بقطّ رماديّ ضخم رابضٍ تحت أشعّة دافئة لم تلتهمها بعدُ غيوم العاصفة. وكان في داخله أثاث يبدو أنّه كان أنيقًا في ماضٍ سحيق، ولكنّه فقد رونقه في غمار الفوضى العارمة والغبار المتراكم. لم يكن شيء في مكانه على ما يبدو، ولو رأت الخالة لورا حال المطبخ لأغمى عليها من الهلع. ولكنّه مكان ملائمٌ للّعب لأنّه لا يتطلّب الانتباه لكي لا يُبلبَلَ النّظام. ولعبت إيميلي وإيلسي شوطًا رائعًا من الغمّيضة في كلّ أرجاء البيت، إلى أن اشتدّ هزيم الرّعد ولمعان البرق، فشعرت إيميلي بأنّ عليها أن تجلس في الأريكة وتستجمع شجاعتها.

سألت رفيقتَها: «ألا تخافين أبدًا من الرّعد؟».

فقالت إيلسي: «لا. لا أخاف من شيءٍ ما عدا الشّيطان».

«ظننتك لا تؤمنين بالشّيطان أيضًا -هذا ما قالته رودا».

«أوه، الشّيطان موجود لا ريْبَ فيه بحسب ما يقول أبي، إنّه لا يؤمن بالرّب فحسب. ولو وُجد الشّيطان دون ربٍّ يأخذ بزمامه، فهل من العجب أن أخاف منه؟ اسمعيني، إيميلي بيرد ستار، إنّكِ تعجبينني -كثيرًا. ولطالما أعجبتني، كنت أعلم أنّك ستضيقين ذرعًا، عاجلًا أم آجلًا، بتلك الكذّابة الخوّافة الخبيثة رودا ستيوارت. أمّا أنا، فلا أكذب أبدًا. قال لي أبي مرّة إنّه لو ضبطني متلبّسة بكذبة فسيقتلني. أريدك ان تكوني صديقتي. سأواظب على الدّروس لو جلست معك أنتِ».

فأجابت إيميلي بصوت شارد: «حسنًا». لن تقطع عهودًا بالولاء الأبديّ على طريقة رودا، فـ*تلك* فترةٌ ولّت ولن تعود.

وقالت إيلسي: «وستخبرينني بالأسرار -فلا أحد يخبرني بأسرار. وستسمحين لي بإخباركِ بأسراري -فلا أحد لي لأخبره بها. ألن تخجلي منّي لأنّ ملابسي دومًا غريبة ولأنّني لا أؤمن بالله؟».

«لا. ولكن لو تعرّفت على إله والدي لآمنت به».

«كلّا. ثمّ إنّ الرّب واحدٌ، لو وُجد».

قالت إيميلي بارتباك: «لا أدري. لا، لا يمكن. إله إيلين غرين لا يشبه إله والدي البتّة، ولا حتّى إله خالتي إليزابيث. أظنّ أنّ إله خالتي إليزابيث لن يُعجبني، ولكنّه على الأقلّ *ذو بأس وجلال*،

على خلاف إله إيلين. وأنا متأكّدة من أنّ لخالتي لورا إلاها آخر– لطيفًا وطيّبًا، ولكنّه ليس بروعة إله أبي».

قالت إيلسي وقد نمّ صوتها عن حرج: «لا علينا –لا أحبّ الحديث عن الرّب».

قالت إيميلي: «أمّا *أنا* فأحبّ. وأرى أنّه موضوع شيّق جدًّا، كما أنّني سأصلّي لكِ لكَيْ تؤمني بإله أبي يا إيلسي».

ولسبب ما، لم ترق الفكرة لإيلسي الّتي صاحت: «إيّاك ثمّ إيّاك! لن يصلّي لي أحد!».

«ألا تصلّين أبدًا يا إيلسي؟».

«أوه، أحيانًا –عندما أشعر بالوحدة ليلًا، أو لمّا أقع في ورطة. ولكنّني لا أريد أن يصلّي لي أحد. ولو رأيتك تفعلين، فسأفقع عينيك يا إيميلي ستار. وإيّاك أن تصلّي لي دون علمي».

انصدمت إيميلي لفشل اقتراحها البريء وسارعت بالقول: «حسنًا، لن أفعل. سأصلّي لكلّ من على وجه الأرض إلّا أنت».

للحظةٍ، بدت إيلسي وكأنّ ذلك لم يعجبها أيضًا. ثم ضحكت وعانقت إيميلي بحرارة.

«أيًّا كان الأمر، أرجوك أن تحبّيني. لا أحد يحبّني، لو تعلمين».

«والدك يحبّك *بالتّأكيد*».

ردّت إيلسي بثقة تامّة: «كلّا. أبي لا يبالي بأمري بتاتًا. ويبدو لي أحيانًا أنّه يكره حتّى أن يراني. كنت أودّ لو أحبّني لأنّه طيّب جدًّا

مع الأشخاص الّذين يحبّهم. هل تعلمين ما سأصبح عندما أكبر؟ سأصبح مُحاضرة».

«وما هذه المهنة؟».

«هي امرأة تُلقي الخطب والمحاضرات في الحفلات، وأنا بارعةٌ في ذلك. وماذا عنكِ؟».

«سأصبح شاعرة».

هتفت إيلسي مذهولة: «تبًّا! لا أصدّق *أنك* تكتبين الشّعر».

فصاحت إيميلي: «بلى، صدّقي. لقد كتبت ثلاثة نصوص – «الخريف» و«سطورٌ إلى رودا» –ولكنّني *أحرقته*– و«نداء إلى زهرة الحوذان». وقد ألّفته اليوم، وهو تحفتي الفنّية».

أمرت إيلسي: «فلنسمعه».

وألقت إيميلي قصيدتها بفخر وعن طيبة خاطر، ولسببٍ ما، لم تمانع أن تسمعها إيلسي.

«إيميلي بيرد ستار، لا تقولي لي إنّك استنبطت هذا من ذهنك؟».

«بلى».

«تقسمين على حياتك؟».

«أقسم على حياتي».

«حسنًا»-أخذت إيلسي نفسًا طويلًا وواصلت: «يبدو أنّك *حقًا* شاعرة».

كانت تلك لحظة فخر واعتزاز لإيميلي –بل من أحلى لحظات

حياتها، إذ أقرّ عالمها أخيرًا بمكانتها. ولكن كانت لها مشاغل أخرى آنذاك، فقد حلّ الشّفق وسيخيّم الظّلام عمّا قريب. عليها أن تعود إلى البيت وتصعد إلى الغرفة الشّاغرة قبل أن يُكتشَف غيابها. وشقّت عليها العودة، ولكن يجب أن تعود خشية أن تحلّ بها مصيبة أخرى على يد الخالة إليزابيث. وفي تلك اللّحظة، وتحت تأثير شخصيّة إيلسي، غمرت قلبَ إيميلي شجاعة عمياء، ثمّ إنّ وقت النّوم وشيك، وسيُطلَق سراحها عمّا قريب. فشقّت طريقها عبر أيكة جون المتغطرس حيث تلألأت مصابيح اليراعات الغامضة المتمايلة، ثمّ تسلّلت عبر بلسم جلعاد في حذر، وتسمّرت في مكانها مذعورة. لقد اختفى السّلّم!

دارت إيميلي إلى باب المطبخ وكأنّها تسير إلى هلاكها المحتوم، ولكن صادف أن غمرتها ألطاف الله رغم إثمها، إذ وجدت الخالة لورا بمفردها في المطبخ.

وهتفت: «عزيزتي إيميلي، من أين أتيت، بحقّ الرّب؟ كنت سأصعد حالا لإخراجك. سمحت لي إليزابيث بذلك قبل ذهابها إلى اجتماع الصّلاة».

لم تقل الخالة لورا إنّها تسلّلت مرّات عديدة أمام باب الغرفة الشّاغرة ونهشها القلق بسبب الصّمت المطبق وراءه. هل فقدت الطّفلة وعيها من شدّة الرّعب؟ حتّى العاصفة نفسها لم تزحزح إليزابيث العنيدة عن قرارها. وبعد كلّ تلك الحرقة، ها هي ذي الآنسة إيميلي تتجوّل في الشّفق غير عابئة بشيء، فتبرّمت لورا من

موقفها للحظةٍ وجيزة. ولكن بعد أن سمعت قصّتها كاملةً، لم تشعر إلّا بالامتنان لأنّ ابنة جوليات لم تكسر رقبتها على ذاك السّلم المتعفّن.

شعرت إيميلي بأنّها نجت من المأزق بأقلّ أضرارٍ. كانت تعلم أن خالتها لورا ستحفظ سرّها؛ وسمحت لها بإعطاء سوسي سال كوبًا كاملًا من اللّبأ، ثمّ قدّمت لها بسكويتًا كبيرًا بالبرقوق ووضعتها في فراشها بعدما أشبعتها قُبَلًا.

قالت إيميلي وهي تقضم البسكويت اللّذيذ: «أنا لا أستحقّ أن تعامليني بهذه الطّيبة اليوم، فقد كنت شقيّة. وأظنّ أنّني أهنت سمعة موراي لّما مشيت حافية القدمين».

فقالت الخالة لورا: «لو كنت مكانك لأخفيت حذائي كلّما تجاوزت البوّابة، ولكن لن أنسى أن ألبسها قبل العودة إلى المنزل. إنّ إليزابيث لا تنزعج ممّا يخفاها».

فكّرت إيميلي في الأمر وهي تُنهي أكل بسكويتها، ثمّ قالت:

«فكرة طيّبة، ولكنّني لن أكرّر فعلتي هذه. أظنّ أنّه يجب أن أطيع خالتي إليزابيث لأنّها ربّة العائلة».

قالت الخالة لورا: «من أين تأتين بأفكار من هذا القبيل؟».

«من ذهني. خالتي لورا، إيلسي برنلي ستصبح صديقتي. إنّها تعجبني -لطالما شعرت بأنّها قد تعجبني لو سنحت لي الفرصة لأتعرّف إليها. لا أظنّ أنّني *سأحبّ* أيّ فتاة أخرى مجدّدًا، ولكن *أعجبتني* إيلسي».

تنهّدت الخالة لورا وقالت: «مسكينةٌ، إيلسي!».

قالت إيميلي: «أجل، والدها لا يحبّها. أليس الأمر فظيعًا؟ لمَ لا يحبّها؟».

«بلى، يحبّها بالفعل، ولكنّه يظنّ أنّه لا يحبّها».

«ولكن *لماذا* يظنّ ذلك؟».

«إنّك أصغر ممّا يسمح لكِ بأن تفهمي يا إيميلي».

كانت إيميلي تكره أن يُقال لها إنّها لن تفهم لأنّها صغيرة، وتشعر بأنّها قد تفهم على أحسن ما يُرام لو تكبّد النّاس مغبّة الشّرح عوض أن يتكلّموا بذاك الإبهام.

«أتمنّى لو كان بوسعي أن أصلّي لها. ولكن سأخون بذلك عهدي بعد أن علمت موقفها إزاء الأمر. ولكنّني دائمًا أسأل الرّب أن يبارك في أصدقائي جميعًا، وهي ستكون بينهم، وقد تصلها بذلك بعض الحسنات. هل يجوز قول كلمة «تبًّا»، خالتي لورا؟».

«لا - لا!».

فقالت إيميلي بجدّ: «يا للخسارة، فهي كلمة ذات وقع شديد».

رقعة الطّانسة

مرّ على صداقة إيميلي وإيلسي أسبوعان رائعان قبل خصامهما الأوّل. وكان بالفعل خصامًا شنيعًا نشب من جدال بسيط بشأن ما إذا يجدر بهما إنشاء ردهة في المنزل الّذي تشيّدانه في أيكة جون المتغطرس. وأرادت إيميلي أن تكون لهما ردهة، بينما لم ترق الفكرة لإيلسي. وسرعان ما تشنّجت أعصاب إيلسي ودخلت في نوبة غضب حقيقيّة جديرة بابنة برنلي. كانت إيلسي طليقة اللّسان في انفعالاتها، فتنهال على إيميلي بوابل من «كلمات المعجم» الّتي قد يندى لها جبين معظم فتيات معبد المياه. ولكنّ فتاةً تهوى مجالسة الكلمات مثل إيميلي لن تنبطح بتلك البساطة؛ ولئن غضبت بدورها، فقد كان غضبها على طريقة آل موراي، باردًا رصينًا يثير السّخط أكثر من الغضب العنيف. ولمّا توقّفت إيلسي لالتقاط أنفاسها وسط هجائها المحموم، كانت إيميلي رابضة فوق صخرة ضخمة، شابكة ركبتيْها، قاتمة العينين ملتهبة الوجنتين، ترشق إيلسي بردود ساخرةٍ لاذعة فاقمت غضبها. وكانت إيلسي محتقنةً هي الأخرى، وانقلبت عيناها شعلتيْن صفراويْن من النّار الحامية. كان الغضب قد زاد كليْهما جمالًا على جمالٍ لدرجة أن يكاد المرء يأسف ألّا تكونا غاضبتيْن طوال الوقت.

ضربت إيلسي الأرض بقدمها وصرخت مهدّدة: «لا تظنّي، أيّتها الباكية النّائحة المتمخّطة، أنّه سيُسمح لك بأن تتحكّمي *في* لمجرّد أنّك تسكنين في القمر الجديد».

فردّت إيميلي باحتقار: «لن أتحكّم فيك -بل لن أخالطك مجدّدًا».

صاحت إيلسي: «فلتذهبي في ستّين داهية أيّتها *الدّابّة* المغرورة العنيدة المتعجرفة. لا تخاطبيني مجدّدًا، وإيّاك أن تنشري عنّي الأقاويل في معبد المياه».

حزّ ذلك في نفس إيميلي الّتي لم «تنشر الأقاويل» *قطُّ* عن أصدقائها أو من كانوا يومًا أصدقاءها.

قالت متعمّدة: «لن *أقول* عنك الأقاويل، لكن لن يمنعني ذلك من *التّفكير* فيها».

أدركت إيميلي جيّدًا أن ذلك أنكى وأمرّ من القول؛ وجُنّ جنون إيلسي. من ذا الّذي يعلم فيما تفكّر إيميلي متى راق لها أن تفعل؟ لا سيّما وقد سبق ورأت إيلسي مدى خصوبة خيالها.

«هل تظنّين حقًّا أنّني أكترث بما تفكّرين فيه، أيّتها الأفعى الخرقاء؟ يبدو أنّك *فقدت* صوابكِ».

ابتسمت إيميلي ابتسامة مُغيظة وقالت: «لديّ ما أحسنُ منه بكثير، شيءٌ *أنتِ* لن تحظيْ به *أبدًا*، إيلسي برنلي».

شدّدت إيلسي قبضتها وكأنّها على وشك اللّجوء إلى العنف الجسدي لسحق إيميلي.

وقالت ساخرة: «لو لم أكتب قصائد أفضل من قصائدك، فسأشنق نفسي».

قالت إيميلي: «سأقرضك قرشًا لشراء الحبل».

حدجتها إيلسي، وقد هُزمت شرّ هزيمة: «فلتذهبي إلى الجحيم!».

نهضت إيميلي وذهبت، لا إلى الجحيم بل إلى القمر الجديد. وصبّت إيلسي جام غضبها على ألواح خزانة الأواني في منزلهما فهشّمتها، وركلت «حدائق الطّحالب» فغدت هباء منثورًا، ثمّ انصرفت بدورها.

ضاقت نفس إيميلي أيّما ضيق. ها هي ذي صداقة أخرى تذهب أدراج الرّياح، بل وقد كانت صداقة بهيجة مُرضية. كانت إيلسي فعلًا نِعم الصّديقة، وذاك مما لا ريب فيه، وبعد أن بردت أعصابها ذهبت إلى الرّوشن وصاحت بألم -مبالغ فيه ولكنّه صادق:

«يا لتعاستي وشقائي!».

ورغم ذلك، لم تشعر بشيء من المرارة الّتي غمرتها عندما افترقت عن رودا. *فهذا* الشّجار كان واضحًا وصريحًا وعادلًا، ولم تطعنها إيلسي في ظهرها. ولكن بطبيعة الحال، انقطعت أواصر صداقتها معها نهائيًّا. لا يمكن أن تكون صديقة مع شخص نعتها بالمتمخّطة والأفعى الخرقاء، ثمّ قال لها أن تذهب إلى الجحيم. هذا مُحال. وعلاوة على ذلك، إيلسي نفسها لن تسامحها أبدًا إذ كان لإيميلي من النّزاهة ما يجعلها تعترف بأنّها كانت، بدورها، سليطة اللّسان.

ولكن لمّا ذهبت إيميلي صباح غدٍ إلى بيت الألعاب مصمّمة على استرجاع نصيبها من الأواني المحطّمة والألواح المهشّمة، وجدت إيلسي تنطّ هنا وهناك وتتفانى في العمل، وقد عادت كلّ الرّفوف إلى مكانها، واسترجعت حديقة الطّحالب رونقها، وبُسِطت ردهة بديعة يربطها بغرفة الجلوس قوسٌ من أغصان التنّوب.

«أهلًا وسهلًا بكِ. ها هي ذي ردهتكِ، آمل أن تكوني راضيةً الآن. ما الّذي أخّرك، ظننت أنّي لن آتي؟».

تفاجأت إيميلي من الموقف، لا سيّما بعد أن قضّت ليلة مأساويّة وارت فيها صداقتهما التّراب وبكت على قبرها، ثمّ إنّها لم تكن تنتظر بعثًا بهذه السّرعة. أمّا إيلسي فكانت تتصرّف وكأنّ شيئًا لم يكُن.

ولمّا ذكّرتها إيميلي بخصامهما في شيء من الجفاء، أجابتها مستغربة:

«ولكن ذلك يوم أمسِ». ففي فلسفة إيلسي، شتّان ما بين الأمس واليوم. وتقبّلت إيميلي الأمر، اكتشفت أنّ هذا ما يجب فعله، إذ يبدو أنّ إيلسي لا يمكن أن تتمالك عن الدّخول في نوبات غضب من حين إلى آخر، مثلما لا تتمالك عن البشاشة والودّ بين تلك النّوبات. عجبت إيميلي لقدرة إيلسي على نسيان خصام حال انقضائه، في حين أنّ الأمور تظلّ تضطرب في ذهنها لمدة من الزمن. كان مُربكًا في نظرها أن تُنعت بالأفعى والتّمساح تارة، ثمّ تنقلب الشتائم عناقًا وملاطفة، ولكن هان عليها الأمر بمرور الزّمن والتجربة.

سألت إيلسي: «ألا يعوّض لك ودّي في أوقات الصّفاء عمّا أفعل في نوبات غضبي؟ ترين أنّ دُوتْ بَايْن لا تفقد هدوء أعصابها أبدًا، ولكن *أترضيْنها* صديقة؟».

أقرّت إيميلي: «كلّا. إنّها غبيّة جدًّا».

«ورودا ستيوارت لا تغضب هي الأخرى، وها أنت قد ضقت ذرعًا *بها*. هل تظنّين أنّني سأعاملك بنفس الطريقة التي عاملتك هي بها؟».

لا، لم تشكّ إيميلي في تلك النّقطة بالمرّة. مهما كان في طبع إيلسي من محاسن أو مساوئ، فهي وفيّة وصادقة. ولا ريب في أنّ رودا ستيوارت ودوت باين لا تقارنان بإيلسي، مثلما لا يُقارن «ضوء القمر بنور الشّمس، والماء بالنّبيذ» -هكذا كانت إيميلي لتشبّهها إن كانت تعرف عن تنيسون أعمالًا غير أنشودة الترومبيت.

قالت إيلسي: «لا أحد معصوم من الخطأ. لقد ورثت عن أبي سرعة انفعاله وهذا كلّ ما في الأمر. انتظري حتى تريه في إحدى نوبات غضبه».

إلى حدّ الآن، لم ترَ إيميلي من ذلك شيئًا. كانت قد زارت منزل برنلي مرّاتٍ عديدة بحضور الدّكتور برنلي، وكان يتجاهلها باستثناء تحيّة مقتضبة برأسه. وقد كان رجلاً كثير المشاغل، فمهما كان فيه من نقائص، لم يختلف عاقلان قطُّ في مهارته، ما جعله يمارس مهنته على نطاقٍ شاسع. تراه حذو فراش المريض لطيفًا وودودًا بقدر ما هو فظّ وساخر كلّما ابتعد عنه. طالما كنتَ مريضًا، سيُكرمك إكرامًا

لا محدودًا، بينما يبدو لك أنّه لن يعبأ بك حالما يتماثل للشّفاء. وقد وجّه كلّ اهتمامه وجهده طيلة شهر تمّوز في محاولة إنقاذ حياة تيدي كينت في رُقعة الطّانسة. وها قد تجاوز تيدي مرحلة الخطر وغدا قادرًا على الوقوف، ولكن لم تتحسّن حاله بالسّرعة الّتي تُرضي الدّكتور برنلي. وذات يومٍ، استوقف إيميلي وإيلسي وهما تعبران الحديقة في طريقهما إلى الغدير حاملتيْن خطاطيف الصّيد وعلبة من الدّيدان السّمينة المقرفة -وكانت إيلسي مسؤولة عنها لوحدها-، وأمرهما بالذّهاب إلى رقعة الطّانسة لتلعبا مع تيدي كينت.

قال الدّكتور: «إنّه وحيد ومكتئب. اذهبا لتسليته».

اشمأزّت إيلسي من فكرة الذّهاب إليه. يعجبها تيدي، ولكن يبدو أنّ والدته لم تكن تروق لها. أمّا إيميلي فلم تكن تعارض الأمر في قرارة نفسها. فهي لم ترَ تيدي إلّا مرّةً في دروس الأحد، قبل يومٍ واحدٍ من غيابه بسبب استفحال مرضه، وأُعجبت بمظهره. ثمّ بدا لها أنّه بادلها الإعجاب، لأنّها ضبطته مرّاتٍ عديدة وهو يختلس نظرات خجولة إليها من وراء المقاعد الوُسطى. وأقرّت إيميلي بأنّه وسيم جدًّا، وراق لها شعره الكثيف البنّي الدّاكن وعيناه الزّرقاوان المكلّلتان بحاجبيْن أسوديْن، وخطر ببالها، لأوّل مرّة، أن يكون لها رفيقُ لعبٍ ولدٌ -لا «حبيبٌ»، طبعًا. فقد كانت إيميلي تنزعج من أسلوب الفتيات في المدرسة اللاتي يُسمّين بـ«الحبيب» كلّ ولد يعطيهنّ قلمًا أو تفّاحة أو يختار مشاركتهنّ مرارًا في لُعبة ما.

في الطّريق إلى رقعة الطّانسة، أخبرت إيلسي إيميلي: «تيدي لطيف، ولكنّ والدته غريبة. إنّها لا تخرج أبدًا -ولا حتّى إلى الكنيسة-، ولكنّني أظنّ أنّ ذلك عائد إلى النّدبة الّتي على وجهها. وهم ليسوا حتّى من سكّان معبد المياه الأصليّين -فهم لم يقطنوا في رقعة الطّانسة إلّا منذ الخريف الماضي. إنّهم فقراء ومتكبّرون وقلّما يزورهم النّاس. ولكن تيدي لطيفٌ للغاية، لذلك علينا ألّا نبالي إن حدجتنا والدته ببعض النّظرات البغيضة».

لم تصدر عن السّيدة كينت أيّة نظرات بغيضة، بيد أنّها استقبلتهم بشيء من الجفاء. لعلّها تلقّت بعض التّعليمات من الدّكتور، هي الأخرى. كانت السّيدة كينت كائنًا ضئيلًا، لها خصلات ضخمة من الشّعر الحريري النّاعم ذي اللّون الرمليّ الباهت، وعينان داكنتان حزينتان، وندبة واسعة مائلة تخترق كامل وجهها الشّاحب، ولولاها لكانت فائقة الحسن. وإن تكلّمت، صدر منها صوت متذبذب تذبذب الرّيح في الطّانسة. وشعرت إيميلي، بفضل قدرتها الغريزيّة على سبر أغوار كلّ من تقابل، بأنّ السّيدة كينت لم تكن سعيدة.

تقع رقعة الطّانسة شرقَ المنزل المُحبط، بين معبد المياه والكثبان الرّمليّة. ويعتبرها معظم النّاس مكانًا أجدب، قفرًا، مهملًا، فيما بدا مذهلًا في نظر إيميلي. ويقبع المنزل الخشبي الصّغير على قمّة تلّ ضئيل نمت فوقه الطّانسة في حزمات وافرة مختالة فوّاحة، وتراه يبزغ عاليًا شامخًا على حافة طريق رئيسي. يطوّق نطاق المنزل سياجٌ من ألواح الخشب المتهادية يكاد يندثر وسط شجيرات الورد

البرّية، وجُعل فيه مدخل من الطّريق عبر بوّابة صغيرة واهنة عديمة الجدوى. وعلى جانب التّل، وُضعت أحجار لتحلّ محلّ درجات تؤدّي إلى المدخل الأمامي. ثمّ كانت هنالك وراء المنزل حظيرة متداعية صغيرة وحقل مخضرّ مزدهر من الحنطة السّوداء ينحدر نحو معبد المياه. وفي مقدّمة المنزل، ثمّة فرندة رائعة يحيط بها طوقٌ من أزهار الخشخاش ترفع رؤوسها الحمراء السّاحرة في زهوٍ.

فرح تيدي بمجيئهما فرحة صادقة، وقضّى ثلاثتهم أمسية طيّبة معًا. وما إن انتهت الأمسية حتّى تورّدت بشرة تيدي الزّيتونيّة وازداد البريق في زرقة عينيْه الدّاكنة. ابتهجت السّيدة كينت لتلك البوادر فسألت الفتاتيْن أن تجدّدا زيارتهما بلهفة لم ترتقِ بعدُ إلى المودّة. ولكنّهما وجدتا في رقعة الطّانسة رونقًا وسِحرًا جعلاهما تتوقان إلى زيارتها مجدّدًا. طيلة بقيّة العطلة، لم تكادا تغيبان عنها يومًا -ولا سيّما في ليالي آب الطّويلة وعتمها اللّذيذة حيث تحطّ العثاث البيضاء على منبت الطّانسة، وتضمحلّ حمرة الشّفق الذّهبي في زرقة الغسق فوق المنحدرات الخضراء، وتلقي اليراعات بضياء فوانيسها العجيبة فوق سطح البركة. كانوا يلعبون أحيانًا شتى الألعاب في رقعة الطّانسة، فسرعان ما ينضمّ تيدي إلى إيميلي بطريقة أو بأخرى، ليتحمّلا بالكاد منافسة إيلسي برشاقتها وسرعة بديهتها. وفي أحيانٍ أخرى، كان تيدي يصطحبهما إلى عليّة الحظيرة ليُريهما مجموعة رسومه. وانبهرت بها الطّفلتان دون أن تدركا مدى روعة تلك الرّسوم حقّ الإدراك. إنّه لضربٌ من السّحر أن تريا

تيدي يتناول قلما وقطعة ورقٍ ثمّ ينقر عليها بأنامله السّمراء الهزيلة فينشأ رسم يمثّل إيلسي أو إيميلي أو عجاج أو زبدة، رسم يكاد ينطق أو يموء.

عجاج وزبدة هما قطّا رقعة الطّانسة. كان زبدة كائنًا أصفر مكتنزًا حلوًا، يكاد المرء يشكّ في انتمائه إلى صنف القطط. أمّا عجاج، فهو قطٌّ مالطيّ ضخم، وكان أرستقراطيًّا من قمّة أنفه إلى طرف ذيله. ولا ريبَ في أنّه من طبقة تكافئ فيري دي فيري[1] لدى القطط. كان ذا عينيْن خضراويْن وفروٍ كثيف أملس، وفي رقبته الظّريفة بقعةٌ شبيهة بياقة بيضاء.

كانت أحبّ الأوقات إلى قلب إيميلي في رقعة الطّانسة هي تلك الّتي تجلس فيها مع رفيقيْها على درجات الفرندة بعد أن ينهكهم اللّعب، ويتأمّلون ذاك الحدّ الرّقيق الفاصل بين النّور والعتمة، عندما تبدو شجرات التّنوب وراء الحظيرة شبيهة بأطياف داكنة بديعة. وتنقلب غيوم الغرب رماديّة، ثمّ يبزغ قمرٌ ذهبي عظيم ويرتفع فوق الحقول حتّى تنكسر صورته على سطح الغدير، حيث كانت سيّدة الرّياح تنثر أضواء وظلالًا متراقصة رائعة.

لم تنضمّ إليهم السّيدة كينت أبدًا، ولكن كانت إيميلي واثقة ثقة مريبةً من أنّها تشاهدهم خلسة من وراء ستار المطبخ. كان تيدي وإيلسي يغنّيان أناشيد المدرسة، وتقدّم إيلسي عروض إلقاء، وتسرد

---

(1) عائلة أرستقراطيّة تحدّث عنها ألفريد تنيسون في إحدى قصائده.

إيميلي قصصًا، أو يجلسون أحيانًا في صمت بهيج، ويهيم كلٌّ منهم في أصقاع أحلامه الدّفينة، بينما يطارد القطّان بعضهما البعض في جنونٍ فوق التّل وعبر حشيش الطّانسة، فتراهما يدوران بالمنزل بلا هوادة وكأنّ جنًّا مسّهما. ويحلو لهما أن يقفزا على الأطفال على حين غرّة، ثمّ يرحلان أسرع ممّا أتيا. تتوهّج عيون ذيْنك القطّيْن كالحلّي، ويتمايل ذيلاهما كالرّيش، فترى فيهما رعشة حياةٍ نابضة خفيّة.

قالت إيميلي ذات مرّة: «آه، أليس جميلًا أن نحيا -هكذا؟ ألن يكون فظيعًا لو لم نُخلَق في هذه الحياة؟».

ورغم ذلك، لم يخلُ صفاء الحياة من عكرٍ -وهذا ما تكفّلت به الخالة إليزابيث، فهي لم تسمح لها بزيارة رقعة الطّانسة إلّا بعد الشكوى والاحتجاج، ولأنّ الدّكتور برنلي هو من أمر بذلك.

في إحدى رسائل إيميلي إلى أبيها -وقد تضاعف عدد تلك الرّسائل باطّراد على رفّ مقعد السّقيفة القديم-، كتبت: «لا توافق خالتي إليزابيث على تيدي. فعندما سألتها للمرّة الأولى إن كان لي أن أذهب للّعب مع تيدي، حدجتني بنظرة *قاسية* وقالت، من هو تيدي هذا؟ نحن لا نعرف شيئاً عن آل كينت هؤلاء. تذكّري يا إيميلي، آل موراي لا يُخالطون أيّ شخصٍ كان. فأجبتها بأنّني ابنة ستار -لست بموراي، وأنت قد قلت ذلك بنفسك. أبي العزيز، لم أقصد أن أكون وقيحة[1] ولكنّ خالتي إليزابيث أمرتني بألاّ

(1) خطأ متعمّد من الكاتبة يُبينّ قلّة خبرة إيميلي وتعثّرها اللّغويّ والإملائيّ. الصّواب: وقحة.

أخاطبها في بقيّة ذاك اليوم. كان يبدو لها أنّها سلّطت عليّ عقاباً شديداً، ولكنّني لم أُبالِ بذلك، ولو أنّه من المزعج قليلاً أن يعاملك فرد من العائلة بصمت مُحتقِر. ولكن منذ ذاك اليوم، سمحت لي بالذّهاب إلى رقعة الطّانسة لأنّ الدّكتور برنلي نفسه زارها ليلتمس منها موافقتها. يُؤثّر الدّكتور برنلي على خالتي إليزابيث تأثيراً غريباً. لا أفهم ذلك. قالت لي رودا مرّةً أنّ خالتي إليزابيث تأمل أن يشبك الدّكتور برنلي خالتي لورا -أي أن يتزوّجها- ولكن ليس الأمر كذلك. زارتنا السّيدة حرم توماس أندرسن ذات يومٍ بعد الظّهر لتناول الشّاي (السيّدة حرم توماس أندرسن امرأة بدينة ضخمة وجدّتها من آل موراي ولكن لا شيء فيها جدير بالذّكر ما عدا ذلك.) وسألت ضيفتنا خالتي إليزابيث إن كانت تظنّ أنّ الدّكتور برنلي ينوي الزّواج مجدّداً، فأجابت خالتي إليزابيث بالنّفي وقالت إنّه لا يليق بالنّاس أن يتزوّجوا مرّة ثانية. فقالت السّيدة أندرسون يخطر ببالي أحياناً أنّه سيتزوّج لورا، فلم تردّ عليها خالتي إليزابيث إلّا بنظرة متعالية. لا فائدة من إنكار الحقيقة، إنّني أفخر فخراً شديداً بخالتي إليزابيث في بعض الأحيان، رغم أنّي لا أحبّها.

«تيدي ولد لطيفٌ جدّاً يا أبتِ. أظنّ أنّك كنت ترظى[1] عنه. هل تُكتب كلمة ترظى[2] بالظاء أم بالضاد؟ إنّه يرسم صوراً خلاّبة وسيصير فنّاناً مشهوراً يوماً ما، وحينئذٍ سيرسم لي صورتي. وهو

(1) الصّواب: ترضى.
(2) الصّواب: ترضى.

يحفظ رسومه في عليّة الحظيرة لأنّ أمّه لا تريد أن تراها. ثمّ إنّه يستطيع أن يصفّر كالعصفور. أجد في رقعة الطّانسة جمالاً عطيقاً[1]، ولا سيّما في اللّيل. أعشق الغسق هناك. ونتسلّى كثيراً في الغسق. إذ تتضاءل سيّدة الرّياح بين أعشاب الطّانسة وكأنّها حوريّة متناهية الصّغر، ويغدو القطّان غريبيْن ومفزعيْن وظريفيْن جدًّا. هما قطّا السّيدة كينت، ولا يريد تيدي أن يكثر من ملاطفتهما خشية أن تقتلهما والدته غرقاً، فهي أغرقت هريْراً ذات مرّة لمجرّد أنّها ظنّت تيدي يحبّه أكثر منها. ولكن ليس هذا بصحيح، فتيدي شديد التّعلّق بوالدته. إنّه يغسل لها الأواني ويساعدها في كافّة الأعمال المنزلية. وتقول إيلسي إنّ ذلك ما دفع كلّ أولاد المدرسة إلى نعته بالمتخنّث، ولكنّني أرى أنّ ذلك لا ينمّ إلّا عن نُبله ورجولته. ويتمنّى تيدي أن تسمح له أمّه بتربية كلب، ولكنّها رفظت[2]. كنت أظنّ أنّ خالتي إليزابيث مستبدّة، ولكن أرى أحياناً أنّ السّيدة كينت تفوقها في ذلك بدرجات. ولكن، لا تنسَ أنّها تحبّ تيدي، في حين أن خالتي إليزابيث لا تحبني.

«ولكنّ السّيدة كينت لا تحبّنا، أنا وإيلسي. وهي لا تعلن ذلك، ولكنّنا نشعر به. إذ لا تسألنا البقاء لتناول الشّاي *قطُّ* –رغم أنّنا نعاملها بلباقة تامّة. أظنّ أنّها تغار منّا لأنّ تيدي يحبّنا. وأهداني تيدي صورة أخّاذة لمعبد المياه كان قد رسمها على صَدَفَة كبيرة

(1) الصّواب: عتيقًا.

(2) الصّواب: رفضت.

بيضاء، ولكنّه أوصاني بألّا أخبر والدته لأنّها ستبكي. والسّيدة كينت غامظة[1] للغاية، مثلما نقرأ عن بعض الشخصيّات في الكتب. يعجبني الأشخاص الغامظون[2]، ولكنّني لا أجعلهم من المقرّبين. تنمّ عيناها دائماً عن الجوع ولو أكلت الكثير. وهي لا تبرح منزلها أبداً بسبب ندبةٍ رسخت في وجهها بعد أن انفجر عليه مصباحٌ وأحرقه. لقد تجمّدت الدماء في عروقي لمّا سمعت قصّتها يا أبي العزيز. كم أنا ممتنّة لأنّ خالتي إليزابيث لا تستخدم إلّا الشّموع. ولا أنكر أنّ بعض تكاليد[3] موراي صائبةٌ جدًّا. السّيدة كينت ورعة جدّاً -ولها مفهوم خاصّ بها للدّين. فهي تصلّي حتّى في وسط النّهار. ويقول تيدي إنّه كان يعيش في عالم آخر -قبل أن يولد في عالمنا هذا-، عالم فيه شمسان، إحداهما حمراء والأخرى زرقاء، فكان فيه النّهار أحمر واللّيل أزرق. لا أدري من أين اسطنبط[4] هذه الفكرة، ولكنّها راقت لي. وقال إنّ في ذاك العالم أنهار يجري فيها العسل بدلاً من الماء. فسألته ماذا كنتَ تفعل إذا عطشت، فقال أوه، لا أحد يشعر بالعطش هناك. ولكن أظنّ أنّني قد أستسيغ العطش لأنّ الماء البارد سيبدو لي لذيذاً جدّاً حين أشربه آنذاك. أمّا *أنا* فأودّ أن أعيش على سطح القمر. أتخيّل أنّه سيكون مكاناً فضّياً جميلاً.

(1) الصّواب: غامضة.

(2) الصّواب: الغامضون.

(3) الصّواب: تقاليد.

(4) الصّواب: استنبط.

«تقول إيلسي إنّه ينبغي أن يميل إليها تيدي أكثر منّي لأنّها تفوقني مرحاً، ولكن ليس هذا صحيحًا. فلي ما يكفي من المرح إن لم يؤنّبْني ظميري[1]. أظنّ أنّ إيلسي تريد أن يفضّلها تيدي عليّ، ولكنّها ليست من الفتيات الغيورات.

«أنا سعيدة لأنّ خالتي إليزابيث وخالتي لورا راظيتان[2] عن صداقتي مع إيلسي. فقلّما تتّفق كلاهما على شيء ما. لقد تعوّدتُ الآن على الخصام مع إيلسي، ولم أعد أبالي كثيراً. ثمّ إنّني صرت قادرة على الشّجار كما ينبغي في طفرات غضبي. نتشاجر حوالي مرّة في الأسبوع ولكنّنا نتسامح مباشرة. وتقول إيلسي إنّ الحياة ستكون مملّة إن خلت من الشّجار. أنا أفضّلها بلا شجار، ولكن لا يعلم أحدٌ ما قد يُغضب إيلسي. فهي لا تغضب على ذات السّبب مرّتيْن. وهي تنعتني بأشنع الألقاب. لقّبتني أمس بالسّحلية القذرة والأفعى الفرماء. ولكنّني رغم ذلك لم أنزعج، لأنّني أعلم أنّي لست بقذرة ولا فرماء، وهي تعلم ذلك أيضاً. أمّا أنا فلا أشتمها لأنّ ذلك لا يليق بالسّيدات المحترمات، ولكنّني أبتسم ويجنّ جنونها لذلك أكثر ممّا لو كشّرت أو دست الأرض كما تفعل هي، لذلك أكتفي بالابتسام. وتحذّرني خالتي لورا من إعادة الكلمات الّتي تقولها لي إيلسي وتحثّني على أن أكون قدوة حسنةً لها، فالطّفلة المسكينة وحيدةٌ وليس لها من يراقبها كما ينبغي. أتمنّى لو كان بوسعي أن أستخدم كلماتها

(1) الصّواب: ضميري.

(2) الصّواب: راضيتان.

لأنّها لاذعة، إنّها تتعلّمها من أبيها. يبدو لي أنّ خالتيَّ مختلفتان جدّاً عن سائر النّاس. زارنا ذات ليلة القسّ السّيد دير لتناول الشّاي، فاستخدمتُ كلمة جحش في سياق حديثنا. قلت إنّنا، أنا وإيلسي، نخشى عبور مرعى السّيد جايمس لي حيث يقع البئر القديم لأنّ لديه جحشًا هناك. وحالما غادر السّيد دير، وبّختني خالتي إليزابيث شرّ توبيخ وحذّرتني من ألّا أستخدم *تلك الكلمة* مجدّداً. ولكنّها ذكرت النّمور في حديثها -في سياق المبشّرين- وليس بوسعي أن أفهم لماذا يُعدّ الحديث عن الجحوش أكثر وقاحة منه عن النّمور. وصحيح أنّ الجحوش حيوانات عنيفة، ولكنّ النّمور لا تقلّ عنها عنفًا. ولكن تقول خالتي إليزابيث إنّني دائماً ما ألحق بهم العار أمام الضّيوف. ففي الأسبوع الماضي، زارتنا السّيدة لوكوود من مطمر الفأر، وكان الجميع يتحدّث عن السّيدة حرم فوستر بيك، وهي حديثة الزّواج، فقلت إنّ الدكتور برنلي يرى أنّها ذات جمال شيطاني. فهتفت خالتي إليزابيث: إيميلي! بنبرة رهيبة. وامتقع وجهها غضباً. فصرخت: الدّكتور برنلي هو من قالها، وأنا كرّرت كلامه فحسب. وقد قالها الدّكتور برنلي فعلاً يوم تناولت العشاء في منزل إيلسي وكان معنا الدّكتور جايمسون. وفي تلك الأمسية، رأيت الدّكتور برنلي في إحدى نوبات غضبه بسبب خطأ اقترفته السّيدة سيمز في مكتبه. كان المشهد شنيعاً. تطاير الشّرار من عينيْه الصفراوين، وأخذ يتخبّط في الهواء ويركل كرسيّاً ويرمي بساطاً في الفضاء ويلقي بمزهريّة من الشّباك ويقول *أفظع الألفاظ*. جلست

على الكنبة أتأمّله في دهشة. كان الأمر شيّقاً لدرجة أنّني تأسّفت لمّا هدأت أعصابه، وسرعان ما هدأ بالفعل لأنّه، مثل إيلسي، لا يطول انفعاله. بيد أنّه لا يغضب من إيلسي أبداً. وتقول إيلسي إنّها تتمنّى أن يغضب منها -فذلك أفضل من ألّا يكترث لها بالمرّة. إنّ المسكينة لا تقلّ عنّي يُتماً. في الأحد الماضي، ذهبت إلى الكنيسة بفستانها الأزرق الباهت، وكان فيه ثُقب في الأمام تماماً. ولمّا عدنا إلى المنزل، بكت خالتي لورا، ثمّ فاتحت السيدة سيمز في الموضوع لأنّها لم تجرؤ أن تحدّث الدّكتور برنلي. ولكن انزعجت السّيدة سيمز، وقالت إنّها ليست مسؤولة عن العناية المشدّدة بإيلسي، وإنّها دفعت الدّكتور برنلي إلى شراء فستان جميل من القماش الموصلي المزركش، ولكنّ إيلسي أفسدته ببقعة بيضٍ، ولمّا وبّختها السّيدة سيمز على ما فعلت، انتابها الغضب وصعدت إلى غرفتها ومزّقت الفستان إرباً إرباً، وقطعت السيّدة سيمز على نفسها عهداً بألّا تكلّف نفسها عناء التفكير في طفلة من هذا القبيل، ولم يعد لها شيءٌ لترتديه باستثناء فستانها الأزرق القديم، ولكنّها لم تعلم أنّه مثقوب. لذلك سرّبتُ فستان إيلسي إلى القمر الجديد فرتقته خالتي لورا بعناية وأخفت الثّقب بجيبٍ من القماش. وقالت إيلسي إنّها مزّقت فستانها الموصلي في أحد الأيّام الّتي لم تؤمن فيها بالرّب ولم تأبه بما فعلت. وذات ليلة، عثرت إيلسي على فأرٍ في فراشها فاكتفت بطرده، ثمّ استلقت على الفراش. يا لشجاعتها. لا يمكنني أن أكون بذاك القدر من الشّجاعة. وليس صحيحا أنّ الدّكتور برنلي لا يبتسم أبداً. لقد رأيته

يبتسم، ولكن ليس كثيراً. وهو يبتسم بشفاهه فحسب، لا بعينيه، وهذا يربكني. وغالباً ما يضحك بطريقة مريعة ساخرة على غرار ضحكة عمّ جيم *البشوش*.

«لم نتناول يومها إلّا بعض الشّربة -وكانت سائلة جدّاً.

«تمنحني خالتي لورا كلّ أسبوع خمسة سنتات مقابل غسل الأواني. ولا يمكنني أن أنفق منها إلّا سنتاً واحداً ثمّ أضع الباقي في حصّالة الضّفدعة في غرفة الجلوس فوق رفّ المدفأة. وهي عبارة عن ضفدع نحاسيّ يجلس فوق حصّالة وتُوضع العملات في فمه الواحدة تلو الأخرى. فيبتلعها وتنزل وسط الحصّالة. إنّها عمليّة مدهشة (ينبغي ألّا أستخدم لفظ مدهشة مجدّداً لأنّك نصحتني بألّا أكرّر الكلمة ذاتها ولكنّني لم أستحضر كلمات أخرى للتّعبير عن مشاعري بهذه الدّقة.) وحصّالة الضّفدع ملك خالتي لورا، ولكنّها سمحت لي باستخدامها، فلم يسعني إلّا أن أعانقها، لا أعانق خالتي إليزابيث طبعاً، فهي صلبة وعجفة[1]. ولا توافق على أن تدفع لي خالتي لورا مقابل غسل الأواني. وأرتجف لّما أفكّر في ما قد تقول لو علمت أنّ ابن عمّي جيمي منحني دولاراً كاملاً خلسةً في الأسبوع الماضي.

«ليته لم يعطِني مبلغاً بتلك القيمة، فالأمر يقلقني. إنّها مسؤولية جسيمة، وسيصعب عليّ إنفاق ذاك المبلغ في محلّه دون أن تكتشف

(1) الصّواب: عجفاء.

خالتي إليزابيث أمره. وأتمنّى ألّا يصبح بحوزتي مليون دولار أبداً. أنا متأكّدة من أنّ ذلك سيحطّمني. خبّأت دولاري في الرّف داخل المقعد مع رسائلي ووضعته في ظرف، ثمّ كتبت عليه «ابن عمّي جيمي أعطاني إيّاه»، فإذا متُّ على حين غرّة وعثرت عليه خالتي إليزابيث، ستعلم أنّني حصلت عليه بسُبُلٍ شريفة.

«ها هي الأيّام قد بدأت تنتعش وأجبرتني خالتي إليزابيث على ارتداء تنّورة سميكة من الفانلّة. لا أحبّها، إنّها تجعلني منتفخة. ولكن خالتي إليزابيث تقول إنّ عليّ ارتدائها لأنّكَ توفّيتَ بسبب السّل. أتمنّى لو يمكنني أن أكون في الآن ذاته رشيقة وفي صحّة جيّدة. لقد قرأت اليوم قصّة ليلى والذّئب. ويبدو لي الذئب أكثر شخصيّة شيّقة فيها. أمّا ليلى فما هي إلّا فتاةٌ غبيّة يسهل خداعها.

«كتبتُ قصيدتيْن يوم أمس. إحداهما قصيرة وسمّيتها «أبيات إلى زهرة زرقاء العينيْن في عشب البستان القديم». وهي كالآتي:

زهرتي الحلوة الصّغيرة،
محيّاك يرنو إلى السّماء
فتنعكس بسمتها المنيرة
على بؤبؤ عينكِ الزّرقاء.

وللحقل ملكات شامخات، ناعمات،
وأزهار الأنقولا تضاهيها سحراً،
ولكنّ موهبتي وما لي من كلمات

لن تكتب في غيرك نثراً ولا شعراً.

«أمّا القصيدة الأخرى، وهي طويلة، فقد سمّيتها «إمبيراطور[1] الغابة». الإمبيراطور[2] هو شجرة البتولا الكبيرة في أيكة جون المتغطرس. أحبّ تلك الأيكة حتّى التّعب. هل تعرف تعباً من ذاك القبيل؟ إيلسي تحبّها أيضاً، وغالباً ما نلعب هناك إن لم نذهب إلى رقعة الطّانسة. لنا فيها ثلاثة دروب. ونسمّيها درب اليوم، ودرب الأمس، ودرب الغد. أمّا درب اليوم فهو بجوار النّهر، وسمّيناه هكذا لأنّه جميلٌ الآن. وأمّا درب الأمس فيمرّ بين الأروم حيث قطع جون المتغطرس بعض الأشجار، وسمّيناه بهذا الاسم لأنّ المكان كان جميلاً فيما مضى. وأمّا درب الغد، فهو طريق ضيّق يخترق مزرعة القيقب، وسمّيناه بذلك لأنّه سيصير جميلاً يوماً ما، بعد أن تنمو أشجار القيقب. ولكن، آه يا أبتِ العزيز، لم أنسَ شجراتنا القديمة الحبيبة في بيتنا. وأفكّر فيها دوماً قبل النّوم. ولكنّني سعيدة هنا. لا عيبَ في أن أكون سعيدة، أليس كذلك يا أبتِ؟ تقول خالتي إليزابيث إنّني سرعان ما تجاوزت شوقي إلى الدّيار، ولكنّ الشّوق مازال في *داخلي*. لقد تعرّفت إلى جون المتغطرس، فهو صديق مقرّب لإيلسي، وتزوره دوماً لتشاهده يعمل في ورشة النّجارة. يقول إنّه صَنع من السّلاليم ما يصل به إلى باب الجنّة بلا كاهن، ولكنّها مجرّد

(1) الصّواب: إمبراطور.

(2) الصّواب: إمبراطور.

نكتةٍ خاصّة به. إنّه كاثوليكي وريعٌ[1] جدّاً ويحضر قدّاس الأحد في كنيسة الصلّيب الأبيض كلّ أسبوع. وأزوره أحياناً مع إيلسي، رغم أنّه قد ينبغي لي ألّا أفعل لأنّه عدوٌّ لعائلتي. إنّه وقور وراقي السّلوك ويعاملني حسن المعاملة، ولكنّه لا يروق لي في بعض الأحيان. فكلّما طرحت عليه سؤالا جدّياً، يغمز ورائي وهو يجيب، وهذا تصرّف مُهين. وبالطّبع، لا أسأله أسئلة دينيّة، على خلاف إيلسي. وهو يعجبها، ولكنّها تقول إنّه قد يحرقنا كلّنا على المذبح لو كان ذلك بوسعه. ولم تتردّد في سؤاله عن الأمر مباشرة، فغمزني وقال أوه، كيف لنا أن نحرق من البروتستانتيّين فتاتيْن حلوتيْن صغيرتيْن مثلكما، لن نحرق إلّا العجائز البشعين منهم. يا له من جواب متهوّر. والسّيدة حرم جون المتغطرس امرأة لطيفة وغير مغرورة بالمرّة. وهي شبيهة بتفّاحة صغيرة متورّدة متجعّدة.

«في الأيّام الممطرة، نلعب في منزل إيلسي. ونتزحلق على الدّرابزينات ونفعل ما يحلو لنا. ولا أحد فينا يحمل همّاً إلّا عندما يكون الدّكتور في المنزل، عندئذٍ يجب أن نحافض[2] على الهدوء لأنّه لا يتحمّل أيّ ظجيج[3] في المنزل إلاّ ظجيجه[4] هو. وسقف المنزل مسطّح، ويمكننا الصّعود إليه من خلال باب في سقف العليّة. إنّه لمن الممتع جدّاً أن نقف فوق سطح منزلٍ. وأجرينا مسابقة أعلى

(1) الصّواب: ورِع.
(2) الصّواب: نحافظ.
(3) الصّواب: ضجيج.
(4) الصّواب: ضجيجه.

صراخ، ففُزت، وفاجأني ذلك. لا يُدرك المرء كلّ ما يقدر على فعله حتّى يجرّبه. ولكن سمعنا العديد من النّاس وغضبت منّي خالتي إليزابيث غضباً شديداً. وسألتني عمّا دفعني إلى فعل شيء من هذا القبيل. وهذا سؤال مُحرج لأنّني لا أدري ماذا يدفعني إلى فعل الأشياء. فأنا أفعلها أحياناً ثمّ أكتشف بما أشعر خلال فعلها. وأحياناً أخرى، أفعلها لتكون في رسيدي[1] حكايات شيّقة أقصّها على أحفادي. هل من اللّائق أن نتحدّث عن إنجاب الأحفاد؟ فقد اكتشفت أنّ الحديث عن إنجاب الأطفال لا يليق. ذات مساءٍ، كان معنا ضيوفٌ وسألتني خالتي لورا بلطفٍ ما الّذي تفكّرين فيه بهذه الجدّية يا إيميلي، فأجبت بأنّني أختار أسماء لأطفالي. فأنا أنوي إنجاب عشرة منهم. وبعد أن غادر الضّيوف، قالت خالتي إليزابيث لخالتي لورا *ببرودة شديدة* أظنّ أنّه يجدر بكِ ألا تسألي الطّفلة عمّا تفكّر فيه من هنا فصاعداً يا لورا. وسيؤسفني إن عدلت خالتي لورا عن سؤالي، فعندما تخطر ببالي فكرة جيّدة، يسعدني أن أفصح عنها.

«سنستأنف الدّروس في الأسبوع القادم. وستسأل إيلسي الآنسة براونيل أن تسمح لي بالجلوس معها. وأنوي أن أتصرّف وكأنّ رودا غير موجودة البتّة. وسيأتي تيدي أيضاً. يقول الدّكتور برنلي إنّ صحّته تسمح له بمزاولة الدّروس، رغم أنّ والدته لا تستحسن الفكرة. وأخبرنا تيدي بأنّها لا تحبّ ذهابه إلى المدرسة،

(1) الصّواب: رصيدي.

ولكنّها سعيدةٌ لأنّه يكره الآنسة براونيل. تقول خالتي لورا إنّ أفضل طريقة لختام رسالة موجّهة إلى صديق عزيز هي: ولك منّي خالس[1] المودّة.

«إذن لك منّي خالس[2] المودّة والحبّ.

«*إيميلي ب. ستار.*

«تذييل: أقول ذلك لأنّك *ما زلت أعزّ أصدقائي*، يا أبتِ. تقول لي إيلسي إنّها تحبّني أكثر من أيّ شيء آخر في الكون، وبعدي حذاؤها الجلديّ الأحمر الّذي أهدتها إيّاه السيّدة سيمز».

---

(1) الصّواب: خالص.

(2) الصّواب: خالص.

ابنة حوّاء

شُهر القمر الجديد بجودة تفّاحه، وفي ذاك الخريف الأوّل من إقامة إيميلي به، أنتج كلّ من البستانيْن «القديم» و«الجديد» محصولًا وفيرًا. وكانت في البستان الجديد أصنافٌ موثّقة ومؤصّلة، أمّا في القديم فتوجد شتلات غائبة عن الكاتالوغات، ولكن لها من الحلاوة البرّية ما لا تجده إلّا فيها. لا عيب يشوب أيّ تفّاحة فيها، فكان بوسع إيميلي أن تأكل أيّ نوعٍ تريد متى شاءت، وكان الشّرط الوحيد ألّا تأخذ منها شيئًا إلى فراشها. من الطّبيعي أنّ الخالة إليزابيث لم ترغب في إفساد فراشها ببذور التّفاح، أمّا الخالة لورا، فكانت تشمئزّ ممّن يأكل تفّاحة في الظّلام خشية أن يأكل معها دودة تسكنها، لذلك كان بوسع إيميلي أن تشبع كامل رغبتها في التّفاح ممّا تأكل في البيت، ولكن قضت نزوةٌ ممّا في النّفس البشريّة من نزواتٍ بأن نتوّهم أنّ تفّاح غيرنا يفوق تفّاحنا لذّةً، وهذا ما يعلمه ثعبان الجنّة المحتال حقّ العلم. وكمعظم النّاس، كانت تلك النّزوة تسكن نفس إيميلي، فظنّت أنّ ما في الكون من تفّاح أطيب من تفّاح جون المتغطرس. لقد تعوّد جون على ترصيف صفّ طويل من التّفاحات على إحدى العارضات الخشبيّة في ورشته، واتُّفِقَ على أنّ بإمكانها،

هي وإيلسي، أن تأخذا منها حاجتهما في أيّ وقتٍ كلّما زارتاه في محلّه اللّطيف الأغبر المغطّى بالنُّجارة. وكان لهما ثلاثة أصناف مفضّلة بين أنواع تفّاح جون المتغطرس-«التفّاح الأجرب»، وهو يبدو وكأنّه مصاب بالبرص، ولكنّه يخفي تحت قشرته الغريبة المبقّعة لذّةً منقطعة النّظير؛ و«التّفاح الصّغير الأحمر»، وهو لا يكاد يفوق السّرطان حجمًا، ذو قشرة قرمزيّة لامعة كالحرير، جوزيّ النكهة لذيذها؛ ثمّ «التّفّاح الحُلو» الأخضر الكبير، وكان المفضّل لدى الأطفال عمومًا. يُعدّ اليوم هباءً منثورًا في نظر إيميلي إن طلعت شمسه وغربت دون أن تقضم فيه إحدى تفّاحات جون المتغطرس الخضراء الحلوة.

علمت إيميلي جيّدًا، في قرارة نفسها، أنّه لا يجدر بها الذّهاب إلى منزل جون المتغطرس بالمرّة. صحيحٌ أن لا أحدَ نهاها عن الذّهاب -وذلك ببساطة لأنّه لم يخطر ببال خالتيْها أنّ أحد سكّان القمر الجديد قد ينسى تلك العداوة القديمة المحبوبة بين عائلتي موراي وسوليفان الّتي نشبت قبلهم بجيليْن. وكان الأمر موروثًا يتناقله خلف موراي عن سلفهم على نحوٍ بديهيّ. ولكن منذ هامت إيميلي مع تلك الإسماعيليّة الصّغيرة الطّائشة إيلسي، خارت سطوة التّقاليد أمام إغراء تفّاحات جون المتغطرس «الحمراء» و«الجرباء».

ذات مساء من شهر أيلول، تمشّت إيميلي بمفردها في العتمة إلى ورشته. كانت لوحدها منذ عادت من المدرسة، إذ ذهبت خالتاها وابن عمّها جيمي إلى مطمر الفأر ووعدوها بأن يعودوا

عند المغرب. لم تكن إيلسي معها، هي الأخرى، فقد أخذها والدها إلى شارلوتتاون لشراء معطف شتويٍّ جديد بعد إلحاحٍ من السّيدة سيمز. في بداية الأمر، استطابت إيميلي وحدتها، وشعرت بالعظمة وهي مسؤولة لوحدها عن القمر الجديد. تناولت العشاء الّذي تركته لها خالتها لورا على خزانة المطبخ الخارجيّ، ثمّ دخلت الملبنة وقشدت ستّة أوعية واسعة جميلة من اللّبن. لم يكن من شأنها أن تفعل ذلك، ولكنّها كانت تتمنّى دومًا أن تجرّبه، وها هي الفرصة تسنح لها ويجب ألّا تفرّط فيها. أنجزت العمليّة بإتقان لدرجة أنّه لم يتفطّن لها أحد -فكلٌّ من خالتيْها افترضت أنّ الأخرى هي الّتي قشدت اللّبن، ولم يوبّخها على ذلك أحد. لا يُشير هذا طبعًا إلى أيّة أخلاقيات خاصّة؛ ففي حبكة قصصيّة سليمة، كان ينبغي أن يُكشَف أمر إيميلي وتُعاقب على عصيانها، أو أن يؤنّبها ضميرها لدرجة أن يقودها إلى الاعتراف، ولكن يؤسفني -أو يجدر بي أن أتأسّف- أن أقرّ بأنّ ضمير إيميلي لم يُبالِ بالمسألة بتاتًا. ورغم ذلك، فقد كُتب عليها أن تعاني بما فيه الكفاية في تلك اللّيلة -لسبب مختلف تمامًا- لتكفّر عن كافّة هفواتها السّابقة.

لّما فرغت إيميلي من قشد اللّبن وسكبه في الجرّة الحجريّة الكبيرة وخفقه -أجل، لم تنس *ذلك* أيضًا-، كانت الشّمس قد غربت ولم يعد أحدٌ إلى البيت. ولم تحبّذ إيميلي العودة إلى ذاك المنزل الشاسع بعتمته وصداه. فانطلقت إلى ورشة جون المتغطرس ووجدتها شاغرة، ولو أنّ المِسحَج كان واقفًا في منتصف لوحة، وهو ما يدلّ

على أنّ جون المتغطرس كان يعمل هناك في وقت ليس ببعيد، وأنّه قد يعود. وجلست إيميلي على جزء مستدير من جذع ضخم، ثمّ نظرت حولها بحثًا عمّا يمكنها أكله. وكان هنالك صفّ مرتّب من التّفاح «الأحمر» و«الأجرب» في جانب الورشة، ولا «حُلو» فيه؛ وشعرت إيميلي في تلك اللّحظة أنّها لا تريد إلّا تفّاحة «حلوة». ثمّ رمقت منها واحدة -واحدة ضخمة، بل لعلّها أكبر «حُلوة» رأتها إيميلي على الإطلاق-، وكانت لوحدها على إحدى درجات السّلم المؤدي إلى العليّة. صعدت إيميلي وأخذتها، ثمّ التهمتها من يدها مباشرة. كانت تقضم اللّب في سرور لمّا دخل جون المتغطرس، فحيّاها وهو ينظر حوله بشيءٍ من اللّامبالاة. ثمّ قال: «ذهبت لأجلب عشائي، زوجتي غائبة وعليّ أن أحضره بنفسي، ثمّ انغمس يسحّج الخشب في صمتٍ.

جلست إيميلي على السّلم تعدّ بذور «الحُلوة» الكبيرة -إذ يُقرأ الطّالع في بذور التُّفاح-، وتصغي إلى سيّدة الرّياح وهي تطلق صفيرها السّحريّ من خلال فجوة في جدار العليّة، وتؤلّف «وصفَ ورشة جون المتغطرس للنّجارة في ضوء الفانوس» لكي تكتبه لاحقًا على إحدى فواتير الرّسائل. وبينما كانت تائهة تصطاد أفكارها لكتابة وصف دقيق لظِلّ أنف جون المتغطرس وهو ينعكس طويلًا غريبًا على الجدار المقابل، التفت المغنّي فجأةً، حتّى انعكس ظلّ أنفه إلى الفوق وكأنّه سهمٌ عظيم يصيب السّقف، ثمّ سأل بصوتٍ مذعور:

«ماذا حدث لتلك التّفاحة الخضراء الحلوة الكبيرة الّتي تركتها على هذا السُّلّم؟».

فأجابت إيميلي وعي تتلعثم: «ولكن... لقد-لقد أكلتها».

أوقع جون المتغطرس مسحجه، وألقى بيديه، ثمّ نظر إلى إيميلي في هلع.

«رحمتك يا ربّنا. لم تأكلي تلك التّفاحة يا طفلة -لا تقولي إنّك قد أكلتِ *تلك* التّفاحة!».

فقالت إيميلي متردّدة: «بلى، أكلتها. لم أظنّ أنّ في ذلك أيّ ضرر... أنا..».

«ضرر! لا أصدّق ما أسمع! إنّها تفّاحة مسمومة وضعتها للجرذان! لقد اجتاحت تلك القوارض اللّعينة حياتي هنا، وقرّرت أن أضع حدًّا لملهاتها. وها أنتِ قد أكلت التّفاحة، إنّها حريّة بقتل عشرة منكِ في رمشة عين».

اندفع أمام جون المتغطرس الوجه الصّغير المتقع والمئزر القطني إلى خارج الورشة نحو الظّلام. كانت ردّة فعل إيميلي الأولى أن تعود إلى منزلها في الإبّان، قبل أن تخرّ ميّتة. شقّت الحقل ثمّ الأيكة فالحديقة وهرعت إلى البيت، فوجدته مازال غارقًا في صمت مطبق وظلام دامس، فلم يعد أحدٌ بعدُ. وانفلتت عن إيميلي زعقة يأس مريرة، سيعودون ليجدوها باردة جامدة، ربّما بوجه أسود، وقد فني كلّ ما لها في هذا العالم الحبيب إلى الأبد، وكلّ ذلك لأنّها أكلت تفّاحة ظنّت أنّها مدعوّة لأكلها على الرّحب والسّعة. هذا ليس عدلًا، فهي

لا تريد الموت. ولكن يجب أن تموت. علّقت أملها الوحيد في أن يعود أحدهم إلى البيت قبل مماتها. يا لها من ميتة شنيعة، أن تموت وحيدة في رحاب منزل القمر الجديد الفسيح الفارغ. لم تجرؤ على الذّهاب إلى أيّ مكانٍ لطلب النّجدة. لقد كان الظّلام حالكًا آنذاك ومن الأرجح أن تسقط ما في عينها بلّة على قارعة الطّريق. أن تموت هناك، وحيدة، في الظّلام... آه، سيكون الأمر شنيعًا. ولم يخطر ببالها أنّه قد يكون هنالك سبيل لإنقاذها، بل ظنّت أنّ الموت هو قدرها المحتوم بمجرّد أن ابتلعت السّم.

أشعلت شمعة بيد مرتجفة، وخفّت عليها وطأة اللّحظة آنذاك، فـ*يمكنها* أن تواجه الأمور في الضّوء. كانت إيميلي ممتقعة، مذعورة، وحيدة، ولكنّها قرّرت سلفًا أن تواجه محنتها بشجاعةٍ. عليها ألّا تخذل اسميْ ستار وموراي، فضمّت قبضتيْها وحاولت ألّا ترتجف. وتساءلت: كم من الوقت سيمرّ قبل أن تموت؟ لقد قال لها جون المتغطرس إنّ التّفاحة ستقتلها «في رمشة عين». ماذا يقصد؟ كم تدوم رمشة العين؟ وهل سيؤلمها الموت؟ كان لها اعتقاد مبهم بأنّ السّم يسبّب آلامًا حادّة. آه، كم كانت سعيدة منذ قليل! ظنّت أنّها ستعيش سنواتٍ طويلة أخرى وستكتب قصائد رائعة وتغدو مشهورة مثل السّيدة هيمانس. ثمّ إنّها تشاجرت مع إيلسي يوم أمس ولم تتصالحا بعدُ -ولن يتسنى لهما الصّلح الآن، وستستاء إيلسي أيّما استياء. عليها أن تكتب لها رسالة لتسامحها. هل لديها متّسع من الوقت لذلك؟ آه، يا لبرودة يديْها! لعلّه دليلٌ على بداية احتضارها،

فهي سمعت أو قرأت أنّ الأيادي تبرد عند الموت. تساءلت إن بدأ وجهها يسودّ، فقبضت على الشّمعة وصعدت في لمح البصر إلى الغرفة الشّاغرة. كانت فيها مرآة، وهي المرآة الوحيدة في المنزل المعلّقة في مستوى منخفض يسمح لإيميلي برؤية صورتها إذا ما دفعت بنصف جسدها السّفليّ إلى الوراء. وفي ظروف عادية، كانت إيميلي تموت رعبًا لمجرّد التّفكير في دخول تلك الغرفة الشّاغرة على ضوء الشّمعة الخافت المتذبذب، ولكنّ خوفها الأكبر طغى على سائر مخاوفها الدّنيا. نظرت إلى انعكاس صورتها بين خصلات شعرها المنسدلة سوداءَ ناعمةً، ورأت وجهها في ضوءٍ مسلّط من الأسفل بارزًا أمام خلفية الغرفة الدّامسة. أوه، لقد كانت شاحبة شحوب الموت فعلًا. أجل، هذا وجهٌ يحتضر بلا أدنى شكّ. ثمّ دبّ شيءٌ ما في نفس إيميلي وسيطر عليها، شيءٌ ورثته عن تلك القبيلة العريقة المعلّقة وراءها، فكفّت عن الارتجاف، ورضيت بقدرها، بهدوء يشوبه أسف مرير.

وقالت: «لا أريد الموت ولكن بما أنّ هذا قدري، سأموت كما يليق بآل موراي». كانت قد قرأت مقطعًا مشابها في كتابٍ ما، وها هي تستحضره في الوقت المناسب. أمّا الآن، فعليها أن تعجّل. يجب أن تُكتَب تلك الرّسالة لإيلسي. وبادرت بالذّهاب إلى غرفة خالتها إليزابيث للتأكّد من أنّ رفّها العلوي على يمين المكتب كان مرتّبًا، ثمّ ارتقت السّلم نحو السّقيفة وجلست في ركن الرّوشن. كانت الغرفة الواسعة تزخر بالظّلال المتراقصة الخفيّة المجتمعة حول ضوء الشّمعة الخافت، ولكنّها لم تعد مخيفة في نظر إيميلي آنذاك.

فكّرت الصّغيرة: «كيف تجرّأت اليوم على أن أحزن لأنّ تنورتي منتفخة»، وهي تتناول إحدى فواتيرها العزيزة، وستكتب عليها رسالتها الأخيرة. لا حاجة لها إلى مراسلة والدها –بما أنّها ستراه قريبًا–، ولكن يجب أن تتلقّى إيلسي الرّسالة، صديقتها الحبيبة إيلسي، إيلسي الودودة، البشوشة، السّريعة الانفعال، تلك الّتي أنزلت عليها وابلًا من النّعوت المُشينة وستظلّ تقاسي ويلات النّدم عليها طيلة حياتها.

كتبت إيميلي بيدٍ مرتعشة، زامّة شفتيْها بإحكام: «عزيزتي إيلسي، إنّني سأموت. تسمّمت بتفّاحة وضعها جون المتغطرس للجرذان، ولن أراكِ مجدّدًا، ولكنّني أكتب لكِ هذه الكلمات لأخبركِ بأنّني أحبّك وأنّه يجب ألّا تستائي لأنّك نعتّني أمس بـالظّربان العفن والثّعلب الدّموي. لقد سامحتك، فلا تحملي همًّا. وأنا آسفة لأنّني قلت لكِ إنّك عديمة القيمة، فلم أقصد من ذلك شيئًا. سأترك لكِ قِصْطي[1] من الأواني المهشّمة في بيت ألعابنا، وأرجوكِ أن تبلّغي سلامي إلى تيدي. لن يتسنّى له أن يعلّمني كيف أضع الدّيدان على خطاف الصّنارة الآن. لقد وعدته بأن أتعلّم لأنّني لم أرده أن يعتبرني جبانةً، ولكنّي سعيدة بأنّني لم أتعلّم لأنّني أعلم الآن بما تشعر به الدّودة. لست أشعر بالتّوعّك في الوقت

(1) خطأ متعمّد من الكاتبة يُبيّن قلّة خبرة إيميلي وتعثّرها اللّغويّ والإملائيّ. الصّواب: قسطي.

الرّاهن، ولكنّي لا أعلم ما هي أعراظ[1] التّسمّم، وقد قال جون المتغطرس إنّ في التّفّاحة ما يكفي لقتل عشرةٍ منّي، إذن أظنّ أنّه لم يبقَ لي وقت كثير للعيش. إن سمحت لكِ خالتي إليزابيث، يمكنك أن تأخذي عقد الخرز الفينسي، فهو كلّ ما بحوزتي من ممتلكات ثمينة. لا تتركي أحدًا يؤذي جون المتغطرس فهو لم يسمّمني عمدًا، بل ذاك جزاء جشعي. قد يظنّ النّاس أنّه فعل ذلك قصدًا لأنّني بروتستانتية، ولكنّ هذا غير صحيح، أنا متأكدّة، فأرجوك أخبريه بألّا يثقله النّدم. ها أنا أشعر بألم في بطني، ويبدو أنّ نهايتي وشيكة. وداعًا، وتذكّري تلك الّتي حصدها الموت في صباها.

«صديقتك الوفيّة،

«إيميلي».

بينما كانت إيميلي تثني الورقة، سمعت أزيز عجلات في الباحة السّفلى. وفي غضون لحظات، وجدت إليزابيث ولورا موراي أمامهما في المطبخ كائنًا صغيرًا متجهّم الوجه، يحمل شمعة في يدٍ وفاتورة رسالة حمراء في الأخرى.

وهتفت الخالة لورا: «ما خطبكِ يا إيميلي؟».

فأجابت إيميلي في سكون: «سأموت. أكلت تفّاحة مسمومة تركها جون المتغطرس للجرذان. لم يتبقّ لي سوى دقائق معدودات في الحياة يا خالتي لورا».

---

(1) الصّواب: أعراض.

خرّت لورا موراي على المقعد الأسود حاملةً يدها إلى قلبها. أمّا إليزابيث، فقد شحب وجهها كوجه إيميلي نفسها.

وسألت بنبرة صارمة: «إيميلي، أهذه لعبة من ألعابكِ الصّبيانيّة؟».

فصاحت إيميلي بشيء من الاستياء: «كلّا، إنّها الحقيقة. هل تظنّين أنّ شخصًا على فراش الموت سيتسلّى بالألعاب؟ آه، أرجوك يا خالتي إليزابيث، هلّا أعطيت هذه الرّسالة لإيلسي؟ وأرجوكِ أن تسامحيني إن كنتُ شقيّة -ولو أنّكِ تظنّنيني شقيّة بلا سببٍ أحيانًا-، ولا تسمحي لأحد بأن يرى إن اسودّ وجهي بعد موتي، وخاصّة رودا ستيوارت».

وما إن فرغت إيميلي من الكلام حتّى عادت الخالة إليزابيث إلى صوابها.

«كم مرّ على أكلكِ تلك التفّاحة يا إيميلي؟».

«حوالي ساعة».

«لو أكلت تفّاحة مسمومة منذ ساعة لكنت قد متِّ أو تقيّأت الآن..».

في لحظةٍ، انقلب مزاج إيميلي وصاحت: «أوه!» وانبثق في قلبها أمل لذيذ جامح، أما زال لديها أملٌ في الحياة، بعد كلّ ما حدث؟ ثمّ أضافت في يأس: «ولكنّني شعرت بألم في بطني مرّة أخرى وأنا نازلة من السّقيفة».

فقالت الخالة إليزابيث: «لورا، خذي الطّفلة إلى المطبخ الخارجي

وناوليها جرعة جيّدة من الخردل والماء معًا، فذلك لن يضرّها ولكنّه قد ينفعها، إن كان في أمعائها شيءٌ ما. سأذهب إلى الدّكتور، لعلّه عاد، ولكنّني سأمرّ بمنزل جون المتغطرس في طريقي إليه».

خرجت الخالة إليزابيث -بل انطلقت بسرعة فائقة -ولو كان شخصٌ آخر محلَّها لقيل إنّه ركض. أمّا الخالة لورا، فقد ناولت إيميلي دواء القيء ذاك، وتأكّدت إيميلي في غضون دقيقتيْن أنّها ستموت هناك في الإبّان، وخير القضاء عاجله. ولّما عادت الخالة إليزابيث، كانت إيميلي مستلقية على الأريكة، بيضاء كالوسادة الّتي تحت رأسها، ومنهكة كزنبقة ذابلة.

هتفت لورا يائسة: «أليس الدّكتور في البيت؟».

«لا أدري، لا حاجة لنا بالدّكتور. وقد شككت في حاجتنا إليه منذ البداية. ما هذه إلّا مزحة من مزاح جون المتغطرس. خطر له أن يفزع إيميلي -على سبيل التسلية -أو ما يظنّه هو تسلية. إلى فراشك الآن، آنسة إيميلي. إنّكِ تستحقّين كلّ ما يحدث لكِ لأنّك ذهبت إلى ورشة جون المتغطرس، ولن أشفق عليكِ ولو قليلًا. لم أشعر بصدمة من هذا القبيل منذ سنوات».

فصرخت إيميلي قائلة: «ولكنّني شعرت *فعلا* بآلام في بطني»، وكان المزيج بين الخوف مع الماء والخردل قد أخمد فطنتها مؤقّتًا.

«على كلّ من يأكل التّفاح صباحًا ومساءً أن يتوقّع بعض الآلام في بطنه. أظنّ أنّكِ لن تأكلي المزيد منه اللّيلة -فالخردل سيعطي مفعوله. خذي شمعتك وانصرفي».

نهضت إيميلي تتهادى وقالت: «على كلّ حال، أنا أكره ذاك الملعونة أمّه جون المتغطرس».

فهتفت خالتاها في آن واحد: «إيميلي!».

قالت إيميلي بلهجة انتقاميّة: «إنّه يستحقّ ذلك».

«أوه، ما هذه الكلمة الّتي استخدمتها يا إيميلي!» وبدت خالتها لورا على درجة غريبة من الاستياء.

قالت إيميلي بشيء من الدّهشة: «ولكن ما خطب ملعونة أمّه؟ كثيرًا ما يقولها ابن عمّي جيمي عندما ينزعج من بعض الأشياء. وقد استعملها اليوم، قال إنّ تلك البقرة الملعونة أمّها هربت من مرعى المقبرة مرّة أخرى».

فأجابت الخالة إليزابيث، وكأنّها تخلّص نفسها من براثن معضلة: «إيميلي، ابن عمّك جيمي رجل، والرّجال يستخدمون أحيانًا، في فورات الغضب، عباراتٍ غير ملائمة للفتيات الصّغيرات».

ألحّت إيميلي: «ولكن *ما* المشكلة في أن أقول ملعونة أمّه؟ هل هي كلمة نابية لكي لا أستعملها؟».

فقالت الخالة لورا: «إنّها عبارة لا، لا تليق بالسّيدات».

فاستسلمت إيميلي قائلة: «حسنًا، لن أقولها مجدّدًا، ولكنّ جون المتغطرس ملعونةٌ أمّه حقًّا».

وما إن صعدت إيميلي إلى الطّابق العلوي حتّى انفجرت الخالة لورا ضحكًا، لدرجة أنّ إليزابيث عاتبتها قائلة إنّ امرأة في سنّها

يجب أن تكون أكثر رصانة. فاحتجّت لورا قائلة: «إليزابيث، أنتِ *تعلمين* أنّ هذا مُضحك».

كانت إليزابيث على يقينٍ من غياب إيميلي عن الأنظار، فسمحت لنفسها بابتسامة كئيبة شيئًا ما.

«لقد صارحت جون المتغطرس ببعض الحقائق المُرّة، ولا أظنّه سيخبر أطفالًا آخرين في القريب العاجل بأنّهم تسمّموا. تركته يستعر غضبًا».

كانت إيميلي منهكة ونامت حالما لزمت فراشها؛ ولكنّها استيقظت بعد ساعة. لم تأت خالتها إليزابيث بعدُ إلى الفراش، فظلّت حصيرة الشّباك مرفوعة ولمحت إيميلي نجمة لطيفةً حلوةً تومض نحوها. وهناك في الأفق البعيد، كان البحر يئنّ في دلالٍ. آه، ما أحلى البقاء وحيدةً وعلى قيد الحياة. وطاب لها العيش مجدّدًا، «وكأنّما قُدّم لها المزيد من الحياة»، كما قال ابن عمّها جيمي. أتيحت لها الفرصة لتكتب المزيد على فواتير الرّسائل، وتؤلّف المزيد من الشّعر، وقد فكّرت سلفًا في أبياتٍ جديدة سمّتها «خواطر فتاةٍ كُتب عليها الموت المفاجئ»، وتلعب مع إيلسي وتيدي، وتمشّط الحظائر مع سوسي سال، وتشاهد الخالة لورا وهي تقشد اللّبن في الملبنة، ثمّ تساعد ابن العمّ جيمي على العناية بالحديقة، وتقرأ الكتب في عريش إيميلي، وتتمشّى على درب اليوم، ولكن *دون* أن تزور ورشة جون المتغطرس، فقد صمّمت على قطع علاقتها به بعد ما بان عليه من قسوة شيطانيّة. ونقمت عليه بسبب الفزع الّذي سبّبه لها–بعد

أن توطّدت أواصر الصداقة بينهما- لدرجة أنّه لم يُغمض لها جفنٌ إلّا بعدما تخيّلت قصّة موتها تسمّمًا، حيث حوكِم جون المتغطرس بتهمة قتلها وحُكم عليه بالإعدام، فشُنق على مشنقة متعاليةٍ مثله، وحضرت إيميلي على المشهد الشّنيع على الرغم من موتها على يده. بعد أن قطعت إيميلي حبله في ذهنها ودفنته في كنف الخزي والعار، انهمرت على وجنتيْها دموع التّعاطف مع السّيدة حرم جون المتغطرس، وسامحته. يبدو أنّ أمّه ليست ملعونة، في نهاية الأمر.

وفي اليوم التّالي، جلست في السّقيفة ودوّنت القصّة كاملة على إحدى الفواتير.

نجاة بأعجوبة

في تشرين الأوّل، شرع ابن العمّ جيمي في سلق البطاطس للخنازير، اسم غير رومانسي لأكثر الأنشطة رومانسيّةً، أو بالأحرى هكذا بدا الأمر لإيميلي، إذ وجدت في أمسيات نهاية العام الطّويلة بمزرعة القمر الجديد ببردها وشفقها ونجومها ما يُشبع تعطّشها للجمال والعظمة على نحوٍ غير مسبوق.

كانت في أحد أركان البُستان القديم مجموعة أشجار تنّوب، وتحتها وعاء حديديّ عملاق وُضع على دائرة من الأحجار الضّخمة، وعاء كبير بما يكفي لطبخ ثورٍ بكلّ أريَحيّة. خمّنت إيميلي أنّه آتٍ من زمن العجائب. وكان بمثابة وعاء يُوضع فيه ثريد العمالقة؛ ولكن أخبرها ابن عمّها جيمي أنّه يعود إلى مائة سنةٍ خلت، وكان هيو موراي قد أرسله من إنجلترا.

قال: «ومنذئذٍ، استُعمل في طبخ البطاطس لخنازير القمر الجديد. وهو منهجٌ قديم الطّراز في نظر أهل معبد المياه، فكلّهم يلجؤون الآن إلى غرف الغلايات ذات المغالي المُدمجة؛ ولكن طالما ظلّت إليزابيث تترأّس القمر الجديد، سنواصل استعمال هذا الوعاء».

كانت إيميلي على يقينٍ من أنّها لن تجد في المغالي المُدمجة ما في تلك الطّنجرة الضّخمة من سحرٍ. ملأها ابن العمّ جيمي بالبطاطس بمساعدة إيميلي؛ ثمّ أوقد النّار تحتها بعد العشاء وظلّ يحرّكها برفقٍ طيلة المساء. كان ينقر النّار بين الفينة والأخرى -وتعشق إيميلي هذه المرحلة من العمليّة- فتتطاير شرارات ورديّة رائعة إلى الأعلى مخترقة ظلمة اللّيل؛ وأحيانًا يحرّك حبّات البطاطس بعصًا طويلة، فتراه بلحيته الغريبة المدبّبة الرّماديّة وكنزته ذات الحزام شبيهًا بقزم عجوزٍ أو ترول من قصص نورثلاند يمزج مكوّنات قدرٍ سحريّ؛ ومرّاتٍ يجلس حذو إيميلي على صخرة الغرانيت المجاورة للقدر ويلقي عليها شعره. كانت تلك أحبّ اللّحظات إلى قلب إيميلي، إذ كانت قصائد ابن العمّ جيمي ذات جودةٍ مدهشة -أو بعض المقاطع منها، على الأقلّ-، ووجد بدوره في تلك الفتاة الصّغيرة الهيفاء، وهي تنظر إليه بعينيها الجذلتيْن ووجهها الشّاحب المتلهّف، «مستمعة مُثلى وإن قلّ عددها»(1).

كانا زوجًا غريبًا ولكنّهما سعيدان تمام السّعادة معًا. وبينما يظنّ سكّان معبد المياه أن ابن العمّ جيمي فاشلٌ وهزيل العقل، فهو ينعم في عالم مثاليّ لا يعلم عنه أحدٌ منهم شيئًا. كان قد عرض قصائده مائة مرّة على هذا النّحو، وهو يسلق بطاطس الخنازير، وتتراءى له أطياف عشرين خريف تسكن وسط شجر التّنوب. وكان ذا هيئة غريبة مضحكة، مقوّسًا، مجعّدًا، أشعث، يتلو شِعره

(1) من قصيدة «الفردوس المفقود» للكاتب الإنجليزيّ جون ميلتون، بتصرّف.

بحركاتٍ متعثّرة. ولكن كانت تلك ساعةَ مجده، حين ينسلخ عن اسم «جيمي موراي الأبله» وينقلب ملكًا في ملكوته. لبرهة من الزّمن، كان ينعم بالجأش والشّباب والعظمة والجمال، ويُتوّج ملك الأناشيد أمام عالم نشوانٍ يسمعه بآذانٍ صاغية. ولم يحظَ أيٌّ من جيرانه الأثرياء المتعقّلين في معبد المياه بمجدٍ كمجده ذاك، ولا رغبة له في أن يبادلهم الأدوار مهما كان الأمر. وفكّرت إيميلي، وهي تستمع إلى ذاك الرّجل الصّغير الغريب، أنّه كان يجدر به الجلوس بين الملوك والوجهاء، لولا تلك الزّلّة المشؤومة في بئر القمر الجديد.

ولكن *حدث* أن دفعته إليزابيث إلى بئر القمر الجديد، وقُدّر له، إذن، أن يسلق البطاطس للخنازير ويلقي شِعره على إيميلي، إيميلي الّتي كانت تنظم الشِّعر بدورها، وتعشق تلك الأمسيات حتّى إنّها لا تغمض جفنًا في فراشها قبل أن تؤلّف فيها وصفًا بأدقّ التّفاصيل. زارها *البرق* كلّ ليلةٍ منها تقريبًا لسببٍ أو لآخر، زارها عندما تسلّلت سيّدة الرّياح بين الأغصان التي تهتزُّ أو تصفّر فوقها -وكانت إيميلي أقرب إلى رؤيتها من أيّ وقتٍ مضى-؛ أو عندما عبق الهواء برائحة حطب التّنوب الطيّبة وهو يحترق بعدما رماه ابن العمّ جيمي تحت القِدر؛ أو حينما انطلق هُرِير إيميلي النّاعم، مايك الثّاني، وهو ينطّ ويفرّ وكأنّه شيطان ليليّ صغير لطيفٌ؛ أو لّما توهّجت النّار في حُمرةٍ بهيجة ينجلي بها الظّلام. كان الجوّ زاخرًا بهمساتٍ ساحرة تأتي من كلّ مكان، فيما تنفرج أمامهما «ظلمات

اللّيل» حاملة في طيّاتها أسرارًا لم يكشفها ضوء النّهار قطُّ، أسرارًا تحفظها سماء أرجوانيّة مرصّعةٌ نجومًا.

رافقها تيدي وإيلسي أيضا في بعض الأمسيات، وكانت إيميلي تتفطّن دومًا إلى قدوم تيدي، لأنّه بمجرّد أن يبلغ البستان القديم يطلق «صفير ندائه» -ذاك الّذي خصّها به-، نداء طريف صغير في غاية اللّطف، وكأنّه ثلاث نوتات صادحة من زقزقة عصفور، أولاها متوسّطة الطّبقة، والثّانية أعلى منها، أمّا الأخيرة فينزل بها إلى الدّرجات الدّنيا العذبة وتتلاشى شيئًا فشيئًا مثلما تخفت الأصداء وتتباعد تدريجيًّا في *أنشودة الترومبيت*. كان لذاك النّداء أثرٌ عجيبٌ على إيميلي؛ إذ تشعر بأنّه ينتشل قلبها من صدرها، فيسير أمامها و*عليها* اتّباعه. كان يبدو لها أنّ سمعها سيلتقط تلك النّوتات السّحرية الثّلاث بوضوحٍ ولو ناداها تيدي بها من أقصى نواحي العالم. فكلّما سمعتها، شقّت البستان في لمح البصر وأخبرت تيدي إن كان ابن عمّها جيمي راغبًا في حضوره أم لا، فقلّما يريد جيمي وجود أحدٍ غيرها معه. ولئن رفض تلاوة شعره لإيلسي وتيدي، فقد كان يروي لهم قصصًا خياليّة، وحكاياتٍ عن موتى آل موراي في المقبرة حذو الغدير -وقد تضاهي حكاياتهم أحيانًا القصصَ الخياليّة غرابةً-. وكانت إيلسي أيضًا تلقي عليهم بعض النّصوص، وتتحسّن قراءتها هناك أكثر ممّا في أيّ مكان آخر؛ أمّا تيدي، فكان يستلقي أحيانًا على الأرض جانب القدر الكبير ويرسم على ضوء النّار صورًا لابن العمّ جيمي وهو يحرّك البطاطس، وأخرى لإيلسي وإيميلي ترقصان يدًا

في يدٍ وكأنّهما ساحرتان صغيرتان، ولمايك بوجهه الصّغير وشواربه ومَكرِهِ وهو يختلس النّظر من وراء الصّخرة العتيقة، ولوجوه غريبة ضبابيّة تتلحّف الظّلام خارج حلقتهم السّحريّة. إنّها حقًّا ليالٍ رائعةٌ، تلك الّتي قضّاها الأطفال الأربعة هناك.

قالت إيميلي مرّةً في نشوة: «آه، ألا تحبّين الكون في اللّيل يا إيلسي؟».

نظرت إيلسي حولها بسعادةٍ، إيلسي الصّغيرة المُهملة المسكينة، الّتي وجدت في إيميلي رفقةً تاقت إليها طيلة حياتها القصيرة، والّتي يقودها الحبّ، حتّى يومنا هذا، إلى ما تستحقّه بالفعل، وقالت: «بلى. وأنا أؤمن دائمًا بوجود ربٍّ ما في مثل هذه اللّحظات».

ثمّ نضجت البطاطس، وقدّم منها ابن العمّ جيمي حبّة لكلٍّ منهم قبل أن يضيف إليها النخّالة؛ فقطّعوها إلى أجزاء صغيرة ونشروها على لحاء البتولا، ورشّوا فوقها ملحًا كانت إيميلي قد جلبته في علبة صغيرة أخفتها تحت جذور شجرة التّنوب الكبرى، ثمّ أكلوها بنهمٍ، ولم تكن مآدب الآلهة ألذّ من تلك البطاطس. وها هو صوت الخالة لورا الودود الرّقيق يترامى أخيرًا إلى مسامعهم من أعماق الظّلام البارد، فعاد كلٌّ من إيلسي وتيدي إلى بيتيْهما، وأمسكت إيميلي بمايك الثّاني لتوصد عليه بيت الكلاب الّذي لم يأوِ كلبًا واحدًا منذ سنوات في القمر الجديد، ولم يمنع ذلك من صيانته جيّدًا وطلائه بالأبيض كلّ ربيع، فلو حدث مكروه لمايك الثّاني، لانفطر قلب إيميلي.

كان قد أعطاها إيّاه البائع المتجوّل، «كيلي العجوز». منذ ثلاثين سنة يجوب كيلي العجوز معبد المياه كلّ أسبوعين من أيار إلى تشرين الثّاني، متصدّرًا مقعد عربته المتجوّلة الحمراء الزّاهية التي يجرّها مهر أصهب، أغبر، يسير على مهلٍ، بتلك المشية والمظهر الخاصّين بأمهار باعة الرّيف، مشية بطءٍ هادئ حصيف، وكأنّ للحصان مشاكل خاصّة به لم يتجاوزها إلّا بجميل الصّبر والثّبات. وبينما تمضي العربة الحمراء الزّاهية قُدُمًا، ينبعث منها شيءٌ من قعقعة الحديد وصلصلته، وترى على سقفها المسطّح المُثبّت بحبلٍ عُشّيْن من الأوعية القصديرية تنعكس عليهما أشعّة الشّمس انعكاسًا تغشى له الأبصار، حتّى بدا كيلي العجوز بمثابة شمسٍ ساطعة تشرق على نظامٍ كوكبي مصغّر خاصّ به. أينع فوق العربة زهر اللّزان وبرز بقوّةٍ في كلّ ركنٍ من أركانها، فأضحت شبيهة بعربات النّصر، وكم تمنّت إيميلي في قرارة نفسها أن تركب عربة كيليي العجوز، فقد بدا لها الأمر رائعًا.

نشأت بينها وبين كيلي صداقة حميمة، يعجبها وجهه المحتقن وذقنه الحليق البارز من تحت قبّعته العالية، وبريق عينيْه الزّرقاويْن الجميلتيْن، وشعره الرّملي المنتصب، وفمه المزموم في شبه ابتسامة مضحكة، وفيه اعوجاج طبيعيّ فاقمته كثرة التّصفير. كان يأتيها دائمًا بكيس ورقي ثلاثيّ الأركان مليء بـ«حلوى اللّيمون»، أو بعصا حلوى زاهية الألوان، ويدسّها في جيبها في خلسة من الخالة إليزابيث. لم يغفل أبدًا عن إخبارها بأنّها ستفكّر في الزّواج عمّا

قريب، إذ ظنّ كيلي العجوز أنّ أنجع طريقة لإرضاء أنثى، أيًّا كان عمرها، هي ممازحتها بشأن الزّواج.

وذات يومٍ، استعاض عن الحلوى بهُرَيْر ربيل رماديّ سحبه من درج عربته الخلفي وأخبرها بأنّه لها. تلقّت إيميلي هديّته بفرحة عارمة، ولكن ما إن رحلت عربة كيلي العجوز وتلاشى ضجيجها حتّى قالت لها الخالة إليزابيث إنّهم لا يريدون مزيدًا من القطط في القمر الجديد.

فتوسّلت إيميلي: «أوه، أرجوكِ أن تتركيه لي، خالتي إليزابيث. لن يزعجك أدنى إزعاج، *فأنا* صرتُ خبيرة في تربية القطط. وكم كنتُ أتمنّى أن يكون لي هُرَيْر، فقد غدت سوسي سال هائجةً مع قطط الحظيرة ولم يعد بإمكاني اللّعب معها كما من قبل، ولم يكن يحلو لي عناقها من قبل. أرجوك، خالتي إليزابيث».

لكن لم يكن هنالك ما يُرجى من الخالة إليزابيث، فقد كان رفضها قاطعًا. وعلى كلّ حال، كانت سيّئة المزاج في ذاك اليوم ولم يدرك أحدٌ السّبب. ومتى كانت في مزاجٍ من ذاك القبيل، تراها تفقد صوابها تمامًا ولا تصغي إلى أحد، فلم ينبس لورا وجيمي ببنت شفة، وأُمر ابن العمّ جيمي بأخذ الهُرَيْر إلى معبد المياه ليُغرقه. لمّا سمعت إيميلي تلك التّعليمات الوحشيّة، انفجرت بالبكاء فما زاد ذلك الخالةَ إليزابيث إلّا غضبًا، وبلغ بها السّخط منتهاه حتّى إنّ ابن العمّ جيمي عدل عن إدخال الهُرير خلسةً إلى الحظيرة، مثلما كان ينوي فعله.

قالت إليزابيث حانقة: «خذ هذا الحيوان إلى الغدير وألقِ به هناك ثمّ عُد وقل لي إنّك فعلت. لن يُعصى لي أمر -ولن يصبح القمر الجديد ساحة نفايات يرمي فيها ذاك العجوز الدّجّال كيلي بما لديه من قططٍ زائدة».

لبّى ابن العمّ جيمي ما طُلب منه، ولم تتناول إيميلي لُقمة واحدة من العشاء. وحالما نهضت من مائدة الأكل، تسلّلت واجمةً خارج البيت وشقّت البستان القديم مرورًا بالمرعى نحو الغدير. لم تدرِ لِمَ ذهبت؟ ولكنّها شعرت بضرورة ملحّة لذهابها. لمّا بلغت ضفّة الجدول الصّغير، حيث ينضمّ نهر جون المتغطرس إلى معبد المياه، ترامت إلى مسمعها صرخات تمزّق القلب. ها هي ترى جُزيْرة صغيرة من أعشاب المستنقع تطفو على سطح الجدول، وقد نُفي فوقها حيوان صغير حزين. وكان فروه مبلّلًا ملتصقًا بجانبيْه، وفرائصه ترتعد تحت لسعة هواء الخريف البارد، بينما كان الكيس القماشي الّذي حبسه فيه ابن العمّ جيمي يبتعد في تيّار الغدير.

لم تتوقّف إيميلي لتفكّر أو تبحث عن لوحٍ خشبي أو حتّى لتعدّد عواقب الأمر، بل انغمست في الجدول إلى أن بلغ الماء ركبتيْها، وتقدّمت نحو كومة العشب وانتشلت القطّ منها. اشتدّ سخطها واضطرم لدرجة أنّها لم تشعر ببرد الماء ولا بلسعة الهواء وهي تجري عائدةً إلى القمر الجديد، فما من شيء يثير تعاطفها ويخرجها من عقلها مثل ألم حيوانٍ أو عذابه. وهرعت إلى المطبخ الخارجي حيث كانت الخالة إليزابيث تقلي الكعك، ثمّ هتفت:

«خالتي إليزابيث، لم يغرق الهُرَيْر في نهاية الأمر –وسوف *أبقيه* عندي».

فردّت الخالة إليزابيث: «كلّا».

نظرت إيميلي في وجه خالتها، فراودها مرّة أخرى الشّعور ذاته الّذي انتابها يوم جاءتها خالتها إليزابيث بالمقصّ لحلق شعرها.

«خالتي إليزابيث، إنّ هذا القطّ المسكين على وشك الموت من البرد والجوع وشدّة الشّقاء. وهو يذوق الأمرّيْن منذ ساعات. *لن يُغرق* مرّة أخرى».

كانت على وجهها نظرة أرشيبالد موراي، وفي صوتها نبرة أرشيبالد موراي. وهي ظاهرة لا تحدث إلّا إذا انتاب إيميلي شعور جامح يعصف بكيانها، وكانت آنذاك في غمار زوبعة هوجاء من الشّفقة والغضب.

وما إن واجهت إليزابيث موراي نظرة أبيها من خلال وجه إيميلي الشّاحب الصّغير حتّى استسلمت بلا مقاومة، مهما كانت ستلوم نفسها لاحقًا على جُبنها. فقد كانت تلك نقطة ضعفها الوحيدة، ولو كانت إيميلي شبيهة بآل موراي لما أثّر الأمر في إليزابيث على ذاك النّحو. ولكنّها ترى نظرة موراي ملفّقةً كالقناع على وجهٍ غريب، فتنصدم صدمةً تخرّ لها قواها، وما كانت لتفزع بتلك السّرعة لو برز لها شبحٌ من أعماق اللّحود.

أدارت ظهرها في صمتٍ إلى إيميلي، ولكن أدركت الطّفلة أنّها انتصرت للمرّة الثّانية على خالتها. مكث الهُرِير الرّمادي في القمر

الجديد فامتلأ شحمًا ولحمًا وازداد ظرافةً، ولم تعره الخالة إليزابيث أدنى اهتمام، ما عدا لطرده من المنزل في غياب إيميلي. ولكنّها لم تغفر لإيميلي فعلتها تمامًا إلّا بعد مرور بضعة أسابيع، الأمر الّذي كدر صفو الفتاة، إذ لم تكن خالتها إليزابيث خسيسة في نصرها، ولكنّها شديدة اللّؤم في هزيمتها، ولعلّ من ألطاف اللهّ أنّ إيميلي غير قادرة على تسليط نظرة موراي متى أرادت.

مآسٍ شتّى

وفقًا لتعليمات الخالة إليزابيث، حذفت إيميلي كلمة «جحش» من معجمها. ولكنّ تجاهل وجود الجحوش لا يعني إلغاءه، ولا سيّما جحش السّيد جايمس لي، وهو جحش سيّء السّمعة يقطن في المرعى الفسيح ذي الرياح العاتية غربَ معبد المياه. لا يختلف عاقلان في أنّه كائنٌ مذهل، وكم من مرّة يظهر في أسوأ كوابيس إيميلي فيطاردها وهي عاجزة عن الحركة. وذات يوم حاسم من أيام تشرين الثّاني، تحقّق أحد هذه الكوابيس.

كان هنالك في أقصى نقطة من ذاك المرعى بئر أثار فضول إيميلي بعد أن أخبرها ابن العمّ جيمي قصّة مريعة عنه. فمنذ ستّين عامًا، حفر البئرَ أخوان يعيشان في بيت صغير على مقربة من الشّاطئ. وكان البئر عميقًا جدًّا، وهذا أمر غريب بحكم قربه من الشّاطئ والغدير، فضلًا عن انخفاض مستوى الأرض الّتي حُفر فيها؛ ولكن بلغ الأَخوان تسعين قدمًا قبل أن ينبثق منه الماء. ثمّ عُبِّدت جوانب البئر، ولكن توقّفت الأشغال في ذاك الحدّ، إذ تخاصم توماس وسيلاس لي من أجل سبب تافه، مثل نوع الغطاء الّذي سيوضع على البئر، وفي فورة الغضب، ضرب توماس رأس أخيه بمطرقة وقتله.

لم يتمَّ تشييد بيت البئر، فقد زُجَّ بسيلاس لي في السّجن بتهمة القتل ومات هناك. ثمّ آلت الضّيعة إلى أخٍ آخر -والد السّيد جايمس لي- فنقل البيت إلى طرفها الآخر وسدّ فوهة البئر بالألواح. ثمّ أضاف ابن العمّ جيمي أنّه يُقال إنّ شبح توم لي يسكن مكان مصرعه الأليم، ولكنّه لا يستطيع أن يجزم في الأمر رغم أنّه ألّف قصيدة في هذا الصّدد. قصيدة رهيبة فعلًا، سمعتها إيميلي منه ذات ليلة قاتمة حذو طنجرة البطاطس، فتجمّدت لها الدّماء في عروقها واعترتها فرحةٌ يشوبها الخوف. ومنذ سمعت إيميلي الحكاية، تحرّقت شوقًا لرؤية ذاك البئر القديم.

أتيحت لها الفرصة ذات يوم سبتٍ وهي تجوب المقبرة العتيقة بمفردها. امتدّ وراءها مرعى آل لي، ولا وجود لجحشٍ فيه أو حوله. فاعتزمت إيميلي زيارة البئر القديم وانطلقت تشقّ الحقل وتجابه ريح الشّمال الجامح وهو يهوي صوب الشّاطئ. وفي ذاك اليوم، بدت لها سيّدة الرّياح عملاقة تنفث دوّامة عاتية على طول الشّاطئ؛ ولكن حين اقتربت إيميلي من الكثبان الرّملية الضّخمة بدأ الهدوء يسود حول البئر القديم. وبمنتهى الثّبات، رفعت إيميلي أحد الألواح، ثمّ جثمت على الآخرين وأطلّت نحو أعماق البئر. ولحسن حظّها، كانت الألواح قويّة وجديدةً نسبيًّا، وإلّا لتمكّنت فتاة القمر الجديد من سبر أغوار البئر سبرًا أعمق ممّا كانت تريد. ولكنّها لم ترَ منه آنذاك إلّا القليل، إذ نمت في أخاديد جداره سراخس ضخمة كثيفة الأوراق وتجمّعت وسطه على نحوٍ يحجب

رؤية غياهب أعماقه. خاب أمل إيميلي، فأعادت اللّوح إلى مكانه وعادت أدراجها. بيد أنّها لم تخطُ عشر خطوات حتّى توقّفت. كان جحش السّيد جايمس لي على أقل من عشرين ياردًا منها، متقدمًا صوبها مباشرة. لم يكن سياج الشّاطئ ببعيدٍ عن إيميلي، ولعلّها كانت لتبلغه في الوقت المناسب لو ركضت. ولكن أنّى لها أن تركض؛ فقد كانت «مُسَمْسَرَةً»[1] من شدّة خوفها مثلما كتبت ذاك المساء في رسالة إلى أبيها، ولم تصدر عنها حركةٌ أكثر ممّا صدر عنها في كوابيسها عن الجحش ذاته. وكاد بالفعل يحدث ما لا يُحمد عُقباه في ذاك اليوم، لولا الصبيّ الّذي كان يجلس على سياج الشّاطئ. كان رابضًا هناك دون أن يُلفت الانتباه طيلة الوقت الّذي أطلّت فيه إيميلي على البئر، وها هو يهرع إليها الآن.

رأت إيميلي، أو بالأحرى شعرت بجسد قويّ يندفع نحوها ثمّ يتجاوزها. وركض صاحب هذا الجسد إلى حدّ عشرة أقدام من الجحش وصوّب حجرًا على جبهة الوحش المشعرة، ثمّ انطلق بفائق السّرعة نحو السياج الجانبي متّخذًا مسارًا عموديًا. وشعر الجحش بحدّة الإهانة، فالتفت إلى المتطفّل وهو يزمجر متوعّدًا، ثمّ وثب نحوه.

صاح الفتى إلى إيميلي من وراء كتفه: «اهربي الآن!».

ولكن لم تهرب إيميلي. فمهما أخذ منها الرّعب من مأخذٍ، شقّ عليها الهروب قبل أن تتيقّن من نجاة منقذها المغوار؛ وها هو يبلغ

(1) خطأ متعمّد من الكاتبة يُبيّن قلّة خبرة إيميلي وتعثّرها اللّغويّ والإملائيّ. الصّواب: متسمِّرَةً.

السّياج في آخر لحظة. عندها فقط، ركضت إيميلي لتهرب بدورها، وتسلّقت سياج الشّاطئ تزامنًا مع عودة الجحش إلى المرعى، مصمّمًا بكلّ حزمٍ على الإمساك بأحدٍ ما. وقطعت طريقها مرتجفة بين الأعشاب الشّائكة على الكثبان الرّمليّة، والتقت بالفتى عند ناصية الطّريق. ووقف كلاهما لوهلة من الزّمن يتبادلان النّظر.

لم تكن إيميلي تعرف هذا الصّبي. كان بشوش الوجه، جسور التّقاسيم، نظيف الهيئة، وله عينان خضراوان لامعتان وخصلات شقراء مجعّدة. كان يرتدي أقلّ ما يسمح به الحياء من ملابس ويحمل على رأسه شبه قبّعة. راق الولد لإيميلي؛ فحتى وإن لم يكن له شيءٌ من سحر تيدي الرّقيق، وجدت فيه جاذبيّة عنيفة خاصّة به، لا سيّما وقد أنقذها لتوّه من موتة شنيعة.

قالت له في حياء: «شكرًا لك»، وهي تتطلّع إليه بعينيها الواسعتين وقد انقلب لونهما الرّمادي زُرقةً من تحت أهدابها الطّويلة. يا لها من نظرة فعّالة، وهي لا تفقد شيئًا من فعاليتها رغم أنّها تصدر عنها بعفويّة مطلقة. لم يسبق لأحد أن أخبر إيميلي بمدى جاذبيّة تلك النّظرة الخاطفة عندما ترفعها في احتشام إلى من أمامها.

قال الصّبي بخفّة: «إنّه مذهل حقًّا، أليس كذلك؟» ودسّ يديه في جيبيه الباليَيْن وحدّق في إيميلي بثباتٍ أجبرها على غضّ طرفها في إحراج، فما زادها ذلك إلّا فتنة في كلّ حركةٍ من جفنيها الخجولَيْن وأهدابها الحريريّة.

فردّت وقد اعترتها قشعريرة: «بل هو فظيع. وكدت أموت خوفًا».

«كنت خائفة حقًّا؟ لقد ظننتكِ رابطة الجأش وأنت تقفين حياله وتلقين عليه نظرة أبرد من الثّلج. كيف هو الشّعور بالخوف؟».

فسألت إيميلي: «ألم تخف أبدًا من ذي قبلُ؟».

قال الصّبي بلامبالاة وشيء من الغرور: «لا، لم يسبق لي أبدًا أن شعرت به. ما اسمكِ يا فتاة؟».

«إيميلي بيرد ستار».

«أتسكنين هنا؟».

«أسكن في القمر الجديد».

«حيث يعيش جيمي موراي الأبله؟».

فصاحت إيميلي مستنكرة: «إنّه ليس أبله».

«أوه، حسنًا. أنا لا أعرفه، ولكنّي سأتعرّف عليه عمّا قريب. سيوظّفني عاملًا للمهام المنزليّة في هذا الشّتاء».

تفاجأت إيميلي وقالت: «لم أكن على علمٍ بالأمر. هل هذا صحيح؟».

«أجل. وأنا الآخر لم أعلم بالأمر حتّى الآن. كان قد سأل عنّي خالتي توم في الأسبوع الماضي، ولم أنوِ العمل لديْه؛ ولكن أظنّني سأفعل الآن. هل تريدين معرفة اسمي؟».

«طبعًا».

«بيري ميلر. أعيش مع خالتي العجوز الغليظة توم في مدينة مجاري الدّخان. كان والدي قبطانا بحريًّا، وكنت أركب البحر معه لمّا كان على قيد الحياة، لقد أبحرنا في كلّ الأرجاء. أتذهبين إلى المدرسة؟».

«أجل».

«أمّا أنا، فلا افعل، ولم أفعلْ يومًا. فخالتي توم تعيش في مكان ناءٍ جدًّا. وعلى كلّ حال، أظنّ أنّ المدرسة ما كانت لتعجبني. أعتقد أنّه حان لي أن أنصرف الآن».

سألته إيميلي في فضول: «ألا تجيد القراءة؟».

«بلى، شيئًا ما، وأجيد الحساب أيضًا. علّمني أبي قليلًا في حياته، ومنذئذٍ لم أعر الدّراسةَ اهتمامًا، فأنا أفضّل البقاء في الميناء، وأتسلّى أيّما تسلية هناك. ولكن لو قرّرت يومًا مزاولة المدرسة، فسأتعلّم في لمح البصر. أفترض أنّكِ ذكيّة للغاية».

«لا، ليس ذكائي خارقًا. كان أبي يقول إنّني نابغة، ولكن تقول خالتي إليزابيث إنّني غريبة الأطوار فحسب».

«ما معنى نابغة؟».

«لست متأكّدة. قد يكون أحيانًا شخصًا ينظم الشّعر. وأنا أنظم الشّعر».

شخص فيها بيري وقال:

«تبًّا، سأكتب الشّعر بدوري، إذن».

ردّت إيميلي بصوت كان في الحقيقة لا يخلو من الازدراء: «لا أظنّك قادرًا على كتابة الشّعر. تيدي لا يستطيع، وهو شاطر *للغاية*».

«من هو تيدي؟».

«أحد أصدقائي». كان في نبرة إيميلي شيءٌ من الجفاء.

فقطّب بيري جبينه، وشبك ذراعيه على صدره ثمّ قال: «إذن سأسدّد لكمة على رأس صديقكِ هذا».

صاحت إيميلي: «لن تفعل!» وفي تلك اللّحظة، أعمى الاستنكار بصيرتها حتى نسيت أنّ بيري أنقذها من الجحش. فأشاحت رأسها بعيدًا عنه وانطلقت عائدة إلى البيت. فسار بيري على خطاها وقال:

«يجدر بي أن أذهب لأقابل جيمي موراي بشأن الوظيفة قبل أن أعود إلى المنزل. لا تغضبي منّي، إن لم تريدي لكماتٍ على الرّؤوس، فلن ألكم أحدًا. ولكن عليكِ أن تكوني معجبة بي أيضًا».

قالت إيميلي: «طبعًا سأكون معجبة بك»، وكأنّ الأمر مفروغٌ منه. وانفرج فمها عن تلك الابتسامة المتمهّلة الوردية، فما إن رآها بيري حتّى انصاع إليها، لا حول له ولا قوّة. وبعد يومين، عُيّنَ بيتر ميلر عاملًا للمهام المنزليّة في القمر الجديد؛ وبمجرّد مرور أسبوعين، خيّل لإيميلي أنّه كان دائمًا هناك.

كتبت إيميلي لأبيها قائلة: «لم ترغب خالتي إليزابيث في أن يوظّفه ابن عمّي جيمي، لأنّه كان مع عصابة الأولاد الّتي ارتكبت فعلًا شنيعًا في الخريف الماضي. فقد اغتنم الصبيان فرصة تواجد

النّاس في درس الموعظة مساء يوم الأحد وغيّروا أماكن كلّ الخيول المربوطة إلى السّياج، ولك أن تتخيّل الفوظى[1] العريمة[2] الّتي عمّت عند خروجهم من الدّرس. قالت خالتي إليزابيث إنّها لن تطمئنّ لوجوده بيننا. ولكن أخبرها ابن عمّي جيمي إنّه يصعب العثور على عامل مهامّ منزليّة، وإنّنا مدينون لبيري بإنقاذي من الجحش. فرضخت خالتي إليزابيث وأذنت لبيري بالجلوس معنا للأكل، ما عدا في المساء حيث عليه أن يبقى في المطبخ، ونبقى نحن في غرفة الجلوس، ولكن يُسمح لي بالخروج لأساعد بيري على الدّراسة. ندرس على ضوء خافت جدًّا، إذ لا تُمنَح له إلّا شمعة واحدة، فنظلّ نطفئها طوال الوقت. إنّنا نتسلّى كثيرًا بإطفاء الشّمع. غدا بيري الأوّل على صفّه، بيد أنّه لم يبلغ إلّا كتابه الثّالث رغم أنّه في الثانية عشرة من عمره. في يومه الأوّل في المدرسة، قالت له الآنسة براونيل ملاحظة مستفسّة[3]، ولكنّه رمى رأسه إلى الوراء وظلّ يقهقه بكلّ ما أوتي من صوت. عاقبته الآنسة براونيل جلدًا، ولم تُقدم على استفساسه[4] مجدّدًا، ومن الواظح[5] أنّها لا تحبّ أن يضحك منها أحدٌ. بيري لا يخشى شيئًا، وظننت أنّه لن يعود إلى

(1) خطأ متعمّد من الكاتبة يُبيّن قلّة خبرة إيميلي وتعثّرها اللّغويّ والإملائيّ. الصّواب: الفوضى.
(2) الصّواب: العارمة.
(3) الصّواب: مستفزّة.
(4) الصّواب: استفزازه.
(5) الصّواب: الواضح.

المدرسة بعد أن جلدته المدرّسة، ولكنّه قال إنّه طالما اتّخذ قراره، فلن يدع شيئًا بتلك التّفاهة يمنعه عن طلب العلم، وهو شديد العزيمة.

«خالتي إليزابيث ذاتُ عزيمة قويّة، هي الأخرى. ولكنّها تقول إنّ بيري عنيد. إنّني ألقّن بيري دروس نحو، فقد قال لي إنّه يودّ أن يتكلّم بلغة سليمة. ونصحته بألّا ينعت خالته توم بالعجوز الغليظة، فقال إنّها لم تعد شابّة غليظة، فما العمل. ويقول إنّ المدينة الّتي يقطن فيها تُسمّى بمجاري الدّخان لأنّ المنازل بلا مدافئ، ولا تجد على سطوحها إلّا المجاري النّاتئة، ولكنّه سيعيش في قصرٍ يومًا ما. وحذّرتني خالتي إليزابيث من التّقرّب المفرط من خادم مأجور، ولكنّه صبيّ لطيف رغم فضاضة أساليبه. تقول خالتي لورا إنّ أساليبه فضّة، لا أدرك معنى الكلمة ولكن يبدو لي أنّها تعني أنّه يقول ما في خاطره بلا تروّ ويأكل حبوب الفاصوليا بسكّينه. يُعجبني بيري، بيد أنّه إعجاب مختلف عن إعجابي بتيدي. أليس طريفًا أن نشعر بالإعجاب بأكثر من طريقة يا أبتِ؟ أظنّ أنّه لا يروق لإيلسي، فهي دائمًا تسخر من جهله، وتشيح عنه وجهها لأنّ ملابسه مرقّعة، رغم أنّ ملابسها هي لا تقلّ غرابة. وتيدي لا يحبّه كثيرًا هو الآخر، رسمه في شكلٍ مضحكٍ وهو معلّق من قدميه في مشنقة، وكان الوجه شبيهًا بوجه بيري دون أن يُطابقه تمامًا. قال ابن عمّي جيمي إنّها كاريكاطور[1] وضحك منها، ولكنّني لم أجرؤ على

(1) الصّواب: كاريكاتور.

عرضها أمام بيري لكي لا يلكم تيدي على رأسه. أريتها لإيلسي، فغضبت ومزّقتها إلى نصفيْن، ولم أفهم لماذا.

«يقول بيري إنّه يتلو النّصوص بمهارة تظاهي[1] مهارة إيلسي، وقد يجيد الرّسم إن عزم على تعلّمه. يبدو لي أنّه لا يحبّ أن يجيد غيره ما يعجز عنه هو. ولكنّه لم يقدر على رؤية ورق الجدران في الهواء مثلي، رغم أنّه لا يلبث يحاول مرارًا وتكرارًا إلى أن خفتُ أن يُجهد عينيْه، وهو يؤلّف الخطابات أحسن منّا جميعًا، وقال إنّه كان ينوي امتهان الملاحة مثل والده، ولكنّه بات يفكّر في أن يصبح محاميًا عندما يكبر، وسيلتحق بالبرلمان. سيصير تيدي رسّامًا إن سمحت له والدته بذلك، أمّا إيلسي فهي ستكون قارئة في الحفلات -هنالك كلمة أخرى ولكنّني لا أعلم كيف تُكتب- وأنا سأغدو شاعرة. يبدو لي أنّنا مجموعة من الموهوبين، وربّما في هذا القول شيء من الغرور، يا أبي العزيز.

«لقد حدث أمرٌ مريع أوّل أمس. ففي صباح يوم السّبت، كنّا نؤدّي صلاتنا العائليّة، راكعين معًا في خشوعٍ حول المطبخ. ألقيت إلى بيري نظرة واحدة، فلوى وجهه على نحوٍ طريفٍ لدرجة أنّني انفجرت ضحكًا قبل أن أتمالك نفسي. (ليس *هذا* الأمر المريع) غضبت منّي خالتي إليزابيث غضبًا *شديدًا*، ولكن لم يكن بوسعي أن أخبرها بأنّ بيري هو من أضحكني خشية أن تطرده من العمل. فقرّرت خالتي إليزابيث أن تعاقبني بمنعي عن الذّهاب إلى حفلة

(1) الصّواب: تضاهي.

جيني سترانغ بعد الظّهر. (وكانت خيبة أملي لاذعة ولكنّها ليست بالأمر المريع المذكور) كان بيري قد أمضى اليوم مع ابن عمّي جيمي، ولمّا عاد مساء سألني بنبرة حادّة من الّذي أبكاكِ. قلت إنّني بكيت -قليلًا، لا كثيرًا- لأنّني حُرمت من الذّهاب إلى الحفلة لأنّني ضحكت خلال الصّلاة. فاتّجه بيري مباشرة إلى خالتي إليزابيث وأخبرها بأنّه هو الّذي تسبّب في ضحكي. قالت خالتي إليزابيث إنّه ما كان عليّ أن أضحك على كلّ حال، ولكن استاءت خالتي لورا بشدّة وقالت إنّ عقابي أعسر ممّا يستحقّ ذنبي؛ ثمّ أخبرتني بأنّها ستسمح لي بارتداء خاتمها اللّؤلؤيّ في المدرسة يوم الاثنين لتعوّظ[1] لي عن مظلمتي. أبهجني الخبر لأنّه خاتم رائع ولا نظير له لدى أيّ زميلة من زميلاتي. وحالما فرغت الآنسة براونيل من نداء الأسماء صباح يوم الاثنين، رفعت يدي لأطرح عليها سؤالًا، ولم أفعل ذلك إلّا لألفت الأنظار إلى خاتمي؛ وما كان إلّا أن نلت في النّهاية عقوبة غروري الماكر ذاك. ففي أثناء الفسحة، جاءتني كورا لي، وهي من تلميذات الصّف السّادس الكبيرات، وسألتني أن أسمح لها بارتداء الخاتم قليلًا. شقّ عليّ الأمر ولكنّها هدّدتني بأن تحرّظ[2] سائر الفتيات في صفّي على إرسالي إلى كوفنتري إن رفضتُ (وهو شيءٌ فظيع يا أبي، ويُشعرك بأنّك منبوذ بين غيرك). فوافقت واحتفظت به حتّى فسحة المساء، وجاءتني آنذاك فأخبرتني بأنّها

(1) الصّواب: تعوّض.
(2) الصّواب: تحرّض.

أضاعته في النّهر. (هذا هو الأمر المريع) آه يا أبتِ، لقد كدت أفقد عقلي. لم أجرؤ على العودة إلى المنزل ومواجهة خالتي لورا بعد أن وعدتها بأن أبقي خاتمها في الحفظ والأمان. فكّرت في أن أوفّر المال لأشتري لها خاتمًا آخر، ولكنّني أجريت الحسابات على لوحتي واكتشفت أنّ الأمر سيتطلّب غسيل الأواني طيلة عشرين عامًا، فبكيت من شدّة يئسي[1]. رآني بيري، فاندفع نحو كورا بعد نهاية الدّروس وقال لها من الأفضل لكِ أن تسلّمي الخاتم وإلّا فسأخبر الآنسة براونيل بالأمر. سلّمتني كورا الخاتم في خنوعٍ وقالت كنتُ سأعيده لها في جميع الأحوال، فأنا أمازحها فحسبُ؛ فقال بيري أتحدّاك أن تمازحي إيميلي مرّة أخرى، فسأمازحكِ أنا بدوري. كم يطمئنني أن يكون لي مناصرٌ مثله! تعتريني قشعريرة لمجرّد أن أفكّر فيما كان سيحدث لو اضطررت إلى العودة إلى المنزل لأخبر خالتي لورا بأنّني أضعت خاتمها. ولكنّها القسوة بعينها، أن تقول لي كورا إنّها أضاعت الخاتم وهي لم تفعل، وأن تذيقني ألوان العذاب بتلك الطّريقة، وما كنت لأقسو مثلها على فتاة يتيمة.

«لّما عدت إلى البيت، هرعت إلى المرآة لأرى إن ابيضّ شعري. سمعت أنّ ذلك يحدث أحيانًا. ولكن لم يحدث لشعري شيء.

يعرف بيري عن الجغرافيا ما لا يعرفه أحدٌ منّا، لأنّه جاب كلّ أسقاع[2] المعمورة تقريبًا مع والده. ويروي لي بعد إنهاء

(1) الصّواب: يأسي.
(2) الصّواب: أصقاع.

دروسه قصصًا مدهشة. يواصل حديثه إلى أن تشارف الشّمعة على الانطفاء، فيأخذ ما تبقّى من فتيلتها ليصعد به إلى فراشه في عليّة المطبخ المظلمة، لأنّ خالتي إليزابيث لا تسمح له باستخدام أكثر من شمعة واحدة في اللّيلة.

«تشاجرت أمس مع إيلسي بشأن الاختيار بين جان دارك[1] وفرانسيس ويلارد[2]. لم نتشاجر منذ البداية، ولكننّا تخالفنا وآل الأمر إلى الشّجار. كنت أفضّل اختيار فرانسيس ويلارد لأنّها مازالت على قيد الحياة.

«نزلت أولى الثّلوج يوم أمس، فألّفت عنها قصيدة، وهي كالآتي:

تتزحلق أشّعة الشّمس على الثلج سعيدة،

فتتجلّى لنا الأرض عروسًا مشرقة فريدة

يُتَوِّجُها الألماس وينساب منها بياض الوِشاح،

فهل في الكون عروسٌ بمثل جمالها الوضاح؟

«قرأتها لبيري فقال إنّه يستطيع تأليف قصيدة تظاهيها[3] جودةً، وقال مباشرة:

---

(1) جان دارك (1412-1431) بطلة قوميّة وقدّيسة فرنسيّة حقّقت إنجازات عسكريّة كبيرة في عمر صغير، وكان لها دور مرموق في حربة المائة عام.

(2) فرانسيس ويلارد (1839-1898) ناشطة أمريكيّة ناضلت من أجل حقّ تصويت المرأة وترأست اتّحاد الاعتدال المسيحيّ للمرأة.

(3) الصّواب: تضاهيها.

نهض مايك من النوم وسارَ

على الثلج فترك وراءه آثارا.

حسنًا إنّها ليست جيّدة كأبياتكِ، لأنّها صالحةٌ للنّثر أيضًا، على ما أظنّ. ولكن ستكون صورة العروس المشرقة الفريدة مضحكةً في النّثر. في حين أنّ مايك ترك *فعلا* تلك الآثار على الثّلج، بل شقّ بها كامل باحة الحظيرة، وهي جميلةٌ جدًّا، ولكنّها ليست في مثل جمال الآثار الّتي تركتها الفئران على دقيقٍ سكبه ابن العمّ جيمي على أرضيّة مخزن الحبوب. إنّها في غاية الرّقة، وصورتها *شاعريّة جدًّا*.

«تأسّفت لحلول الشّتاء، لأنّه يتعذّر علينا أن نلعب، أنا وإيلسي، في بيتنا بأيكة جون المتغطرس إلى أن يأتي فصل الرّبيع، أو حتّى خارج البيت في رقعة الطّانسة. ونلعب أحيانًا في منزل تيدي برقعة الطّانسة، ولكن تحرجنا السّيدة كينت، فهي تجلس حذونا وتظلّ تشاهدنا طيلة الوقت، فلا نذهب هناك إلّا إذا ألحّ علينا تيدي. قُتِلت الخنازير المسكينة، فلم نعد نسلق لها البطاطس، أنا وابن عمّي جيمي. ولكن هنالك خبرٌ خفّف من حزني، لن ألبس القبّعة القبيحة في المدرسة مجدّدا، فقد حاكت لي خالتي لورا قلنسوة حمراء جذّابة مزيّنة بالأشرطة، ورمقتها خالتي إليزابيث بتهكّمٍ قائلة إنّها مفرطة الزّينة. أحبّ المدرسة هنا أكثر فأكثر كلّ يوم، ولكن ليس بوسعي أن أحبّ الآنسة براونيل، فهي ليست عادلة. قالت لنا إنّ من ستكتب أفضل إنشاء ستُمنح ربطة شعر ورديّة لتلبسها من الجمعة إلى الاثنين. وكتبت «قصّة النّهر» الّتي تحدّثت فيها عن

نهر حديقة جون المتغطرس -بكلّ ما يحدث فيه من مغامرات وما ينبع منه من خواطر-، فقالت لي الآنسة براونيل إنّني نقلتها بلا شكّ، وأعطت الرّبطة لرودا ستيوارت. قالت لي خالتي إليزابيث إنّكِ تقضّين معظم وقتكِ في كتابة الخزعبلات وأظنّكِ جديرة بربطة الشّعر تلك. كانت تشعر بالحرج الشديد (على ما أظنّ)، لأنّني لم أشرّف القمر الجديد بجلبي الرّبطة، ولكنّني لم أخبرها بما حدث. يقول تيدي إنّ من يتمتّع بالرّوح الرّياضيّة لا يتذمّر أبدًا من الخسارة، وأنا أريد أن أتمتّع بالرّوح الرياضيّة. أصبحت رودا تكرهني كرهًا شديدًا، وتقول إنّه لا يصلح بفتاة القمر الجديد إلّا أن يكون حبيبها خادمًا مأجورًا، وهذا أمرٌ سخيف جدًّا لأنّ بيري ليس حبيبي. قال لها بيري إنّها تثرثر أكثر ممّا تفكّر، هذا ليس قولًا مهذّبًا ولكنّه صحيح. فقد قالت ذات يومٍ إنّ القمر يوجد في شرق كندا. فانفجر بيري ضحكًا منها وعاقبته الآنسة براونيل بمنعه من الخروج في الفسحة، ولم تُضف شيئًا لرودا عن مدى غباء ما قالت. ولكنّ أكثر ما قالته لي رودا إيلامًا هو أنّها سامحتني على استغلالي لها. لقد فار دمي غضبا وسُخطًا، فأنا لم أفعل لها شيئًا يستحقّ أن تسامحني عليه، يا لها من فكرة.

بدأنا نأكل لحم فخذ البقر المعلّق في الرّكن الجنوبي الغربي في المطبخ.

مساء الأربعاء الماضي، ساعدنا ابن عمّي جيمي، أنا وبيري، على شقّ طريق بين اللّفت في بيت المؤونة الأوّل، إذ كان يحتاج إلى

المرور منه ليبلغ بيت المؤونة الثّاني لأنّ الممرّ الخارجي مسدود. أمضينا أمسية ممتعةً للغاية، فقد ثبّتنا شمعة في الجدار وانبعثت منها ظلال حلوة الشكل، كما أنّنا استطعنا أكل قدر ما نريد من تفّاحٍ من البرميل الكبير، وتحرّكت مهجة ابن عمّي جيمي فألقى علينا شيئًا من شِعره وهو يرمي حبّات اللّفت.

إنّني بصدد قراءة كتاب *الحمراء*، وقد أخذته من مكتبتنا. لا تريد خالتي إليزابيث أن تقول إنّه لا يصلح بي لأنّه من كتب والدها، ولكن أظنّ أنّها ليست راظية[1] عنه تمامًا لأنها تحوك الصّوف بعصبيّة وتحدجني بنظرات بغيظة[2] من وراء نظّاراتها. أعارني تيدي قصص هانس أندرسن، وشغفتُ بها ولكنّني أفكّر دائمًا في نهاية مختلفة لقصّة *ملكة الثّلج* لكي أنقذ رودي.

يقولون إنّ السّيدة حرم جون كيلغرو ابتلعت خاتم زواجها، يا ترى ما الّذي حملها على هذا الفعل.

يقول ابن عمّي جيمي إنّنا سنشهد كسوفًا شمسيًّا في كانون الأوّل، آمل ألّا يتزامن ذلك مع عيد الميلاد.

«يداي مشقّقتان، تدهنهما خالتي لورا كلّ ليلة بشحم الغنم قبل النّوم، ويصعب عليّ أن أكتب الشّعر بيديْن مشقّقتيْن. يا تُرى هل كانت السّيدة هرمانس تُعاني من تشقّق في يديْها، لا تذكر سيرتها الذّاتية شيئًا من هذا القبيل.

(1) الصّواب: راضية.
(2) الصّواب: بغيضة.

سيتوجّب على جيمي بول أن يصبح كاهنًا لمّا يكبر، أخبرت والدته خالتي لورا بأنّها سمّته كاهنًا وهو لم يزل في المهد. يا ترى كيف فعلت ذلك.

صرنا نتناول فطور الصّباح على ضوء الشّمعة الآن، ويعجبني الأمر.

زارتني إيلسي هنا يوم الأحد بعد الظّهر، وصعدنا إلى السّقيفة وتحدّثنا عن الرّب، لأنّ هذا ما ينبغي فعله يوم الأحد. علينا أن نتنبه مليًّا لما نفعل يوم الأحد. وتقضي تكاليد[1] القمر الجديد بأن يظلّ يوم الأحد يومًا مقدّسًا جدًّا، فقد كان جدّي موراي صريما[2] للغاية، وروى لي ابن عمّي جيمي قصّة بشأنه. كانوا يقطعون حطب يوم الأحد في ليلة السّبت، ولكنّهم غفلوا عن ذلك مرّةً ولم يكن لهم حطبٌ يصلح لإعداد العشاء؛ فقال جدّي موراي يجب ألّا نقطع الحطب يوم الأحد يا أولادي، ولكن حاولوا أن تكسروا بعضه بالجزء الخلفي من الفأس. إيلسي فضوليّة جدًّا إزاء الربّ رغم أنّها لا تؤمن به في معظم الأوقات ولا تحبّ الحديث عنه، ولكنّها مازالت تريد أن تعرف المزيد عنه. تقول إنّه قد يروق لها لو تعرّفت إليه، وباتت تكتب «ربّي» الآن، من باب الاحتياط. أمّا *أنا* فأظن أنّ الرّب مثله مثل البرق، بيد أنّ *البرق* لا يدوم إلّا ثانيةً، ويدوم ربّي للأبد. أسهبنا في الحديث حتّى أصابنا الجوع فنزلنا إلى دولاب غرفة

(1) الصّواب: تقاليد.

(2) الصّواب: صارمًا.

الجلوس وأخذنا منه كعكتيْن. كنت قد نسيت أنّ خالتي إليزابيث حجّرت عليّ تناول الكعك بين الوجبات، ولم أكن أختلس الأكل، بل نسيت الأمر فحسبُ. ولكن أغضب الأمر إيلسي وقالت لي إنّني يعقوبيّة (ولا أدري ما معنى ذلك) وسارقة ولا يُعقل أن تسرق مسيحيّة الكعك من خالتها المسكينة. فذهبت إلى خالتي إليزابيث واعترفت لها بما فعلت، وأخبرتني بأنّني لن آكل كعكة مع العشاء. حزّ في نفسي أن أرى جميعهم يأكلون الكعك إلّا أنا، وظننت أنّ بيري أسرع في أكل عشائه وناداني من خارج البيت ومنحني نصف كعكته الّذي احتفظ به من أجلي. كان قد لفّه في منديله، ولم يكن المنديل نظيفًا جدًّا ولكنّني أكلت نصف الكعكة لأنّني أبيت أن أجرح مشاعره.

«تقول خالتي لورا إنّ لإيلسي ابتسامة حُلوة. يا ترى هل ابتسامتي حُلوة؟ نظرت إلى نفسي في المرآة بغرفة إيلسي وابتسمت، ولم تبدُ لي ابتسامتي جميلة جدًّا.

«اشتدّ برد اللّيالي في الآونة الأخيرة، وصارت خالتي إليزابيث تملأ قارورة جِنْ بالماء السّاخن وتضعها داخل الفراش. أحبّ أن أجعل فوقها أصابع قدميّ. غدا ذلك استعمالنا الوحيد لقوارير الجِنْ الآن؛ أمّا جدّي موراي فقد كان يملؤها فعلًا بالجِنْ.

«مع نزول الثّلج، تعذّر على ابن عمّي جيمي العمل في الحديقة، وبات يشعر بالوحدة. يبدو لي أنّ رونق الحديقة في الشّتاء لا يقلّ عنه في الصّيف، إذ نجد فيها انحناءاتٍ جميلة وتلالًا ضئيلة حينما يغطّي

الثّلج منابت الأزهار. تتغمّدها في المساء حُمرة الغروب الورديّة، ثمّ تتحوّل إلى عالم من الأحلام تحت ضوء القمر. أهوى مشاهدتها من نافذة غرفة الجلوس لأرى أطياف شموع الأرانب تتلألأ فوقها في الهواء. أتساءل عمّا تفكّر فيه العروق والبذور بعد أن توارت تحت الثّلج، وإن تأمّلتها من خلال البلّور الأحمر في الباب الأمامي، ينتابني شعور غامض لذيذ.

«لقد نشأت فوق سقف المطبخ الخارجي حاشية من رقاقات الثّلج، ولكن ثمّة في الجنّة ما هو أجمل من ذلك بكثير. قرأت اليوم عن أنتزونيتا، وأيقظ ذلك حسّي الدّيني. عمتَ مساءً يا أغلى الآباء.

«إيميلي.

«تذييل: لا يعني ذلك أنّ لي أبًا سواك. فما ذاك إلّا أسلوبٌ لأقول إنّك غالٍ جدًّا جدًّا.

«إ. ب. س».

انتقام الآنسة براونيل

جلست إيميلي وإيلسي على المقعد الجانبي في مدرسة معبد المياه تكتبان شعرًا على لوحتيْهما، أو بالأحرى، كانت إيميلي تكتب شعرًا وإيلسي تقرأ ما كتبت صديقتها وتساعدها بين الفينة والأخرى على إيجاد قافية متى افتقدت أفكارها. ولعلّه يجدر بالذّكر أنّهما لم تكونا مطالبتيْن بذلك، بل كان ينبغي عليهما أن «تنجزا عمليّات الجمع"، وهذا فيما ظنّتهما الآنسة براونيل منغمستيْن. ولكن من المحال أن تبالي إيميلي بعمليّات الجمع متى صمّمت على كتابة الشّعر؛ أمّا إيلسي، فهي تكره الحساب بصفة عامّة. كانت الآنسة براونيل تصغي لتلاميذ صفّ الجغرافيا في الجهة الأخرى من القسم، بينما أغدقت عليهم الشّمس بنورها الوضّاح عبر النّافذة الكبيرة، واجتمعت كلّ الظّروف المواتية لجولة بين آلهات الإلهام، فشرعت إيميلي في نظم قصيدة عن المشهد من نافذة المدرسة.

مرّت مدّة طويلة منذ سُمح لإيميلي بالجلوس على المقعد الجانبي، إذ كان ذاك الموقع مخصّصًا للتّلاميذ الّذين كسبوا حظوة الآنسة براونيل القاسية، ولم يحصل لإيميلي شرفٌ من هذا القبيل قطُّ. ولكن سألتها إيلسي في تلك الظّهيرة أن تجلس هناك مع إيميلي،

ولم تجد الآنسة براونيل بدًّا من الموافقة لكليْهما، فلم يكن لديها سبب وجيه يجعلها توافق لإيلسي وترفض لإيميلي، رغم أنّه كان بودّها أن تفعل ذلك، فهي من أولئك الّذين لا ينسون أدنى إساءة ارتُكِبت في حقّهم. كانت الآنسة براونيل تعتقد أنّ إيميلي تحدّتها وتصرّفت بمنتهى الوقاحة في يومها الأوّل في المدرسة، بل ونجحت في تحدّيها. ظلّت ذكرى تلك الحادثة ترنّ في فكر الآنسة براونيل وشعرت إيميلي بلسعة سموم مدرّستها إذ نفثتها بشتّى الأساليب الخفيّة، فلم تتلقّ منها أي إطراء. كانت دومًا محلّ سخريتها المتواصلة، ولم تحظَ بأيّ امتيازٍ ممّا تحظى به زميلاتها؛ ما جعل فرصة الجلوس في المقعد الجانبيّ حدثًا استثنائيًّا يُحتفى به.

يتيح الجلوس في ذاك المقعد الجانبي عددًا من المزايا، إذ يمكنك أن ترى منه المدرسة برمّتها دون حاجةٍ إلى الالتفات، ولا تستطيع الآنسة براونيل التّسلّل وراءك لتراقب ما تفعله. ولكنّ أفضل ما فيه، بحسب إيميلي، هو أنّه الموقع الأمثل لرؤية «خميلة المدرسة»، حيث يمكنها أن تتأمّل سيّدة الرّياح تداعب أشجار التّنوب المسنّة، وخطوطًا طويلة من الطحالب الخضراء القاتمة تتدلّى من أغصان الأشجار وكأنّها راياتٌ لبلاد العفاريت؛ وسناجب صغيرة صهباء تركض على الجدار؛ وممرّات من الثّلج بيضاء رائعة تنسكب فيها أشعّة الشّمس وكأنّها سيلٌ من النّبيذ الذّهبي؛ وكوّة صغيرة بين الأشجار يترامى منها البصر إلى ما بعد وادي معبد المياه حتّى كثبان الرّمل والخليج وراءها. في ذاك

اليوم، لانت ثنايا الكثبان تحت طبقة الثّلج السميكة اللّامعة، وكان البحر وراءها قاتم الزّرقة عميقها، وطفت على سطحه كُتَل ثلجيّة ناصعة البياض تبدو وكأنّها جبال ثلجيّة مصغّرة. بمجرّد أن لمحت إيميلي المشهد، غمرتها بهجة لا توصف، ولكنّها ستحاول رغم ذلك وصفها. شرعت في كتابة قصيدتها، وذهبت الكسور في طيّ النسيان، فما البسوط والمقامات أمام انحناءات الثّلج الرّقيقة، وزرقة الملكوت الأعلى، وأشجار التّنوب حين تخترق قممها القاتمة قلب سماء فيروزيّ، وممرّات الغاب الأثيريّة المحفوفة ذهبًا ولآلئ؟ هامت إيميلي في غياهب عالمها، لدرجة أنّها لم تتفطّن إلى أنّ تلاميذ صفّ الجغرافيا قد عادوا إلى مقاعدهم، وأنّ الآنسة براونيل ضبطت نظرة إيميلي الشّاردة في السّماء وهي تبحث عن قافية، فتقدّمت نحوها على مهل. أمّا إيلسي، فكانت منغمسة ترسم على لوحتها ولم ترَ الآنسة براونيل، وإلّا لحذّرت صديقتها بقدومها، وفجأة، شعرت إيميلي بلوحتها تنسحب من يدها وسمعت الآنسة براونيل تقول:

«أظنّ أنّك أنهيت عمليّات الجمع تلك يا إيميلي؟».

لم تُنه إيميلي عمليّةً واحدة منها، ولم تَخُطَّ على لوحتها إلّا أبياتًا، أبياتًا يجب ألّا تراها الآنسة براونيل -*مهما كان الأمر*! وهرعت إليها إيميلي لتحاول القبض على لوحتها بكلّ ما أوتيت من قوّة، ولكن انفرجت شفتا الآنسة براونيل الرّفيعتان عن ابتسامةِ سرورٍ ماكرة، وأبعدت اللّوحة عند متناول يديْها.

«ما هذا؟ إنّه يبدو لي مختلفًا *قليلا* عن الكسور. «صطورٌ[1]- بالصّاد- عن المشهد من نافذة مدرسة معبد المياه». أرأيتم يا أطفال، يبدو أنّ بيننا شاعرة واعدة دون أن ندري».

قد تبدو كلماتها بلا ضرر يُذكر، ولكن أيُّ سخرية لاذعة تلك الّتي ترنّ في نبرتها، وأيّ ازدراء، وأيّ استخفاف! وقع كلامها على روح إيميلي كلسع السّياط. فلا شيء يؤلمها كفكرة أن تُقرأ «قصائدها» الحميمة أمام عيون غريبة، عيون باردة، جافية، ساخرة، متطفّلة.

قالت متلعثمة من شدّة يأسها: «أرجوك -أرجوك آنسة براونيل، لا تقرئيها، سأمحوها، وسأنجز عمليّات الجمع حالا. ولكن أتوسّل إليك ألّا تقرئيها. إنّها، إنّها لا شيء».

فقهقهت الآنسة براونيل بقسوة.

«إنّك متواضعة أكثر ممّا ينبغي يا إيميلي. إنّكِ ملأت لوحتك -*شِعرًا*-، تخيّلوا يا أطفال -شعر. معنا تلميذة في هذا القسم تكتب -*الشّعر*-».

انقبض قلب إيميلي كلما نطقت الآنسة براونيل كلمة «شعر» بذاك التّوكيد السّاخر مسبوقة بهدنة بغيضة. وعلا الضّحك بين صفوف عددٍ من التّلاميذ، لأنّهم استمتعوا بمشاهدة عذاب «ابنة موراي من القمر الجديد» من جهة، ومن جهة أخرى لأنّ الآنسة

(1) خطأ متعمّد من الكاتبة يُبيّن قلّة خبرة إيميلي وتعثّرها اللّغويّ والإملائيّ. الصّواب: سطور.

براونيل كانت تتوقّع منهم أن يضحكوا. وكان ضحك رودا ستيوارت أعلى من أيّ صوتٍ آخر؛ أمّا جيني سترانغ الّتي ضايقت إيميلي في يومها الأوّل بالمدرسة، فقد رفضت الانضمام إلى السّخرية الجماعية، بل حدجت الآنسة براونيل بنظرة سوداء.

رفعت الآنسة براونيل اللّوحة وقرأت قصيدة إيميلي جهرًا بصوت غنائي ساخر ناخرٍ، وأرفقتها بنبرات وحركات غريبة جعلت من القصيدة أضحوكة. غدت الأبيات الّتي ظنّتها إيميلي من أرقى ما ألّفت ضربًا من الخزعبلات، فازداد ضحك التّلاميذ باطّراد إلى أن خالت إيميلي أنّ مرارة تلك اللّحظة لن تزول أبدًا من قلبها. وحتّى تلك الخواطر الّتي بدت لها بديعة حين برقت في ذهنها، تحطّمت وتبعثرت جريحةً كفراشات ممزّقة. ترنّمت الآنسة براونيل: «وآفاقٌ في حلمٍ ورديّ»، وقد أغمضت عينيها وهزّت رأسها ذات اليمين وذات الشّمال، وتعالت الضّحكات إلى أن صارت قهقهة مدوّية.

فكّرت إيميلي وهي تشدّد قبضتيْها: «آه، كم أتمنّى أن تأتي دببة الإنجيل الّتي افترست الأطفال الأشقياء *لتفترسك*».

ولكن لم توجد في خميلة المدرسة مثل تلك الدّببة الخيّرة لتأخذ بثأر إيميلي، وواصلت الآنسة براونيل قراءة «القصيدة» إلى آخرها، واستمتعت بالأمر أيّما استمتاع، إذ يسرّها أن تسخر من أيّ تلميذ كان، ولكن عندما تكون تلك التلميذة إيميلي ابنة القمر الجديد، تلك الّتي تستشفّ الآنسة براونيل في قلبها وروحها شيئًا يختلف عنها اختلافًا جذريًّا، تبلغ المتعة أقصاها.

لمّا أنهت قراءتها، أعادت اللّوحة إلى إيميلي الملتهبة الوجنتيْن.

وقالت: «خذي -*شِعركِ*- يا إيميلي».

تناولت إيميلي اللّوحة، ولم يكن في متناولها «ممسحة» ولكن لعقت كفّها بشراسة وها هو وجهٌ من اللّوحة يُمحى. ثمّ لعقة أخرى واختفت القصيدة من قفاها. ذاقت أبياتها المذلّة والإهانة، ويجب أن تندثر تمامًا من الوجود، ولم تنسَ إيميلي ألم تلك الحادثة وخزيها طيلة حياتها.

ضحكت الآنسة براونيل مجدّدًا، وقالت:

«كم يؤسفني أن يُطمس -شعرٌ- من هذا القبيل يا إيميلي. لكِ أن تنجزي عمليّات الجمع تلك الآن. إنّها ليست -*شعرًا*-، ولكنّني أعمل في هذه المدرسة لأدرّس الحساب، لا لألقّنكم أصول -*الشّعر*-. عودي إلى مقعدك الآن. نعم، رودا؟».

كانت رودا ستيوارت ترفع يدها وتفرقع أصابعها.

قالت بصوتٍ ينمّ عن نصرٍ وشيك: «لو سمحت، آنسة براونيل، إيميلي تحفظ كومة من الشّعر في مكتبها. كانت تقرؤه صباح اليوم إلى إيلسي برنلي بينما ظننتِ أنّهما تراجعان دروس التّاريخ».

التفت إليها بيري ميلر، فانطلقت في الهواء قذيفة طريفة من الورق الممضوغ، تُعرف باسم «كُرة البُصاق»، وشقّت القاعة ثمّ أصابت وجه رودا مباشرةً. لكنّ الآنسة براونيل كانت في مكتب إيميلي، بل وصلت في خطوة واحدة قبل أن تصل إليه إيميلي نفسها.

صاحت إيميلي ثائرة: «لا تلمسيها -لا يحقّ لك ذلك!».

ولكن الآنسة براونيل كانت قد استولت على «كومة الشّعر» بين يديها، وعادت أدراجها إلى المنصّة. تبعتها إيميلي، فقد كانت تلك القصائد عزيزة على قلبها، وألّفتها خلال الفسحات الّتي تعذّر عليها الخروج فيها واللّعب في السّاحة أيّام العواصف، فكتبتها على وُريْقاتٍ بالية استعارتها من زملائها. كانت تنوي أخذها في ذاك اليوم بالذّات لتنقلها على فواتير الرّسائل. وها هي تلك المرأة الشّمطاء ستقرؤها الآن أمام كلّ من في المدرسة، بين الضحكات والسّخريات.

لكن أدركت الآنسة براونيل أنّه لم يبق لها متّسع من الوقت لذلك، فاكتفت بقراءة العناوين مع إضفاء بعض التعاليق المناسبة.

في الأثناء، كان بيري ميلر يصبّ جام غيظه على رودا ستيوارت بتسديد كرات البُصاق نحوها، وكان له في ذلك من الخفّة والدقّة ما لم يسمح لرودا بأن تحدّد مصدر القذائف، فلم يكن بوسعها أن «تشي» بأحدٍ، وحال ذلك دون استمتاعها بالمأزق الّذي ورّطت فيه إيميلي. أمّا تيدي كينت، فلم يشارك في حرب كرات البُصاق بل فضّل سُبلًا أخرى أكثر دهاء للانتقام؛ وانغمس يرسم شيئًا ما على قطعةِ ورق. وفي صباح اليوم الموالي، وجدت رودا الورقة على مكتبها؛ وعليها صورة قرد صغير نحيل يتدلّى من ذيله على غصن شجرةٍ؛ وحلّ وجه رودا ستيوارت محلّ وجه القرد. استشاطت رودا غضبًا، ولكنّها، حفاظًا على كرامتها أمام الآخرين، مزّقت الرّسم إربًا إربًا ولم تنبس بكلمة في شأنه. لم تكن تعلم أنّ تيدي رسم

نظيرتها ومثّل فيها الآنسة براونيل في شكل خفّاش شبيه بمصّاص الدّماء، ثمّ دسّها في يد إيميلي حين غادرا المدرسة.

قرأت الآنسة براونيل: «الألماسة المفقودة -قصّة عاطفيّة». «أبيات على شجرة البتولا» -تبدو لي بالأحرى أبياتًا على ورقة قذرة جدًّا يا إيميلي-، «أبيات كُتبت عن مزولةٍ في حديقة بيتنا» -نفس الشّيء هنا-، «أبياتٌ لقططّتي المفضّلة» -يبدو أنّها *قطّة* عاطفيّة، هي الأخرى-، «نشيدٌ لإيلسي»- «في بشرتكِ لمعةٌ وضّاءة»- هذا لا يمتّ إلى الواقع بصلة، فبشرة إيلسي سمراء جدًّا- «وصفُ ردهتنا»، «كلمات الأرجوانات» -آمل أن تكتب الأرجوانات كلماتٍ أسلمَ ممّا تكتبين يا إيميلي- «المنزل المُحبَط»-

«رفعت الزّنابق كؤوسها البيضاء

لتشرب من رحيقها النّحلا-ا-ا-ت».

صرخت إيميلي، وقد أخذ منها العذاب مأخذه: «لم أكتبها بهذه الطّريقة!».

«أبيات إلى استبرق في درج دولاب خالتي لورا»، «وداعُ مغادرة الدّيار»، «أبياتٌ لشجرة تنّوب» - «يدفع عنّا الحرّ والشّمس والوهج، عن التّنّوب الخَلوب أحدّثكم» -هل تعرفين حتّى ما معنى «خَلوب» يا إيميلي؟ -«قصيدة عن حقل السّيد طوم بينيت» - «صُطورٌ[1] عن المشهد من نافذة خالتي إليزابيث» -أنتِ مُصّرة على

(1) خطأ متعمّد من الكاتبة يُبيّن قلّة خبرة إيميلي وتعثّرها اللّغويّ والإملائيّ. الصّواب: سطور.

الصّاد، إيميلي- «رِثاء قطّ غريق»، «خواطر على قبر أمّ جدّة جدّتي» -يا للمرأة المسكينة- «إلى طيوري في الشّمال» - «أبياتٌ أُلّفت على ضفّة معبد المياه من وحي النّجوم» -احم، احم،

«يا نجومًا مرصّعةً بأغلى الأحجار وأنفسها،

بيننا البَونُ والبرد، وباطن الحقيقة وظاهرها»،

إيّاكِ أن توهميني بأنّكِ أنتِ كتبتِ هذه الأبيات وحدكِ يا إيميلي. هذا مُحال».

ابيضّ وجه إيميلي من شدّة السّخط وصاحت: «بلى -بلى، أنا كتبتها! بل وكتبت ما أفضل منها بكثير أيضًا».

وبغتةً، أخذت الآنسة براونيل الأوراق الرّثّة بين يديْها فسحقتها.

«لقد ضيّعنا ما يكفي من الوقت في هذا الهراء. إلى مقعدكِ يا إيميلي».

وتوجّهت إلى المدفأة، وفي بداية الأمر، لم تفهم إيميلي مقصدها؛ ولكنّها سرعان ما أدركته عندما فتحت الآنسة براونيل باب المدفأة، فنطّت إليها وانتشلت من يدها الأوراق قبل أن تُحكم عليها قبضتها.

قالت إيميلي لاهثة: «لن تحرقيها -ولن تأخذيها». ودسّت قصائدها في جيب «مئزر الرضّع» الّذي ترتديه، ثمّ جابهت الآنسة براونيل، وتطاير منها شرار كمدٍ ساكن. كانت على وجهها نظرة موراي، ورغم أنّها لم تؤثّر في الآنسة براونيل مثلما تؤثر في الخالة إليزابيث، فقد أزعجتها في أعماقها، وكأنّها حيال قوى ثائرة لن تجرؤ

على العبث بها أكثر ممّا فعلت. بدت لها الطفلة المقهورة على وشك أن تكشّر عن أنيابها وبراثنها لتنقضّ عليها.

«هاتي تلك الأوراق، إيميلي». ولكن شاب صوتَها شيءٌ من التّردّد.

فقالت إيميلي في انفعال شديد: «لا. إنّها لي. لا يحقّ لكِ أخذها. أنا الّتي كتبتها خلال الفسحات، ولم أخرق بذلك أيّ قوانين. أنتِ..». وحدّقت إيميلي في عينيْ الآنسة براونيل الباردة بتمرّد ثمّ استأنفت: «أنتِ *إنسانة* ظالمة ومتعسّفة».

التفتت الآنسة براونيل إلى مكتبها وقالت:

«سآتي اللّيلة إلى القمر الجديد لأخبر خالتك إليزابيث بما حصل اليوم».

لم تعبأ إيميلي بذاك التّهديد في بداية الأمر، من شدّة سرورها باسترجاعها قصائدها الثّمينة. ولكن خبا بريق حماسها شيئًا فشيئًا وحلّ محله خوفٌ رهيب، إذ أدركت أنّ في انتظارها لحظات بغيضة. ولكن مهما كان الأمر، يجب ألّا يسطو أحدٌ على قصائدها، لا أحد منهم، مهما فعلوا *لها*. وحالما عادت إلى البيت، سارعت إلى السّقيفة وأخفت أوراقها في درج المقعد القديم.

انتابتها رغبة عنيفة في البكاء، ولكنّها لن تبكي؛ فالآنسة براونيل قادمةٌ ويجب ألّا تراها محمرّة العينيْن. ولكن قلبها كان يتلظّى ألمًا، وكأنّ بين ضلوعها معبدًا دُنِّست قداسته ووُصم بالعار. وما زال ينتظرها المزيد، تلك هي الحقيقة المُرة. وستنحاز خالتها إليزابيث

إلى الآنسة براونيل بلا شكٍّ. انكمشت إيميلي على نفسها بمجرّد التفكير في محنتها الوشيكة، بكلّ ما تشعر به روحٌ رقيقة حسّاسة متى واجهت المذلّة. ولو كانت الجلسة الّتي تنتظرها عادلة، لما توجّست منها؛ ولكنّها أيقنت أنّ لا عدل في محكمةٍ تترأسها الخالة إليزابيث والآنسة براونيل.

فكّرت إيميلي، وقد تسارعت دقّات قلبها: «لا يمكنني مراسلة أبي في هذا الصّدد». فقد أصابها في الحادثة خزي عميق لا يسعها الكتابة عنه، ولم يبق لها، إذن، متنفّسٌ لشجنها.

في فصل الشّتاء لا تتناول عائلة القمر الجديد العشاء إلّا بعد أن يفرغ ابن العمّ جيمي من مهامّه ويكون جاهزًا لقضاء بقيّة المساء في المنزل؛ فمكثت إيميلي في السّقيفة دون إزعاج.

نظرت من خلال الرّوشن فرأت مشهدًا خلّابًا، كفيلًا بإدخال الفرحة عليها لولا الظّرف الرّاهن. كانت الشّمس تتوارى وراء التلال البيضاء النّائية مخلّفة وراءها حُمرة الشّفق، وتطلّ بين الأشجار الدّاكنة وكأنّها نارٌ حامية؛ بينما ألقت الأغصان العارية بظلالها على الحديقة المتجمّدة فرسمت عليها زخارف دقيقة زرقاء؛ وتلحّفت السّماء في جنوب شرقها بضياء خافت أثيريّ؛ وها هو الآن قمرٌ جديد بهيٌّ يبزغ وسط القوس الفضّي فوق أيكة جون المتغطرس. ولكن لم تجد إيميلي في ذلك عزاءً ولا سلوانا.

لمحت آنذاك الآنسة براونيل تمرق من تحت أذرع شجر البتولا البيضاء، وتشقّ الطّريق بخطوتها المسترجلة.

قالت إيميلي وهي ترمقها من الأعلى: «لو كان أبي على قيد الحياة، لكان طردكِ من هنا شرّ طردة».

ومرّت عشر دقائق وثقل عبؤها على إيميلي. وفي نهاية المطاف، جاءتها خالتها لورا قائلة:

«خالتك إليزابيث تطلب منك النّزول إلى المطبخ يا إيميلي».

كان صوت الخالة لورا ينضح بحنوّ يشوبه الحزن؛ وكتمت إيميلي بالكاد عبراتها، إذ شقّ عليها أن تظنّها خالتها لورا مثيرةً للمتاعب، ولكنّها لم تثق في قدرتها على شرح الأمور بثبات. ستتعاطف معها خالتها لورا، وسيُضعفها ذاك التّعاطف. نزلت صَفَّي السّلم في صمتٍ أمام الخالة لورا ودخلت المطبخ.

نُصبت مائدة العشاء وأُشعلت الشّموع. وبدا المطبخ الواسع ذو السّقف الخشبي الأسود مخيفًا غريبًا، كما كان يبدو كُلّما أُضيئت فيه الشّموع. وجلست الخالة إليزابيث إلى المائدة منتصبةً، منقبضة الأسارير، بينما كانت الآنسة براونيل على الكرسي الهزّار، يلمع في عينيْها الشّاحبتيْن بريق الانتصار الماكر، ويتراءى من مجرّد نظرتها شيءٌ من الحقد والخُبث، فضلًا عن أنفها شديد الاحمرار الّذي لم يزدها إلّا قُبحًا.

كان معهما ابن العمّ جيمي، جالسًا على شفا الصّندوق الخشبي يصفّر إلى السّقف، فبدا شبيهًا بالأقزام العجيبة أكثر من أي وقتٍ مضى. أمّا بيري فقد اختفى عن العيان، ممّا آسفَ إيميلي الّتي كانت تعوّل على حضوره ودعمه ليكون لها خير سندٍ معنويّ.

بادرت الخالة إليزابيث بالكلام فقالت: «يؤسفني، يا إيميلي، أن أسمع أصداء لا تسرّني عن تصرّفاتك في المدرسة اليوم».

فردّت إيميلي بلهجة جدّية: «لا، لا أظنّكِ قد أسفتِ لهذا».

الآن وقد حَلَّت الأزمة، وجدت نفسها قادرة على مواجهتها ببرود، بل الأحرى مستعدّة إلى إيلائها اهتمامًا عميقًا تواري تحته خوفها وخجلها الدّفينيْن، وكأنّ قطعةً من كيانها انفصلت عن الباقي، وأخذت تستوعب الانطباعات، وتحلّل الدّوافع وتصف الأوضاع. شعرت بأنّ عليها أن تتذكّر، عندما ستكتب عن الموقف لاحقًا، وصفَ وجه الخالة إليزابيث بتلك الظّلال الغريبة الّتي ألقتها عليه الشّمعة من تحت أنفها، فأبرزت نتوء عظامه. أمّا الآنسة براونيل فهل يُعقل أنّها *كانت* طفلة يومًا ما، طفلة غضّةً بضّة ضحوكة؟ يكادُ الأمر لا يُصدَّق.

قالت الخالة إليزابيث: «لا *تخاطبيني* بهذه الوقاحة».

وقالت الآنسة براونيل بلهجة ذات مغزى: «ها أنتِ ترين».

فأصرّت إيميلي: «لم أقصد أن أكون وقحة ولكنّك *لست* آسفة، بل أنتِ غاضبة لأنّك تظنّين أنّني أسأت لسمعة القمر الجديد، ولكنّكِ سررت قليلًا لأنّك وجدتِ شخصًا يشاطرك الرّأي في أنّني سيئة الطّبع».

علّقت الآنسة براونيل قائلةً: «يا *لامتنانها* بالجميل»، ورفعت ناظريْها إلى السّقف حيث لمحت ما لم يكن في الحسبان. إذ كان رأس بيري ميلر -ولا شيء غيره- يطلّ من «الثّقب الأسود»، وقد نمّت

تقاسيم وجهه عن وقاحة وشقاوة بيّنيْن. وفي لمح البصر، توارى الرّأس والوجه عن الأنظار تاركيْن الآنسة براونيل شاخصة نحو السّقف في ذهول.

قالت الخالة إليزابيث -وقد غابت عنها تلك المناورة: «لقد تصرّفت على نحوٍ مُشين في المدرسة، وأشعر بالخجل منكِ».

فأجابت إيميلي بثبات: «لم أكن شقيّة إلى هذا الحدّ، خالتي إليزابيث. إليك ما حدث؛ لقد كنتُ..».

قاطعتها الخالة إليزابيث قائلة: «لا أريد أن أسمع المزيد عن الأمر».

صاحت إيميلي: «ولكن يجب أن تسمعي، فليس عدلًا أن تسمعي الحادثة من وجهة نظرها فحسبُ. لقد كنتُ شقيّة، ولكنّني لست بالشّقاوة الّتي تزعمها هي..».

فقالت الخالة إليزابيث بصوتٍ كدِر: «ولا كلمة! سمعت القصّة برمّتها».

انبعث فجأة صوت بيري قائلًا: «بل سمعت كومًا من الأكاذيب»، وأطلّ رأسه من الثّقب الأسود مرّة أخرى.

وانتفض جميعهم، بما فيهم الخالة إليزابيث، الأمر الّذي زادها غضبًا على غضبٍ.

أمرت: «بيري ميلر، انزل من تلك العليّة حالا!».

فقال بيري بلامبالاة: «لا يمكن».

«قلت لك حالا!».

فكّر بيري: «لا يمكن»، وغمز بجرأة صوب الآنسة براونيل.

«بيري ميلر، تعالَ إلى هنا! *لن* يُرفض لي أمرٌ. لم أزل ربّة هذا البيت *بعدُ*».

قال بيري بسرور: «حسنًا، حسنًا، ما دام الأمر لازمًا».

زحلق جسده إلى الأسفل حتّى لمست قدماه السّلّم؛ فشهقت الخالة لورا، وتسمّر الآخرون ذاهلين أيضًا.

قال بيري في حبور: «نزعتُ لتوّي ملابسي المبتلّة»، وكان يلوّح بساقيْه باحثًا عن ركيزة في السّلّم، بينما تشبّث بمرفقيْه في جانبيْ الثّقب الأسود. وواصل قائلًا: «كنتُ قد وقعت في النّهر وأنا أسقي البقرات. وكنت على وشك أن أرتدي ثيابي الجافّة، ولكن بما أنّكِ أصررتِ..».

ولم يعد بوسع الخالة إليزابيث المسكينة أن تتريّث، فتوسّلت: «جيمي!» كان الوضع قد خرج عن *سيطرتها*.

أمره ابن العمّ جيمي: «بيري، عُد إلى العليّة والبس ثيابكَ حالا!».

فتراجعت السّاقان العاريتان ثمّ اختفتا. وترامى إلى سمعهم من الثّقب الأسود ضحك نشوان مشاكس كنعيق البوم. وتنفّست الخالة إليزابيث الصّعداء مرتجفةً، ثمّ الفتت إلى إيميلي. كانت مصمّمة على استرجاع نفوذها، وعليها أن تُخضِع إيميلي إلى سلطتها على أكمل وجه.

قالت: «إيميلي، اركعي أمام الآنسة براونيل واطلبي مغفرتها على سلوكك اليوم».

حينئذٍ، احتقنت وجنتا إيميلي الشّاحبتان من فرط استنكارها. لا يمكنها أن تفعل ذلك، قد تطلب عفو الآنسة براونيل، ولكنّها لن تركع لها. كيف لها أن تركع لتلك المرأة القاسية الّتي أذاقتها ألوانًا من الأذى؟ لن تستطيع، ولن تفعل. وهبّت بكلّ جوارحها لتحتجّ ضدّ إهانة من هذا القبيل.

كرّرت الخالة إليزابيث: «اركعي».

بدت الآنسة براونيل مسرورة ومتشوّقة. يا لها من متعة أن ترى تلك الطّفلة الّتي تحدّتها تركع لها كمن يتوب عن ذنبه. فمن هنا فصاعدًا، لن تجرؤ إيميلي على رفع تيْنك العينيْن الجريئتيْن اللّتيْن يستشفّ منهما النّاظر إليهما روحًا حرّةً، طليقةً، لا ترضخ لقيْدٍ مهما سُلّط عليها من عقابٍ، للجسد كان أم للفكر. ستظلّ ذكرى هذه اللّحظة ماثلةً في ذهن إيميلي، ولن تنسى أبدًا أنّها ركعت لها في خنوع. شعرت إيميلي بذلك مثلما شعرت به الآنسة براونيل، فمكثت واقفة في عنادٍ.

تضرّعت قائلة: «أرجوك يا خالتي إليزابيث، *أرجوك* أن تسمحي لي بأن أروي لكِ ما حدث من وجهة نظري».

«لقد سمعت ما أريد سماعه عن المسألة يا إيميلي. والآن ستفعلين ما أمرتك به، وإلّا ستظلّين منبوذة في هذا البيت إلى أن تُذعني. لن يخاطبك أحد، أو يلعب معك، أو يأكل معك، أو يتواصل معك بأيّ

طريقة كانت، إلى أن تُطيعيني». ارتعدت إيميلي. كان *هذا* عقابًا لا تستطيع تحمّله. لن تصمد أمام عزلها عن كلّ ما في عالمها، وأدركت أنّها ستستسلم عمّا قريب. لعلّه من الأفضل أن تخرّ على ركبتيها حالا، ولكن يا للمرارة، ويا للعار!

وفجأة، كسر ابن العمّ جيمي صمته قائلًا، وهو لم يُزِغ عينيه عن السّقف: «لا يركع الإنسان إلّا لخالقه».

حينئذٍ، طرأ تغيّرٌ غريب مفاجئ على وجه إليزابيث موراي الغاضب الأنوف. توقّفت تنظر إلى ابن العمّ جيمي بلا حراكٍ، وطالت اللّحظة لدرجة أنّ الآنسة براونيل عبّرت عن ضجرها في حركةٍ فظّة.

قالت الخالة إليزابيث، وقد تغيّرت نبرتها: «إيميلي، لقد أخطأت. ما كان عليّ أن أطلب منكِ الرّكوع. ولكن يجب أن تعتذري لمدرّستك، وسأعاقبكِ لاحقًا».

ضمّت إيميلي يديْها وراء ظهرها، ونظرت في عينيْ الآنسة براونيل مجدّدًا، ثمّ قالت:

«أنا آسفة لكلّ ما ارتكبت من أخطاء اليوم، وألتمس منكِ العفو».

نهضت الآنسة براونيل. كانت تشعر بأنّها سُلِبت حقّها في الانتصار، ومهما كان عقاب إيميلي، فهي لن تحظى بمتعة مشاهدته. كان يمكنها أن تتخلّص من «جيمي موراي الأبله» بطريقة أو بأخرى، ولكن ليس من صالحها أن تُفصح عن كلّ ما تشعر به

آنذاك. لم تكن إليزابيث موراي من الأوصياء، لكنّها أهمّ مموّلٍ في القمر الجديد، وتتمتّع بنفوذ قويّ في مجلس المدرسة.

قالت في جفاء: «سأسامحك إن أحسنت سلوكًا في المستقبل يا إيميلي. وأشعر بأنّني لم أقم إلّا بواجبي عندما عرضت الأمر على خالتك. لا، شكرًا لك آنسة موراي، ولكن لا يمكنني البقاء لتناول العشاء، عليّ أن أعود إلى المنزل قبل أن يخيّم الظّلام».

قال بيري مسرورًا: «رحم اللهّ من زار وخفّف»[1]، ونزل السّلّم بكامل ملابسه هذه المرّة.

تجاهلته الخالة إليزابيث، فلن تتشاجر مع خادم مأجور أمام الآنسة براونيل. لمّا انصرفت المدرّسة، نظرت الخالة إليزابيث إلى إيميلي وقالت:

«ستتناولين عشاءك في المخزن وبمفردك اللّيلة يا إيميلي، ولن يُقدّم لكِ إلّا الخبز والحليب. وعليكِ ألّا تخاطبي أحدًا إلى صباح غد».

فقالت إيميلي في توجّس: «ولكنّكِ لن تمنعيني عن التّفكير؟».

تجاهلتها إليزابيث وجلست متشامخة إلى مائدة العشاء. ذهبت إيميلي إلى المخزن فتناولت خبزها وحليبها وهي تشتمّ رائحة النّقانق الشّهيّة الّتي يأكلها الآخرون في نهم. كانت إيميلي تحبّ النّقانق، ونقانق القمر الجديد آيةٌ في الجودة واللّذة. إليزابيث برنلي هي الّتي

(1) عبارة شعبيّة تُقال لتشييع ضيفٍ ثقيلِ الظّل.

جلبت وصفتها من البلد القديم، وبقي سرّ إعدادها في حفظ العائلة وأمانها. اشتدّ جوع إيميلي؛ ولكن كاد الأمر يكون أسوأ بكثير، فقد أفلتت ممّا لا طاقة لها به. فجأة، خطر ببالها أنّه يمكنها كتابة قصيدة ملحميّة على غرار *قصيدة الحكواتي الأخير*[1]، تلك الّتي قرأها لها ابن العمّ جيمي يوم السّبت الماضي، وستبدأ النّشيد الأوّل في الإبّان. لّما دخلت الخالة لورا إلى المخزن، وجدت إيميلي مسندة مرفقيْها إلى الخزانة، تاركة أمامها نصف الخبز والحليب، شاخصة في الفضاء وشفتاها تهمسان في حركة خفيّة، وفي عينيْها الفتيّتيْن نورٌ لم يُرَ مثله في الأرض ولا في البحر. وشردت حتّى عن رائحة النّقانق، ألم تكن تنهل من ماء كاستاليا[2]؟

أطبقت الخالة لورا الباب، ونظرت في حنوّ شديد إلى إيميلي بعينيْها الزّرقاويْن الطّيبتيْن، ثمّ قالت: «إيميلي، يمكنكِ أن *تحدّثيني* متى شئت. فأنا لا أحبّ الآنسة براونيل، ولا أظنّ أنّ الذّنب ذنبك أنتِ لوحدكِ، ولو أنّه ما كان يجدر بك أن تكتبي الشّعر بدلًا من أداء فروض الحساب. إليكِ بعضًا من بسكويت الزّنجبيل في هذه العلبة».

ردّت إيميلي حالمة: «لا أريد أن أتحدّث إلى أحد، خالتي لورا -فأنا سعيدة جدًّا. إنّني بصدد تأليف ملحمة وسأسمّيها *السّيدة*

---

(1) قصيدة سرديّة مؤلّفة من ستّة أناشيد للشاعر الاسكتلندي والتر سكوت، نُشرت عام 1805.

(2) يقع ينبوع كاستاليا في دلفي باليونان، ويُحكى في الأساطير اليونانيّة أنّ ماءه يُلهم شاربه وَحْيَ الشّعر.

البيضاء، وألّفت منها عشرين سطرًا إلى حدّ الآن، ومنها سطران يخلبان الألباب. تريد البطلة الانضمام إلى الدّير، فحذّرها والدها من أنّها لن تستطيع العودة إلى:

حياةٍ آثرت عليها وعد الخلود

وتركت لذّاتها لصمت اللّحود.

آه، يا خالتي لورا، لقد جاءني *البرق* عندما ألّفت هذيْن البيْتيْن. ولا يهمّني الآن بسكويت الزنجبيل».

ابتسمت الخالة لورا مجدّدًا.

«قد لا يهمّك الآن، حبيبتي. ولكن بمجرّد أن تمرّ لحظات الإلهام، لا بأس في أن تتذكّري أنّني لم أحصِ قطع البسكويت في هذه العلبة، وأنّها من طرفي وطرف إليزابيث».

رسائل نابضة

«أبي العزيز:

«آه، عندي لكَ حديث شيّق للغاية. لقد تقلّدت دور البطولة في مغامرة، إذ سألتني إيلسي ذات يومٍ إن كان لي أن أذهب معها لقضاء اللّيلة لأنّ والدها على سفر ولن يعود إلّا في ساعة متأخّرة جدًّا، وقالت لي إنّها ليست خائفة ولكنّها تشعر بالوحدة. فطلبت الإذن من خالتي إليزابيث، ولم يكن لي أملٌ كبير في موافقتها يا أبي العزيز، لأنّها ضدّ بقاء الفتيات الصّغيرات خارج البيت ليلًا. ولكنّها فاجأتني بقبول طلبي والسّماح لي بالذّهاب مع إيلسي.

ثمّ سمعتها تخاطب خالتي لورا في المخزن قائلةً من المؤسف أن يترك الدّكتور تلك الطّفلة المسكينة بمفردها ليلًا. هذا تصرّف غير لائق. وقالت خالتي لورا هذا الرّجل المسكين غريب الأطوار. أتعلمين أنّه لم يكن كذلك قبل زوجته... وعندما ازدادت الأمور تشويقًا، وكزت خالتي إليزابيث ذراع خالتي لورا وقالت لها ش-ش-ششش، إنّ الحيطان لها آذان. أدركت أنّها تقصدني ولكنّني لم أكن ملتصقة بالحائط، بل اقتربتُ منه فحسبُ. ليتني أعرف ما فعلت والدة إيلسي، يؤرقني أمرها حتّى بعد أن ألزم الفراش.

أستلقي هناك طويلًا ولا يُغمض لي جفن وأنا أفكّر فيها. لا تعلم إيلسي عن أمرها شيئًا، وسَألَتْ والدها مرّة فأجابها (بصوتٍ *مدوٍّ كالرّعد*) بألّا تذكر *تلك المرأة* أمامه مجدّدًا. وثمّة شيء آخر يقلقني أيضًا. فأنا لا ألبث أفكّر في سيلاس لي الّذي اغتال أخاه في البئر القديم. ما أفظع الآلام الّتي ذاقها المسكين. وما أبشع أن يكون المرء غريب الأطوار.

«ذهبت مع إيلسي ولعبنا في السّقيفة. أحبّ اللّعب هناك لأنّنا لسنا مُجبرتيْن على الانتباه والحفاظ على النّظام، مثلما هو الأمر في سقيفتنا. سقيفة إيلسي مُهمَلة جدًّا ولم يُنفض عليها الغبار منذ سنوات. أمّا غرفة المُهمَلات فهي الأسوأ على الإطلاق. وهي تكمن في أقصى ركن من السقيفة، وتملؤها ثيابٌ قديمة وأكياس من الخِرَق والأثاث المحطّم. وفيها رائحةٌ لا تروق لي. تخترقها مدفأة المطبخ، وعليها عددٌ من الأغراض المُعلّقة (أو كان عليها)، فكلّ ما أرويه الآن في خبر كان يا أبتِ.

«لمّا سئمنا اللّعب، جلسنا على صندوق قديم وأخذنا نتحدّث. وقلتُ هذا مكان رائعٌ في وضح النّهار. أمّا في اللّيل فهو غريبٌ ومُربك بلا شكّ، فقالت إيلسي ثمّة فئران وعناكب وأشباح. قلتُ بازدراء أنا لا أؤمن بالأشباح، فهي ليست حقيقيّة. (ولكن لَعلّها موجودة في نهاية الأمر يا أبي.) ردّت إيلسي أظنّ أن السّقيفة مسكونة، ويُحكى أنّ كلّ السّقائف مسكونة. قلت لها هذا هراء، وأنتَ تعلم، يا أبتِ العزيز، أنّه لا يليق بشخصٍ من القمر الجديد

أن يصدّق وجود الأشباح، ورغم ذلك، فقد راودتني الشّكوك. قالت إيلسي إنّ الكلام سهل -وبدأ الغضب يدبّ في نبرتها (رغم أنّني لم أقصد أن أقلّل من شأن سقيفتها)- ولكنّكِ لن تتجرّئي على البقاء هنا لوحدك ليلًا. قلت لها بأنّي لا أمانع ذلك إطلاقًا، فقالت أتحدّاكِ أن تفعلي إذن. أتحدّاك أن تصعدي هنا لّما يحين وقت نومنا وأن تنامي هنا طيلة اللّيل. حينها أدركت أنّني وقعت في ورطة شنيعة يا أبي، فما الغُرور إلّا حماقةٌ، ولم أعلم ما يجب فعله. كنت أتطيّر من فكرة النّوم بمفردي في تلك السقيفة، ولكن إن لم أفعل فستذكّرني إيلسي بذلك كلّما تخاصمنا، والأدهى والأمرّ هو أنّها ستخبر تيدي بالأمر وسيظنّني جبانة. قلت بترفّع إنّني أقبل تحدّيك إيلسي برنلي، ولست خائفة. (بلى، كنت خائفة -في باطني.) فقالت إيلسي ستدوسك الفئران. أوه، لا أودّ أن أكون محلّك مهما كان الأمر، وكم لئيمٌ من إيلسي أن تزيد الطّين بلّة. شعرت أيضًا بأنّها انبهرت بي، وخفّف ذلك من روعي كثيرًا. جذبنا من غرفة المُهملات سريرًا قديمًا من الرّيش، ثمّ أعطتني إيلسي وسادة ونصف ما لديها من ملابس. كان الظّلام قد خيّم آنذاك وأبت إيلسي الصّعود إلى السّقيفة مجدّدًا. تلوت صلواتي بتروٍّ، ثمّ أخذت مصباحًا وارتقيت سلّم السّقيفة. ألفت الآن استخدام الشّموع لدرجة أنّ أعصابي توتّرت حين لجأت إلى المصباح. قالت لي إيلسي إنّني أبدو على وشك الموت رعبًا، ولكنّني، يا أبي العزيز، مضيت قُدمًا رغم شدّة ارتجاف ركبتيّ من أجل شرف آل ستار (وموراي

أيضًا). كنت قد نزعت ثيابي في غرفة إيلسي فلم يبق لي إلّا أن ألزم الفراش مباشرة، ثمّ أطفأت المصباح. تعذّر عليّ النّوم لمدّة طويلة، وتسرّب ضوء القمر إلى السّقيفة فجعلها مريبة. لا أدرك معنى كلمة «مريبة» بالضّبط، ولكن هكذا بدت لي السّقيفة. ظهرت لي الحقائب والملابس القديمة المتدلّية من الدّعائم شبيهة بمخلوقات عجيبة. فقلت في نفسي إنّه عليّ ألّا أخاف، لأنّ الملائكة تحرسني. ثمّ شعرت بأنّني قد أخشى الملائكة نفسها أكثر من أيّ شيء آخر، وكنت أسمع خطى الجرذان والفئران تتزاحم فوق الأمتعة. ففكّرت، ماذا لو داسني جرذ، ثمّ قرّرت أن أكتب وصفًا للسّقيفة في ضوء القمر يوم غد لكي أصبّ فيه فيض أحاسيسي. وأخيرًا، سمعت صوت عربة الدّكتور وهي تدخل، ثمّ سمعته يجوب المطبخ فشعرت بالاطمئنان، وسرعان ما خلدت إلى نومٍ مكدّر بكابوس مريع. حلمت بأنّ غرفة المُهملات انفتحت وخرجت منها جريدة عملاقة طاردتني في أرجاء السّقيفة. ثمّ التهبت الجريدة وغمرتني رائحة دخانٍ قويّة تكاد تكون حقيقيّة، وعندما انقضّت عليّ الجريدة، صرخت واستيقظت من نومي. وجدت نفسي واقفة في السرير، ولم أرَ جريدة، ولكنّني لم أزل أشتمّ رائحة الدّخان. نظرت إلى باب غرفة المُهملات ووجدت الدّخان آتيًا من أسفله، ثمّ رأيت ضوء نارٍ يلوح عبر شقوق الألواح. حينئذٍ، صرخت بكلّ ما أوتيت من صوتٍ وهرعت إلى غرفة إيلسي الّتي انطلقت كالسّهم عبر الرّواق لتوقظ والدها. فقال: «اللّعنة»، ولكنّه نهض في الإبّان. ظللنا نصعد

إلى السّقيفة وننزل منها حاملين دلاء الماء، وتسبّبنا في فوضى عارمة، ولكنّنا أخمدنا الحريق. كلّ ما في الأمر هو أنّ أكياس الصّوف تدلّت قُرب المدفأة واشتعلت فيها النّار. عندما انتهى الأمر، مسح الدّكتور العرق من جبينه الرّجولي وقال لقد نجونا بأعجوبة، ولو انتظرنا بظعة[1] دقائق أخرى لفات الأوان. أشعلت النّار في المدفأة لمّا شرعتُ في إعداد كأس من الشّاي، وأظنّ أنّ شرارة طارت نحو تلك الأكياس فالتهبت. يبدو أنّ الجبس قد تفتّت هنا وانفتح مكانه ثقب، وعليّ أن أحرص على تنظيف المكان بأكمله. ولكن بحقّ ما في الأرض، كيف اكتشفت الحريق يا إيميلي؟ قلت له إنّي كنت نائمة في السّقيفة. قال الدّكتور، نائمة في السّقيفة، كيف -بحقّ الـ- يا للـ- *ماذا* كنت تفعلين هناك. قلت، لقد تحدّتني إيلسي بأن أنام هناك، وقالت إنّه لن يكون لي ما يكفي من الشّجاعة لأبقى هناك، فقلت لها بلى. نمت هناك، ثمّ استيقظت، وشممت رائحة الدّخان، فقال لي الدّكتور أيّتها الشّيطانة الصّغيرة. أظنّ أنّه من المزعج أن يُنعت المرء بالشّيطان، ولكن قالها الدّكتور وهو يرمقني بإعجابٍ وكأنّه يمدحني، فأسلوبه في الحديث غريبٌ جدًّا. تقول إيلسي إنّه لم يخاطبها بحنوّ إلّا مرّة واحدة عندما أصيبت بالتهاب في الحنجرة، فناداها بـ«فتاتي الصّغيرة المسكينة» وبدا مشفقًا عليها. ورغم أنّ إيلسي تزعم أنّها لا تبالي بأنّ والدها لا يحبّها، فأنا أعلم جيّدًا أنّها

---

(1) خطأ متعمّد من الكاتبة يُبيّن قلّة خبرة إيميلي وتعثّرها اللّغويّ والإملائيّ. الصّواب: بضعة.

مستاءة جدًّا. ولكن، آه يا أبي، لديّ المزيد من الحكايات إليك. تلقّينا أمس عدد *الصّباح الأسبوعي*، صحيفة مطمر الفأر. في باب «أخبار المعبد»، كُتب مقال عن حريق منزل الدّكتور قيل فيه إنّه من حسن الحظّ أنّ الآنسة إيميلي ستار تفطّنت إلى الحريق. لا يسعني أن أصف لك شعوري لمّا رأيت اسمي في الصّحيفة. شعرت بأنّني *مشهورة*، وكانت تلك المرّة الأولى الّتي أنادى فيها بـ«الآنسة» في سياقٍ جِدّيٍ.

«في يوم السّبت الماضي، ذهبت خالتاي إليزابيث ولورا لتقضّيا اليوم بمطمر الفأر، وتركتانا، أنا وابن عمّي جيمي، لنحرس البيت. فتسلّينا أيّما تسلية، وسمح لي ابن عمّي جيمي بقَشد كلّ أوعية اللّبن. ولكن بعد العشاء، زارنا ضيوف لم نكن في انتظارهم، ولم يكن لدينا كعكٌ في المنزل. إنّه أمر جسيمٌ وغير مسبوق في تاريخ القمر الجديد. فقد كانت خالتي إليزابيث تعاني ألمًا في أسنانها طيلة يوم أمس، وخالتي لورا في غدير الكاهن لتزور عمّتها نانسي، فلم يُعِدَّ أحدٌ كعكًا. دعوت الرّب ليوفّقني، ثمّ شرعت في إعداد كعكة وفقًا لوصفة خالتي لورا، وكانت النّتيجة على ما يُرام. ساعدني ابن عمّي جيمي على تجهيز المائدة وجلب العشاء، وقدّمت الشّاي دون أن أسكب منه قطرة على الصّحون. كنت لتفتخر بي يا أبي. تناولت السّيدة لويس شريحة ثانية من الكعكة وقالت إنّها قادرة على تمييز كعك إليزابيث ولو عثرت عليه في أفريقيا الوسطى. لم أنبس بكلمة لحفظ شرف العائلة، ولكنّني شعرت بنخوة عارمة. لقد أنقذت آل موراي من فضيحة. لمّا عادت خالتي إليزابيث وسمعت القصّة

بحذافيرها، تجهّم وجهها وتذوّقت شريحة باقية من الكعكة، ثمّ قالت حسنًا، يبدو أنّ فيك *شيئًا* من دم موراي في نهاية الأمر. كانت تلك المرّة الأولى الّتي تمدحني فيها خالتي إليزابيث. اقتلَعَتْ ثلاثة أسنان، فلن تؤلمها بعد ذلك وأنا سعيدة من أجلها. وقبل أن أخلد إلى النّوم، تناولت كتاب الوصفات وشرعت أختار الأكلات الّتي أودّ إعدادها. طورطة الملكة، عيش السّرايا، زنود السّت، فهي تبدو رائعةً فعلًا.

«ها أنا ألمح غيومًا ناعمة بيضاء تحوم فوق أيكة جون المتغطرس. أتمنّى لو كان بوسعي أن أحلّق وأحطّ فوقها تمامًا. لا يمكنني أن أصدّق أنّها ستكون مبتلّة ومقرفة مثلما يقول تيدي. نقش تيدي الحروف الأولى من اسمي واسمه على شجرة صنوبر أبيض، ولكنّ أحدًا مّا أزالها، لا أدري إن كان ذلك فعل إيلسي أو بيري.

«صارت الآنسة براونيل نادرًا ما تسند لي علاماتٍ جيّدة على سلوكي، ما يثير استياء خالتي إليزابيث كلّ مساء جمعة، ولكنّ خالتي لورا تتفهّمني. حرّرت سردًا مفصّلًا للمساء الّذي سخرت فيه الآنسة براونيل من قصائدي، ثمّ وضعته في ظرف قديم كتبت عليه اسم خالتي إليزابيث وضممتُه إلى سائر أوراقي. فبهذه الطّريقة، ستكتشف خالتي إليزابيث الحقيقة إذا متُّ من السّلّ، وستندم لأنّها ظلمتني. ولكن لا أظنّ أنّني سأموت لأنّني لا أفتأ أكتنز، وأخبرتني إيلسي أنّها سمعت والدها يقول لخالتي لورا إنّني سأكون أجمل لو تورّدت وجنتاي. هل رغبتي في أن أصبح جميلة

عيبٌ يا أبتِ؟ إنّه عيبٌ بحسب خالتي إليزابيث، ولمّا سألتها ألا *تريدين* أن تصبحي جميلة، بدت لي مستاءة من شيء ما.

«كنّت الآنسة براونيل لبيري الضّغينة منذ تلك الأمسية وباتت تعامله بلؤم شديد، ولكنّه مسالم ويجزم بأنّه لا يريد إثارة البلبلة في المدرسة لأنّه يسعى إلى طلب العلم والمضيّ قُدُمًا. ومازال يزعم أنّ أبياته جيّدة مثل أبياتي، وأنا أوقن بأنّ هذا غير صحيح ويزعجني كلامه. وإن لم أنتبه طيلة الوقت في المدرسة، تقول الآنسة براونيل أتصوّر أنّكِ تؤلّفين -شِعرًا- يا إيميلي، وينفجر الجميع ضحكًا. لا، ليس الجميع. يجب ألّا أبالغ. تيدي وبيري وإيلسي وجيني لا يضحكون أبدًا. من الطّريف أنّني صرت مقرّبة جدًّا من جيني الآن بعد أن كرهتها كرهًا شديدًا في يومي الأوّل بالمدرسة. عيناها ليستا كعينيْ الخنزير، في نهاية المطاف. إنّهما صغيرتان ولكن فيهما بهجةٌ وبريقٌ خاطف، وهي محبوبة جدًّا في المدرسة. وأكره فرانك باركر حقّ الكره، فقد أخذ كتابي الجديد وخطّ على صفحته الأولى بحروف كبيرة عريضة

لا تسرق الكتاب ودعك من الفحشاء

فعليه اسم صاحبته وستنال منها جزاء

وستُسأَل بعد الموت سؤالا خشيته

سرقتَ كتابًا يا إنسانُ، فأين أخفيته؟

وتقول إنّك لست في ذلك بخبير

فتُرسَل إلى جهنّم وبئس المصير.

«ليست هذه قصيدةً راقية، ثمّ إنّه لا يَجوز الحديث عن يوم الحساب على هذا النّحو. فمزّقت الورقة وأحرقتها، وغضبت منّي خالتي إليزابيث، ولم يهدأ غيظها، حتّى بعدما شرحت لها سبب فعلي. تقول إيلسي إنّها ستقول «الله» بدلًا من «الرّب» من هنا فصاعدًا. إنّ هذا الاسم أحلى فعلًا، فهو خفيف ولا يبدو لي صارمًا مثل الآخر. ولكن أخشى ألّا يكون ملائمًا من النّاحية الدّينيّة.

«20 أيار.

«كان يوم أمس عيد ميلادي يا أبتِ. لقد مرّ عام تقريبًا على حلولي بالقمر الجديد. وازداد طولي ببوصتيْن، بحسب ما قاسني ابن عمّي جيمي على باب الملبنة. وكان عيد ميلادي بهيجًا للغاية، إذ أعدّت لي خالتي لورا كعكة شهيّة وأهدتني تنّورة بيضاء جديدة ذات كشاكش مزخرفة جميلة. كانت قد وشّحتها بشريط أزرق ولكن أجبرتها خالتي إليزابيث على نزعه. أعطتني خالتي لورا أيضًا من دولابها قطعة الاستبرق الحريري الوردي. كنت أتوق إليها منذ زمن طويل دون أن آمل في امتلاكها. سألتني إيلسي ماذا سأفعل بها، ولكنّني لا أنوي أن أفعل بها شيئًا. سأحفظها هنا في السّقيفة مع سائر كنوزي وأظلّ أتأمّلها لأنّها رائعة فعلًا. منحتني خالتي إليزابيث مُعجمًا، وهي هديّة مفيدة جدًّا، وأظنّ أنّها ستعجبني. آمل أن تشهد تحسّنًا في لغتي عمّا قريب. مشكلتي الوحيدة هي أنّني أتحمّس كثيرًا حينما أكتب، ويشقّ عليّ أن أتوقّف لأدقّق في إملائ[1]

---

(1) الصّواب: إملاء.

كلمة ما. بحثت فيه عن كلمة «خلوب»، فوجدت أنّ الآنسة براونيل على حقّ. لم أكن أعرف معناها تمامًا، ولكنّها بدت لي ملائمةً لكلمة «تنّوب» وظننت أنّها تعني العطوف، الحنون، ولكنّها تفيد معنى الجمال. قدّم لي ابن عمّي جيمي كرّاسًا كبيرًا فارغًا، وأنا سعيدة به للغاية، وسأستمتع بكتابة نصوصي فيه. ولكنّني سأظلّ أراسلك على الفواتير يا أبي العزيز، لأنّه يمكنني طيّ كلّ واحدة فيها على حدة وعنونتها كرسالةٍ حقيقيّة. أهداني تيدي لوحةً فيها صورتي، كان قد رسمها بنفسه ولوّنها بالألوان المائية، وأطلق عليها «الفتاة الضّحوك». أبدو فيها وكأنّني أسمع شيئًا أدخل البهجة إلى قلبي. قالت إيلسي إنّها صورة مُنمّقة لي. صحيح أنّني أبدو فيها أجمل ممّا أنا في الحقيقة، ولكن ليس بالجمال الّذي قد أكون عليه إن كانت لي غرّة. أخبرني تيدي بأنّه سيرسمني في لوحة كبيرة جدًّا عندما يكبر. أمّا بيري، فقد قطع المسافة إلى مطمر الفأر ليشتري لي عقد لؤلؤ ثمّ أضاعه. وبما أنّه لم يكن معه مزيدٌ من المال، عاد إلى مدينة مجاري الدّخان وأخذ من عند خالته توم دجاجة صغيرة ثمّ قدّمها لي. إنّه شديد الإصرار، وسيكون كلّ ما ستضعه الدّجاجة من بيضٍ من نصيبي لأبيعه للبائع المتجوّل. كما أنّ إيلسي أعطتني علبة حلوى، وسآكل منها قطعة واحدة كلّ يوم لكي تدوم لي طويلًا. أردت أن تشاركني إيلسي في أكل الحلوى ولكنّها رفظت[1] بذريعة أنّه لا يُعقل أن تأكل هديّة بعدما أهدتها، فألححت عليها ثمّ تشاجرنا

(1) الصّواب: رفضت.

فنعتتني إيلسي بالدّابة الصّيّاحة (وهذا سخيف جدًّا) وقالت إنّني لا أميّز يميني من يساري. فقلت إنّي على الأقلّ أميّز بين اللّباقة والفظاظة. واستشاطت إيلسي غضبا فغادرت إلى بيتها، وما حان وقت العشاء إلّا وهدأت وعادت بيننا.

«السّماء ممطرة اللّيلة وأسمع على سطح السّقيفة نقرًا كأنّه سيقان حوريّات تتراقص فوقه. ولولا المطر، لجاء تيدي ليساعدني على البحث عن الألماسة المفقودة، ألن يكون رائعًا لو وجدناها؟

«ابن عمّي جيمي بصدد إصلاح الحديقة، وسمح لي بمساعدته فزرعت مشتل أزهارٍ خاصٍّ بي. وكلّ صباح، أهرع إليه قبل أن أفعل أيّ شيء آخر لأرى كم نمت نباتاتي منذ البارحة. إنّ الرّبيع فصل مُبهج، أليس كذلك يا أبي؟ لقد خرج الأقزام الزُّرق الصّغار واجتمعوا حول البيت الصيفيّ. هكذا يسمي ابن عمّي جيمي الأرجوانات، يا له من اسم لطيف. إنّه يلقّب كلّ الأزهار بهذه الطّريقة؛ فالورود هي الملكات، وزنابق حزيران هي سيّدات الثّلج، وأزهار التّوليب هي الرؤوس المرحة، وأزهار النّرجس هي الفرقة الذّهبية، وأزهار اللّؤلؤيّة هي أصدقائي المتورّدون.

«يجلس معي هنا مايك الثّاني، على عتبة النّافذة. مايك قطٌّ نغموش. نغموش كلمة لا وجود لها في المعجم، بل اخترعتها أنا. لم أجد كلمةً في اللّغة تفي بوصف مايك الثّاني، فاخترعت هذه الكلمة. وهي تعني أنّه لطيف، وظريف، وناعم، ولامع في آن واحد، مع شيء آخر لا يسعني التّعبير عنه.

«تعلّمني خالتي لورا الحياكة. وهي تقول إنّه يجب أن أتعلّم كيف أخيط حاشية لا تُرى على القماش الموصلي (من التكاليد[1]). آمل أن تعلّمني حياكة الدّانتيل بالإبر يومًا ما. يُعرف عن آل موراي أنّهم يجيدون حياكة الدّانتيل بالإبر (أقصد النّساء منهم). وليس هنالك بين فتيات المدرسة من تجيد ذلك. قالت لي خالتي لورا إنّها ستصنع لي منديلا من الدّانتيل المُحاك بالإبر عندما أتزوّج. فتلك هي هديّة كلّ عرائس القمر الجديد، ما عدا والدتي بما أنّها هربت. ولكنّك لم تبالِ بعدم امتلاكها منديلًا من دانتيل، أليس كذلك يا أبي؟ خالتي لورا تقول كثيرًا من الخير عن أمّي، ولكن في غياب خالتي إليزابيث فقط. أمّا خالتي إليزابيث، فهي لا تذكر اسمها البتّة، وتودّ خالتي لورا أن تأخذني لأرى غرفة أمّي، ولكنّها لم تجد المفتاح لأنّ خالتي إليزابيث وارته عن العيان. تقول خالتي لورا إنّ خالتي إليزابيث كانت تحبّ أمّي حبًّا جمًّا، وقد يظنّ المرء أنّ ذلك يجعلها تحبّني ولو قليلًا. ولكن لا، فهي تربّيني من قبيل الواجب فحسب.

«الفاتح من حزيران.

«أبي العزيز:

«كان يومًا في غاية الأهمّية لي، فقد كتبت رسالتي الأولى. أقصد أوّل رسالة أودعها فعلًا في صندوق البريد. وهي رسالة موجّهة إلى عمّتي نانسي، عمّة أمّي العجوز الّتي تقطن في غدير الكاهن. فقد قالت في رسالةٍ لها إلى خالتي إليزابيث إنّه يجدر بي أن أراسل امرأة

---

(1) الصّواب: التّقاليد.

مسكينة طاعنة في السّن مثلها من حين إلى آخر. فتحرّكت مشاعري وأردت مراسلتها. وقالت خالتي إليزابيث لعلّه يجدر بنا أن نسمح لها بكتابة الرّسالة. ثمّ خاطبتني قائلة عليكِ أن تحرصي على كتابة رسالة جميلة، وسأراجعها بعد أن تُنهيها. فإن تركتِ انطباعًا جيّدًا على العمّة نانسي ربّما ستكافئك. كتبت الرّسالة بعناية بالغة، ولكنّ النّتيجة كانت مختلفةً عن أسلوبي تمامًا. عجزت عن كتابة رسالة جيّدة وأنا أعلم أنّ خالتي إليزابيث ستقرؤها، فقد شعرت بشيءٍ ما يبكح[1] جماحي.

«7 حزيران.

«أبي العزيز، لم تترك رسالتي انطباعًا جيّدًا لدى عمّتي نانسي. ولم يصلني ردّ، فيما تلقّت خالتي إليزابيث رسالةً منها تقول فيها إنّني بلا شكّ طفلةٌ غبيّة جدًّا لكي أكتب رسالة غبيّة من ذاك القبيل. وشعرت بالإهانة لأنّني لست بغبيّة. قال لي بيري إنّه يودّ الذّهاب إلى غدير الكاهن ليُطعم العمّة نانسي علقة لا تُنسى. فأخبرته بأنّه لا يحقّ له أن يتكلّم بهذه الطّريقة عن عائلتي، وعلى كلّ حال لا أدري كيف سيتغيّر رأي عمّتي نانسي بشأن غباوتي بعد العلقة. (يا تُرى ما هي العلقة وكيف تُطعَم للناس.)

«لقد أنهيْتُ ثلاثة أناشيد من *السّيدة البيضاء*. البطلة محبوسة في دير ولا أدري كيف أخرجها منه لأنّني لست كاثوليكيّة. أظنّ أنّ القصّة كانت تكون أفضل لو جعلت فيها بطلة بروتستانتية، ولكن

---

(1) الصّواب: يكبح.

لم يكُن البروتستانتيّون موجودين في حقبة الفروسيّة. لو كنت كتبتها في العام الماضي لسألت جون المتغطرس؛ أمّا الآن فلا أستطيع لأنّني لم أخاطبه منذ مازحني مزحة التّفاح البشعة.

«عندما اعترضني في الطّريق، رفعت أنفي إلى السّماء وتغطرست مثله. ثمّ إنّني سمّيت خنزيري باسمه انتقامًا منه. فقد أعطاني ابن عمّي جيمي خنزيرًا صغيرًا، وسيكون ثمنه من نصيبي لمّا يشتريه أحد. أنوي التّبرع ببعضه للبعثات التّبشيريّة وأحفظ الباقي في حصّالتي لأموّل مسيرتي الدّراسية. كنت أظنّ أنّه لو كان لي خنزير، سأسمّيه الخال والاس. أمّا الآن فيبدو لي غيرَ لائقٍ أن يُسمّي المرء خنزيرًا على خاله، حتّى ولو كان لا يحبّه.

«نلعب أنا وتيدي وبيري وإيلسي لعبة التّمثيل، فنتظاهر بأنّنا نعيش في زمن الفروسيّة، ونغدو أنا وإيلسي فتاتيْن في خطر يهبّ لنجدتهما فارسان مغواران. صنع تيدي بدلة درع رائعة من حطام البراميل، ثمّ صنع بيري أخرى أفضل منها من الغلّايات القصديريّة القديمة الّتي ملّسها بالمطرقة وأضاف إليها وعاءً مكسّرًا ليحلّ محلّ الخوذة. ونلعب أحيانًا في رقعة الطّانسة. لي إحساس غريبٌ بأنّ والدة تيدي باتت تكرهني هذا الصّيف، بعد أن كانت لا تحبّني فحسبُ في الصّيف الماضي. عجاج وزبدة غائبان منذ مدّة، فقد اختفيا اختفاء غامضًا في الشّتاء. ويقول تيدي إنّه شبه متأكّد من أنّ والدته سمّمتهما ظنًّا منها أنّه بدأ يتعلّق بهما أكثر ممّا ينبغي. بدأ تيدي يعلّمني كيف أصفّر، ولكن تقول خالتي لورا أنّ ذلك لا يليق

بالسّيدات. يبدو لي أنّ معظم الأشياء المسلّية لا تليق بالسّيدات. أكاد أتمنّى أحيانًا أن تكون خالتاي كافرتيْن مثل الدّكتور برنلي، *فهو* لا يبالي أبدًا بما يليق بالسّيدات. ولكن لا، فالكفر سوء خُلُق؛ ولن يصير أبدًا من تكاليد[1] القمر الجديد.

«علّمت بيري اليوم ألّا يأكل بسكّينه، فهو يريد أن يتعلّم كلّ *قواعد الإيتيكيت*. كما أنّني أساعده على حفظ نصّ لقراءته يوم الامتحان المدرسي. وأردت أن أوكل المهمّة لإيلسي ولكنّها غاضبة لأنّه لم يبادر بسؤالها هي، فرفضت. ولكن يجدر بها أن تقبل لأنّها أفضل منّي بكثير في قراءة النّصوص، فأنا أتوتّر كثيرًا.

«14 حزيران.

«أبي العزيز، صرنا نتلقّى دروسًا في الإنشاء وتعلّمت اليوم أنّه عندما ننقل كلام شخصٍ ما، نضع كلامه بين»». لم أكن أعلم بذلك من قبل. عليّ إذن أن أعود إلى كلّ رسائلي وأضع تلك العلامة. وبعد السّؤال، توضع هذه العلامة؟ وعندما نريد توضيح نُطق الحروف، نضع فوقها حركات التّشكيل، وهي خُطوط صغيرة تُكتب فوق الحروف أو تحتها. صحيحٌ أنّ الآنسة براونيل تسخر منّا، ولكنّها *تعلّمنا* الكثير. أكتب هذا لأعطي لكلّ ذي حقٍّ حقّه حتّى ولو أكرهها بالفعل، وهي تثير اهتمامي ولو أنّها غير لطيفة، وقد كتبت عنها وصفًا في إحدى فواتير الرّسائل، فأنا أحبّذ الكتابة عمّن لا أحبّ أكثر من الأشخاص المقرّبين لي. فلئن طاب لي العيش

---

(1) الصّواب: تقاليد.

مع خالتي لورا مثلًا، أجدني أستمتع أكثر بالكتابة عن خالتي إليزابيث. أستطيع الحديث عن *نقائصها* بكلّ أريحيّة، بينما أشعر بالذّنب والجحود إن لم أُثنِ على خالتي لورا الحبيبة. لقد خبّأت خالتي إليزابيث كلّ كتبك وأعلمتني بأنّني لن أسترجعها حتّى أكبر، وكأنّني لن أوليها العناية اللّازمة يا أبي العزيز. وهذا ما تظنّه منذ اكتشفت أنّني كلّما قرأت منها كتابًا، وضعت نقطة صغيرة بقلم الرّصاص تحت كلّ كلمة جميلة. وليس في ذلك أذى للكتاب بالمرّة يا أبي العزيز. ومن بين تلك الكلمات، كلمة وِهاد، تلألأ، الشّذا، أرقش، دركٌ، أخدود، مُحرَّج، هامد، وبَصَ، متغضّن، الزّان، العاج. كلّها كلمات تبدو لي فاتنةً يا أبي.

«تسمح لي خالتي لورا بقراءة نسختها من كتاب *رحلة الحاجّ* أيّامَ الأحد. وأطلقت على التلّ العظيم في الطّريق إلى كنيسة الصّليب الأبيض اسمَ الجبل الأخّاذ، لأنّه فعلًا رائع للغاية.

«أعارني تيدي ثلاثة دواوين شعر. أحدها للورد تنيسون، فحفظت *أنشودة الترومبيت* عن ظهر قلب وستظلّ معي إلى الأبد. وآخر للسّيدة براونينغ[1]. إنهّا لطيفة، وأودّ أن أقابلها. لعليّ سأفعل بعد مماتي، ولكنّ الأمر لا يزال بعيد الأمد. أمّا الأخير فهو قصيدة واحدة تُدعى رستم وسُهراب[2]، وأبكتني القصيدة بعدما لزمت

(1) إليزابيث باريت براونينغ (1806-1861) شاعرة بريطانيّة من أشهر شاعرات العهد الفيكتوري في إنجلترا.

(2) قصيدة ملحميّة تُسمّى أيضًا بملحمة الدّم والأسى للشاعر الإيراني الحكيم أبي القاسم الفردوسي، يروي فيها القصّة المأساويّة للأبطال رستم وابنه سهراب.

الفراش. سألتني خالتي إليزابيث «علامَ تنتحبين؟» لم أكن أنتحب، بل أذرف دموع الحُرقة. أجبرتني على البوح بسبب بكائي فقالت «إنّك مجنونة بلا شكّ». ولكن لم يسعني أن أنام إلّا بعدما فكّرت في نهاية مختلفة للقصيدة، نهاية سعيدة.

«25 حزيران.

«أبي العزيز:

«لقد مرّت على يومي هذا سحابة غمّ. أوقعت سنتًا في الكنيسة، فأحدث طجيجًا[1] مريعًا. وشعرت وكأنّ كلّ الأعين تتّجه نحوي. استاءت منّي خالتي إليزابيث كثيرًا. ثمّ سرعان ما أسقط بيري سنتًا بدوره، وقال لي بعد القدّاس إنّه فعل ذلك ليهوّن عليّ وطأة الموقف، ولكنّه أخفق في ذلك لأنّني خفت أن يظنّ النّاس أنّني أعدت الكرّة، يفعل الأولاد أحيانًا أشياء غريبة. أتمنّى ألّا يكون القسّيس قد سمعني لأنّه بدأ يروق لي، لم يكن يعجبني كثيرًا قبل يوم الثلاثاء الماضي، فكلّ من في عائلته أولاد وظننت أنّه غير قادر على فهم الفتيات الصّغيرات جيّدًا. ثمّ زارنا في القمر الجديد. لم تكن خالتاي إليزابيث ولورا آنذاك في المنزل، وكنت في المطبخ بمفردي، فدخل السّيد دير وجلس فوق سوسي سال الّتي كانت نائمة على الكرسيّ الهزّاز. كان السّيد دير مرتاحًا، على عكس سوسي سال، لم يجلس على بطنها، وأظنّ أنّه كان يقتلها لو فعل. لم يجلس إلّا على قوائمها

---

(1) الصّواب: ضجيجًا.

وذيلها. وأطلقت سوسي سال عواء حادًّا ولكنّ السّيد دير كان يعاني شيئًا من الصّمم ولم أجرؤ على إخباره. كان بصدد سؤالي إن كنت أعرف تعاليم ديانتي عندما دخل علينا ابن عمّي جيمي وقال «تعاليم الدّيانة، تقول لنا؟ فلتسمعوا هذا الغول الغبيّ المسكين. أتحدّاك أن تنهض إن كنت مسيحيًّا حقًّا». فنهض السّيد دير وقال، «ربّاه، هذا مدهش بالفعل. تخيّلت أنّني أشعر بشيء ما يتحرّك تحتي».

«خطر لي أن أذكر لك هذه الحادثة يا أبي، لأنّها بدت لي طريفةً للغاية.

«عندما فرغ السّيد دير من أسئلته، ظننت أنّه حان دوري لأطرح عليه أسئلة عن بعض المسائل الّتي أريد الاستفسار عنها منذ سنوات. فسألته إن ظنَّ أنّ الرّب سيدقّق في أدنى فعل فعلته، وإن ظنَّ أنّ قططي ستذهب إلى الجنّة. فأجابني بأنّه يأمل أنّني لم أقترف ذنوبًا أبدًا، وأنّه ليس للحيوانات أرواح. ثمّ سألته لمَ لا يجدر بنا أن نجعل خمرًا جديدةً في زقاق[1] عتيقةٍ، فخالتي إليزابيث تضع نبيذ الهندباء في قوارير قديمة وهي تصلح مثل الجديدة تمامًا. فشرح لي بلطف أنّ زقاق الخمر كانت تُصنع من الجلد في عهد الإنجيل، لذلك تتعفّن بمرور الزّمن، وكان تفسيره شافيًا كافيًا. ثمّ أخبرته بأنّني في حيرة من أمري، لأنّه ينبغي عليّ أن أحبّ الرّب أكثر من أيّ شيء، ولكن توجد أشياء أخرى أحبّها أكثر من الرّب. فسألني: «مثل ماذا؟» فقلت له الأزهار والنّجوم وسيّدة الرّياح والأميرات

(1) إنجيل مرقس 2:22.

الثلاثة وهلمّ جرًّا. فابتسم لي وقال «ولكن كلّها نعمٌ سخّرها لكِ الرّب يا إيميلي، مثل كلّ ما في الكون من جميلٍ». وفي تلك اللّحظة، أحببته دفعة واحدة وأكثر من أيّ وقتٍ مضى، فتلاشى خجلي إزاءه. في قدّاس الأحد الماضي، حدّثنا عن الجنّة، وبدت لي مملّة جدًّا. ولكنّها، برأيي، أفضل من ذلك وأكثر تشويقًا. أتساءل عمّا سأفعل حين أذهب هناك، فأنا لا أجيد الغناء. يا ترى، هل سيُسمح لي بنظم الشّعر؟ ولكنّ الكنيسة تثير اهتمامي. فقبل بداية القدّاس، تنغمس خالتاي إليزابيث ولورا دومًا في قراءة الإنجيل، أمّا أنا فأفضّل التأمّل في ما حولي وأشاهد النّاس وأتساءل عمّا يدور في أذهانهم. ما أحلى جفجفة الحرير لمّا تمضي الفساتين في الممرّ. باتت المنافج[1] آخر صيحة في الفساتين العصريّة، ولكن ترفض خالتي إليزابيث أن ترتديها. وأظنّ *بالفعل* أنّ شكل خالتي إليزابيث سيكون مضحكًا بالمنفجة، أمّا خالتي لورا فتلبس منفجة صغيرة جدًّا.

«ابنتك الّتي تحبّك أكثر من الجميع،

«إيميلي ب. ستار.

«تذييل: أبي العزيز، يسعدني جدًّا أن أراسلك. ولكنّني، للأسف، لا أتلقّى ردًّا.

«إ. ب. س».

---

(1) مفردها المنفجة، وهي قطعةُ لباسٍ نسائيّة توضع في الفساتين لتزيد في حجمها من الخلف.

الأب كاسيدي

خيّم الرّعب على القمر الجديد، وعصف الحزن بقلوب الجميع. كانت الخالة لورا تنتحب، وغدت الخالة إليزابيث عنيفة لدرجة أنّها نغّصت حياة كلّ من معها، بينما هام ابن العمّ جيمي لا يلوي على شيءٍ، وكفّت إيميلي عن القلق كلّ ليلة بشأن والدة إيلسي وشبح سيلاس لي النّدمان، إذ كانت هنالك مشكلة جديدة تشغل بالها. فقد بدأت القصّة عندما تجاهلت إيميلي تقاليد القمر الجديد وتردّدت على ورشة جون المتغطرس؛ ولم تقصّر الخالة إليزابيث في تذكيرها بالأمر. فلو لم تذهب هي، إيميلي بيرد ستار، إلى جون المتغطرس، لما أكلت تفّاحته الحلوة الكبيرة؛ ولو لم تأكل تفّاحته الحلوة الكبيرة، لما دبّر لها مقلبًا؛ ولو لم يدبّر لها مقلبًا، لما ذهبت إليه الخالة إليزابيث لتقول له أقوالًا لاذعة، على طريقة آل موراي؛ وإن لم تقل الخالة إليزابيث تلك الأقوال اللّاذعة على طريقة آل موراي، لما استاء جون المتغطرس وفكّر في الانتقام؛ ولو لم يستأ جون المتغطرس ويفكّر في الانتقام، لما دفعته غطرسته إلى قرار اجتثاث الأيكة الجميلة في شمال القمر الجديد.

هنا تكمن النتيجة الّتي أفضى إليها تراكم المزايدات. فقد أعلن جون المتغطرس في متجر بلاكسميث، على مرأى ومسمع الجميع في معبد المياه، أنّه سيجتثّ الأيكة حالما ينتهي فصل الحصاد، وسيُقطع منها كلّ ما فيها، من أعلى شجرة إلى أدنى شتيلة. سُرعان ما نُقل الخبر إلى القمر الجديد، فأدخل على قلوب أهله أشجانًا لم تسكنها منذ سنوات، فقد كان الأمر، بالنّسبة إليهم، كارثة بأتمّ معنى الكلمة.

صَعُب على الخالتيْن إليزابيث ولورا تصديق الأمر، كيف لا وهو لا يُصدّق؟ كانت تلك الأيكة الكثيفة، العظيمة، الحامية، أيكة شجر التّنوب وكاسيات البذور، موجودةً *منذ الأزل*؛ وهي تُعدّ ملكًا للقمر الجديد ولو *معنويًّا*؛ وحتّى هو، جون سوليفان المتغطرس، لن يجرؤ على قطعها. ولكن عُرف عن جون المتغطرس أنّه يفعل دائمًا ما يقول؛ وكانت تلك السّمعة السّيئة من مقوّمات غطرسته. ولو فعله -لو تجرّأ على فعله-، «سينهار القمر الجديد»، كما قالت الخالة لورا المسكينة من بين عبراتها، «سيغدو بشع المظهر -سيضمحلّ كلّ ما فيه من جمال، وسيبقى عُرضة لريح الشّمال وعواصف البحر -بعد أن كان بيتنا دافئًا مكنونًا، وستهلك حديقة جيمي أيضًا».

قالت الخالة إليزابيث: «هذا ما نجنيه من جَلْبِنا إيميلي إلى هنا».

إنّه لقول شديد القسوة، حتّى ولو وضع في سياقه حصرًا، شديد القسوة والظّلم أيضًا، لأنّ مسؤولية ما يحدث تقع على عاتق لسانها اللّاذع وسخرية آل موراي، مثلما هي على عاتق إيميلي.

ولكنّها قالته، فأغمدت به في قلب إيميلي خنجرًا ترك فيه جرحًا أليمًا لم يندمل لسنواتٍ. لم تكن إيميلي المسكينة في حاجةٍ إلى المزيد من الألم، فقد مزّقها الكدر حتّى أفقدها شهيّتها في الأكل ورغبتها في النّوم. وفي المقابل، كانت إليزابيث موراي تغطّ في سبات عميق كلّ ليلة، مهما كان مدى غضبها أو حزنها؛ بينما كانت بجوارها في الظّلام طفلة صغيرة تخشى أن تتحرّك أو تتقلّب، فتنهمر دموعها في صمتٍ على وجنتيْها دون أن يرمّم ذلك شروخ قلبها المنفطر. ظنّت إيميلي *بالفعل* أنّ قلبها ينفطر، فوجدت نفسها غير قادرة على مواصلة العيش وتكبّد الآلام على ذاك النّحو، ولا أحد يقدر.

عاشت إيميلي في القمر الجديد مدّة طويلة بما يكفي ليجري المكان في شرايينها، بل لعلّه وُلد في جوف قلبها. وعلى كلّ حال، اكتشفت في نهاية المطاف أنّ مناخ مسكنها الجديد يتناسب معها تناسب اليد مع القفّاز. غدت تحبّه وكأنّها عاشت فيه طيلة حياتها القصيرة؛ فأحبّت فيه كلّ عصًا وحجرٍ وشجرةٍ وورقة عشبٍ، وكلّ مسمار غُرس في أرضيّة المطبخ العتيقة، وكلّ كتلة طحالب نمت على سقف ملبنته، وكلّ زهرة أنقولية ورديّة أو بيضاء انبثقت في بستانه القديم، وكلّ «تقليد» من تاريخ تقاليده العريق. كان الألم يبلغ بها أشدّه متى فكّرت في أنّه سيُسلب قسطًا عظيمًا من جماله. ويا للوعتها إذا تذكّرت أنّ ذلك سيُفسد حديقة ابن عمّها جيمي! فقد كانت إيميلي تعشق تلك الحديقة تقريبًا مثلما يعشقها صاحبها. كيف لا، ولم يفخر ابن العمّ جيمي بشيء في حياته مثل فخره بقدرته على زراعة

نباتات وجُنيبات لا تنمو شتاءً إلّا في حديقته في كامل جزيرة الأمير إدوارد! ولو أُزيل عنها ذاك الحصن الشّمالي، فلن تنجو منها نبتة واحدة. كيف للمرء أن يتخيّل حتّى قطع تلك الأيكة الجميلة في حدّ ذاتها -درب اليوم ودرب الأمس ودرب الغد تُمحى من الوجود - وإمبراطور الغابة القدير يُخلع عن العرش -وبيت الألعاب الصّغير يُحطّم بعد أن قضّت فيه أسعد الأوقات مع إيلسي -والمكان بأسره، بسراخسه وسحره ورونقه، يُقضى عليه بضربة واحدة.

آه، لقد اختار جون المتغطرس حقًّا الانتقام المناسب في الوقت المناسب!

متى ستحلّ بهم النّازلة؟ كانت إيميلي تجلس كلّ صباح على عتبة المطبخ الحجريّة، وتصغي بأسىً مرتقبة صوت الفؤوس تنهال وسط هواء أيلول النّقي. كلّ مساءٍ، تعود من المدرسة مضطربة، خشية أن ترى أعمال التدمير قد انطلقت. نال منها القلق والتّوتر، بل شعرت في بعض الأحيان بأنّه لم يعد بوسعها أن تتحمّل أعباء حياتها. وعلاوة على ذلك، كانت خالتها إليزابيث تقول لها كلّ يوم شيئًا في سبيل إلقاء اللّوم برمّته على عاتقها، فغدا الموضوع نقطة حسّاسة جدًّا لدى الفتاة، وكادت تتمنّى أن يُتمّ جون المتغطرس عمله الشّنيع لينتهي الأمر. لو سمعت إيميلي بقصّة دموقليس[1]

(1) كان دموقليس خطيبًا في بلاط ديونيسوس الثاني من سيراقوسة في القرن الرّابع ق.م، واعتلى يومًا عرش الملك، ولكن رتّب له ديونيسوس أن يُعلّق فوق العرش سيف مربوط بشعرة واحدة من ذيل حصان. وصار سيف دموقليس مثلًا يُضرب للتّهديد بالخطر

الشّهيرة، لتعاطفت معه بكلّ جوارحها. ولو كان الأمر يجدي نفعًا، لكتمت إيميلي في نفسها كبرياء موراي وكبرياء ستار وأي نوع من الكبرياء ومثلت أمام جون المتغطرس راكعة لتحاول أن تثنيه عن انتقامه البشع. بيد أنّها تعلم أنّه لن يتراجع، فهو لم يترك مجالًا للشّك في إصراره المرير على تنفيذ قراره. كثرت الأقاويل في معبد المياه، فابتهج بعضهم أيّما بهجة بتلك الضّربة الموجّهة إلى كبرياء موراي ومكانتهم السّامقة، فيما رأى بعضهم الآخر أنّه سلوك منحطّ وخسيس من طرف جون المتغطرس؛ ولكن اتّفق جميعهم على أنّ هذا ما تنبّؤوا بحدوثه منذ زمن بعيد، وأنّ الضّغينة الّتي يتناقلها آل موراي وآل سوليفان أبًا عن جدٍّ منذ ثلاثة أجيال ستنفجر حتمًا، بل كلّ ما فاجأهم في الأمر هو أنّ جون المتغطرس لم يبادر بالعداء من ذي قبل، فهو يكره إليزابيث موراي منذ أيّام الدّراسة، عندما كان لا يَسْلَمُ من لسانها.

جلست إيميلي ذات يومٍ على ضفاف معبد المياه، وأخذت تبكي. كانت قد أُرسلت لنزع البراعم الميّتة عن شجيرات الورد فوق قبر جدّتها موراي؛ ولمّا أتمّت مهمّتها، شقّت عليها العودة إلى المنزل حيث كانت الخالة إليزابيث تتعسّف على الجميع بسبب حزنها المرير. فقد أخبرها بيري بأنّ جون المتغطرس أعلن في متجر بلاكسميث أنّه سيشرع في قطع أشجار الأيكة الكبرى صباح يوم الاثنين.

فانتحبت إيميلي وقالت إلى شجيرات الورد: «*لن أتحمّل ذلك*».

اهتزّت نحوها بعض البراعم الفانية؛ وأخذت سيّدة الرّياح تمشط الأعشاب الطويلة وتداعبها وتحرّكها فوق القبور الّتي ينام تحتها في سلام آل موراي ذوو الكبرياء، رجالًا ونساء، لا يحرّكون ساكنًا للضّغائن والأهواء السابقة؛ وألقت شمس أيلول من وراء المحاصيل ضياءَها السّاطع الصّافي على الحقول القديمة، ثمّ أرسلته ليحطّ في هدوء شديد على الضّفة الخضراء المعشوشبة، قبل أن ينسكب برفقٍ فوق سطح معبد المياه الأزرق.

قالت إيميلي وهي تداري انفعالها: «لا أدري لمَ لا يتدخّل الرّب ليوقف جون المتغطرس عند حدّه». ومن الطّبيعي أن يكون لدى آل موراي من القمر الجديد مثل هذه التّوقعات إزاء إلاههم.

جاء تيدي يصفّر عبر المرعى، وقد ملأ صدى صفيره أرجاء معبد المياه ورنّت درجاته كأنّها همسات عفاريتٍ خفيّة. ثمّ نطّ فوق سياج المقبرة وجثم بجسده النّحيل الرّشيق فوق «هنا أبقى» على الشاهدة المسطّحة بقبر والدة الجدّة موراي.

وسألها: «هل من مشكلة؟».

فقالت إيميلي بشيءٍ من الصّرامة: «لا شيء يخلو من المشاكل». كيف يسمح تيدي لنفسه بأن يكون على هذه الدّرجة من الانشراح؟ تعوّدت على مزيدٍ من التعاطف من قبله، وحزّ في نفسها ألّا تجد فيه ذلك. «ألا تعلم أنّ جون المتغطرس سيشرع في قطع الأشجار من الأيكة يوم الاثنين؟».

أومأ تيدي إيجابًا.

«بلى. أخبرتني إيلسي. ولكن إليكِ يا إيميلي، لقد فكّرت في شيءٍ ما. لن يجرؤ جون المتغطرس على اجتثاث الأيكة إن نهاه عن ذلك الكاهن، أليس كذلك؟».

«لماذا؟».

«لأنّه يتعيّن على الكاثوليكيّين أن يفعلوا ما يُمليه عليهم كهنتهم، أليس كذلك؟».

«لا أدري، لا أعرف شيئًا عنهم. نحنُ نتّبع الكنيسة المشيخيّة».

رمت إيميلي برأسها إلى الوراء. فرغم أنّ تيدي يتردّد على الكنيسة المشيخيّة في دروس الأحد، كان يُعرف أنّ السّيدة كينت من أتباع «الكنيسة الأنغليكانية»، وقد قلّلت تلك الحقيقة من شأنه في دوائر أولئك الّذين رضعوا مذهب المشيخيّة مع الحليب.

استأنف تيدي بإصرار: «لو زارت خالتك إليزابيث الأب كاسيدي في كنيسة الصّليب الأبيض والتمست منه أن يضع حدًّا لعمل جون المتغطرس، ربّما سيفعل».

فقالت إيميلي بثقة تامّة: «خالتي إليزابيث لن تفعل ذلك أبدًا. أنا متأكّدة. سيمنعها كبرياؤها».

«ولا حتّى لإنقاذ الأيكة؟».

«ولا حتّى لذلك».

خاب أمل تيدي، فقال: «إذن أظنّ أنّه ليس هنالك ما يمكن فعله. إليكِ، انظري ماذا رسمت. هذه صورة لجون المتغطرس في

المطهر، وحوله ثلاثة شياطين صغار ينقرونه بثلاثة مذارٍ حامية. لقد نقلت بعضها من صورة وجدتها في أحد كتب أمّي -اسمه جحيم دانتي، على ما أظنّ- ولكنّني عوّضت وجه الرّجل في الصّورة بوجه جون المتغطرس. يمكنكِ أن تأخذيها».

«لا أريدها». فكّت إيميلي ساقيْها ونهضت. لقد تجاوزت مرحلةَ تعذيب جون المتغطرس في خيالها بأشواط، ولن يواسيها من ذلك شيء. فقد سبق وأذاقته ألوانًا من العذاب المرير في تلك اللّيالي الّتي جفاها فيها النّوم. ولكن لمعت في ذهنها فكرة، فكرة جريئة مدهشة. «عليّ أن أنصرف الآن يا تيدي، فقد قرب وقت العشاء».

دسّ تيدي الرّسم المنبوذ في جيبه، وكان بالفعل عملًا فنّيًّا رائعًا، وليت أحدهما كان يتمتّع بحسّ مرهف ليدرك مدى روعته: فتباينت ضحكة الشّيطان الصّغير وهو ينقر ضحيّته بالمذرى مع الحرقة العميقة الّتي ارتسمت على ملامح جون المتغطرس، كان حريًّا بإحباط عددٍ من الفنّانين المتمرّسين. عاد إلى بيته يتمنّى إيجاد طريقة لمساعدة إيميلي؛ فلا يُعقل أبدًا أن تحزن فتاةٌ مثل إيميلي بتيْنك العينيْن ذات اللّون الرّمادي الأرجواني الخفيف، وتلك الابتسامة الّتي تولّد فيك ما لا يُحصى ولا يعدّ من الأفكار البديعة العصيّة على التّعبير. قلق تيدي بشأنها إلى درجة أنّه أضاف بعض الشّياطين إلى رسم جون المتغطرس في المطهر، ثمّ جعل مذاريهم أطول ممّا كانت عليه.

أمّا إيميلي فقد عادت إلى البيت وعلى وجهها علامات العزيمة. أكلت من عشائها ما استطاعت -وهو ليس بكثير، فوجه الخالة

إليزابيث خليقٌ بقطع شهيّتها تمامًا لو كانت لها شهيّة- ثمّ تسلّلت خارج المنزل من الباب الرّئيسي. كان ابن عمّها جيمي منهمكًا في حديقته، ولكنّه لم ينادِها معه، فقد أصبح المسكين غارقًا في لجّة من الأسى طيلة الوقت. وقفت إيميلي للحظةٍ أمام الرّواق ذي الأعمدة الإغريقية ونظرت إلى أيكة جون المتغطرس، تلك الأيكة الخضراء الممتلئة المتموّجة الرّائعة. هل ستُدنّس صباح يوم الاثنين وتغدو حطامًا منثورًا؟ تألّمت إيميلي لمجرّد التفكير في الأمر، فرمت بخوفها وتردّدها عرض الحائط وانطلقت تسارع في الطّريق. لمّا بلغت البوّابة، انعطفت يسارًا في الطّريق الأحمر الغامض الطّويل الّذي يمرّ بالجبل الأخّاذ. لم يسبق لها أن سلكت ذاك الطّريق المؤدّي مباشرة إلى كنيسة الصّليب الأبيض؛ توجّهت إيميلي إلى الأبرشيّة هناك لتتحدّث إلى الأب كاسيدي. كان الطريق إلى كنيسة الصّليب الأبيض يمتدّ على ميليْن، ولم تكن إيميلي في عجلة من أمرها لتقطعه، لا لجمال الطّريق وسراخسه المتمايلة مع الرّيح وأرانبه الصّغيرة، بل لأنّها تخشى ما ينتظرها في نهايته. بدأت تفكّر فيما ينبغي أن تقول، وكيف ستقوله؛ ولكن خانها فكرها الخلّاق. لم تتعامل يومًا مع الكهنة الكاثوليكيّين، ولم يكن لها أن تتخيّل كيفيّة الحديث إليهم أصلًا؛ بل كانوا يبدون لها أكثر غموضًا وإبهامًا من القُسوس. ماذا لو غضب منها الأب كاسيدي غضبًا شديدًا لأنّها تجرّأت على زيارته لطلب خدمة؟ لعلّ هذا السّلوك مشين، مهما كانت وجهة النّظر، ومن الأرجح ألّا يُجدي نفعًا. من الأرجح أيضًا أن يرفض الأب كاسيدي التّدخل في شؤون

جون المتغطرس، وهو كاثوليكيّ ورع، بينما لم تكن هي في نظره إلّا مهرطقة. ولكن إن كان لها أدنى حظٍّ لتدرأ الكارثة المُحيقة بالقمر الجديد، فهي على استعداد لمواجهة المجمع المقدّس بأكمله.

رغم الرّعب الّذي تملّكها والتّوتّر الّذي عصف بكيانها لم يخطر ببالها أبدًا أن تعود أدراجها. لم تندم إلّا على عدم ارتداء عقد الخرز الفينيسي، لعلّه كان يُبهر الأب كاسيدي.

لم يسبق لإيميلي أن زارت كنيسة الصّليب الأبيض، ولكنّها كانت تميّز الأبرشيّة حالما تراها -، فهي مبنى بديع موشًّى بالأشجار يقع حذو الكنيسة العظيمة البيضاء، ويعلو برجها صليبٌ ذهبيّ لامع، وفي أركانها أربعة أبراج صغيرة على كلٍّ منها ملاكٌ ذهبي. انبهرت إيميلي بجمالها الأخّاذ حينما سطعت عليها أشعّة الغروب، وتمنّت لو وُضعت مثلها على كنيسة معبد المياه البيضاء العارية، ولم تفهم لماذا يستأثر الكاثوليكيّون بجميع الملائكة. ولكن لم يكن بيدها متّسع من الوقت لحلّ هذا اللّغز، فها قد فتحت لها خادمة صغيرة رشيقة وتطلّعت إليها في انتظار سؤالها.

سألت إيميلي على عجل: «هل -هل الأب كاسيدي -موجود؟».

«أجل».

«هل -لي- أن -أراه؟».

فقالت الخادمة الصّغيرة: «تفضّلي». ومن الواضح أنّه لا يصعب مقابلة الأب كاسيدي، ولم يتطلّب الأمر طقوسًا غامضة مثلما ظنّت إيميلي، بل وشكّت حتّى في أنّه قد لا يُسمح لها برؤيته

بالمرّة. وأُخِذَت إلى غرفة محاطة بالكتب ثمّ تُركت هناك، بينما ذهبت الخادمة لتنادي الأب كاسيدي الّذي كان، على حدّ قولها، يعمل في الحديقة. *وهذه* من البوادر المشجّعة طبعًا؛ فإن كان الأب كاسيدي يُعنى بأشغال الحديقة، قد لا يكون سيّئًا في نهاية الأمر.

ألقت إيميلي حولها نظرةً فضوليّة. كانت في غرفة جذّابة، فيها مقاعد مريحة وصورٌ وأزهار. لا شيء فيها يُنذر بالخطر أو يخرج عن المألوف، ما عدا قطًّا ضخمًا أسود يقبع فوق إحدى خزائن الكتب، وكان بالفعل مخلوقًا عظيم الجثّة. لطالما عشقت إيميلي القطط، فهي تُشعرها بالأمان أينما كانت؛ ولكن لم يسبق لها أن رأت قطًّا من هذا القبيل، بمثل ذاك الحجم وتيْنك العينيْن الجريئتيْن الذّهبيّتيْن وكأنّهما جوهرتان ترصّعان وجهًا من المخمل الأسود. كان يبدو من فصيلة مختلفة تمام الاختلاف عن الهريْرات اللّطيفة اللّعوبة المُحترَمة. من المحال أن تجد مثل هذا الحيوان في منزل السّيد دير، وعادت آنذاك كلّ مخاوف إيميلي وتحفّظاتها إزاء الأب كاسيدي.

ثمّ دخل الأب كاسيدي، تعلو محيّاه ابتسامة من ألطف ما قد يكون. رمقته إيميلي بنظرتها الثّاقبة المعتادة–وقد تكون موهبةً أكثر ممّا هي عادة–، فلم تشعر بعد ذلك بأدنى ذرّة من الخوف حيال الأب كاسيدي. كان طويل القامة، عريض المنكبين، بنّي العينين والشّعر، على وجهه سمرةٌ عميقة نجمت عن عادته المزمنة بأن يمشي سافر الرّأس تحت لفح الشّمس القاسية، فغدا وجهه بدوره بُنّيًا. وفكّرت إيميلي في أنّه شبيه بجوزة ضخمة، جوزة بنّية سليمة ضخمة.

نظر إليها الأب كاسيدي وهو يصافحها، وكانت إيميلي آنذاك في إحدى طفرات جمالها؛ إذ أعطى الحماس وجنتيْها لونًا ورديًّا بديعًا، بينما أظهرت أشعّة الشّمس بريق شعرها الحريريّ الفاحم، ولاح في عينيْها غلس طفيف صافٍ، ولكن انصبّ اهتمام الأب كاسيدي على أذنيْها فانحنى إليهما. وللحظةٍ، تساءلت إيميلي في ذعر عمّا إذا كانت أذناها نظيفتيْن.

همس الأب كاسيدي في سرور: «أذناها مدبّبتان. لها أذنان مدبّبتان! كنت *متأكّدًا* أنّها جاءت مباشرةً من بلاد العجائب منذ رأيتها. اجلسي، أيّتها الحوريّة -إن كانت الحوريّات تجلس فعلًا-، وهاتي لي بآخر الأخبار من بلاط تيتانيا».

وها هي إيميلي تجد نفسها في مكانها الطّبيعيّ. فقد كان الأب كاسيدي يتحدّث لغتها، ويتكلّم بصوتٍ ليّن، عميق، ويدغم حروف كلماته كما يفعل الإيرلنديّون. ولكنّها هزّت رأسها بحزنٍ، فقد كان عبء مهمّتها لا يسمح لها بتقمّص دور سفيرة بلاد العجائب.

قالت: «ما أنا إلّا إيميلي ستار من القمر الجديد»؛ ثمّ سرعان ما أردفت بقولها -لكي ترفع اللُّبس ولا تتستّر تحت ما ليست عليه- «وأنا بروتستانتية».

فقال الأب كاسيدي: «ويا لك من بروتستانتية صغيرة رائعة. ولكنّكِ فعلًا خيّبتِ ظنّي بعض الشّي. فأنا تعوّدت على البروتستانتيين -والأحياء المجاورة مليئة بهم-، أمّا الحوريّات فقد مرّت مائة عامٍ منذ زارتني إحداها في بيتي».

حدّقت فيه إيميلي، لا ريب في أنّ الأب كاسيدي لم يبلغ مائة سنة بعدُ، بل يبدو أنّه لم يتجاوز الخمسين. ولكن ربّما يعيش الكهنة الكاثوليكيّون أكثر من سائر النّاس. تاه على فمها التّعبير فقالت متعثّرة: «أرى أنّك تملك قطًّا».

فقال الأب كاسيدي: «خطأ». وهزّ رأسه وتأوّه في أسى قائلًا: «هنالك قطٌّ يملكني».

كفّت إيميلي عن محاولة الإلمام بكلّ ما يقوله الأب كاسيدي. فهو، وإن كان لطيفًا، عصيٌّ على الفهم؛ وما كان لها إلّا أن تستسلم، ثمّ عليها أن تمضي قدمًا في مهمّتها.

سألته بخجلٍ: «أنت مثل القسّيس تقريبًا، أليس كذلك؟» لم تكن تعلم إن كان الأب كاسيدي يُحبّذ تسمية القسّيس.

فأجاب بسرور: «تقريبًا. وكما ترين، لا يمكن للقسوس والكهنة أن يُؤدّوا قسمهم بمفردهم. لذلك يجلبون معهم قططًا ليكلّفوها بالمهمّة، ولم أرَ قطًّا يؤدّيها برفقٍ وفعاليّة مثل «الواذْ»».

سألت إيميلي: «هل هكذا تسمّيه؟» ونظرت إلى القطّ المهيب، فبدا لها أنّه يكاد لا يجوز الحديث عنه أمامه تمامًا.

«هكذا سمّى نفسه. أمّي لا تحبّه لأنّه يسرق منها القشدة. وفي الواقع، لا أبالي بذلك، ولكن تزعجني الطّريقة الّتي يلعق بها فكّيه بعد الأكل. أوه، يا واذْ، زارتنا حوريّة اللّيلة. فلتتحمّس ولو مرّة، أرجوك، يا للنّشاط والحيويّة».

ولكنّ الواڤ رفض أن يتحمّس؛ وغمز إلى إيميلي غمزة جريئة.

«هل لديك فكرة عمّا يدور في ذهن القطّ، يا حوريّة؟».

غريبةٌ هي أسئلة الأب كاسيدي. ولعلّها كانت تروق لإيميلي، لولا قلقها الشّديد. وفجأة، انحنى الأب كاسيدي نحوها عبر المائدة وقال:

«قولي لي الآن، ما الّذي يضايقك؟».

فأجابت إيميلي بشجنٍ: «أنا حزينة جدًّا».

«مثلك مثل عددٍ من الأشخاص الآخرين. جميعهم حزينون بالفطرة، ولكن يجب ألّا يحزن من لديهم آذان مدبّبة. وعلى الحزن أن يقتصر على البشر».

«أوه، أرجوك -أرجوك-» وتساءلت إيميلي عمّا ستناديه. هل ينزعج إن نادته «أبي» وهي بروتستانتية؟ ولكن عليها أن تجازف بالأمر «أرجوك، أبي كاسيدي، إنّني في محنة أليمة وجئت لأسألك *معروفًا*».

ثمّ قصّت عليه إيميلي الحكاية بأكملها -الضّغينة القديمة بين آل موراي وآل سوليفان، وصداقتها السّابقة مع جون المتغطرس، والتّفاحة الحلوة الكبيرة، وتبعاتها الوخيمة، وتهديدات جون المتغطرس بالانتقام. أصغى إليها الواڤ والأب كاسيدي بالخشوع ذاته إلى أن فرغت من الحديث. ثمّ غمزها الواڤ، بينما شبك الأب كاسيدي أصابعه السّمراء الطّويلة، وقال: «همممفف».

(لاحظت إيميلي في قرارة نفسها: «إنّها المرّة الأولى الّتي أسمع فيها أحدًا يقول «همممفف» في غير صفحات الكتب).

ثمّ كرّر الأب كاسيدي: «همممفف. وأنتِ تريدينني أن أضع حدًّا لهذا العمل الفظيع».

فقالت إيميلي: «لو هذا في وسعك. آه، سكون رائعًا لو استطعت التّدخّل. هل ستفعل؟».

ضمّ الأب كاسيدي أصابعه بمزيد من العناية.

«للأسف، يصعب عليّ استغلال نفوذي الدّيني لمنع جون المتغطرس عن التّصرف كما يحلو له في ملكه المشروع، يا حوريّة».

لم تفهم إيميلي مسألة النّفوذ ولكنّها أدركت أنّ الأب كاسيدي رفض أن يؤثّر في جون المتغطرس بوصفه رجلًا من رجال الكنيسة. لا أمل في الفرج، إذن. عجزت آنذاك إيميلي عن تمالك دموع خيبتها.

فتوسّل الأب كاسيدي قائلًا: «أوه، أرجوك صغيرتي، لا تبكي. الحوريّات لا تبكي -لا تستطيع. وسينفطر قلبي لو عرفت أنّكِ لست من سلالة الكائنات العجيبة. لكِ أن تسمّي نفسك ابنة القمر الجديد، وابنة أي ديانة تودّينها، ولكن تبقى الحقيقة أنّكِ ابنة العصر الذّهبي، وتنحدرين من الآلهة القديمة. ولذلك يتعيّن عليّ أن أنقذ خميلتكِ الخضراء الصّغيرة النّفيسة».

حدّقت فيه إيميلي.

واصل الأب كاسيدي قائلًا: «أظنّ أنّ الأمر ممكن. أظنّ أنّه يمكنني الذّهاب إلى منزل جون المتغطرس وأحدّثه من القلب إلى القلب، عليّ أن أعيده إلى صوابه. فنحن صديقان مقرّبان؛ وهو إنسان متعقّل متى عرفت كيف تخاطبينه -أي بمدحه في حدود المعقول. سأطرح عليه الموضوع، لا بصفتي كاهنًا أبرشيًّا، بل إنسانًا يخاطب أخاه الإنسان؛ وسأشرح له أنّه لا يليق برجل إيرلنديّ محترم أن يحمل ضغينة إزاء النّساء، وأنّه لا يُعقل أن تتسبّب مجرّد عداوة في اجتثاث تلك الأشجار الحلوة العتيقة الّتي استغرق نموّها نصف قرنٍ تقريبًا، ولن تُعوّض بعد ذلك أبدًا. بل يجدر بمن يقطع أشجارًا من هذا القبيل أن يُشنق على مشنقة أعلى من مشنقة هامان[1] تُعدّ له من خشب تلك الأشجار».

(عزمت إيميلي في قرارة نفسها على أن تكتب تلك الجملة الأخيرة في كرّاس ابن العمّ جيمي حالما تعود إلى البيت).

وختم الأب كاسيدي قائلًا: «ولكنّني لن أقول *ذلك* لجون المتغطرس. أجل يا إيميلي ابنة القمر الجديد، أظنّ أنّه يمكننا الاطمئنان إلى أنّ أيكتك لن تُقطَع».

غمرت قلب إيميلي فرحةٌ عارمة؛ فقد وثقت، بطريقة ما، ثقة عمياء في الأب كاسيدي، وأيقنت بأنّه لن يصعب عليه التّلاعب

(1) هامان الشرّير وزير في الإمبراطوريّة الفارسيّة ذُكر في الكتاب العبريّ. كان قد دبّر مؤامرةً لشنقِ يهوديٍّ اسمه مردخاي على مشنقة طولها خمسة وسبعون قدمًا، فأمر الملك بشنق هامان نفسه عليها.

بجون المتغطرس. فقالت بحرارة: «آه، لا أدري كيف أوفّيك ما يجب من الشّكر لجميلك!».

«هذا صحيح، فلا تبدّدي أنفاسك في المحاولات عبثًا. والآن أخبريني. هل مازال منكِ نُسخ أخرى؟ وكم مضى على وجودك بالحياة؟».

«أنا في الثانية عشرة من عمري. وليس لي إخوة أو أخوات، وأظنّ أنّه يجدر بي الآن أن أعود إلى البيت».

«لن تغادري قبل أكل لقمة».

«أوه، شكرًا لك، ولكنّني تناولت العشاء».

«منذ ساعتيْن، وقطعتِ بعده مسافة ميليْن. لن أقبل منكِ نقاشًا. أنا آسف لأنّه ليس لي رحيق أو أمبروزيا لأقدّمها لكِ-مثلما تأكل الحوريات- ولا أملك حتّى وعاء من ضوء القمر. ولكن تتفرّد والدتي بإعداد ألذّ كعكة برقوق في كامل جزيرة الأمير إدوارد، ولديْنا أيضًا قشدة رائعة من حليب البقر. انتظري هنا قليلًا، ولا تخافي من الوادْ، فهو يلتهم البروتستانتيين الصّغار الطِّراء احيانًا، ولكنّه لا يتدخّل في الجنّيات أبدًا».

عاد الأب كاسيدي برفقة والدته، وهي تحمل بين يديها طبقًا. كانت إيميلي تتوقّع أن ترى امرأة ضخمة سمراء مثله، ولكنّها كانت ضئيلةً إلى حدّ مدهشٍ، ولها شعرٌ حريري أبيض كالثّلج، وعينان خفيفتا الزُّرقة، ووجنتان متورّدتان.

سأل الأب كاسيدي: «أليست أجمل الأمّهات وألطفهنّ؟ لا ألبث أتأمّلها بشغف. وبالطّبع» خفت صوت الأب كاسيدي إلى حدّ الوشوشة، وقال: «فيها شيء من الغرابة. كم مرّة أراها تتوقّف عن تنظيف المنزل وتنصرف إلى الغاب لقضاء العشيّة، وأشكّ في أنّ لديها بعض الرّوابط مع الحوريات، مثلك أنتِ».

ابتسمت السّيدة كاسيدي وقبّلت إيميلي قائلةً إنّ عليها أن تذهب لإنهاء تصبير المأكولات، ثمّ غادرت.

«والآن اجلسي هنا يا حوريّة، وصيري إنسانة لعشرة دقائق لكي نتقاسم هذه الوجبة الخفيفة اللّذيذة».

كانت إيميلي جائعة *بالفعل*، ويا له من شعور مُريح بعد أن فقدت شهيّتها لأسبوعيْن. وكانت كعكة برقوق السّيدة كاسيدي في المستوى الّذي تحدّث عنه ابنها الكاهن، كما أنّه لم يبالغ في ما قال عن قشدة حليب البقر. تفطّن الأب كاسيدي إلى إيميلي وهي شاخصة فيه، فسألها فجأة: «والآن، ما رأيك فيّ؟».

احمّرت وجنتا إيميلي، فقد كانت تتساءل عمّا إذا ستجرؤ على طلب خدمة أخرى من الأب كاسيدي.

وقالت: «أرى أنّك طيّبٌ للغاية».

وافقها الأب كاسيدي قائلًا: «أجل، أنا فعلا طيّب للغاية. بل أنا طيّب لدرجة أنّني سأفعل ما تريدينه منّي، لأنّني أشعر بأنّ لديكِ طلبًا آخر».

«إنّني في محنة منذ بداية الصّيف». كانت إيميلي في غايةٍ من الجدّيّة، وواصلت: «فأنا في الواقع شاعرة».

«يا ربّ السّماوات! المسألة خطيرةٌ *حقًّا*. لا أدري إن كنت سأنفعك في شيء. كم مضى على اكتشافك هذه الحالة؟».

فسألت إيميلي متجهّمة: «هل تسخر منّي؟».

ابتلع الأب كاسيدي شيئًا ما، ولم يكن كعكَ البرقوق.

«حاشا وكلّا! لقد تفاجأت فحسبُ. أكاد لا أصدّق أنّني في حضرة آنسة من القمر الجديد -وحوريّة- وشاعرة في آنٍ واحد، وهذا كثير بالنّسبة إلى كاهن متواضعٍ مثلي. فلتأخذي شريحة أخرى من الكعكة وتحدّثيني عن شعرك».

«الأمر كالآتي: أنا بصدد كتابة ملحمة».

فانحنى إليها الأب كاسيدي فجأة وقرصها من معصمها.

ثمّ فسّر قائلًا: «أردت التّأكّد من أنّك حقيقيّة. أجل، أجل، أنتِ بصدد كتابة ملحمة، واصلي. أظنّ أنّني استرجعت أنفاسي الآن».

«بدأتها في الرّبيع الماضي، وفي بداية الأمر، سمّيتها *السّيدة البيضاء*، أمّا الآن فقد غيّرت العنوان بـ*فتاة البحر*. ألا يبدو لك هذا العنوان أفضل؟».

«أفضل بكثير».

«أتممت ثلاثة أناشيد إلى حدّ الآن، وعجزت عن المواصلة لأنّ

ثمّة شيءٌ ما لا أعرفه ولم أتمكّن من العثور عليه. وقلقت بشأنه أيّما قلق».

«وما هو؟».

فقالت إيميلي بعد أن التهمت شيئًا من الكعكة على عجلٍ: «تروي ملحمتي قصّة فتاة حسناء ذات حسب ونسب اختُطفت من والديْها الحقيقيّيْن منذ نعومة أظفارها، ونشأت في كوخ حطّاب».

همس الأب كاسيدي: «إحدى المؤامرات الأساسيّة السّبعة في العالم».

«عفوًا؟».

«لا شيء. مجرّد عادة سيّئة بأن أفكّر جهرًا. واصلي».

«كان لديها حبيب عالي النّسب، ولكن رفضت عائلته زواجه منها لأنّها ابنة حطّاب».

«مؤامرة أخرى من المؤامرات السّبعة، آسف».

«أرسلوه إلى الأرض المقدّسة لخوض حرب صليبيّة، ثمّ بلغهم خبر مقتله، وانضمّت إديثا -اسمها إديثا- إلى دير الرّاهبات».

توقّفت إيميلي لتناول قطعة من كعكة البرقوق، فأخذ الأب كاسيدي بزمام الحديث قائلًا:

«ثمّ عاد حبيبها حيًّا يُرزق، حاملًا على جسده كدمات الكُفّار، وسقط القناع عن حقيقة نسبها بعد أن باحت بها الممرّضة العجوز على فراش موتها، وبرهنت عليها شامة في ذراع الفتاة».

فشهقت إيميلي مذهولةً، وقالت: «كيف عرفت؟».

«أوه، لقد حزّرت. لديّ موهبة في حلّ الألغاز. ولكن ما المشكلة في كلّ ذلك؟».

اعترفت إيميلي: «لا أدري كيف أخرجها من دير الرّاهبات. فكّرت في أنّك قد تجد لذلك وسيلة».

شبك الأب كاسيدي أصابعه مجدّدًا.

«فلتتنمعّن في الأمر. إنّ المسألة الّتي طرحتِها ليست بالهيّنة. كيف تجري الأمور؟ صارت إديثا راهبة، لا لرغبتها في تكريس حياتها للدّين، بل لأنّها تظنّ أنّها فقدت حبيبها وانفطر قلبها. ولا تحرّر الكنيسة الكاثوليكيّة راهباتها من نذورهنّ لخطأ تافه من هذا القبيل. لا، لا، يجب إيجاد سبب أفضل. هل إديثا وحيدةُ والديْها الحقيقيّيْن؟».

«أجل».

«إذن فالأمر سهل، لو كان لها إخوة أو أخوات لكان عليك قتلهم جميعًا، وستتبلبل الأمور. حسنًا، إذن هي الوريثة الوحيدة لعائلة نبيلة في نزاعٍ مع عائلة نبيلةٍ أخرى منذ سنوات، عائلة حبيبها. هل تعلمين ما معنى نزاع؟».

فقالت إيميلي باستخفاف: «طبعًا. وقد ذكرت كلّ ذلك في القصيدة سلفًا».

«جميل جدًّا. لقد قسّم هذا النّزاع المملكة إلى شقّيْن، ولا يمكن جبر هذا التشقّق إلّا بمصاهرة بين عائلتيْ كابولي ومونتاغ».

«هذان ليسا باسميْهما».

«لا يهمّ. ها قد رقى الأمر إذن إلى مستوى قضيّة وطنيّة ذات تبعات واسعة النّطاق، وبالتّالي يتوجّب إحالة المسألة إلى الحبر الأعظم»[1]. واصل الأب كاسيدي وهو يهزّ رأسه في اتّزان: «وهدفكِ هو الحصول على إبراءٍ من روما».

قالت إيميلي: «يصعب إدراج كلمة «إبراء» في قصيدة».

«لا شكّ في ذلك، ولكن على الفتيات اللّاتي يرغبن في كتابة قصائد ملحميّة، ويصفنَ مواقف وتصرّفات حدثت منذ مئات السّنين، ويخترن شخصيّات ذات ديانة يجهلنها، أن ينتظرن الوقوع في بعض المطبّات».

فردّت إيميلي بسرور: «أوه، أظنّ أنّني سأجد منها مخرجًا، وأنا ممتنّة لك خالص الامتنان. لن تدرك العبء الّذي أزحته عن كاهلي. سوف أنهي القصيدة في الأسابيع القادمة، بعد أن عزفت عنها طيلة الصّيف. ولكنّني كنت مشغولة طبعًا؛ فقد اخترعنا، أنا وإيلسي برنلي، لغةً جديدة».

«اخترعنا... ماذا؟ هل قلتِ *لغة جديدة*؟».

«أجل».

«وما خطب لغتنا؟ ألا تفي بالغرض في نظركِ، أيّتها المخلوقة الصّغيرة الغامضة؟».

(1) الحبر الأعظم هو البابا رئيس الكنيسة الكاثوليكيّة.

«أوه، بلى. ليس *هذا* السّبب وراء اختراعنا لغةً جديدة. كلّ ما في الأمر هو أنّ ابن عمّي جيمي انتدب عددًا من الصبيان الفرنسيّين لمساعدته على زراعة البطاطس. وكان عليّ أن أساعده أيضاً، فجاءت إيلسي لترافقني. انزعجنا كثيرًا كلّما تكلّم الصبيان أمامنا بالفرنسيّة ولم نفهم منها حرفًا، وهم يفعلون ذلك عن قصدٍ لإثارة غيظنا. ثرثرة فارغة! فقرّرنا، أنا وإيلسي، أن نبتكر لغة جديدة لا يفهمونها هُم. وها نحن قد قطعنا فيها شوطًا لا بأس به؛ وسنتمكّن منها ريثما يحلّ وقت جمع البطاطس، لكي نتواصل دون أن يفهم الصبيان كلمة ممّا نقول. سيكون الأمر في غاية من المتعة!».

فقال الأب كاسيدي: «لا ريب لي في ذلك. ولكن كيف تتكبّد فتاتان عناء اختراع لغة جديدة لمجرّد الانتقام من ثلّة من الأولاد الفرنسيّين... هذا ممّا يتجاوز إدراكي». تنهّد في يأس ثمّ أضاف: «اللهّ أعلم ما ستفعلانه عندما تكبران. ستصيران من الثّوّار الحُمر، وكان الرّب في عون كندا».

«أوه، لا ضرر فيما نفعل، نحن نتسلّى فحسب. يجنّ جنون زميلاتنا في المدرسة حين يسمعننا نتحدّث لغتنا دون أن يفهمن منها شيئًا، وصار بوسعنا أن نفصح عن أسرارنا أمامهنّ».

«تلك هي الطّبيعة البشريّة، وأُدرك جيّدًا أنّ اللّعبة مسلّية. فلتُسمعيني شيئًا من لغتكِ».

فقالت إيميلي بلسان طلْق: «نات ميلان ست دولمان بوت تا مطمر الفأر فرناس تا بو ليتانوس. يعني هذا أنّني «سأذهب في

الصّيف القادم إلى غابة مطمر الفأر لجمع الفراولة». صرخت ذلك إلى إيلسي عبر السّاحة منذ أيام وقتَ الفُسحة، ويا ليتك ترى كيف حدّق فينا الجميع».

«حدّقوا، تقولين؟ ليس ذلك بغريب. فها أنا أشعر بعينيّ المسكينتيْن العجوزتيْن على وشك الوقوع من وجهي. أسمعيني المزيد».

«مو ترال لي ميّت سيب أد لي مو تريني. مو بيترال سيب مو بيتريني داس ستن ميّت إي تينغ سيترا. هذا يعني أنّ «أبي ميّت وأمّي أيضًا. وجديّ وجدّتي ميّتان منذ زمن طويل». لم نجد بعدُ كلمةً تعني «ميّت». أظنّ أنّني سأشرع في كتابة قصائدي بلغتنا الجديدة عمّا قريب، لكي لا تفهمها خالتي إليزابيث حتّى ولو عثرت عليها».

«وهل لديك مؤلّفات أخرى غير الملحمة؟»».

«آه، طبعًا -ولكنّها نصوص قصيرة فقط -ولي منها العشرات».

«همم. وهلّا سمحتِ لي بأن أسمع واحدة منها؟»».

تهلّل وجه إيميلي لهذا الطّلب، إذ لم تكن تمانع عرض مؤلّفاتها الثّمينة على الأب كاسيدي.

فقالت وهي تتنحنح في خيلاء: سأتلو عليك آخر قصيدة كتبتها، وعنوانها «أحلام المساء»».

أصغى لها الأب كاسيدي بانتباه شديد، وبعدما انقضى المقطع الأوّل، طرأ على وجهه الأسمر تغيّر جليّ، وأخذ يضمّ أطراف أصابعه.

ولمّا فرغت إيميلي من إلقائها، أطرقت عينيها أرضًا وانتظرت مرتجفة الفرائص. ماذا لو أخبرها الأب كاسيدي أنّ قصيدتها سيّئة؟ لا، لن تبلغ به الوقاحة إلى هذه الدّرجة. ولكن ماذا لو مازحها مثلما فعل مع ملحمتها؟ ستدرك جيّدًا ما يقصده *آنذاك*.

لم ينطق الأب كاسيدي بكلمة واحدة، بل أطال صمت التّشويق وكان الأمر عسيرًا على إيميلي. كانت تخشى ألّا يُثني عليْها ولا يرغب في انتقادها مراعاة لمشاعرها. وفي لحظة حاسمة، بدت لها قصيدة «أحلام المساء» في منتهى الرّداءة، وتساءلت كيف كانت لها الجرأة الكافية لتقرأها إلى الأب كاسيدي.

هي كانت رديئة *بالفعل*، كان الأب كاسيدي يعلم ذلك جيّدًا. ورغم ذلك، فإنّ النّسق والقوافي لا غبار عليهما بالنّسبة إلى طفلة في سنّها؛ وكان هنالك بيتٌ -بيتٌ واحد فحسب-، «ضياء نجوم تحاكي الذّهب»، كسر من أجله الأب كاسيدي صمته قائلًا:

«واصلي، واصلي كتابة الشّعر».

قالت إيميلي منقطعة النّفس: «*تقصد...؟*».

«أقصد أنّك ستحقّقين إنجازًا ما في نهاية المطاف، إنجازًا ما-لا أدري ما سيكون بالضّبط-، ولكن واصلي... واصلي».

كادت إيميلي تبكي من فرط سعادتها. كان ذلك أوّل مديح تتلقّاه بشأن نصوصها بعد رحيل والدها. وقد يكون مديح الوالد لابنته مبالغًا فيه. أمّا *هذا*، فقد كان مختلفًا تمام الاختلاف. وطيلة كفاح إيميلي في سبيل الاعتراف بموهبتها وأعمالها، لم تنسَ يومًا

كلمة «واصلي» الّتي قالها الأب كاسيدي، ولا النّبرة الّتي نطقها بها.

قالت له متأسّفة: «خالتي إليزابيث توبّخني لكتابة الشّعر، وتقول لي إنّ الآخرين سيظنّون أنّني بلهاء مثل ابن عمّي جيمي».

«هكذا هو الطريق إلى الإبداع، محفوف دومًا بالعقبات. ولكن كُلي قطعة أخرى من الكعكة، هيّا، ليظهر فيك جانبك البشري».

«في، ميري تي. أو ديل ري دولمان كوزي أمان ري سن ريتر. *هذا* يعني «لا، شكرًا لك. عليّ أن أعود إلى البيت قبل أن يحلّ الظّلام».

«سأقودك إلى بيتك».

«أوه، لا، لا. هذا من لطفك وذوقك». -كانت لغة إيميلي الأولى تفي بالغرض آنذاك- «ولكنّني أفضّل أن أتمشّى. إنّه، إنّه... تمرين رياضيّ جيّد».

فردّ الأب كاسيدي وقد لمع في عينيْه بريق: «يعني هذا أنّه علينا أن نكتم السّر عن المرأة العجوز؟ مع السّلامة، وأتمنّى لكِ ألّا تري في مرآتك إلّا وجهًا سعيدًا!».

في طريق العودة إلى البيت، لم تشعر إيميلي بالإرهاق من شدّة فرحها. كانت في قلبها فقاعة من الحبور، فقاعة لامعة متلألئة رائعة. وعندما بلغت قمّة التّل الكبير ونظرت إلى منزل القمر الجديد، كان الحبّ والرّضا ملء عينيْها. كم كان جميلًا وهو رابضٌ في عتمة الأشجار الهرمة، وقد رسمت قمم شجر التّنّوب الشّمّاء أشباحًا

أرجوانيّة في شمال غربِ سماء ورديّة مُذهّبة؛ وكان وراءه معبد المياه يغرق في أحلام فضّية، بينما طوت سيّدة الرّياح أجنحتها الخفّاشيّة الشّفّافة في جوف وادٍ غمرته أشعّة الغروب، وتغمّد العالمَ وشاحٌ من السّكينة نزل عليه نُزول البَرَكَة. أدركت إيميلي آنذاك أنّ كلّ شيء سيكون على ما يُرام، وأنّ الأب كاسيدي سيجد حلًّا بطريقة أو بأخرى.

وقد قال لها «واصلي».

صداقةٌ بعد جفاء

في صباح يوم الاثنين، أصغت إيميلي بحذر شديد، ولكن «لم يُسمع منحتٌ ولا معولٌ ولا أداةٌ من حديد»[1] في أيكة جون المتغطرس. وفي مساء اليوم ذاته، كانت إيميلي في طريق عودتها إلى المنزل حينما تجاوزها جون المتغطرس نفسه بعربته، ثمّ توقّف وخاطبها للمرّة الأولى منذ ليلة حادثة التّفاحة، فسألها برفقٍ:

«هلّا صعدتِ معي، آنسة إيميلي من القمر الجديد؟».

صعدت إيميلي، وهي تشعر بأنّها ارتكبت حماقة. ولكن بدا لها جون المتغطرس لطيفًا وهو يطقطق بلسانه للحصان.

«إذن يبدو أنّك سلبت قلب الأب كاسيدي سلبًا، «ألطف فتاة صغيرة رأيتها في حياتي»، قال لي. كان يجدر بك أن تتركي الكاهن المسكين في حال سبيله».

رمقته إيميلي بنصف نظرة، فلم يبدُ لها مستاء.

وواصل قائلًا: «لقد أوقعتني في موقف حرج للغاية. لي كبرياء مثل أيّ فردٍ منكم، آل موراي من القمر الجديد، وقد زعزعتني

(1) سفر الملوك الأوّل 6:7.

خالتك إليزابيث بما قالته لي. لي معها عدد من الحسابات القديمة الّتي أودّ أن أصفّيها، فظننت أنّني سأنتقم بقطع الأيكة. وها أنت ذي تقصدين كاهني وتشين بي إليه، والآن لن أجرؤ على قطع حطبة واحدة منها لأدفئ جسدي المرتجف دون أن أطلب إذنًا من البابا».

فقالت إيميلي وهي بالكاد تلتقط أنفاسها: «أوه، سيد سوليفان، هل أنتَ حقًّا ستترك الأيكة في سلام؟».

«الأمر يتوقّف عليكِ، آنسة إيميلي من القمر الجديد. لا يمكنك أن تنتظري الكثير من التّواضع ممّن يُدعى جون المتغطرس. لم أُلَقّب هكذا بسبب خنوعي».

«ماذا تريدني أن أفعل؟».

«أوّلا، أريدك أن ترمي حادثة التّفاحة في طيّ النّسيان. وبطبيعة الحال، أودّك أن تزوريني وتتحدّثي إليّ مثلما فعلت في الصّائفة الماضية. لقد اشتقت إليك بالفعل، أنتِ وتلك الطّاقة المتفجّرة إيلسي الّتي كفّت بدورها عن زيارتي لأنّها تظنّ أنّني أسأت معاملتك».

فأجابت إيميلي في تردّد: «طبعًا سأزورك لو سمحت لي بذلك خالتي إليزابيث».

«قولي لها إنّ الأيكة سيُقتلعُ -لو رفضت- كلُّ غصن فيها. لن يسعها إلّا الإذعان بعد ذلك، ولي طلب آخر. يجب أن تلتمسي منّي حفظ الأيكة بكلّ خنوع وأدب. وإن أتقنت ذلك فلن ألمس ولو شجرة واحدة من هنا فصاعدًا. وإن لم تتذلّلي بما فيه الكفاية، فستُمحق الأيكة بتدخّل الكاهن أو بعدمه»، هكذا ختم جون المتغطرس كلامه.

استجمعت إيميلي كلّ ما لديها من قدرات ومناورات ودهاء، وضمّت كفّيها أمامها، ثمّ رفعت عينيها إلى جون المتغطرس مرخية أهدابها الطّويلة، وانفرج فمها، شيئًا فشيئًا، عن أعذب ما لديها من ابتسامات، وهي في ذلك خبيرة.

وتضرّعت إليه قائلة: «من فضلك يا سيّدي جون المتغطرس، هلّا تركت لي تلك الأيكة اللّطيفة العزيزة على قلبي؟».

فأزاح جون المتغطرس قبّعته اللّبادية المتغضّنة.

«سأفعل بلا شكّ. على الرّجل الإيرلندي المحترم أن يفعل ما تطلب منه السّيدات. وتلك نقطة ضعفنا، فنحن تحت رحمة التّنانير. ولو كنت جئتني من ذي قبل وفاتحتني بالأمر لما اضطررت أن تذهبي إلى الصّليب الأبيض. ولكن عليك الآن أن تلتزمي بما تعهّدت به. لقد نضجت الحمراوات وستنضج المرقّطة عمّا قريب. أمّا الجرذان فقد ماتت كلّها».

وانطلقت إيميلي إلى مطبخ القمر الجديد في لمح البصر.

«خالتي إليزابيث، لن يقطع جون المتغطرس الأيكة -هو نفسه أخبرني بذلك- ولكن عليّ أن أزوره من حين إلى آخر -إن لم تمانعي».

قالت الخالة إليزابيث: «أظنّ أنّه سواءٌ عليك أوافقت أم لم أوافق». ولكن لم يكن صوتها بحدّته المعتادة. لئن لم تقرّ بمدى ارتياحها للخبر الّذي زفّته إليها إيميلي، فقد لانت تصرّفاتها على نحوٍ ملحوظ، وواصلت: «هنالك رسالة لكِ. وأريد أن أفهم ما يعني ذلك».

تناولت إيميلي الرّسالة، كانت تلك أولى رسالة حقيقيّة تتلقّاها من البريد، واختلج قلبها فرحًا بها. كُتب على ظهرها بحروف غليظة سوداء عنوان «الآنسة إيميلي ستار، القمر الجديد، معبد المياه». ولكن، «لقد فتحتِها!» صاحت إيميلي مستنكرة.

«طبعًا فتحتها، لن تتلقّي رسائل خارجة عن رقابتي يا آنسة. وما أريد أن أعلمه الآن، ما الّذي دفع بالأب كاسيدي إلى مراسلتك، وكتابة هراء من هذا القبيل؟».

لمّا أدركت إيميلي أنّ الأقنعة قد سقطت، اعترفت قائلة: «ذهبت لأقابله يوم السّبت، وسألته إن كان في وسعه أن يثني جون المتغطرس عن قطع الأيكة».

«إيميلي-بيرد-ستار!».

فهتفت إيميلي: «لقد أخبرته بأنّني بروتستانتية، وكان متفهّمًا جدًّا في هذا الصّدد. ثمّ إنّه لا يختلف عن سائر النّاس، وأعجبني أكثر من السّيد دير».

لم تناقش معها الخالة إليزابيث أكثر ممّا فعلت، ولم يبدُ لها أنّ هنالك ما يمكن إضافته، فسُرعان ما تُغفَر لحامل البشائر خطاياه. واكتفت بأن رمت إيميلي بنظرة حادّة، وكانت الفتاة أسعد من أن تبالي بمثل تلك النّظرات. جلست برسالتها حذو روشن السّقيفة، وأخذت ترمق الرّموز والطابع البريديّ على الظّرف بإعجاب قبل أن تجذب منه ورقة الرّسالة.

كتب الأب كاسيدي: «يا دُرّة الدّرر إيميلي،

«لقد التقيت بصديقنا المتغطرس وأظنّ أنّ عرينك الأخضر من بلاد العجائب سيظلّ معقلًا آمنًا لجولاتك اللّيليّة تحت ضوء القمر. أعلم أنّك *ترقصين* هناك بين أشعّة القمر حين يغطّ البشر في سبات عميق. أظنّ أنّه سيتعيّن عليك أن تطلبي بنفسك من السّيد سوليفان إعفاء تلك الأشجار، ولكنّك ستجدين فيه آذانًا صاغية. الأمر كلّه يكمن في الخبرة واختيار الوقت المناسب من أطوار القمر. كيف حال الملحمة واللّغة الجديدة؟ آمل أنّكِ لم تجدي صعُوبة في تحرير ابنة البحر من نذورها. كوني دومًا صديقة وفيّة لكلّ الحوريّات الخيّرات، ولـ «صديقك المُعجب بك،

«*جايمس كاسيدي*.

«تذييل: يرسل لك الوادْ تحيّة إجلال. هل ثمّة في لغتكِ كلمة تعني «القطّ»؟ من المُحال أن تجدي كلمة قِطَطيّة أكثر من «قطّ»، أليس كذلك؟».

نشر جون المتغطرس قصّة استجداء إيميلي بالأب كاسيدي على مسمع القاصي والدّاني، وتفكّه بها باعتبارها من أطرف ما حدث له من نوادر. قالت رودا ستيوارت إنّها تعرف جيّدًا مدى جُرأة إيميلي ستار، بينما علّقت الآنسة براونيل بأنّها لا تستغرب *شيئًا* ممّا قد يندّ عن إيميلي ستار. وأعرب الدّكتور برنلي عن شدّة إعجابه بها فلقّبها مرّة أخرى بالشّيطانة الصّغيرة، وأشاد بيري بجسارتها، فيما هنّأ تيدي نفسه باقتراحه الفكرة عليها. وفيما تجلّدت الخالة إليزابيث، أقرّت الخالة لورا بأنّه كان يمكن للأمر أن يكون أسوأ، ولكن لا

شيء أدخل البهجة على قلب إيميلي مثل ردّ فعل ابن عمّها جيمي، إذ قال لها: «كانت حديقتي على وشك أن تهلك، وقلبي على وشك أن ينفطر. الفضل كلّ الفضل لكِ أنت، يا فتاتي الصّغيرة الطّيبة، فأنتِ الّتي أنقذت الموقف».

وبعد مضيّ شهر، ذهبت إيميلي يومًا إلى مطمر الفأر مع الخالة إليزابيث لأخذ قياس معطف شتويّ، فقابلتا الأب كاسيدي في متجر. انحنت له الخالة إليزابيث في احترام شديد، بينما مدّت له إيميلي يدًا نحيلة.

همس الأب كاسيدي: «هل حصلت على إبراء من روما؟».

قام صراعٌ بين نسختيْن من إيميلي، إذ فزعت إحداهما خشية أن تسمعه الخالة إليزابيث وتظنّ أنّها بصدد عقد صفقة سرّية مع البابا، وهذا ما لا يليق بأتباع الكنيسة المشيخيّة المخلصين، ولا سيّما إذا كانوا ينتسبون إلى آل موراي من القمر الجديد من جهة الأمّ. أمّا الأخرى فقد ثملت بلذّة إزاحة الغموض وفكّ طلاسم الألغاز، فأومأت برأسها بهيبةٍ، وتبيّن في عينيْها الرّضا.

أجابته همسًا: «لم أجد في ذلك أيّة صعوبة».

فقال الأب كاسيدي: «حسنًا. أتمنّى لكِ حظًّا سعيدًا، وأتمنّاه لك بكلّ ما أوتيتُ من قوّة. مع السّلامة».

قالت إيميلي: «وداعًا»، وقد بدت لها الكلمة أوقعَ في سياق حفظ الأسرار الدّفينة. ظلّ وقع تلك المقابلة نصف المسروقة يرنّ فيها طيلة طريق عودتها إلى المنزل، فشعرت وكأنّها غدت بدورها

بطلة ملحمة. لم ترَ الأب كاسيدي لسنواتٍ، فقد نُقل بعد فترة وجيزة إلى أبرشيّة أخرى؛ ولكن لم تبارح صورة ذاك الرّجل البشوش المتفهّم ذهنها قطُّ.

رسالة بالبريد الهوائي

«أبي العزيز:

«يئنُّ قلبي اللّيلة، لقد مات مايك صباح اليوم. يقول ابن عمّي جيمي إنّه متأكّد من أنّه قد مات مسمومًا. آه يا أبتِ، كم تألّمت لرحيله. كان قطًّا في منتهى اللُّطف. بكيت من أجله ساعات وساعات، إلى أن ضاق ذرع خالتي إليزابيث بي، فقالت «لم يحدث لك في موت والدك نصف ما حدث لك الآن». يا له من قولٍ فظّ، كانت خالتي لورا أرقّ منها، ولكن عندما قالت لي، «لا تبكي يا صغيرتي، سأجلب لك قطًّا آخر»، أدركت أنّها لم تتفهّمني، هي الأخرى، فأنا لا أريد قطًّا آخر. ولو كانت لي *ملايين* القطط الأخرى، فهي لن تعوّض لي عن مايك.

«دفنّاه أنا وإيلسي في أيكة جون المتغطرس، وكنت ممتنّة لأنّ الأرض لم تتجمّد بعدُ. أعطتني خالتي لورا علبة حذاء لتكون له بمثابة التّابوت، وبعض الخرق الورديّة لأغطّي بها جسده المسكين الصّغير. ثمّ وضعنا على قبره صخرة وقلت «طوبى للأموات الّذين يموتون في الرّب»[1]. ولمّا أخبرت خالتي لورا، ارتعدت وقالت،

(1) سفر رؤيا يوحنّا اللاّهوتي 14:13.

«آه يا إيميلي، هذا أمرٌ فظيع. ما كان يجدر بكِ أن تقولي ذلك عن قطّ». فردّ عليها ابن عمّي جيمي قائلًا، «ألا تظنّين يا لورا أنّ مخلوقًا صغيرًا بريئًا قد يكون له نصيبٌ معنا في ملكوت الرّب؟ كانت إيميلي تحبّه، ومن يثبت في المحبّة، يثبت في اللهّ واللهّ فيه»[1]. فقالت خالتي لورا: «ربّما أنت على حقٍّ يا جيمي. ولكنّني أشكر الرّب لأنّ إليزابيث لم تسمعها».

«قد لا يكون ابن عمّي جيمي موجودًا هنا طوال الوقت، ولكنّ وجوده، على نُدرته، بلسمٌ للقلوب.

«ولكن، آه يا أبي، اشتقت كثيرًا إلى مايك اللّيلة. كان يلعب معي هنا ليلة أمس ذاك المشاكس اللّعوب اللّطيف، وها هو الآن ميّت بارد في أيكة جون المتغطرس.

«18 كانون الأوّل.

«أبي العزيز:

«ها أنا ذي في السّقيفة. سيّدة الرّياح حزينة على شيء ما اللّيلة، وأسمعها تتنهّد في شجن حول النّافذة. ورغم ذلك، فقد جاءني *البرق* لمّا سمعت نواحها للمرّة الأولى هذا المساء –وشعرت بأنّني لمحت شيئًا مّا حدث في ماضٍ سحيق –شيئًا آلمني من شدّة روعته.

«يقول ابن عمّي جيمي إنّنا سنشهد اللّيلة عاصفة ثلجيّة، وسررت بهذا الخبر، فأنا أحبّ أن أسمع دويّ العاصفة في اللّيل. ما

---

(1) رسالة يوحنّا الرسول الأولى 4: 16.

أحلى أن أتدفّأ تحت البطانيات، فأشعر بأنّني في مأمنٍ من العاصفة. ولكنّني كلّما فعلت ذلك، تقول خالتي إليزابيث إنّني أتقلّب. لا أدري كيف لا يميّز المرء بين من يتدفّأ ومن يتقلّب.

«أنا سعيدة بأنّ الثّلج سينزل في عيد الميلاد. وسيُنظّم عشاء عائلة موراي في القمر الجديد هذه السّنة، فقد حان دورنا. أُقيم العشاء في السّنة الماضية لدى خالي والاس، ولكن كان ابن عمّي جيمي مريضًا بالإنفلونزا، فمكثتُ معه في البيت. أمّا هذه السّنة فسأكون في قلب الحدث، وأنا متحمّسة جدًّا لذلك. سأكتب لك عنه بعد أن ينتهي الأمر يا أبتِ.

«أودّ أن أخبرك بشيء ما يا أبي، وأشعر بالخزي إزاءه، ولكن قد يرتاح ضميري بعد أن أخبرك بكلّ شيء. يوم السّبت الماضي، نظّمت لي إيلّا حفلًا وكنت من المدعوّين. سمحت لي خالتي إليزابيث بارتداء فستاني الجديد، فستان الكشمير الأزرق، جميلٌ جدًّا ذاك الفستان. كانت خالتي إليزابيث تريد أن تشتري ذا اللّون البنّي الدّاكن، ولكن ألحّت خالتي لورا على اللّون الأزرق. نظرت إلى صورتي في المرآة فتذكّرت أنّ إيلسي أخبرتني بأنّ والدها قال لها إنّني سأكون أجمل لو تورّد وجهي أكثر. فقرصت وجنتيّ لكي تحمرّا، وصرت أحلى بكثير ولكن لم يدم الأمر، فأخذت زهرة قديمة من المخمل الأحمر كانت تزين إحدى قبّعات خالتي لورا، وبلّلتها، ثمّ فركت لونها الأحمر على وجنتيّ. ذهبت إلى الحفلة فتفرّست فيَّ جميع الفتيات، ولكن لم تنبس واحدة منهنّ بشيء، ما

عدا رودا الّتي ظلّت تضحك بلا انقطاع. كنت أنوي أن أغسل حمرة وجهي قبل أن تراني خالتي إليزابيث؛ ولكن خطر ببالها أن تمرّ إلى الحفل لأخذي في طريق عودتها من المتجر. لم تقل لي شيئًا هناك، ولكن بمجرّد وصولنا إلى البيت، سألتني «ما الّذي فعلته بوجهك يا إيميلي؟» فأخبرتها بالحقيقة وتوقّعت منها توبيخا شنيعًا، ولكنّها اكتفت بأن قالت لي، «ألا تعلمين أنّك جعلت نفسك تبدين رخيصة؟» بلى، كنت أعلم ذلك جيّدًا، وكان ذاك شعوري منذ البداية، ولكنّني لم أجد الكلمة المناسبة للتّعبير عنه من قبلُ. فقلت «لن أكرّر هذا الفعل يا خالتي إليزابيث». قالت، «من الأفضل لك ألّا تفعلي. انصرفي واغسلي وجهك حالًا». ففعلت، وفقدت نصف الجمال الّذي كنت عليه، ولكن شعرت بارتياح ما بعده ارتياح. والغريب في الأمر يا أبتِ أنّني سمعت خالتي إليزابيث تضحك من القصّة لاحقًا وتتندّر بها مع خالتي لورا في المخزن. لا يمكن التّنبّؤ بما سيضحك خالتي إليزابيث. ذات مرّة، تبعتني سوسي سال إلى اجتماع الصّلاة، وهو بلا شكٍّ أكثر طرافة من الموقف الآخر بكثير، ولكنّه لم يُضحك خالتي إليزابيث ولو قليلًا. وأنا لا أذهب إلى اجتماعات الصلاة إلّا نادرًا، ولكن تعذّر على خالتي لورا الذّهاب ذاك المساء، فاصطحبتني خالتي إليزابيث لأنّها لا تحبّذ الذّهاب بمفردها. لم أتفطّن إلى أنّ سوسي سال كانت تتبعنا إلّا لمّا وصلنا إلى الكنيسة. عندئذٍ أطردتها، ولكن أظنّ أنّها تسلّلت مع أوّل شخصٍ فتح الباب، ثمّ صعدت إلى القبو. وما إن شرع السّيد دير في تلاوة

الصلاة حتّى أخذت سوسي سال تموء مواءً حادّاً، وتعالى صوتها قويًّا صادحًا في ذاك القبو الفارغ. شعرت بالذّنب والخزي، ولم أحتج إلى مساحيق على وجهي ليكون قاني الحمرة، ولمع في عيني خالتي إليزابيث بريق لا يُنذر بخير. وصلّى بنا السّيد دير صلاةً طويلة، فهو أصمّ ولم يسمع سوسي سال أكثر ممّا سمعها عندما جلس فوقها، ولكن سمعها الآخرون جميعهم وضحك الصبيان. وحينما انتهت الصّلاة، صعد السّيد موريس إلى القبو وأطرد منه سوسي سال، وسمعنا صوتها وهي تتسلّق الكراسي هاربة ووراءها السّيد موريس، وخفت خوفًا شديدًا من أن يؤذيها. كنت أنوي صفعها بلوحٍ في اليوم الموالي، ولكن حزّ في نفسي أن أضربها. تمكّن السّيد موريس من إخراجها من القبو بعد مطاردة طويلة، فانطلقت كالسّهم على السّلم ونزلت إلى الكنيسة، ثمّ ظلّ السّيد موريس يلاحقها بمكنسة وهي تركض بكلّ ما أوتيت من سرعة من ممرّ إلى آخر، ذهابًا وإيّابًا، في سباقٍ تكرّر مرّتين أو ثلاثًا. والموقف مضحك للغاية لّما أفكّر فيه الآن، ولكنّه لم يكن بتلك الطّرافة آنذاك، فقد تملّكني الخزي وخفت على سوسي سال.

«وأخيرًا، أخرجها السّيد موريس، واغتنمت فرصة جلوسه لأوجّه إليه تكشيرة من وراء كتاب تراتيلي. ثمّ قالت لي خالتي إليزابيث عند عودتنا إلى البيت، «أتمنّى أن تكوني قد أخزيتنا اللّيلة بما فيه الكفاية، إيميلي ستار. ومن هنا فصاعدًا، لن آخذك معي إلى اجتماعات الصّلاة». أنا آسفة لأنّني أخزيت آل موراي» ولكن لا

أدري ما ذنبي في الأمر، ثمّ إنّني في جميع الحالات لا أحبّ تلك الاجتماعات لأنّها مملّة.

«ولكن لم يكن اجتماع تلك اللّيلة مملًا يا أبتِ.

«هل لاحظت كم تحسّن مستواي الإملائي؟ لقد استنبطت فكرة رائعة. أبدأ بكتابة رسالتي ثمّ أبحث في المعجم عن كلّ الكلمات الّتي أشكّ في صحّتها وأُصلحها. ولكنّني أظنّ أحيانًا أنّ بعض الكلمات صحيحة فيما هي خاطئة.

«تخلّينا عن لغتنا، أنا وإيلسي، بعدما تشاجرنا بشأن الأفعال. لم ترد إيلسي تصريف الأفعال بحسب الأزمنة، وفضَّلَت ابتكار كلمات مختلفة تمامًا لكلّ زمن. فقلت إنّني إذا كنت سأخترع لغة جديدة، فسأفعل ذلك وفقًا للضّوابط اللّازمة، فغضبت إيلسي وقالت إنّها تعاني بما يكفي من قواعد لغتها الأولى، وإنّه بوسعي أن أخترع بمفردي لغة عتيقة خاصّة بي. ولكن لا مُتعة لي في ذلك، فتخلّيت عن اللّغة بدوري، رغم أنّها شيّقة جدًّا وتسلّينا كثيرًا بإرباك سائر الفتيات في المدرسة. في نهاية الأمر، لم يتسنّ لنا الانتقام من الصّبيان الفرنسيّين لأنّ إيلسي أُصيبت بالتهاب في الحنجرة أيّام جمع البطاطس، فتعذّر عليها القدوم. ما الحياة إلّا سلسلة من خيبات الأمل، على ما يبدو.

«اجتزنا الامتحانات المدرسيّة هذا الأسبوع، وكانت نتائجي طيّبة، ما عدا الحساب. كانت الآنسة براونيل قد شرحت لنا شيئًا ما عن الأسئلة، ولكنّني كنت مشغولة بتأليف قصّة في ذهني

ولم أسمعها، فحصلت على عدد سيّء. عنوان القصّة *سرّ مادج ماكفيرسن*، وسأشتري أربع أوراق كبيرة بما وفّرت من ثمن البيض، ثمّ سأخيطها لأجعلها كتابًا وأكتب فيه قصّتي. يمكنني أن أفعل ما أريد بمال البيض، وأفكّر في أنّني قد أكتب روايات فضلًا عن القصائد لمّا أكبر. ولكن لم تسمح لي خالتي إليزابيث بقراءة أيّ رواية، فكيف سأستعلّم طريقة كتابتها؟ ثمّة أمر آخر يقلقني، عندما أكبر وأكتب قصيدة رائعة، ربّما لن يُدرك النّاس مدى روعتها.

«يقول ابن عمّي جيمي إنّ رجلًا في غدير الكاهن يقول إنّ نهاية العالم وشيكة، وأتمنّى ألّا ندرك نهايته قبل أن أرى كلّ ما فيه.

«أُصيب إلدر ماكي المسكين بالنّكاف.

«قضّيت اللّيلة مع إيلسي منذ أيّام لأنّ والدها كان على سفر. وصارت إيلسي تتلو صلواتها الآن، وقالت لي إنّها تراهن بأيّ شيء على أنّها ستطيل الصّلاة أكثر منّي. فقلت لها إنّها لن تستطيع، ومكثت زمنًا طويلًا جدًّا أصلّي وأدعو لكلّ ما كان بوسعي أن أتذكّره، حتّى نفدت أفكاري فقلت إنّني سأعيد الكرّة منذ البداية. ثمّ فكّرت، «لا، لن يكون ذلك نزيهًا. يجب على ابنة ستار أن تتحلّى بالنّزاهة». فنهضت وقلت لها «أنتِ الفائزة»، ولم تجبني إيلسي فدرتُ إليها من خلف الفراش ووجدتها نائمة وهي تجلس على ركبتيْها. ولمّا أيقظتها قالت إنّه يجدر بنا أن نلغي الرّهان لأنّها كانت ستصلّي لمدّة أطول بكثير لو لم يغلبها النّعاس.

«وبعد أن لزمنا الفراش، أخبرتها بعدد من الأشياء الّتي ندمت على البوح بها لاحقًا...فهي أسرار.

«أخبرتنا الآنسة براونيل منذ أيّام في حصّة التّاريخ أنّ السّيد والتر رالي[1] اضطرّ إلى البقاء في البرج دون حركة طيلة أربع عشرة سنة. فقال لها بيري، «ألم يسمحوا له حتّى بتحريك أصابعه من حين إلى آخر؟»، فعاقبته الآنسة براونيل على وقاحته، رغم أنّه كان يسأل بجدّية. غضبت إيلسي من الآنسة براونيل لأنّها جلدت بيري، لأنّه يطرح أسئلة بهذا الغباء وكأنّه يجهل كلّ ما في الوجود. ولكن قال إنّه سيؤلّف يومًا ما كتاب تاريخ لا يحمل في طيّاته لُبسًا من هذا القبيل.

«إنّني بصدد إنهاء تصميم المنزل المُحبط في ذهني، وشرعت في تأثيث الغُرف وكأنّها أزهار؛ فجعلت فيها غرفة الورد، وكلّ ما فيها زهريّ؛ وغرفة الزّنبق، وكلّها بيضاء وفضّية؛ وغرفة زهر الثّالوث، وهي زرقاء وذهبيّة. أتمنّى أن تُقام احتفالات عيد الميلاد في المنزل المحبط ولو مرّة، فهو لم يشهد عيدَ ميلادٍ قطُّ.

«آه يا أبي، لقد خطرت ببالي للتّوّ فكرة حلوة. عندما أكبر وأؤلّف رواية وأكسب مالًا وفيرًا، سأشتري المنزل المُحبط وأنهي تشييده، ولن يكون بعد ذلك مُحبطًا أبدًا.

---

(1) والتر رالي (1552-1618) شخصيّة لامعة من التّاريخ الإنجليزيّ في العصر الإليزابيثي، إذ كان جنديًا ومستكشفًا وشاعرًا وسياسيًّا وكاتبًا.

«تلقّت إيلسي إنجيلًا من مدرّسة دروس الأحد، الآنسة ويلسن، لتحفظ منه 200 آية. ولكن عندما أخذته إيلسي معها إلى البيت، طرحه والدها أرضًا وركله نحو الباحة. تقول السّيدة سيمز إنّ الرّب سيذيقه شرّ العقاب، ولكن لم يحدث له شيءٌ بعدُ. ما المسكين إلّا رجلٌ أخرق، لذلك أقدم على مثل هذا الفعل الشّنيع.

«اصطحبتني خالتي لورا معها يوم الأربعاء الماضي إلى جنازة السّيد مايسن العجوز. تُعجبني الجنائز، أجد فيها شحنة دراميّة رائعة.

«مات خنزيري في الأسبوع الماضي، ومثّل ذلك *خسارة مادّية فديحة*[1] لي. قالت خالتي إليزابيث إنّ ابن عمّي أفرط في إطعامه، وأظنّ أنّه ما كان يجدر بي أن أسمّيه على اسم جون المتغطرس.

«صرنا نرسم الخرائط في المدرسة الآن، وتحرز فيها رودا ستيوارت أعلى العلامات. وما لا تعلمه الآنسة براونيل هو أنّ رودا تضع الخريطة على بلوّر النّافذة وتبسط فوقها ورقتها ثمّ تنقل الخطوط. تبدو لي النرويج والسّويد شبيهتيْن بنمر مخطّط بالسلاسل الجبلية، وتبدو إيرلندا وكأنّها كلب صغير يعطي بظهره إلى إنجلترا ويضمّ قائمتيْه إلى صدره، وشكل أفريقيا يحاكي فخذ خنزير كبير، أمّا أستراليا، فشكلها جميل ورسمُه ممتعٌ.

«صارت إيلسي تبلي بلاءً حسنًا في الدّراسة، وهي تقول إنّها لن ترضى بأن أتغلّب عليها. وهي متى بذلت مجهودًا، تتعلّم بسرعة

(1) خطأ متعمّد من الكاتبة يُبيّن قلّة خبرة إيميلي وتعثّرها اللّغويّ والإملائيّ. الصّواب: فادحة.

تفوق سرعة ورل الحضيض[1] مثلما يقول بيري. وقد أحرزت على الميدالية الفضيّة في كامل مقاطعة كوينز، ميداليّة أسندها لها اتّحاد الاعتدال المسيحي للمرأة في شارلوتتاون بوصفها أفضل مُحاضِرة. أجرى الاتّحاد المسابقة في مطمر الفأر، فذهبت إيلسي برفقة خالتي لورا لأنّ والدها رفض اصطحابها إلى المسابقة، وفازت بها. أخبرت خالتي لورا والد إيلسي بأنّ عليه أن يحرص على توفير تعليم جيّد لإيلسي، فقال «لن أبذّر المال في تعليم أيّ أنثى». وتجهّم وجهه كسماءٍ تُنذر بعاصفة. آه، ليت الدّكتور برنلي يحبّ إيلسي، أنا سعيدة جدًّا لأنّك أحببتني يا أبتِ.

«22 كانون الأوّل.

«أبي العزيز: اجتزنا الامتحانات اليوم، وهي فعاليّة هامّة في مدرستنا، وحضر فيها الجميع تقريبًا باستثناء الدّكتور برنلي وخالتي إليزابيث. ارتدت كلّ الفتيات أرقى فساتينهنّ إلّا أنا، إذ كنت أعلم أنّ إيلسي لا تملك من الملابس إلّا ثوبها البالي القديم ذي المربّعات، ولكنّه غدا قصير جدًّا عليها، فقرّرت أن ألبس فستاني البنّي القديم أيضًا لكي لا تشعر بالحرمان. وفي بداية الأمر، لم تسمح لي خالتي إليزابيث بذلك لأنّه يجدر بآل موراي من القمر الجديد أن يكونوا لائقي المظهر واللّباس، ولكن لمّا شرحت لها وضع إيلسي، تبادلت النّظرات مع خالتي لورا وأذنت لي بذلك.

(1) يُقال عمّا يتميّز بسُرعةٍ فائقةٍ إنّه «أسْرَعُ مِنْ وَرَلِ الحَضِيضِ».

«سخرت رودا ستيوارت منّي ومن إيلسي، ولكنّني جمعت جمرًا على رأسها[1] (هذا ما يُسمّى بالتّعبير المجازي). إذ تعثّرت في إلقائها، وكانت قد نسيت كتابها في البيت ولم يعرف أحدٌ النّص إلّا أنا، فبادرت بالنّظر إليها نظرة الانتصار، ثمّ سرعان ما ساورني شعور غريب وقلت في قرارة نفسي «ماذا سأشعر لو تعثّرت *أنا* في الإلقاء أمام مثل هذا الجمع الغفير؟ ثمّ إنّ شرف المدرسة على المحكّ»، فهمست إليها النّص لأنّني كنت على مقربة منها، وواصلت بقيّة الإلقاء على أحسن ما يُرام. وأغرب ما في الأمر يا أبي هو أنّني صرت لا أشعر بالكره حيالها، بل أبادلها بالحُسنى وهذا أفضل بكثير، إذ يُتعبني أن أكره النّاس.

«28 كانون الأوّل.

«أبي العزيز:

«انتهى عيد الميلاد. وكان الاحتفال به جميلًا. لم يسبق لي أن رأيت ذاك الكمّ من الأطباق الشّهية تُطبخ في آن واحد. جاءنا خالي والاس وخالتي إيفا وخالي أوليفر وخالتي آدي وخالتي روث، ولكن خاب أملي لأنّ خالي أوليفر لم يجلب من أبنائه أحدًا. استقبلْنَا الدّكتور برنلي وإيلسي أيضًا، وكان الجميع في أبهى حُلّة. لبست خالتي إليزابيث فستانها الحريري الأسود مع ياقة وقبّعة من الدّانتيل فبدت أنيقة للغاية، وكنت فخورة بها. يُحبّ المرء أن يكون

(1) سفر الأمثال 25:22. ويُقال ذلك عندما يُحسن المرء إلى من أساء إليه فيخجل وتذوب الكراهية على جمر المحبّة.

أقاربه لائقي المظهر، حتّى ولو كان لا يحبّهم. وارتدت خالتي لورا ثوبها الحريري البنّي، فيما جاءت خالتي روث بفستان رماديّ، وكانت خالتي إيفا في منتهى الأناقة بفستانها المُذيّل، رغم أنّه كان يعبق برائحة النفتالين.

«أمّا أنا، فارتديت فستان الكشمير الأزرق وزيّنت شعري بأشرطة زرقاء، وأذنت لي خالتي لورا بوضع وشاح والدتي الحريري، وهو وشاح أزرق موشّى بأقحوانات ورديّة كانت تلبسه أمّي في طفولتها بالقمر الجديد. نخرت خالتي روث لمّا رأتني، وقالت: «أراكِ قد كبرتِ جيّدًا يا إيمْـ-لي. آمل أنّك قد تحسّنت سلوكًا».

«ولكنّها لم تأمل ذلك (حقًّا)، كان الأمر واضحًا وضوح الشّمس في كبد السّماء. ثمّ أخبرتني بأنّ أربطة حذائي مفكوكة.

«وقال خالي أوليفر «أرى فيها تحسّنًا كبيرًا، ولن أستغرب إن غدت فتاة قويّة سليمة البنيان في نهاية الأمر».

«تنهّدت خالتي إيفا وهزّت رأسها، ولم يقل خالي والاس شيئًا، ولكنّه صافحني بيدٍ أبرد من سمكة خرجت لتوّها من البحر. لمّا ذهبنا إلى غرفة الجلوس لتناول العشاء دُست ذيل ثوب خالتي إيفا وسمعت بعض الغرز تتمزّق منه. فسارعت خالتي إيفا بإبعادي وقالت خالتي روث، «يا لك من طفلة خرقاء يا إيمْـ-لي» فوقفت خلفها وأخرجت إليها لساني. خالي أوليفر يحدث ضجيجًا وهو يتناول شربته. وضعنا على المائدة أجمل الملاعق الفضّية، وقطع ابن

عمّي جيمي الدّيك الرّومي وقدّم لي من صدره شريحتيْن لأنّه يعلم أنّني أفضّل اللّحم الأبيض. ولمّا قالت خالتي روث «عندما كنت صغيرة، كنت أكتفي بالجناح»، أضاف لي شريحة *أخرى* من اللّحم الأبيض. ولم تتفوّه خالتي روث بكلمة أخرى آنذاك، وبعدما انتهى توزيع قطع اللّحم قالت لي، «لقد قابلت مدرّستك في مطمر الفأر يوم السّبت الماضي يا إيمْـ-لي، ولم يكن لها انطباع حسنٌ عنك، ولو كنت *ابنتي*، لانتظرت تقريرًا مختلفًا عمّا سمعت».

«فقلت في قرارة نفسي، «وأنا سعيدة جدًّا بأنّني لست ابنتكِ». ولم أجهر بذلك طبعًا، ولكن قالت لي خالتي روث، «من فضلك لا تقطّبي وجهك حين أخاطبك يا إيمْـ-لي». وأضاف خالي والاس، «من المؤسف أن يكون لها مثل هذه التكشيرة الكريهة».

«قلتُ سرًّا، «وأنت مغرور ومستبدّ وأشحّ. سمعت الدّكتور برنلي يقول كلّ ذلك عنك».

«وقالت خالتي روث: «أرى بقعة حبر على اصبعها». (كنت قد كتبت قصيدة قبل العشاء.)

«ثمّ حدث ما لم يكن في الحسبان. إنّنا نتفاجأ دائمًا وأبدًا بأقاربنا. تكلّمت خالتي إليزابيث وقالت، «*أتمنّى يا روث أن تتركي تلك الطّفلة وشأنها، أنتِ والاس*». كدت لا أصدّق ما سمعت، وبدت خالتي روث مستاءة جدًّا من تلك الملاحظة، ولكنّها تركتني وشأني *بالفعل* بعدها، إلّا أنّها نخرت لمّا زادني ابن عمّي جيمي شيئًا من اللّحم الأبيض.

«مرّت بقيّة العشاء في سلام. ولمّا وصلنا إلى طبق الحلوى الشّحمية، شرع الجميع في الحديث وكان الإصغاء إليهم شيّقًا، إذ قصّوا حكاياتٍ ونوادر عن آل موراي. وحتّى خالي والاس شاركهم الضّحك، وحكت خالتي روث بعض الأشياء عن عمّتها نانسي، أشياء ساخرة ولكن مثيرة للاهتمام. وفتحت خالتي إليزابيث درج جدّي موراي وأخرجت منه قصيدة قديمة كُتبت إلى العمّة نانسي في صغر سنّها من قِبل حبيبٍ، وقرأها لنا خالي أوليفر. يبدو أنّ العمّة نانسي كانت آية في الجمال. يا تُرى هل سيكتب لي أحدٌ قصيدةً يومًا ما؟ قد يتحقّق ذلك لو جعلت في شعري غرّة. وقلت، «هل كانت عمّتي نانسي فعلًا بهذه الرّوعة؟» فقال خالي أوليفر، «يُقال إنّها كانت كذلك قبل سبعين سنة»، وأضاف خالي والاس، «مازالت على ما يُرام، وستُتمّ القرن بمشيئة الرّب»، فقال خالي أوليفر، «لقد تعوّدت على الحياة حتّى إنّها لن تموت أبدًا».

«قصّ علينا الدّكتور برنلي قصّة لم أفهمها وجُنّ إثرها جنون خالي والاس، ورفع خالي أوليفر منديله ليمسح جبينه النّادي. تبادلت خالتاي آدي وإيفا نظرات جانبيّة، ثمّ أطرقتا البصر وابتسمتا قليلًا. بان السّخط على خالتي روث، وحدجت خالتي إليزابيث الدّكتور برنلي بنظرة *جفاء* ثمّ قالت، «أظنّ أنّك غفلت عن وجود أطفال بيننا». فقال الدّكتور برنلي في *منتهى* الأدب، «اعذريني يا إليزابيث». إنّ بوسعه أن يتحدّث بوقار لو أراد، وهو وسيمٌ متى حلق ذقنه وتأنّق، وتقول إيلسي إنّها فخورة به حتّى وإن كان يكرهها.

«وُزّعت الهدايا بعد العشاء، وفقًا لتكاليد[1] آل موراي. ونحن لا نضعها في الجوارب ولا تحت الشّجرة، ولكنّنا نمرّر فطيرة كبيرة من النّخالة تُطمر فيها الهدايا وتتدلّى منها أشرطة عليها أسماء، وهو أسلوب ممتع لتقديم الهدايا. ومنحني جميع أقاربي هدايا مفيدة، ما عدا خالتي لورا الّتي أهدتني قارورة عطرٍ أعجبتني للغاية، فأنا أحبّ الرّوائح الذّكيّة. أمّا خالتي إليزابيث فهي ضدّ العطور، وأهدتني مئزرًا جديدًا ليس للرُّضّع والحمد لله. قدّمت لي خالتي روث نسخة من العهد الجديد قائلةً، «إيمْـ-لي، آمل أن تقرئي منه قسطًا صغيرًا كلّ ليلةٍ حتّى تُنهيه»، فأجبتها، «ولكنّني قرأت العهد الجديد عشرات المرّات يا خالتي روث (وهذا صحيح)، *وأعشق* سفر الرّؤيا». (وهذا صحيح، فلمّا قرأت الآية «أمّا الأبواب الاثنا عشر فهي اثنتا عشرةَ لؤلؤةً»، *تراءت* لي اللآّلئ بالفعل وجاءني *البرق*.) فردّت خالتي روث ببرود، «لا يُقرأ الإنجيل كما تُقرأ الرّوايات». وأعطاني خالي والاس وخالتي إيفا زوجًا من القفّازات السّوداء، فيما تسلّمت من خالي أوليفر وخالتي آدي دولارًا كاملًا من النّقود الجديدة الفضّية. ومنحني ابن عمّي جيمي شريط شعر، وترك لي بيري علامةَ كتاب من الحرير قبل أن يرحل إلى مدينة مجاري الدّخان لقضاء عيد الميلاد مع خالته توم. أهديت له ولتيدي منديلَيْن (ومنديل تيدي أجمل بقليل)، ولإيلسي شريط شعر. اشتريت كلّ تلك الهدايا بمفردي من مال بيضي (ولن يكون لي المزيد من مال

(1) الصّواب: تقاليد.

البيض لمدّة طويلة لأنّ دجاجتي توقّفت عن وضع البيض.) وكان الجميع سعداء، حتى إنّ خالي والاس ابتسم لي مباشرة، ولم يبدُ لي دميمًا وهو مُبتسم.

«بعد العشاء، لعبنا أنا وإيلسي في المطبخ، ثمّ ساعدنا ابن عمّي جيمي على صناعة حلوى التّافي[1]. وضعنا سفرة فاخرة للمساء، ولكن لم يقدر أحد على أكل الكثير بسبب تُخمة العشاء. انتاب خالتي إيفا صداع، وقالت خالتي روث إنّها لا تفهم لماذا أعدّت إليزابيث نقانق بكلّ تلك الدّهون. ولكن كان البقيّة في مزاج حسنٍ، وحافظت خالتي لورا على لطافة الجوّ، فهي موهوبة في تسوية الأمور بسلاسة. وفي النّهاية، قال خالي والاس (وهذا من تكاليد[2] موراي أيضًا) «فلنخصّص لحظات لنفكّر في أولئك الّذين غادرونا». أُعجِبتُ بأسلوب حديثه آنذاك، فقد تكلّم برفق ووقار، وكانت تلك من اللّحظات الّتي تجعلني ممتنّة لأنّ دماء موراي تجري في عروقي. فكّرت فيك *أنت*، يا أبي الحبيب، وأمّي، وصغيري مايك المسكين، وجدّة جدّتي موراي، ودفتري القديم، دفتر الحسابات الّذي أحرقته خالتي إليزابيث، لأنّه كان بمثابة آدمّي بالنّسبة إليّ. ثمّ جمعنا أيادينا وأنشدنا «نشيد الوداع» قبل أن يرحل كلٌّ منهم إلى بيته. لم أعد أشعر بنفسي غريبة بين آل موراي، ووقفت مع خالتي لورا في الفرندة لنشيّعهم بنظراتنا. طوّقتني آنذاك خالتي لورا بذراعها قائلة، «كنت

(1) التّافي حلوى خفيفة طريّة تُصنع من السُّكّر والزّبدة.
(2) الصّواب: تقاليد.

أقف سابقًا مع والدتك هنا لنشيّع ضيوف عيد الميلاد يا إيميلي».
سمعنا طقطقة الثّلج ورنين الأجراس تتوارى بين الأشجار بينما سطع ضوء القمر فوق حظيرة الخنازير فتلألأ أمامنا الجليد. رأينا جمالًا ساحرًا في كلّ ما يحيط بنا (من أجراس وجليد وليلة وضّاحة بيضاء)، فما كان إلّا أن جاءني *البرق*، وكان ذلك مسك الختام».

«رومانسيّ ولكن محرج»

حدث في القمر الجديد شيءٌ مّا لأنّ تيدي كينت أثنى ذات يومٍ على إيلسي برنلي ولم يرق الأمر لإيميلي ستار؛ وقد سقطت إمبراطوريّات بأسرها لأسباب من هذا القبيل.

كان تيدي يتزلّج في معبد المياه ويأخذ معه إيلسي وإيميلي بالتّناوب في «زحلقاته». ولم يكن بحوزة إيميلي ولا إيلسي زلّاجات، إذ لم يكن هنالك من يهتمّ بإيلسي لدرجة إعطائها زلّاجات. أمّا إيميلي فقد كانت خالتها إليزابيث ضدّ تزلّج الفتيات، ولم يسبق لفتيات القمر الجديد أن تزلّجن. وجاءت الخالة لورا بفكرة ثوريّة مفادها أنّ التّزلّج قد يكون رياضة مفيدة لإيميلي، كما أنّه سيحفظ أسفل حذائها من التّلف الّذي قد يلحقه وهي تتزحلق عليه. ولكن لم تُجد أيّ الحُجّتيْن نفعًا مع الخالة إليزابيث، رغم أنّها ورثت عن آل برنلي هوسًا بالاقتصاد؛ ولكن دفعتها الحجّة الثّانية إلى منع إيميلي منعًا رسميًّا من «التّزحلق». أثار قرارها استياء إيميلي، فظلّت غارقة في كآبة قاتلة وكتبت لوالدها، «*أكره خالتي إليزابيث. إنّها ظالمة جائرة، ولا تلجأ إلّا إلى الأساليب الملتوية*».

ولكن أطلّ الدّكتور برنلي ذات يوم من باب مطبخ القمر الجديد

وقال بنبرة فظّة: «ما هذا الّذي بلغني عن منعِك إيميلي من التّزحلق يا إليزابيث؟».

فقالت إليزابيث: «سيتلف التّزحلق أسفل حذائها».

«لتذهب الأحذية في ستّين..». ثمّ تذكّر الدّكتور في آخر لحظة أنّه في حضرة سيّدات محترمات. واستأنف قائلًا: «اتركي الفتاة تتزحلق كما يحلو لها. يجدر بها أن تظلّ في الهواء الطّلق طول الوقت. بل يجدر بها..». وحدّق الدّكتور في إليزابيث ساخطًا ثمّ واصل: «يجدر بها أن تنام في العراء».

ارتجفت إليزابيث خوفًا من أن يصرّ الدّكتور على هذا الإجراء غير المسبوق، إذ كانت على درايةٍ بأفكاره الغريبة عن كيفيّة علاج مرضى السّل وأولئك المعرّضين إليه. وقرّرت، إكرامًا له، أن تسمح لإيميلي بالخروج لتفعل ما تشاء نهارًا، بشرط ألّا يلحّ على خروجها ليلًا.

وقالت بمرارة إلى لورا: «إنّه مشغول بأمر إيميلي أكثر ممّا ينشغل بابنته».

ابتسمت لورا وقالت: «إيلسي في صحّة جيّدة. لو كانت تعاني مشاكل صحّية، لغفر لها ذنب، ذنب انتسابها إلى أمّها».

فنهرتها الخالة إليزابيث: «ش-ش-ششش»، ولكنّها وشوشت بعد فوات الأوان. إذ دخلت إيميلي آنذاك إلى المطبخ وسمعت ما قالته الخالة لورا، وأمعنت التّفكير في الأمر طيلة اليوم في المدرسة. لماذا سيُغفر لإيلسي ذنب انتسابها إلى أمّها؟ ألا ينتسب الجميع إلى

أمّهاتهم؟ فيمَ يكمن ذنبها؟ وظلّت إيميلي في حيرةٍ من أمرها لدرجة أنّها شردت عن الدّروس وصبّت عليها الآنسة براونيل وابلًا من الملاحظات السّاخرة.

آن لنا أن نعود إلى معبد المياه حيث عاد تيدي لتوّه مع إيميلي من جولة رائعة حول كومة الثّلج العظيمة، وكانت إيلسي جالسة على الضّفة في انتظار دورها. أحاطت وجهها هالة شعرٍ ذهبي ينسدل على جبينها في موجة لامعة من تحت قلنسوتها الحمراء البالية. كانت كلّ ملابس إيلسي رثّة، وداعبت برودة الرّيح اللّاذعة وجنتيْها فاستحالتا قرمزيّتيْن، وبدت عيناها بحريْن من العنبر تتّقد في أعماقهما نار حامية. وتفطّن تيدي، بفضل حسّه الفنّي المرهف، إلى ما ظهر من جمالها وابتهج له.

ثمّ قال: «أليست إيلسي حسناء؟».

لم تكن إيميلي غيورة، ولم تنزعج متى سمعت إطراءً لصالح إيلسي. ولكنّها، لسبب أو لآخر، استهجنت هذا الإطراء بالذّات، فقد كان تيدي ينظر إلى إيلسي بإعجاب مبالغ فيه. وبحسب إيميلي، يعود الأمر كلّه إلى تلك الغرّة الذّهبيّة المنسدلة على جبين إيلسي اللُّجيْن.

فكّرت حانقة: «لو كانت *لي* غرّة، لظنّني تيدي حسناء، أنا الأخرى. ليس الشّعر الأسود بمثل جمال الشّعر الأشقر طبعًا، ولكنّ جبيني عريض جدًّا، كلّهم يقولون لي ذلك. وبدوت *فعلا* جميلة في الصّورة الّتي رسمها لي تيدي لأنّه أضاف بعض الخصلات فوقه».

أثارت المسألة غيض إيميلي، وظلّت تشغل بالها طيلة طريق عودتها إلى المنزل وهي تخترق بريق الحقل المتجمّد تحت أشعة الغروب الشّتوية. عجزت عن تناول عشائها لأنّه لم يكن في شعرها غرّة، فقد تفجّر فجأة بين ضلوعها كلّ ما راكمته من رغبة في تلك التّسريحة المنشودة. وكانت تعلم جيّدًا أنّه لا فائدة من التّملّق إلى الخالة إليزابيث قصد بلوغ مُرادها. ولكن عندما كانت بصدد التّأهب للنّوم، وقفت على كرسيّ لتتمكّن من رؤية إيميلي -في- المرآة، ثمّ رفعت إلى جبينها طرفيْ ضفيرتيْها الطّويلتيْن، وكانت النّتيجة -في نظرها على الأقلّ- حلوة للغاية. وفكّرت فجأةً، ماذا لو قصّت غرّتها بنفسها؟ لن يستغرق الأمر إلّا دقيقة واحدة. ومتى تمّ الأمر، ماذا عسى خالتها إليزابيث أن تفعل؟ ستغضب غضبًا شديدًا وتسلّط عليها بلا شكٍّ عقوبةَ ما، ولكن ستبقى الغرّة موجودة، إلى أن تنمو وتطول على الأقلّ.

زمّت إيميلي شفتيْها وتناولت المقصّ، ثمّ فكّت رباط ضفيرتيْها وفرقت الخصلتيْن الأماميّتيْن. تشكْ-تشكْ-تشكْ! أدّى المقصّ مهمّته، وتساقطت على قدميْها خصلات لامعة، وها هي ذي إيميلي تحصل على غرّة أحلامها في غضون دقيقة واحدة. انسدلت على جبينها قُصّة حريريّة فيها بعض الانحناء، فغيّرت كلّ ملامح وجهها، وأضفت عليه شيئًا من التّعالي والاستفزاز والغموض. ولبرهة من الزّمن، تأمّلت إيميلي انعكاس صورتها في المرآة بلذّة الانتصار.

ثمّ تملّكها رعب فظيع. ماذا فعلت! وكم ستغضب خالتها إليزابيث! وكأنّ ضميرها يستيقظ فجأة ليزيدها لوعة على لوعةٍ. لقد أقدمت على فعل شنيع، فما قصّ الغرّة بعدما نهتها عنه الخالة إليزابيث إلّا فعل شنيع. فتحت لها خالتها إليزابيث أبواب القمر الجديد لإيوائها، ألم تعايرها في ذاك اليوم بالذّات رودا ستيوارت بـ«عيشها على الصَّدقة»؟ وها قد اختارت أن تكافئها بالعصيان والجحود. ما كان يجدر بابنة ستار أن تفعل ذلك. وفي أوج الخوف والنّدم، انتشلت إيميلي المقصّ وحلقت الغرّة، حلقتها قريبًا من منبت شعرها. وهذا أدهى وأمرّ! شخصت إيميلي في نتيجة ما اقترفته في فزع. من الواضح أنّ هنالك غرّة قد حُلقت بالفعل، ولا مفرّ لها من نقمة خالتها إليزابيث. تسمّرت إيميلي من الخوف، ثمّ انفجرت بكاءً وقبضت على الخصلات الهاوية فألقت بها في سلّة النّفايات، وأطفأت الشّمعة ثمّ اندسّت في فراشها في اللّحظة الّتي دخلت فيها الخالة إليزابيث إلى الغرفة.

غرست إيميلي وجهها في الوسادة متظاهرة بالنّوم. كانت تخشى أن تسألها خالتها إليزابيث سؤالًا وتجبرها على رفع رأسها وهي تجيب. كانت تلك من تقاليد آل موراي، على المرء أن ينظر في وجه مخاطبه وهو يخاطبه. ولكن نزعت الخالة إليزابيث ملابسها في صمت وامتدّت في الفراش. كانت الغرفة غارقة في الظّلام، في ظلام كثيف دامس، فتنفّست إيميلي الصّعداء واستدارت. وكانت تعلم أنّ هنالك في الفراش زجاجة جِنْ من الماء الدّافئ، وظلّت

قدماها رغم ذلك باردتيْن. كانت ترى أنّها ليست جديرة بدفء زجاجة الجِنْ لأنّها خبيثة وناكرةٌ للمعروف.

أمرتها خالتها إليزابيث: «كفّي عن التّقلّب». فلم تتقلّب إيميلي بعد ذلك، ليس بجسدها، على الأقلّ، إذ ظلّ فكرها يتقلّب حتّى الأرق. وشغلها ضميرها، أو برد قدميْها -أو ذلك كلّه-، عن النّوم. ناهيك عن الخوف. كانت تتوجّس من حلول الصّباح، حينما سترى خالتها إليزابيث فعلتها. ليت الأمر ينتهي، وليت الأسرار تُكشف. وشردت إيميلي عن ذاتها فتقلّبت مرّة أخرى.

فسألتها الخالة إليزابيث في امتعاض شديد:

«ما الّذي يجعلك مضطربة هذه اللّيلة؟ هل أنت بردانة؟».

«كلّا يا خالتي».

«نامي إذن. لا أقدر على تحمّل مثل هذه الاهتزازات. أشعر وكأنّ معي أنقليسًا في الفراش -آآاي!».

كانت الخالة إليزابيث قد تحرّكت قليلًا بدورها، ولامست في الأثناء قدمها قدمي إيميلي المتجمّدتيْن.

«ربّاه، يا طفلة! قدماكِ قطعتان من الثلج. ضعيهما فوق زجاجة الجِنْ».

ودفعت بالزّجاجة نحو قدميْ إيميلي. يا له من شعور دافئ لطيف مريح!

ألصقت عليها إيميلي أصابع قدميْها كما تفعل القطط؛ ولكنّها شعرت فجأة بأنّها لن تستطيع الصّبر حتّى صباح الغد.

«خالتي إليزابيث، أودّ أن أعترف لك بشيء ما».

كانت الخالة إليزابيث مرهقة ونعسانة ولم ترغب في الإصغاء إلى الاعترافات آنذاك. فقالت بصوت لا يخلو من التّبرّم:

«ماذا فعلت؟».

«لقد، لقد قصصت غرّة يا خالتي».

«غرّة؟».

نهضت الخالة إليزابيث وجلست على الفراش.

فهتفت إيميلي بسرعة: «ولكنّني حلقتها مرّة أخرى، وأزلتها من رأسي تمامًا».

فبرحت الخالة إليزابيث الفراش وأشعلت شمعة، ثمّ حدّقت في إيميلي.

وقالت بنبرة قاسية: «ها قد *جعلت* من نفسكِ أضحوكة. لم أرَ قطُّ شخصًا أبشع ممّا أنتِ عليه في هذه اللّحظة. ثمّ إنّك تصرّفت بمكر ما بعده مكر».

كانت تلك من اللّحظات الّتي لا تجد فيها إيميلي بدًّا من موافقة خالتها إليزابيث.

رفعت إليها عينيْن متوسّلتيْن وقالت: «أنا آسفة».

فردّت الخالة إليزابيث: «ستتناولين عشاءك في المخزن طيلة

أسبوع. ولن تذهبي معي إلى منزل خالك أوليفر في الأسبوع القادم. كنت قد وعدتك باصطحابك معي، ولكنّني لن أصطحب شخصًا في مثل هيأتك إلى أيّ مكان».

حزّ ذلك في نفس إيميلي، فقد كانت تنتظر زيارة خالها أوليفر على أحرّ من الجمر. ولكنّها شعرت بالارتياح إجمالًا، فقد مرّ الأَمَرُّ ودفئت قدماها. ولكن ثمّة شيء آخر، ومن الأحسن لها أن تزيح كلّ ما على صدرها من أعباء دفعة واحدة.

«هنالك شيء آخر أودّ إخبارك به».

عادت الخالة إليزابيث إلى الفراش وهي تنخر متذمّرة، فرأت إيميلي في ذلك إذنًا بالحديث.

«خالتي إليزابيث، هل تذكرين ذاك الكتاب الّذي وجدته في مكتبة الدكتور برنلي وجلبته معي وطلبت إذنك لقراءته؟ كان عنوانه *تاريخ هنري إزموند*، ونظرت إليه وقلت لي إنّك لا تمانعين قراءتي كتب التّاريخ، فقرأته. ولكنّه ليس بكتاب تاريخ يا خالتي، بل رواية. *وكنت أعلم ذلك منذ جلبته معي إلى البيت*».

«تعلمين أنّه لا يُسمح لك بقراءة الرّوايات يا إيميلي ستار. فهي كتب خبيثة أفسدت عقول الكثير من النّاس».

فحاججت إيميلي: «إنّه مملّ للغاية» -وكأنّ الخُبث والملل متنافيان- «وأحزنني كثيرًا. يبدو أنّ جميع شخصيّاته يقعون في حبّ شخص لا يناسبهم. لقد اتّخذت قراري يا خالتي إليزابيث، ولن أقع في شراك الحبّ أبدًا. فلا يجلب الحبّ إلّا المشقّة».

«لا تتكلّمي عن أشياء لا تفهمينها ولا تليق بالأطفال أصلًا. هذا ما نجنيه من قراءة الرّوايات. سأخبر الدّكتور برنلي بأن يقفل مكتبته».

فهتفت إيميلي: «أوه، أرجوك لا تفعلي يا خالتي إليزابيث. لم يبقَ فيها روايات، ولكنّني بصدد قراءة كتاب شيّقٍ جدًّا هناك، كتاب يُخبرك بكلّ ما يوجد داخل الجسد، وقد وصلت إلى حدّ الكبد وأمراضه. أرجوك اتركيني أكمله». كان ذلك أنكى من الرّوايات، واشتدّ استنكار الخالة إليزابيث. لا تجوز القراءة عمّا يوجد في الجسد.

«ألا تخجلين من نفسك يا إيميلي ستار؟ إن لم تخجلي فسأخجل أنا مكانكِ. لا تقرأ الفتيات الصّغيرات كتبًا من هذا القبيل».

«ولكن لِمَ لا يا خالتي إليزابيث؟ فأنا *عندي* كبد، أليس كذلك؟ وقلب، ورئتان، ومعدة، و..».

«كفى يا إيميلي. ولا كلمة».

خلدت إيميلي إلى النّوم تعيسة، وتمنّت لو لم تنبس بكلمة عن «إزموند». وأدركت أنّه لن يتسنّى لها إنهاء الكتاب الرّائع الآخر، وهذا ما حدث بالفعل. إذ أقفل الدّكتور برنلي مكتبته بعد ذلك، ومنعها هي وإيلسي، بلهجة خشنة، من الدّخول إلى مكتبه. وكان النّقاش قد احتدّ بينه وبين إليزابيث موراي بشأن الموضوع، فتركه في مزاجٍ سيّء للغاية.

لم تقدر إيميلي على نسيان حادثة الغرّة. فقد كانت تسريحتها محلّ السّخريات والمضايقات في المدرسة، كما أنّ الخالة إليزابيث كانت

تحدّق فيها كلّما نظرت إلى إيميلي، فتشعر الفتاة بلفح الشّرار المتطاير من عيني خالتها. ورغم ذلك، نما الشّعر المُنكّل به وبدأت تظهر في ناصية إيميلي خصلات صغيرة ناعمة واستها عن مأساتها. وسُمح لها بالغرّة ضمنيًّا، فشعرت إيميلي بتحسّن ملحوظ في مظهرها. وكانت تعلم، بطبيعة الحال، أنّ خالتها إليزابيث ستأمرها بإزاحتها إلى الوراء حالما ينمو شعرها بما فيه الكفاية، ولكن حسبها أن ترفل الآن في نعيم حُسنها المتزايد.

وكانت الغرّة قد بلغت أوج جمالها حين جاءت رسالة عمّة والدتها نانسي.

كانت الرّسالة موجّهة إلى الخالة لورا، لم تكن العمّة نانسي والخالة إليزابيث تتبادلان حبًّا جمًّا، وقالت فيها العمّة نانسي، «إن كانت لكِ صورة لتلك الطّفلة إيميلي، أرسليها إليّ. لا أريد أن أراها هي، فهي غبيّة، أنا أعلم أنّها غبيّة. ولكن أريد أن أرى شكل ابنة جوليات، وكذلك ابنة ذاك الرّجل المدهش، دوغلاس ستار. لقد كان مدهشًا *حقًّا*، ولم تُثيروا تلك الجلبة لهروبها معه إلّا من فرط حماقتكم. ولو هربت *كلٌّ منكما*، أنت وإليزابيث، مع شخصٍ ما في عنفوان شبابكما، لكان ذلك أفضل لكما».

لم تُكشَف تلك الرّسالة لإيميلي. وتشاورت الخالتان إليزابيث ولورا تشاورًا سرّيًا طويلًا، ثمّ أخبرتا إيميلي بأنّها ستؤخذ إلى مطمر الفأر من أجل التقاط صورة لإرسالها إلى العمّة نانسي. تحمّست إيميلي للأمر أيّما حماس، فلبست فستان الكشمير الأزرق، وأضافت

إليه خالتها لورا ياقة من الدّانتيل الرّفيع وفوقها عقد الخرز الفينيسي، كما أنّها حظيت بحذاء مزرّر جديد للمناسبة.

فكّرت إيميلي في سرور: «كم أنا سعيدة أنّ الأمر حدث طالما مازالت الغرّة موجودة».

ولكن في غرفة المخصّصة لتغيير الملابس لدى المصوّر الفوتوغرافي شرعت الخالة إليزابيث في مشط الغرّة إلى الوراء وشدّها بالدّبابيس.

فتوسّلت إيميلي: «أوه، أرجوك يا خالتي إليزابيث، اتركي الغرّة على جبيني لو سمحت، ولو كان ذلك للصورة فقط. سأمشطها إلى الوراء حالما ننتهي».

ولكن لم يكنِ هنالك مجال للنّقاش مع الخالة إليزابيث العنيدة. فمُشطت الغرّة إلى الوراء والتُقطت الصّورة، ورضيت الخالة إليزابيث عن النّتيجة لمّا رأتها.

«تبدو عبوسة، ولكنّها نظيفة؛ ثمّ إنّ فيها شبهًا بآل موراي لم ألحظه من قبل. وهذا من شأنه أن يسعد العمّة نانسي، فهي تقدّر صلة الرّحم على الرّغم من غرابتها».

أرادت إيميلي أن ترمي بجميع نُسَخِ تلك الصّورة في النّار، فقد جعلتها قبيحة للغاية ولم تعجبها البتّة، إذ بدا جبينها *مهيمنًا* على وجهها. ولو أُرسلت تلك الصّورة إلى العمّة نانسي، فستبدو لها إيميلي أغبى من أيّ وقتٍ مضى. ولمّا وضعت خالتها إليزابيث

الصّورة في غلاف من الورق المقوّى وأمرت إيميلي بأخذها إلى مكتب البريد، كانت إيميلي قد خطّطت سلفًا لما ستفعل. صعدت مباشرة إلى السّقيفة وأخذت من علبتها الصّورة الّتي رسمها لها تيدي بالألوان المائية، وكانت في نفس حجم الصّورة الفوتوغرافية. أزاحتها إيميلي من غلافها وأبعدتها جانبًا بقدمها.

وقالت: «هذه ليست *أنا*، أبدو فيها عبوسة لأنّني كنت فعلًا عبوسة بسبب حرماني من الغرّة. ولكنّني أكاد لا أعبس أبدًا، فهذه الصّورة ليست عادلة».

لفّت رسم تيدي بالورق المقوّى، ثمّ جلست لتكتب رسالة.

«عمّتي العزيزة نانسي:

«أخذتني خالتي إليزابيث لالتقاط صورة فوتوغرافية لكي ترسلها إليك، ولكنّها لم تُعجِبني لأنّني أبدو فيها بشعة جدًّا، فعوّضتها بصورة أخرى رسمها لي *صديق فنّان*. وهي تشبهني تمامًا حينما أبتسم وأسدل غرّتي على جبيني، ولكنّني لا أعطيها لك، بل أقرظها فحسب، لأنّها عزيزة جدًّا على قلبي.

«حفيدة أخوك المطيعة،

«إيميلي بيرد ستار.

«تذييل: لست بالغباء الّذي تظنّينني عليه.

«إ. ب. س.

«تذييل رقم 2: لست غبيّة *البتّة*».

دسّت إيميلي رسالتها مع الصّورة -وخاتلت بذلك مكتب البريد دون أن تشعر- ثمّ تسلّلت من البيت لإرسالها. وبعد أن تركت الرّسالة محفوظة لدى مكتب البريد، تنفّست الصّعداء واستمتعت بطريق عودتها إلى المنزل. كان يومًا عاديًّا من بداية نيسان يتراءى لك فيه الربيع حيثما ولّيت وجهك. كانت سيّدة الرّياح تضحك وتصفّر فوق الحقول الحُلوة النّديّة، بينما تعقد الغربان اجتماعات صاخبة على قمم الأشجار؛ وتترقرق في جوف الوديان المطحلبة بُحيراتٌ من الضّياء الوضّاح، فيما يلمع سطح البحر كحجر ياقوت أزرق من وراء التّلال الذّهبية. ترامى إلى مسمع إيميلي همس أشجار القيقب من أيكة جون المتغطرس وهي تتحدّث عن البراعم الحمراء. وكانت تجد في تلك الأيكة وسحرها الأخّاذ كلّ ما قرأته عن الأحلام والخرافات والأساطير. وسرى آنذاك في كامل جسدها، حتّى أناملها، فيضٌ من نشوة الحياة.

فهتفت: «آه، اشتمّ رائحة الرّبيع!» ورقصت على طريق النّهر.

ثمّ شرعت تؤلّف قصيدة عنه. لم يشهد أحدٌ الحياة واستطاع مواءمة قافيتيْن إلّا وكتب قصيدة عن الرّبيع. فهو أجدر موضوع بالشّعر، وسيظلّ كذلك دومًا، فالرّبيع في حدّ ذاته تجسيدٌ للشّعر. ولن يُعدّ المرء شاعرًا ما لم يكتب عن الرّبيع قصيدة واحدة على الأقلّ.

كانت إيميلي تتساءل إن كان يجدر بها الحديث في قصيدتها عن حوريّات تتراقص على ضفّة النهر تحت ضوء القمر، أو عفاريت

تنام في سرير من السّراخس، عندما اعترضها في منعرج الطّريق مخلوق لم يكن حوريّة ولا عفريتًا، ولكن فيه من الغرابة والشّذوذ ما يجعله خليقًا بالانتساب إلى قبائل المخلوقات الصّغيرة. هل هي ساحرة؟ أم هي جنيّة عجوز للنّوايا السّيئة، تلك العرّابة الشّريرة الّتي نقرأ عنها في جميع قصص التّعميد؟

ولمّا رأت العجوزُ أنّ إيميلي تقف شاخصة فيها من شدّة دهشتها، قالت لها: «أنا خالة الوادْ، خالته توم».

فتنفّست إيميلي الصّعداء قائلة: «أوه!» ها قد انزاح عنها الخوف. ولكن يا*لغرابة* مظهر الخالة توم، خالة بيري. إنّها طاعنة في الكبر، بل وصلت إلى أرذل العمر لدرجة أنّه يصعب تصديق مرورها بمرحلة الشّباب. كانت على رأسها قلنسوة حمراء قانية تغطّي خصلات شعرها النّاتف الشّائب الهفهاف، ومن وجهها الصّغير المغضّن بمئات التّجاعيد الرّقيقة المتشابكة، ينتأ أنف طويل أعقف، وتلمع تحت حاجبيْها الكثّين عينان صغيرتان رماديّتان تصدر عنهما نظرة متلهّفة. وكانت ترتدي معطفًا رجاليًّا يغطّيها من رقبتها إلى قدميها، وتحمل في يد سلّةً، وفي الأخرى عصًا بارزة العُقد.

قالت الخالة توم: «لم يكن التّحديق يُعدّ سلوكًا حسنًا في عصري».

فكرّرت إيميلي: «أوه! أنا آسفة» ثمّ أضافت وهي تحاول استرجاع عاداتها الحميدة: «كيف حالك!».

فرمقتها الخالة توم بفضول وقالت: «مؤدّبة، وليست متغالية

جدًّا. كنت في البيت الكبير لأعطي زوجًا من الجوارب للوادْ، لكنّني جئت لأراك أنتِ على وجه الخصوص».

فقالت إيميلي في ذهول: «أنا؟».

«أيْ نعم. لقد حدّثني عنك الوادْ غير مرّة، فجاءتني فكرة ليست بسيّئة. ولكن أريد أن أتأكّد قبل أن أخسر أموالي القليلة. اسمك إيميلي بيرد ستار، وطبعك من آل موراي. لو حرصتُ على دراسة الوادْ، هل تتزوّجينه عندما يكبر؟».

فكرّرت إيميلي: «أنا!» وبدا لها أنّ ذلك كلّ ما في وسعها أن تقول. هل هي تحلم؟ لا ريب في أنّه حلم.

«أجل، أنتِ. إنّك نصف موراي، وسيكون ذلك تقدّمًا ملحوظًا في حياة الوادْ. إنّه ذكيّ وسيصبح ثريًّا في يومٍ من الأيام، وسيحكم البلاد. ولكنّني لن أنفق عليه سنتًا واحدًا إلّا إذا وعدتني».

فهتفت إيميلي: «لن تسمح لي خالتي إليزابيث بذلك»، وقد منعها الخوف من تحمّل مسؤوليّة الرّفض أمام هذا المخلوق العجيب.

اقتربت الخالة توم بوجهها من وجه إيميلي حتّى دغدغ شعر حاجبيْها أنفَ الفتاة، وقالت: «لو فيك ذرّة من دم موراي، لاتّخذت قراراتك بنفسك. قولي إنّك ستتزوّجين الوادْ وسترينْه في طريقه إلى الجامعة».

كان يبدو أنّ إيميلي فقدت قدرتها على الكلام، ولم يخطر ببالها شيء لتقوله .آه، *ليتها* تستيقظ الآن! ولكنّها عجزت حتّى عن الجري.

ودقّت الخالة توم حجرًا في الأرض بعصاها وقالت بإصرار: «تكلّمي!».

أخذ الرّعب من إيميلي مأخذه، لدرجة أنّها كانت على وشك أن تقول شيئًا، أيّ شيء، لكي تهرب منها. ولكن وثب آنذاك بيري من خميلة التّنوب، وقد امتقع وجهه من شدّة غضبه، فأمسك بخالته من كتفها بعنف شديد وصرخ ساخطًا:

«عودي إلى بيتك!».

فقالت الخالة توم بصوتها المتهدّج في استخفاف: «ما لك يا وادْ؟ كنت أريد أن أسدي لك معروفًا، وطلبت منها أن تتزوّجك بعد قليل و..».

جُنّ جنون بيري. وقال: «سأطلب ما أريد طلبه بنفسي! ها أنت قد أفسدت كلّ شيء تقريبًا. عودي إلى البيت، قلت لكِ اذهبي!».

فذهبت الخالة توم تتهادى وتُتمتم: «إذن لن أكلّف نفسي عناء إنفاق مالي القليل. لا مال بلا موراي يا وادْ».

عندما اختفت العجوز وراء النّهر، التفت بيري إلى إيميلي، وقد تحوّل شحوبه إلى حمرة قانية.

وقال: «لا تبالي بها، إنّها مخبولة. طبعًا سأسألك الزواج منّي عندما أكبر، ولكن..».

«لا أستطيع. خالتي إليزابيث..».

«أوه، ستقبل آنذاك. سأصير رئيس وزراء كندا يومًا ما».

«ولكنّني لن أريد، أنا متأكّدة من أنّني لن..».

«بلى، ستريدين عندما تكبرين. إيلسي أجمل منك طبعًا، ولا أدري لماذا أفضّلك أنت ولكنّي أفضّلك».

فنهرته إيميلي، وقد بدأت تستعيد كرامتها: «لا تخاطبني بهذه الطّريقة مجدّدًا!».

قال بيري بابتسامة ساذجة: «أوه، لن أفعل... حتّى نكبر. وأنا متحرّج من الأمر مثلك تمامًا، ولكن توجّب عليّ أن أقول شيئًا بعدما تدخّلت خالتي توم بتلك الطّريقة، ولا يُلام عليّ في الموضوع، فلا تحملي عنّي ضغينة. ولكن تذكّري فقط أنّني سأطلب يدكِ يومًا ما، وأظنّ أنّ تيدي كينت سيفعل أيضًا».

وكانت إيميلي تبتعد عنه مختالة، ولكنّها التفتت إليه عند كلمته الأخيرة تلك، وقالت من وراء كتفها بجفاء:

«لو سألني فسأتزوّجه».

فصاح بيري وقد اشتعل غضبًا: «لو تزوّجتِه فسأحطّم جمجمة رأسه».

ولكنّ إيميلي واصلت طريقها بخطى ثابتة حتّى بلغت البيت، فصعدت إلى السّقيفة لتفكّر مليًّا في بعض الأمور.

«كان هذا رومانسيًّا ولكن محرجًا»، هذا ما استخلصت إيميلي من أحداث يومها، وظلّت قصيدة ذاك اليوم بالذّات غير مكتملة.

عِزبة ويذر

لم يأت أيّ ردّ أو إشعار من العمّة نانسي بريست بشأن صورة إيميلي. وبحكم معرفة الخالتين إليزابيث ولورا بأساليب العمّة نانسي معرفةً عميقة، لم يفاجئهما صمتها، على عكس إيميلي الّتي ساورها القلق. ربّما استهجنت العمّة نانسي فعلتها، أو ربّما قرّرت ألّا تكلّف نفسها عناء المبالاة بطفلة غبيّة كإيميلي. لم يرُق لإيميلي أن تُوصم بالغباء هكذا، فكتبت على إحدى فواتير الرّسائل رسالة لاذعة إلى العمّة نانسي لم تدّخر فيها كلماتها للتعبير عن رأيها إزّاء جهل تلك العجوز بقواعد اللّياقة في كتابة الرّسائل. ثمّ طوت الورقة ودسّتها في الدّرج الصّغير تحت المقعد بعد أن أدّت الرّسالة مهمّتها في الترويح عن نفس إيميلي، ولم تعاود الفتاة التّفكير في الموضوع مجدّدًا؛ إلى أن جاءت في شهر تمّوز رسالة من العمّة نانسي.

تحدّثت الخالتان إليزابيث ولورا بشأنها في المطبخ الخارجي، ناسيتيْن -أو متجاهلتيْن- وجود إيميلي جالسةً أمام المطبخ على العتبة. وكانت الطّفلة تتخيّل نفسها في مَضافة الملكة فيكتوريا، في فستانٍ أبيض موشّى بريش النّعام، ذي وشاحٍ وذيل متوسّط الطّول؛ وكانت بصدد الانحناء لتلثم يد الملكة عندما ترامى إلى

مسمعها صوت الخالة إليزابيث وثَقَبَ فقاعة أحلامها مثلما يهشِّم انعكاسَ الحوريات حجرٌ يُرمى على سطح الماء.

كانت الخالة إليزابيث تقول: «ما رأيك أن نرسل إيميلي لزيارة عمّتي نانسي يا لورا؟».

نصّت إيميلي أذنيها. ما الّذي يُخطَّط لها الآن؟

قالت لورا: «يبدو من رسالتها أنّها متلهّفة لأخذ الطّفلة».

نخرت إليزابيث.

«نزوة، إنّها مجرّد نزوة. أنت تعرفين نزواتها جيّدًا. ومن الأرجح أن تكون قد تجاوزت نزوتها تلك بمجرّد وصول إيميلي إليها، وستصبح آنذاك في غنىً عنها».

«أجل. ولكن من جهة أخرى، ستغضب ولن تغفر لنا -أو لإيميلي- إذا لم نتركها تذهب إليها. علينا أن نتيح لإيميلي فرصتها».

«لا أدري إن كانت فرصها تُقدّر بالكثير. لو كان بحوزة عمّتي نانسي أموال غير معاشها السّنوي، وهذا ما لا أعرفه أنا ولا أنتِ ولا أيّ مخلوق آخر باستثناء كارولين، فيُرجّح أن تتركه لبعض أفراد عائلة بريست، ولِزْلِي برسيت هو الأحبّ إليها، بحسب ما أعلم. لطالما أحبّت عمّتي نانسي عائلة زوجها أكثر من عائلتها، ولو أنّها لا تلَبث تشتمها. ولكن *ربّما* تُعجبها إيميلي، فكلتاهما غريبتان لدرجة أنّهما قد تتعاشران. ولكنّك تعرفين طريقة حديثها، فضلًا عن وجود كارولين، تلك العجوز اللّئيمة».

قالت الخالة لورا: «إيميلي أصغر ممّا يسمح لها باستيعاب الأمر».

فهتفت إيميلي باستنكار: «بل أستوعب أكثر ممّا تظنّين».

دفعت الخالة إليزابيث باب المطبخ الخارجي بقوّة لتفتحه.

«إيميلي ستار، ألم تتعلّمي بعدُ ألّا تتصنّتي حديث الآخرين؟».

«لم أكن أتصنّت، ظننت أنّكما تعلمان بوجودي هنا، ولا يمكنني أن أمنع أذنيّ من *السّمع*. لماذا لم تهمسا؟ لو همستما، لعلمت أنّكما بصدد البوح بأسرار ولما حاولت استراق السّمع. هل سأذهب لزيارة عمّتي نانسي؟».

فقالت الخالة إليزابيث ببرود: «لم نقرّر بعدُ»، وكانت تلك آخر كلمات قيلت لإيميلي في الموضوع طيلة أسبوع. ولم تدرِ، هي نفسها، إن كانت راغبة في الذّهاب أم لا. فقد شرعت الخالة إليزابيث في صنع الأجبان -وكانت مزرعة القمر الجديد مشهورة بجودة أجبانها-، وانبهرت إيميلي بالعمليّة ومراحلها، من وضع المنفحة في اللّبن الجديد الدّافئ إلى تعليب الرّوائب البيضاء في قوالب دائريّة ووضعها تحت المكبس في البستان القديم، ليضغط عليها «حجر الجبن» المستدير الرّمادي الكبير مثلما ضغط على كافّة أجبان القمر الجديد طيلة قرن كامل. ثمّ انغمست مع إيلسي وتيدي وبيري، قلبًا وروحًا، في «تمثيل» مسرحيّة *حلم ليلة في منتصف الصّيف*[1] بأيكة جون المتغطرس، وكان عرضهم أخّاذًا. ومتى دخلوا الأيكة، غادروا

(1) من أشهر مسرحيّات ويليام شكسبير الكوميديّة، صدرت في عام 1600.

مملكة النّهار والأشياء المألوفة ومرقوا إلى مملكة الغروب بغموضها وسحرها. كان تيدي قد رسم مشاهد رائعة على ألواح قديمة وقطع من الأشرعة الّتي جلبها بيري من الميناء. صنعت إيلسي أجنحة حوريات بديعة من الورق والقماش اللّامع، وأعدّ بيري رأس حمار لشخصيّة *بوتوم* من جلد عجل قديم، وكانت النّتيجة واقعيّة للغاية. انهمكت إيميلي طيلة أسابيع تنقل مختلف الأدوار وتكيّفها بحسب السّياق؛ صحيحٌ أنّها «مزّقت» المسرحية على نحوٍ قد تهتزّ له روح شكسبير من شدّة روعها، ولكنّها توصّلت في نهاية المطاف إلى نتيجة مقبولة ومتماسكة. ولم يمانع أحد من أولئك الممثّلين الأربع الصغار أخذ ستّة أضعافهم من الأدوار. فاتّخذت إيميلي دور *تيتانيا* و*هيرميا*، بالإضافة إلى عدد من الحوريّات، وأدّت إيلسي دور *هيبوليتا* و*هيلينا* وبعض الحوريّات، أمّا الصَّبِيّان فقد مثّلا كلّ ما يتطلّبه الحوار. لم تعلم الخالة إليزابيث عن ذلك شيئًا؛ وإلّا لوضعت حدًّا للعمليّة برمّتها في الإبّان ظنًّا منها أنّ التّمثيل رجسٌ من عمل الشّيطان. ولكن كانت الخالة لورا على علمٍ بالمؤامرة، وحضر كلٌّ من ابن العمّ جيمي وجون المتغطرس إحدى البروفات تحت ضوء القمر.

لا ريب في أنّ مغادرة كلّ ذلك، ولو لفترة قصيرة، سيصعب على إيميلي. لكنّها من جهة أخرى، كانت تتحرّق شوقًا لرؤية عمّة أمّها نانسي وعِزبة ويذر، منزلها القديم الجذّاب في غدير الكاهن بكلبيْه الحجريّيْن المشهوريْن على عموديْ البوّابة. ظنّت في الإجمال

أنّها راغبةٌ في الذّهاب؛ ولمّا رأت خالتها لورا تنشّي تنانيرها البيضاء، وخالتها إليزابيث متجهّمةً في السّقيفة تنفض الغبار عن حقيبة سوداء مُسمّرة صغيرة، أدركت، دون أن يخبرها أحد، أنّ الزّيارة إلى غدير الكاهن ستحدث بالفعل. فأخرجت الرّسالة الّتي كتبتها للعمّة نانسي وأضافت إليها تذييلًا للاعتذار.

عمدت إيلسي إلى الاستياء من ذهاب إيميلي في تلك الزّيارة، ولم يكن ذلك في الحقيقة إلّا توجّسًا ممّا ينتظرها من وحدة طيلة شهر كامل أو أكثر بلا صديقتها المقرّبة. فلا أمسيات بهيجة من التّمثيل في أيكة جون المتغطرس، ولا خصومات شرسة. ثمّ إنّ إيلسي لم تذهب في زيارة إلى أيّ مكان في حياتها، وأشعرها ذلك بنقص مرير.

قالت إيلسي: «ما كنت لأذهب إلى عزبة ويذر مهما كان الأمر، فهو بيتٌ مسكون».

«كلّا».

«بلى! يسكنه شبح *تشعرين* به *وتسمعينه* دون أن *تريه*. آه، لا أودّ أن أكون محلّك مهما حصل! ثمّ إنّ خالتك نانسي عجوز غريبة *بغيضة*، وتعيش معها *ساحرة*. سوف تلقي عليك تعويذة، وستضمرين ثمّ تموتين».

«لن أموت، ولن تلقيَ عليّ شيئًا!».

«*بلى*! بل تدبّ الحياة في الكلبيْن الحجريّين بفعلها، ويعويان كلّ ليلة متى اقترب غريب من البيت، ويصيحان «ووو -وور- ووو»».

لم تولد إيلسي مُحاضِرة من عدم، فقد كانت صوت «ووو -وور -ووو» حريًّا بإفزاع أشجع الشّجعان. ولكن كانت شمس النّهار بازغة، وكانت إيميلي في النّهار أشجع من الأسود.

فقالت: «أنت غيورة»، ثمّ انصرفت.

صاحت بها إيلسي: «لست غيورة يا أمّ الأربع والأربعين. تتعاليْن عليّ لأنّ خالتك لديها كلاب حجريّة على أعمدة بوابتها! أعرف امرأة في مطمر الفأر لديها كلاب حجريّة أكثر من كلاب خالتك بعشر مرّات!».

ولكن جاءت إيلسي في صباح اليوم الموالي لتودّع إيميلي وتتوسّل إليها لتراسلها كلّ أسبوع. وكانت إيميلي ذاهبة إلى غدير الكاهن على متن عربة كيلي العجوز، بعدما تعذّر على خالتها إليزابيث أن تقودها بعربتها بسبب وعكة صحّية انتابتها في ذاك اليوم، واضطرت الخالة لورا إلى ملازمة أختها، وتوجّب على ابن العمّ جيمي البقاء للعمل في التّبن. وبدت الزّيارة على وشك أن تُلغى، وهي مسألة حرجة لأنّ العمّة نانسي كانت في انتظار قدومها ذلك اليوم وهي لا تحبّ أن يخيب أملها؛ ولو لم تذهب إيميلي إلى غدير الكاهن في اليوم المُقرَّر سلفًا، لصفعت العمّة نانسي الباب في وجهها متى جاءت ولأمرتها بأن تعود أدراجها. وما كان لشيءٍ آخر أن يدفع بالخالة إليزابيث إلى قبول مقترح كيلي العجوز بأخذ إيميلي إلى غدير الكاهن معه، بما أنّه يقطن في الضّفة الأخرى من الغدير وسيتوجّه إلى هناك مباشرة.

ابتهجت إيميلي للفكرة، إذ يُعجبها كيلي العجوز، وبدت لها السّفرة على عربته الحمراء الرّفيعة بمثابة مغامرة شيّقة. ورُفعت حقيبتها السّوداء إلى سطح العربة ورُبطت بإحكام، ثمّ انصرفا على درب القمر الجديد في عربة تتوهّج وتقعقع في أبّهة وعظمة. وكلّما ارتطمت وراءهم الأواني القصديرية بعضها ببعض، أحدثت صخبًا شبيهًا بزلزال طفيف.

قال كيلي العجوز: «انهضي يا فتاة، هيّا. يسرّني طبعًا أن أقود البنات الجميلات في عربتي. متى الزّفاف؟».

«زفاف من؟».

«يا لمكرها! زفافك أنتِ، طبعًا».

قالت إيميلي: «ليست لديّ أدنى نيّة للزّواج... حاليًّا»، وهي تقلّد على أحسن وجهٍ نبرة الخالة إليزابيث وأساليبها.

«طبعًا، من شابه أباه فما ظلم. كأنّي بالآنسة إليزابيث تتحدّث أمامي. انهضي يا فتاة، هيّا».

فقالت إيميلي، خشية أن تكون قد أهانت كيلي العجوز: «لم أقصد إلّا أنّني صغيرة جدًّا على الزّواج».

«يكون الأمر أفضل كلّما كنت أصغر؛ لكي يقلّ الأذى الّذي قد تسبّبه هاتان العينان المُغويتان. انهضي يا فتاة، هيا بنا. لقد تعبت الدّابّة، وعلينا أن نتركها تمضي متى أرادت. إليك كيس الحلوى هذا. كيلي العجوز يدلّل دومًا السّيدات. هيّا، أخبريني عنه».

«عمّن؟» ولكن فهمت إيميلي قصده جيّدًا.

«عن حبيبك، طبعًا».

«ليس لي أيّ حبيب. وأفضّل ألّا نتحدّث عن مثل هذه المواضيع، سيّد كيلي».

«طبعًا، لن نتحدّث فيه إن كان موضوعًا شائكًا. ولا بأس إن لم يكن لديك حبيب، سينهالون عليك أفواجًا أفواجًا بعد مدّة. وإن عثرت على الشّخص المناسب ولم يعرف ما يصلح به، تعالي إلى كيلي العجوز ليعطيك شيئًا من مرهم الضّفدع».

مرهم ضفدع! يبدو ذلك مقرفًا. ارتجفت إيميلي؛ ولكنّها فضّلت الحديث عن مرهم الضفدع على موضوع الحبيب.

«ولمَ يصلح هذا؟».

فردّ كيلي العجوز في غموض: «إنّه وصفة سحريّة للحبّ. تضعين منه قليلًا على جفنيْه وسيلازمك طيلة حياتك دون أن تزوغ عينه إلى سواكِ».

فقالت إيميلي: «تبدو لي الوصفة *مقرفة*، كيف تصنعها؟».

«أغلّي أربع ضفادع حيّة إلى أن تستوي وتصبح طريّة ثمّ أهرسها..».

فوضعت إيميلي يديها على أذنيها وتوسّلت: «كفى، كفى أرجوك! لا أريد أن أسمع المزيد، كيف لك أن تكون بهذه القسوة!».

«قسوة ماذا؟ لقد أكلتِ اليوم جراد بحر مغليًّا حيًا..».

«لا أصدّق. ولا أريد أن أصدّق. وإن كنت محقًّا، فلن آكل منه مجدّدًا ما حييت. آه، سيّد كيلي، لقد ظننت أنّك رجل طيّب صالح... ولكن، مسكينة تلك الضّفادع!».

«صغيرتي، كنت أمازحك فحسب، ولن تحتاجي إلى مرهم الضّفدع إن كسبت قلب الفتى. انتظريني، لديّ هديّة لك في العلبة الّتي ورائي».

سحب كيلي العجوز علبة وضعها على ركبتي إيميلي، فوجدت فيها فرشاة شعر صغيرة لطيفة.

وقال كيلي العجوز: «انظري إلى ظهرها. سترين شيئًا جميلًا، أفضل من كلّ وصفات الحبّ السّحريّة».

فقلبتها إيميلي، ورأت صورتها منعكسة على مرآة صغيرة في ظهر الفرشاة تزيّنها نقوش وورود صغيرة.

هتفت إيميلي: «أوه، سيد كيلي، ما أجملها! أقصد الورود والمرآة. هل هي حقًّا لي؟ آه، شكرًا، شكرًا جزيلًا لك! سأتمكن الآن من رؤية إيميلي-في-المرآة متى أردت. بل يمكنني أن آخذها معي حيثما ذهبت. وهل كنت حقًّا تمازحني عندما أخبرتني عن الضفادع؟».

«طبعًا، هيا بنا يا فتاة. ستزورين إذن السّيدة العجوز في غدير الكاهن؟ هل سبق وذهبت إلى هناك؟».

«لا».

«إنّه مليء بآل بريست. لا يرمي المرء هنالك حجرًا إلّا وأصاب

أحدهم. وإن أُصيب أحدهم، يُصاب جميعهم، فهم يفوقون آل موراي كبرياء وغطرسة. ولا أعرف منهم إلّا آدم بريست، فالآخرون متعالون جدًّا. أمّا آدم فهو البطّة القبيحة بينهم وكثير المخالطة للنّاس. ولو أردت أن تري كيف أصبح العالم بعد الطّوفان، فما عليك إلّا أن تزوري فناءه في يوم ممطر. انظري إليّ يا صغيرتي» -وخفض كيلي العجوز صوته في غموض- «إيّاك أن تتزوجي بأحدٍ من آل بريست».

فسألت إيميلي: «ولمَ لا؟» ولم تفكّر سابقًا في الزّواج من آل بريست، ولكن أثار كيلي العجوز فضولها لمعرفة السّبب.

«إنّهم لا يصلحون للزواج... ولا للعيش. تموت زوجاتهم في سنّ مبكّرة. وصحيحٌ أنّ سيّدة العزبة تغلّبت على زوجها ودفنته قبلها، ولكن حالفها حظّ موراي. ينبغي ألّا يثق المرء في الحظّ كثيرًا. والوحيد الصّالح بينهم هو ذاك الّذي يسمّونه خرعان بريست، ولكنّه يكبرك سنًّا».

«ولماذا يسمّونه خرعان؟».

«لأنّ لديه خرعًا في أحد كتيفيْه يجعله أعلى من الآخر بقليل. وهو ميسور الحال ولا يحتاج إلى العمل، وأظنّ أنّه قارض كتب. هل عندك شيءٌ من الحديد البارد؟».

«لا؛ لماذا؟».

«كان يجدر بك جلب القليل معك. فستجدين في العزبة العجوز كارولين بريست، وهي ساحرةٌ إن وُجدت السّاحرات».

«هذا ما قالته لي إيلسي، ولكن لا وُجود للسّاحرات في الحقيقة يا سيّد كيلي».

«لعلّك محقة، ولكن يجدر بك أن تتوخّي الحذر. خذي مسمار الحدوة هذا واحفظيه في جيبك، وحاولي ألّا تزعجيها إن استطعت. هل تمانعين أن أدخّن قليلًا؟».

لم تمانع إيميلي البتّة، فتلك فرصةٌ لتخلو إلى أفكارها الّتي كانت ألطف من حديث كيلي العجوز عن الضّفادع والسَّحَرة. كان الطّريق من معبد المياه إلى غدير الكاهن رائعًا، يلتفّ على طول شاطئ البحر ويعبر أنهارًا ومضائق محفوفة بشجر التّنوب، ويمرّ من حين إلى آخر بأحد الغدران الّتي شهرت بها تلك الجهة من السّاحل الشّمالي: معبد المياه، وغدير السّنديان، والغدير الطّويل، والغدران الثّلاثة، وهي ثلاث بحيرات زرقاء متّصلة وكأنّها ثلاث ياقوتات زرقاء يربطها سلك فضّي رقيق، وأخيرًا غدير الكاهن، وهو أكبرها، ويشبه معبد المياه في شكله المستدير. وفي الطّريق إليه، تجرّعت إيميلي تفاصيل المشهد بِنَهَمٍ، فعليها أن تكتب عنه وصفًا في أقرب وقت ممكن، وكانت قد جلبت معها كرّاس ابن عمّها جيمي خصّيصًا لهذا الصّدد.

بدا الجوّ مشحونًا بغبار شفّاف يحوم فوق الغدير العظيم والمزارع الصّيفية الظّليلة حوله؛ وتلبّدت وراءه سماء الغرب بحمرة غابرة فوق خليج مَالْفِرْن؛ حيث ترى قوارب رماديّة ضئيلة تنساق مع التّيار قربًا من الشّاطئ المكلّل بالتّنوب. وكان هنالك طريق

فرعيّ معزول محفوف بأشجار كثيفة من القيقب والبتولا يؤدّي إلى عزبة ويذر. ما أندى الهواء وأبرده في الوديان! وما أروع رائحة أشجار الصنوبر! تأسّفت إيميلي لنهاية الجولة عند وصولها إلى عزبة ويذر، حيث مرقت من بين عموديْ البوّابة، وكان الكلبان الحجريّان ينتصبان فوقها شامخيْن في جمود، وقد زادهما ضوء الشّفق الخافت صرامة.

كان باب البهو مفتوحًا وتنبعث منه حزمة ضياءٍ على الحديقة، وكانت تقف عنده امرأة مسنّة ضئيلة. وبدا كيلي العجوز مستعجلًا، فوضع إيميلي وحقيبتها على الأرض وصافحها بسرعة ثمّ همس لها: «لا تفقدي ذاك المسمار الصّغير. مع السّلامة. أتمنّى لك برودة الأعصاب ودفء القلب»، ثمّ انطلق قبل أن تصل إليهما العجوز.

سمعت إيميلي صوتًا حادًّا أجشّ يخاطبها قائلًا: «إذن هذه هي إيميلي، فتاة القمر الجديد!» وشعرت بيد نحيلة شبيهة بالمخالب تقبض على يدها وتأخذها إلى الباب. لا وُجود للسّاحرات -كانت إيميلي تعلم ذلك جيّدًا-، ولكنّها دسّت يدها في جيبها ولمست مسمار الحدوة.

صفقة مع الأشباح

قالت كارولين بريست: «عمّتك في انتظارك بالرّدهة الخلفيّة. تعالي من هنا. هل أنت مُتعبة؟».

فردّت إيميلي: «لا» وهي تتبع كارولين وتفحصها بتمعّن شديد. لو كانت كارولين ساحرة حقًّا، فهي ساحرة صغيرة جدًّا، إذ لم يكن طولها يتجاوز طول إيميلي نفسها. وكانت ترتدي ثوبًا حريريًّا أسود، وعلى شعرها الأبيض الضّارب إلى الصّفرة قبّعة من الشّبك الأسود ذات حاشية سوداء مكشكشة. ولم تظنّ إيميلي أنّه بإمكان الوجوه أن تتغضّن بمثل ما تغضّن وجه كارولين؛ وكانت فيه عينان فريدتان ذاتي لونٍ رماديّ ضارب إلى الخُضرة، واكتشفت إيميلي لاحقًا أنّه لون «دارج» في عيون آل بريست.

قالت في قرارة نفسها: «ربّما أنتِ ساحرة، ولكن أظنّ أنّه لن يصعب عليّ تدبّر *أمرك*».

ثمّ مرّتا بالرّواق الفسيح، والتقطت إيميلي على جانبيْه نظرات خاطفة إلى الغرف الواسعة الفاخرة المعتمة، ثمّ عبرتا المطبخ وصولًا إلى رواق صغير غريب من الخلف. كان طويلا وضيّقًا ودامسًا، وعلى جانبه أربع نوافذ كبيرة مصطفّة، مربّعة الشّكل صغيرة

البلّورات، وعلى الجانب المقابل دواليب تمتدّ من الأرض إلى السّقف وتوصدها أبواب من الخشب الأسود اللّامع. شعرت إيميلي وكأنّها إحدى شخصيّات قصّة رومانسيّة قوطيّة تجوب أرجاء زنزانة تحت الأرض في جوف اللّيل ويقودها مرشد مريب؛ وكانت قد قرأت *أسرار أودولفو*[1] و*رومانسيّة الغابة*[2] قبل أن تُحرَّم عليها مكتبة الدّكتور برنلي. وسرت في جسدها قشعريرة، إذ كان الأمر مفزعًا وشيّقًا في آنٍ واحد.

في نهاية الرّواق، وصلتا إلى أربع درجات تؤدّي إلى باب، وبجانبها ساعة ذات صندوق طويلة تكاد تلامس السّقف.

همست كارولين: «نحبس فيها الفتيات الصّغيرات عندما يُسئن السّلوك»، وأومأت برأسها إلى إيميلي وهي تفتح الباب المؤدّي إلى الرّدهة الخلفيّة.

ففكّرت إيميلي: «سأحرص جيّدًا على ألّا تحبسيني *أنا* فيها».

كانت الرّدهة الخلفيّة عبارة عن غرفة قديمة جذّابة نُصبت فيها مائدة العشاء. عبرتها إيميلي وراء كارولين الّتي طرقت بابًا آخر، مستخدمةً دقّاقة قديمة جميلة قُدّت من النّحاس على شكل قطّ تشيشير، قطّ ذي ابتسامة عذبة لدرجة أنّ كلّ من يراها يبتسم بدوره. وقال أحدهم: «تفضّلا»، فنزلتا أربع درجات أخرى -هل من منزل أكثر طرافة من هذا؟- للوصول إلى غرفة النّوم.

---

(1) رواية قوطيّة للكاتبة البريطانية آنْ رادكليف نُشرت في عام 1794.

(2) رواية رعب قوطيّة للكاتبة البريطانية آنْ رادكليف نُشرت في عام 1791.

وها هي أخيرا العمّة نانسي بريست جالسة في مقعدها، وعصاها السّوداء تستند إلى ركبتها، بينما تربض يداها الرفيعتان البيضاوان، ولم يهجرهما الجمال ولا الخواتم البرّاقة بعدُ، على مئزرها الحريري الأرجواني.

سرت في جسد إيميلي رعشة خيبة أمل بيّنة. فبعدما سمعت تلك القصيدة الّتي تُثني على حُسن نانسي موراي بشعرها الكستنائي، وعينيها البنّيتيْن اللّامعتيْن، ووجنتيْها النّاعمتيْن المتورّدتيْن، كانت تنتظر أن تكون العمّة نانسي آية في الجمال على الرّغم من سنواتها التّسعين. ولكنّها وجدتها بيضاء الشّعر، شاحبة البشرة، متغضّنة، مُنكمشة، رغم أنّ عينيْها لم تفقدا شيئًا من بريقهما وفطنتهما. كانت تبدو، إلى حدّ ما، شبيهة بحوريّة مسنّة -حوريّة عجوز مراوغة ومتسامحة، ولكنّها قد تنقلب شرّيرة إذا ما انزعجت-، بيد أنّ الحوريّات لا يلبسن أقراطًا ذهبيّة طويلة تكاد تلامس أكتافهنّ، أو قبّعات من الدّانتيل الأبيض عليها زهرات ثالوث أرجوانيّة.

وهتفت: «إذن هذه ابنة جوليات!» ومدّت إحدى يديها اللّامعتيْن إلى إيميلي، ثمّ أضافت: «لا تفزعي يا فتاة، لن أقبّلك. لم أحبّذ يومًا فكرة تسليط قُبلي على مخلوقات لا حول لها ولا قوّة لمجرّد أنّها بُليَت بقرابتي. قولي لي يا كارولين، لمن تُشبه؟».

كشّرت إيميلي سرًّا. ها هي ستتكبّد مرّة أخرى عذاب مقارناتٍ تنبش أنوفًا وعيونًا وجباهًا من القبور لتوائمها مع وجهها؛ وقد سئمت الفتاة النّقاشات عن مظهرها كلّما اجتمعت العائلة.

قرّبت كارولين وجهها من وجه إيميلي حتّى تراجعت الطّفلة في حركة لاشعوريّة، ثمّ قالت: «لا تشبه آل موراي كثيرًا. ليست بمثل جمالهم».

«ولا حتّى بجمال آل ستار. كان والدها رجلًا وسيمًا، حتّى إنّني كنت أهرب معه بدوري لو كنت أصغر بخمسين سنةً. لم ترث شيئًا من جوليات على ما أرى. كانت جوليات حسناء، وأنت لست بالوسامة الّتي تبدين عليها في ذاك الرّسم، ولم أتوقّع خلاف ذلك. لا يُوثق في الصّور ولا في المرائي، وأين غرّتك يا إيميلي؟».

«مشطتها لي خالتي إليزابيث إلى الخلف».

«إذن امشطيها إلى الأسفل مجدّدًا طالما أنتِ في بيتي. فيك شيء من جدّك موراي على مستوى حاجبيْك. كان جدّك رجلًا بهيّ الطّلعة وشديد الانفعال، يكاد يفوق في ذلك آل بريست. ألا توافقينني يا كارولين؟».

فقالت إيميلي بجرأة: «لو سمحت يا عمّتي نانسي، أفضّل ألّا أُقارَن بالآخرين. فأنا لا أشبه إلّا نفسي».

ضحكت العمّة نانسي وقالت:

«تبدين لي جسورة. وهذا أحسن، فلا يروق لي الصّغار الخُنُع. إذن لست غبيّة، هه؟».

«كلّا، لستُ غبيّة».

ابتسمت العمّة نانسي هذه المرة، فبدا بياض أسنانها الاصطناعية ونضارتها متضاربيْن مع تقاسيم وجهها المسنّ الأسمر.

«جيّد. طالما عندكِ عقلٌ سليم، فذلك خيرٌ لك من الجمال، فالعقل يدوم ويفنى الجمال. اسأليني أنا. أمّا كارولين هذه فلم تحظ يومًا بعقل ولا بجمال، أليس كذلك يا كارولين؟ هيّا بنا نتناول العشاء. أشكر الرّب لأنّ معدتي لم تخذلني مثلما خذلني جمالي».

تهادت العمّة نانسي مستندةً إلى عصاها على السّلم ثمّ إلى المائدة، وجلست في طرفها، وكارولين في الطّرف المقابل، وبينهما إيميلي تداري حرجها الشّديد، ولكنّها لم تفقد شيئًا من شغفها العارم، فأخذت تؤلّف وصفًا للجلسة لتكتبه في الكرّاس الشّاغر.

فكّرت وهي تحدج وجه كارولين الهرم: «يا ترى هل سيتأسّف عليك أحدٌ عندما تموتين».

وقالت العمّة نانسي: «هيّا، أخبريني الآن. إن لم تكوني غبيّة، فلماذا كتبت لي رسالة بذاك الغباء في المرّة الأولى؟ ربّاه، إنّها غبيّة، بالغة الغباء! ظللت أقرأها لكارولين كلّما أردت أن أعاقبها على شقاوتها».

«لم يكن بوسعي أن أكتب أيّ نوع آخر من الرّسائل لأنّ خالتي إليزابيث أخبرتني بأنّها ستقرؤها لاحقًا».

«لن ترضى إليزابيث بأقلّ من ذلك. حسنًا، يمكنك أن تكتبي ما يحلو لك هنا، وتقولي ما تريدين، وتتصرّفي كما تشائين. لن يتدخّل فيك أحد أو يحاول تأديبك، فأنت هنا في زيارة، لا في تدريب على

حسن السيرة والسلوك. لعلّك قد نلت من ذلك ما يكفي وزيادة في القمر الجديد. يمكنُك أن ترتعي في المنزل بحريّة وتختاري حبيبًا من أولاد بريست، رغم أنّ شباب اليوم ليسوا كما كانوا عليه في زمني».

فردّت إيميلي: «لا أريد حبيبًا»، متبرّمة من الموضوع. ثرثر كيلي العجوز عن الحُبّ في معظم الطّريق وها هي ذي عمّتها نانسي تتأهّب للحديث عن الموضوع التّافه ذاته.

قهقهت العمّة نانسي إلى أن اهتزّت أقراطها الذّهبيّة وقالت: «لا أصدّق. لم يوجد قطّ بين بنات موراي من القمر الجديد من لم يكن لديها حبيب. كان لديّ منهم أكثر من أصابع اليد الواحدة لّما كنت في سنّك. وكان كلّ صبيان معبد المياه يتناحرون لكسب حظوتي. أمّا كارولين هذه فلم يكن لها حبيب في حياتها، أليس كذلك يا كارولين؟».

فنفثت كارولين: «أنا الّتي لم أرغب في حبيب قطُّ».

قالت العمّة نانسي: «هذا ما تقوله البنات في سنّ الثّانية عشرة وفي سنّ الثّمانين، وهنّ يكذبن في كلتا الحالتيْن. ما الفائدة من أن ننافق بعضنا؟ ولست أنكر، رغم ذلك، أنّها فكرة جيّدة متى قيلت أمام الرّجال. هل لاحظت جمال يد إيميلي يا كارولين؟ إنّها تضاهي يدي جمالًا في صغر سنّي. ومرفقاها شبيهان بمرافق القطط. كان لابنة عمّي سوزان موراي مرفقان مثلها. غريبٌ أمرها، لديها من آل موراي تفاصيل أكثر ممّا ورِثَت عن آل ستار، بيد أنّها تشبه آل ستار، لا آل موراي. إنّما نحن خلاصة عمليّات جمع غريبة، ولا

تكون فيها النّتيجة كالمتوقّع أبدًا. خسارة ألّا يكون معنا خرعان يا كارولين. ستُعجبه إيميلي، حدسي يخبرني بأنّها ستعجبه. خرعان هو الوحيد من آل بريست الّذي سيدخل الجنّة يا إيميلي. فلنرَ كاحلك الآن يا قطّة».

فأخرجت إيميلي رجلها في تبرّم. وأومأت العمّة نانسي في رضًا قائلة:

«كاحل ماري شيبلي. لا يرثه إلّا شخص واحد في كلّ جيل. أنا ورثته. أمّا كواحل آل موراي، فهي شحيمة، هل رأيت مشط قدمها يا كارولين؟ إيميلي، ربّما لستِ آية في الجمال، ولكنّك قد تبدين كذلك إذا ما أتقنت استعمال عينيك ويديك وقدميك كما ينبغي. من السّهل أن تخدعي الرّجال، وإن خالفتك النّساء فسيبدو ذلك ضربًا من الغيرة».

استغلّت إيميلي الفرصة لتسأل عن شيء حيّرها.

«قال لي السّيد كيلي العجوز إنّ لديّ عينيْن مغويتيْن يا عمّتي نانسي. هل هذا صحيح؟ وما هي العيون المغوية؟».

«ما هو إلّا مغفّل هرم. عيناك ليستا مغويتين، ولن يليق ذلك بتقاليد موراي». ضحكت العمّة نانسي ثمّ واصلت: «عيون موراي عيون جافية، وهكذا هما عيناك، ولو أنّ أهدابك تُنافي الغرض. ولكن قد تبدو عيونٌ من هذا القبيل مُغوية، إذا ما أضفنا إليها بعض السّمات الأخرى. فكثيرًا ما يهوى الرّجال التّناقض، وكلّما أمرتهم بالبعد اقتربوا. وذاك هو حال ابني نثانيال الآن، لا يفعل شيئًا إلّا إذا

خاتلته ليفعل العكس. هل تذكرين يا كارولين؟ أتريدين بسكويتًا آخر، إيميلي؟».

فقالت إيميلي بشيء من الانزعاج: «لم آخذ الأوّل بعدُ».

كان البسكويت يبدو شهيًّا إلى حدّ الإغراء، وتمنّت إيميلي أن تُقدّم إليها قطعة منه، ولم تفهم لماذا انفجرت كلّ من العمّة نانسي وكارولين ضحكًا. كانت ضحكة كارولين مزعجة، ضحكة جافّة، غبراء، «بلا طعمٍ» كما قرّرت إيميلي أن تصفها. وفكّرت في أنّها ستكتب في نصّها لاحقًا أنّ لكارولين «ضحكة نحيلة محشرجة».

سألت العمّة نانسي: «ما رأيك فينا؟ هيّا، أخبريني *برأيك* فينا».

انتاب إيميلي حرج بالغ، وكانت تفكّر لتوّها في أن تكتب عن العمّة نانسي أنّها «ذابلة ومتجعّدة»، ولكن لا يُعقل أن تجهر بذلك... لا تستطيع.

ألحّت العمّة نانسي قائلة: «العني الشّيطان وقولي الحقيقة».

فهتفت إيميلي: «سؤالك ليس عادلًا».

ابتسمت العمّة نانسي وقالت: «ترين آنّني امرأة حيزبون بشعة، وأنّ كارولين ليست تمامًا من فصيلة الآدميّين. وهي ليست منهم، ولم تكن يومًا كذلك. ولكن يا ليتكِ رأيتني *كما كنتُ* قبل سبعين سنة. كنت أجمل حسناوات موراي، وكلّ الرّجال يخرّون أمامي عاشقين. وعندما تزوّجت نات بريست، كاد إخوانه الثلاثة يذبحونه، وذبح أحدهم نفسه. آه، كنت أعيث فسادًا حيثما حللت

آنذاك، ولا آسف إلّا لأنّني لن أعيش ما عشته مرّتيْن. لقد كانت حياتي، والحقّ يُقال، حياةً عظيمة؛ وكنت ملكة تحكم في الرّجال. أمّا النّساء فكنّ يكرهنني طبعًا، جميعهنّ إلّا كارولين. كنتِ تقدّسينني، أليس كذلك يا كارولين؟ ومازلتِ، أليس كذلك يا كارولين؟ أتمنّى لو لم يكن لكِ ثؤلولٌ على أنفك يا كارولين».

فردّت كارولين بنبرة لاذعة: «وأتمنّى لو لم يكن لكِ مثله على لسانك».

بدأت إيميلي تشعر بالإرهاق والارتباك. كانت المحادثة شيّقة، وكانت العمّة نانسي طيّبة بطريقتها الخاصّة الغريبة، ولكنّها فكّرت في بيتها حيث سيجتمع إيلسي وبيري وتيدي في أيكة جون المتغطرس لجولتهم المسائية، وستجلس سوسي سال على درجات الملبنة في انتظار أن يقدّم لها ابن العمّ جيمي رغوة الحليب. أدركت إيميلي آنذاك أنّها اشتاقت للقمر الجديد مثلما اشتاقت لمايوود في أوّل ليلة قضّتها بالقمر الجديد.

قالت العمّة نانسي: «الطفلة متعبة. خذيها إلى الفراش يا كارولين، ولتبقَ في الغرفة الورديّة».

حذت إيميلي حذو كارولين في الرّواق الخلفي، وعبر المطبخ والرّواق الأمامي، ثمّ ارتقت السّلم ومرقت من رواق طويل يليه آخر جانبيّ. إلى أين ستأخذها، بحقّ السّماء؟ وها هما تصلان أخيرًا إلى غرفة واسعة. فوضعت كارولين المصباح وسألت إن كان لإيميلي ثياب نوم.

«طبعًا لي. هل تظنّين أنّ خالتي إليزابيث ستتركني أرحل دون ثياب نوم؟».

استنكرت إيميلي سؤالها.

«تقول نانسي إنّه بإمكانك النّوم قدر ما تشائين في الصّباح، ليلةً سعيدة. ننام أنا ونانسي في الجناح القديم، وينام بقيّتنا بسلامٍ في قبورهم».

وعلى تلك الكلمات المُبهمة، انصرفت كارولين وأطبقت الباب.

جلست إيميلي على المقعد العثماني المطرّز ونظرت حولها. كانت ستائر النّوافذ من الاستبرق الوردي الباهت، وعلى الحيطان ورق زهري مزيّن بالألماس وسلاسل الورد، تأمّلته إيميلي عميقًا فأعجبها، وبدا لها لائقًا بمساكن الحوريّات. وكانت على الأرض زربيّة خضراء تزخر بالورود الزّهرية لدرجة أنّ إيميلي كادت تخاف من الدّوس عليها. واستقرّ في النّهاية رأيها على أنّ الغرفة رائعةٌ بالفعل.

فكّرت: «ولكنّني سأنام فيها وحيدة؛ ينبغي عليّ إذن أن أتلو صلواتي بحرص شديد».

فأحبكت على نفسها الغطاء إلى حدّ ذقنها، واستلقت هناك تحدّق في السّقف الأبيض الشّاهق. كانت قد تعوّدت على سرير الخالة إليزابيث المُظلّل فشعرت وكأنّها نائمة في العراء بهذا السّرير المنخفض العصريّ. ولكن كانت هنالك نافذة مفتوحة على الأقلّ،

بطبيعة الحال، لم تشاطر العمّة نانسي هلع الخالة إليزابيث بشأن هواء اللّيل. رأت إيميلي من خلالها حقولًا منبسطةً تحت سماءٍ صيفيّة يصعد في كبدها قمر ذهبي. ولكنّ الغرفة فسيحة وضبابيّة، حتّى خُيّل لإيميلي أنّها في منأى عن الجميع، وشعرت بالوحدة... والشّوق إلى الدّيار. ثمّ فكّرت في كيلي العجوز ومرهمه العجيب، مرهم الضّفدع السّحري. ماذا لوكان *فعلا* يغلي الضّفادع في نهاية الأمر. وأذاقتها الفكرة عذابًا أليمًا، وراعها أن تتخيّل الضّفادع – أو أي شيء آخر– تُغلى وهي حيّة. لم يسبق لها أن نامت بمفردها، وتملّكها الذّعر على حين غرّة. ما أسوأ صلصلة هذه النّافذة. كان ضجيجها يوحي بأنّ شخصًا ما –أو *شيئًا* ما– يحاول اقتحام الغرفة. وتذكّرت الشّبح الّذي حدّثتها عنه إيلسي، شبح *تشعر* به *وتسمعه* دون أن *تراه*، وهذا من أشنع ما يمكن للأشباح أن تكون. ثمّ فكّرت في الكلبيْن الحجريّيْن عندما تدبّ فيهما الحياة في منتصف اللّيل ويعويان: «ووو –وور–ووو». وترامى إلى مسمعها صوت كلب يعوي *فعلا* في مكانٍ ما، فشعرت إيميلي بعرق بارد يسيل من جبينها. *ما الّذي* تقصده كارولين عندما قالت إنّ بقيّتهم ينامون بسلام في قبورهم؟ وسمعت صريرًا آتٍ من الأرضية. هل هنالك أحد –أو شيء– يمشي على أطراف أصابعه خارج الباب؟ هل تحرّك شيءٌ ما في ذاك الرّكن؟ دبّت في البهو الطّويل أصوات غامضة.

قالت إيميلي: «*لن* أخاف. *لن* أفكّر في أيّ شيء، وسأكتب غدًا عن كلّ ما أشعر به الآن».

عندئذٍ... سمعت صوتًا *بالفعل*، صوتًا آتٍ من الجدار وراء لوح السّرير. إنّها حقيقة لا يشوبها الشكّ هذه المرّة. لم يكن الأمر من محض خيالها. سمعت بكلّ وضوحٍ صوت خشخشة غريب، وكأنّه صوت فساتين حريريّة يُفرك بعضها على بعضٍ، أو خفق أجنحة ترفرف في الهواء، وانبعثت أصوات خافتة ضعيفة مكتومة، شبيهة بصياح أطفال صغار أو أنينهم. ولم تكفّ الأصوات، بل تواصلت، وكانت تخفت من حين إلى آخر في هدنة وجيزة، ثمّ تنبعث مجدّدًا.

توارت إيميلي تحت أغطيتها، جامدة من شدّة الهلع. فكان خوفها في البداية سطحيًّا، إذ كانت *تعلم* أنّه لا مدعاة للخوف، حتّى وهي خائفة، ودفعها شيء ما في نفسها إلى أن تتجلّد صبرًا. أمّا الآن، فليس الأمر خطأ ولا خيالًا، وكانت الخشخشة والرفرفة والصّياح حقيقة لا يختلف فيها عاقلان؛ وانقلبت عزبة ويذر آنذاك مكانًا فظيعًا مريعًا. كانت إيلسي على حقّ، فالمنزل مسكون *بالفعل*. وها هي ذي وحيدة هنا، تفصلها أميالٌ طويلة من الغرف والأروقة عن أيّ بشرٍ كان. يا لقسوة العمّة نانسي حين تركتها تنام في غرفة مسكونة، فهي تعرف بلا شكٍّ أنّها مسكونة، عمّتها نانسي، تلك العجوز اللّئيمة وفخرها المُخيف برجال انتحروا من أجلها. آه، ليتها تعود إلى قمرها الجديد العزيز، وتنام في فراشها جانب خالتها إليزابيث. لم تكن الخالة إليزابيث رفيقة نومٍ مثاليّة، ولكنّها على الأقلّ من لحمٍ ودمٍ. صحيحٌ أنّ نوافذ غرفتها تلك موصدة بإحكام، ولكنّها تدفع عنها هواء اللّيل والأطياف معًا.

فكّرت إيميلي: «لعلّه يجدر بي أن أتلو صلواتي مرّة أخرى».

ولكن حتّى صلواتها لم تُجدِ نفعًا.

لن تنسى إيميلي تلك اللّيلة الأولى المُرعبة الّتي قضّتها في عزبة ويذر طيلة حياتها. أنهكها التّعب إلى حدّ الغفيان من حين إلى آخر، لبضع دقائق متقطّعة، قبل أن تستيقظ في هلعٍ على أصوات الخشخشة والأنين المكتومة وراء فراشها. واستحضرت آنذاك كلّ ما قرأت عنه في الرّوايات من أشباح وآهات، وأرواح جريحة وراهبات دامية.

وفكّرت: «خالتي إليزابيث محقّة. لا تصلح الرّوايات للمطالعة. آه، سأموت هنا، سأموت من الخوف، أنا متأكّدة. أعلم أنّني جبانة، لا يمكنني التّحلي بالشّجاعة».

ومع حلول الصباح، غمر الضّياء الغرفة وحرّرها من كلّ ما فيها من أصوات غريبة. فنهضت إيميلي، وارتدت ملابسها، وشقّت طريقها إلى الجناح القديم. ورغم وجهها الشّاحب والهالات السّوداء حول عينيها، كانت مصمّمة على ما قرّرت.

سألتها العمّة نانسي بلطف: «مرحبًا، هل نمت جيّدًا؟».

تجاهلت إيميلي سؤالها.

وقالت: «أريد أن أعود إلى بيتي اليوم».

شخصت فيها العمّة نانسي.

«إلى بيتك؟ هراء! هل اشتقت إليه مثلما يشتاق الصّغار؟».

«ليس هذا حنينًا للدّيار -ليس *تمامًا*-، ولكن عليّ أن أعود إلى البيت».

«هذا غير ممكن، لا أحد هنا بوسعه أن يرافقك. أتتوقّعين أنّ كارولين ستقود بك العربة إلى معبد المياه؟».

«إذن سأذهب مشيًا».

ضربت العمّة نانسي الأرض بعصاها غاضبة.

«ستبقين هنا إلى أن أكون على استعداد لتركك يا آنسة. لن أقبل أيّ نزوة غير نزواتي أنا. وكارولين تدرك ذلك جيّدًا، أليس كذلك يا كارولين؟ اجلسي لتناول فطورك، وكُلي -*كُلي*».

حدجت العمّة نانسي إيميلي بنظرة صارمة.

فقالت: «لن أبقى هنا. لن أزيد ليلة أخرى في تلك الغرفة الرّهيبة المسكونة. لقد قسوت عليّ لمّا وضعتني هناك. ولو..». -وبادلت إيميلي عمّتها بنظرة مماثلة- «لو كنتُ سالومي[1]، لطلبتُ رأسكِ *أنتِ* على طبق».

«يا إلاهي! ما هذا الحديث عن الغرف المسكونة؟ لا أشباح لدينا هنا في عزبة ويذر. أليس كذلك يا كارولين؟ فنحن نعتبر الأشباح غير صحيّة».

(1) سالومي شخصيّة من التّراث اليهوديّ المسيحيّ، ويُحكى أنّها رقصت أمام الملك فأعجب برقصها، وفي مقابل ذلك طالبت برأس يوحنّا المعمدان على طبق، فلُبّي طلبها.

«لديك شيء مريع في تلك الغرفة، شيء يخشخش ويئنّ ويصيح طيلة اللّيل في الجدار وراء سريري. لن أبقى... مستحيل».

فاضت عينا إيميلي بالدّموع رغم كلّ ما بذلت من جهود لكبتها، وسيطر عليها توتّر جامح فلم تجد بدًّا من البكاء، بل كانت على وشك الوقوع في نوبة هستيريّة.

تبادلت العمّة نانسي وكارولين النّظرات.

«كان علينا عن نخبرها يا كارولين. الخطأ خطؤنا. لقد نسيت الأمر تمامًا، لم ينم أحدٌ في تلك الغرفة منذ زمن طويل. لا عجب في أنّها خافت. إيميلي، صغيرتي المسكينة، أنا آسفة. بل أستحقّ أن يوضع رأسي على طبق، أيّتها العفريتة المنتقمة، كان يجدر بنا أن نخبرك».

«أن تخبراني... بماذا؟».

«بوجود سنونوات في المدخنة. هذا ما سمعته. فالمدخنة الرّئيسية الكبرى تمرّ من الجدار وراء فراشك تمامًا؛ وبما أنّنا لم نعد نستعملها منذ بنينا المدافئ، عشّشت فيها السّنونوات، وتعيش فيها المئات منها الآن. وهي تصدر بالفعل صوتًا غريبًا، عندما تنتفض وتتشاجر كما تفعل دومًا».

شعرت إيميلي عندئذٍ بالغباء والخجل، بل خجلت أكثر ممّا ينبغي لطفلة مرّت بمثل تلك التّجربة المريرة، تجربة كانت لتفزع أيّ راشدٍ يقضّي ليلته في تلك الغرفة الورديّة بعزبة ويذر. وسبق لنانسي بريست أن حبست فيها أشخاصًا قصد تخويفهم. ولكنّها، لكي لا

نظلمها، غفلت فعلًا عن أمر تلك الغرفة مع إيميلي وندمت على هفوتها تلك شديد النّدم.

لم تطرح إيميلي موضوع عودتها على البيت مجدّدًا؛ إذ عاملتها كلّ من كارولين وعمّتها نانسي يومها بطيبة وسخاء بالغين. وأخذت غفوة مستطابة بعد الظّهر، وما حلّ المساء إلّا وسارعت إلى الغرفة الورديّة وغرقت في نومٍ عميق طيلة الليل، رغم أنّ أصوات الخشخشة والصياح مازالت مسموعةً بوضوح. ولكن ليست السّنونوات كالأشباح.

وقالت إيميلي: «أظنّ أنّه سيطيب لي البقاء في عزبة ويذر، في نهاية الأمر».

سعادة من صنفٍ جديد

«20 تمّوز.

«أبي العزيز:

«لقد مرّ أسبوعان على مجيئي إلى عزبة ويذر ولم أراسلك ولو مرّة، ولكنّني فكّرت فيك كلّ يوم. كان عليّ أن أراسل خالتي لورا وإيلسي وتيدي وابن عمّي جيمي وبيري، وأتسلّى كثيرًا في الأثناء. لم أظنّ أنّني سأكون سعيدة في أوّل ليلة قضّيتها هنا. ولكنّني سعيدة، سعادةً من نوعٍ مختلف عن سعادتي في القمر الجديد.

«تعاملني عمّتي نانسي وكارولين حسن المعاملة وتسمحان لي بأن أفعل ما يحلو لي، وهذا ممتع جدًّا. وتسخر كلٌّ منهما من الأخرى طيلة الوقت؛ ولكنّهما تذكّرانني بعلاقتي مع إيلسي، فهما كثيرتا الشّجار، عميقتا الحبّ وقت الصّفاء. وأيقنت من أنّ كارولين ليست ساحرة، ولكنّني أودّ أن أعرف ما يدور في ذهنها لمّا تخلو بنفسها. ولم تعد عمّتي نانسي جميلة كما كانت في الماضي، ولكن لديها *رونق أرستوقراطي*. وهي لا تمشي كثيرًا بسبب الروماتيزم، فتمضي معظم وقتها في الرّدهة الخلفيّة تطالع أو تحبك الدّانتيل أو تلعب الورق مع كارولين. يطول حديثي معها لأنّني أسلّيها، ورغم

أنّني أخبرتها بما لا يُعدّ ولا يُحصى من الأشياء، فلم أخبرها بأنّني أنظم الشّعر. ولو فعلت، أعلم أنّها ستجبرني على أن أقرأ لها بعض قصائدي؛ وأشعر بأنّها ليست شخصًا مناسبًا لتذوّق الشّعر متى قُرئ لها. ولا أحكي لها عنك أو عن أمّي، على الرّغم من محاولتها العديدة لاستنطاقي. ولكنّني حدّثتها عن جون المتغطرس وأيكته وذهابي إلى الأب كاسيدي، فضحكت من الحادثة وقالت إنّها تحبّذ التّحاور مع الكهنة الكاثوليكيين، لأنّهم الرّجال الوحيدون في العالم الّذين يمكن للنّساء مخاطبتهم أكثر من عشر دقائق دون أن تتّهمهنّ نساء أخريات برمي أنفسهنّ عليهم.

«تقول عمّتي نانسي كثيرًا من الحكم الرائعة من هذا القبيل. وهي تتحدّث مع كارولين عن عددٍ من الأشياء الّتي حدثت في عائلتي بريست وموراي، ويحلو لي الجلوس لأستمع إليها. وهما لا تتوقّفان عندما تبلغ الأحداث ذروة التّشويق مثلما تفعل خالتاي إليزابيث ولورا. صحيحٌ أنّني لا أفهم قدرًا كبيرًا ممّا يُقال، ولكن سأتذكّره وسأجد سبيلًا لفهمه يومًا مّا. وصفتُ عمّتي نانسي وكارولين في كرّاس جيمي الّذي أخفيه عن العيان وراء الدّولاب في غرفتي لأنّني ضبطت الأخيرة وهي تفتّش حقيبتي في الأيام الماضية. عليّ أن أتجنّب نعت عمّتي نانسي بعمّتي الكبيرة، إذ تقول إنّ ذلك يشعرها بأنّها متوشالح[1]. وقصّت عليّ شتّى الحكايات

(1) متوشالح هو جدّ نوح، وكان صاحب أطول عمر ذُكر في الكتاب المقدّس، ومات في سنة الطوفان وعمره 969 سنة.

عن الرّجال الّذين كانوا متيّمين بها، ويبدو لي أنّ جميعهم يتصرّفون بالأسلوب ذاته. لم يبدُ لي الأمر شيّقًا، ولكنّها أكّدت لي ذلك. أخبرتني عن الحفلات والسّهرات الرّاقصة الّتي كانت تُنظّم هنالك في الأيّام الخوالي. عزبة ويذر أكبر من القمر الجديد، وأثاثها أجمل بكثير، ولكن يصعب عليّ التأقلم مع المكان.

«ثمّة عدد من الأشياء الّتي تثير اهتمامي في هذا البيت وأحبّ أن أتأمّل فيها. هنالك كأس يعقوبيّ على منضدة الرّدهة، وهو مِلكٌ قديم لأحد أسلاف بريست كان قد حصل عليه في أسكوتلندا. نُقشت عليه وردة وشوك، ولا يُستخدم إلّا لشرب نخب صحّة الأمير شارلي، *دون أي غرض آخر*. إنّه إرثٌ قيّم للغاية وتقدّره عمّتي نانسي تقديرًا عميقًا. ولديها أيضًا ثعبان مخلّل في علبة بلوريّة ضخمة تحفظها في خزانة الأواني. إنّه بشعٌ ولكن مدهش. أرتجف كلّما أراه وأذهب رغم ذلك لرؤيته كلّ يوم، وكأنّ قوّة خفيّة تجذبني إليه. وثمّة في غرفة عمّتي نانسي مكتب *مقابضه من البلّور*، ومزهريّة على شكل سمكة خضراء تقف على طرف جسمها، وتنّين صينيّ ذو ذيل ملولب، وصندوق من الطّيور الطّنانة المحشوّة، وساعة رملية لتوقيت سلق البيض، وإطار يحفظ إكليلًا مصنوعًا من شعر كلّ أموات عائلة بريست، وصُوَر داغيريّة عديدة. ولكنّ أفضل أغراضها على الإطلاق هي الكرة الفضّية اللّامعة الضّخمة الّتي تتدلّى من فانوس الرّدهة. فهي تعكس صورة كلّ ما يحيط بها في شكل عالم سحريّ مُصغّر. تسمّيها عمّتي نانسي كرة التّأمّل،

وأخبرتني بأنّها ستكون من نصيبي بعد موتها. ليتها لم تخبرني بذلك، فأنا أودّ الحصول على الكرة لدرجة أنّني أتساءل متى ستموت، ويشعرني ذلك بأنّني لئيمة. ستعطيني أيضًا دقّاقة قطّ تشيشير وأقراطها الذّهبية. تلك من إرث آل موراي، وتقول عمّتي نانسي إنّ إرث آل بريست سيعود إليهم. سيعجبني قطّ تشيشير، ولكنّني لا أريد الأقراط. أفضّل ألّا يلاحظ النّاس أذنيّ.

«عليّ أن أنام بمفردي. أشعر بالخوف ولكن أظنّ أنّني أودّ تجاوز خوفي لو أمكن لي ذلك. فقد صرت لا أبالي بالسّنونوات الآن. ولكن يخيفني بقائي نائية عن الجميع، رغم أنّني أحبّ تمطيط ساقيّ كما أشاء دون أن يوبّخني أحد لأنّني أتقلّب. ولمّا أستيقظ في جوف اللّيل لأفكّر في بيت شعر رائع (فأجمل الأشياء هي تلك الّتي تخطر بالبال هكذا)، يمكنني أن أنهض مباشرة وأدوّنه في كرّاس جيمي. ما كنت لأفعل ذلك في بيتنا، وغالبًا ما أكون قد نسيت أفكاري في الصّباح. لقد فكّرت ليلة أمس في مقطع ممتاز: «رفعت الزّنابق أقداحًا تلألأت (الأقداح هي الكؤوس، ولكن أكبر) وأثملت بعذوبتها النّحلَ فانتشى» وفرحت لأنّني على يقين من أنّهما أفضل بيتيْن كتبتهما على الإطلاق.

«يُسمح لي بدخول المطبخ ومساعدة كارولين. كارولين طبّاخة ماهرة، ولكنّها تقترف بعض الأخطاء وهذا يزعج عمّتي نانسي لأنّها تريد أكل أطباق طيّبة. أعدّت كارولين منذ أيّام حساء شعير كثيفًا أكثر ممّا ينبغي، ولمّا ألقت عمّتي نانسي على صحنها نظرة، قالت

«ربّاه، هل هذا عشاء أم لبخة؟» فقالت كارولين «إنّه أكلٌ جيّد بالنّسبة إلى آل بريست، وما يكفي آل بريست سيكفي آل موراي أيضًا». فردّت عمّتي نانسي «فلتعلمي يا امرأة أنّ آل بريست يأكلون ما تمنّ عليهم به موائد موراي من فُتات متساقط»، فانفعلت كارولين إلى حدّ البكاء. وقالت لي عمّتي نانسي «إيميلي، لا تتزوّجي من آل بريست»، مثلما قال لي كيلي العجوز تمامًا، وأنا لا أنوي الزّواج من أيّ واحد منهم. لم يرُق لي أحدٌ ممّن رأيتُ منهم، ولم يبدوا لي مختلفين عن سائر النّاس. وأفضلهم هو جيم، ولكنّه صليط[1] اللّسان.

«يبدو لي فطور عزبة ويذر أفضل من فطور القمر الجديد، إذ نأكل في الأوّل خبزًا محمّصًا ولحمًا مقدّدًا ومربّى، وهذا أحسن من الثّريد.

«نتسلّى هنا أيّام الأحد أكثر ممّا نفعل في القمر الجديد، ولكنّها هنا أقلّ قداسة من هناك. وهذا تغيّرٌ يُذكر فيُشكر. لا تستطيع عمّتي نانسي الذّهاب إلى الكنيسة ولا حياكة الدّانتيل، فتظلّ تلعب الورق مع كارولين طيلة اليوم، ولكنّها تحذّرني من أن أفعل مثلها، وقالت إنّها قدوة طالحة. وتسرّني مشاهدة إنجيل عمّتي نانسي في الرّدهة الكبرى، إذ أجد فيه قطعًا من أقمشة الفساتين وخصلات شعر وقصائد وصورًا قديمة وشهادات وفيّات وزواج. بل وجدت فيه حتّى وثيقة عن ولادتي أنا، وراودني إحساس مُريب.

---

(1) خطأ متعمّد من الكاتبة يُبيّن قلّة خبرة إيميلي وتعثّرها اللّغويّ والإملائيّ. الصّواب: سليط.

«يزورنا بعض أفراد آل بريست بعد الظّهر ليروا عمّتي نانسي ويبقوا لتناول العشاء. ولِزلي بريست هو أوّل من يأتي دائمًا، فهو المفضّل لدى عمّتي نانسي من صغار الأقارب بحسب ما يقول جيم، لأنّه يجاملها. ولكنّني رأيته يغمز إلى إسحاق بريست بعد مدحها ذات مرّة. وهو لا يعجبني، ويعاملني كأنّني مجرّد طفلة صغيرة. توجّه لهم عمّتي نانسي أقوالًا لاذعةً ولكنّهم يضحكون فحسب. وبعدما يغادرون، تظلّ تسخر منهم أمام كارولين، وهذا لا يروق لها لأنّها ابنة بريست؛ ما يؤدّي إلى اندلاع خصامٍ بينهما كلّ مساء أحدٍ. ولا تتحدّث واحدةٌ إلى الأخرى حتّى صباح يوم الاثنين.

«بوسعي أن أقرأ لكم الكتب من مكتبة عمّتي نانسي، ما عدا تلك الّتي على الرّف العلوي. يا ترى لمَ لا يمكنني قراءتها؟ تقول عمّتي نانسي إنّها روايات فرنسية، ولكنّني اختلست النّظر إلى إحداها وكانت إنجليزية. أتساءل إن كانت عمّتي نانسي تتفوّه بالأكاذيب.

«أَحَبّ الأماكن إلى قلبي هو في شاطئ الخليج. وأجد في بعض بقاع الشّاطئ منحدرات تجعله زاخرًا بالأركان المخظرّة[1] الجميلة *الخفيّة*، فأهيم فيها وأؤلّف أشعارًا. اشتقت كثيرًا إلى إيلسي وتيدي وبيري وسوسي سال. وقد تلقّيت رسالة من إيلسي اليوم تقول لي فيها إنّهم لن يواصلوا العمل على مسرحية *حلم ليلة في منتصف الصّيف* حتّى أعود. جميلٌ أن يشعر المرء بأنّه مرغوب فيه.

---

(1) الصّواب: المخضرّة.

«عمّتي نانسي لا تحبّ خالتي إليزابيث. ولقّبتها بـ«الطّاغية» ثمّ قالت «كان جيمي موراي صبيًّا نبيهًا جدًّا. قتلت إليزابيث موراي ذكاءه في خظم[1] إحدى نوبات غضبها، ولم يُفعل شيءٌ لعقابها. لو قتلت جسده لاعتُبرَت مُجرمة، وجريمتها الأخرى أفدح، لو تريدين رأيي». حتّى أنا، لا تُعجبني خالتي إليزابيث في بعض الأحيان يا أبتِ، ولكنّني شعرت بأنّه عليّ أن *أدافع عن عائلتي*، فقلت لها «لا أريد أن أسمع أشياء من هذا القبيل عن خالتي إليزابيث».

«ثمّ حدجتها بنظرة *حادّة*. فقالت «يبدو لي، أيّتها العفريتة، أنّ أخي أرشيبالد لن يموت طالما أنتِ حيّة. إن لم تريدي أن تسمعي أشياء، فلا تمكثي معنا لمّا نتحدّث أنا وكارولين. فقد لاحظت أنّ هنالك عددًا من الأشياء لا تمانعين سماعها».

«تلك مجرّد سخرية يا أبي، ومازلت أشعر بأنّ عمّتي نانسي تحبّني، ولكن قد لا يدوم حبّها لي. يقول جيم بريست إنّها متقلّبة المزاج ولم تحبَّ أحدًا لمدّة طويلة في حياتها، ولا حتّى زوجها. ولكنّها كلّما سخرت منّي، تأمر كارولين بإعطائي قطعة من الفطيرة لكي لا أبالي بسخريتها. وهي تسمح لي بشرب شاي حقيقيّ أيضًا. يعجبني ذاك الشّاي، ففي القمر الجديد لا تقدّم لي خالتي إليزابيث إلّا شايًا زائفًا بذريعة أنّه أنفع لصحّتي. أمّا عمّتي نانسي فتقول إنّ أنجع السّبل للحفاظ على الصّحة هو أن تأكل ما تشاء دون التّفكير في

---

(1) الصّواب: خضمّ.

بطنك. ولكنّها لم تكن عُرظة[1] لداء السّل قطُّ. تقول لي إنّه عليّ ألاّ أقلق بشأن الموت من السّل لأنّني أفرط من أكل الزنجبيل، وهذا يطمئنني. المرّات الوحيدة الّتي لا أحبّ فيها عمّتي نانسي هي تلك الّتي تشرع فيها في الحديث عن أجزاءٍ من جسدي وما سيكون لها من أثر على الرّجال. تُشعرني بأنّني تافهة للغاية.

«لن أغفل عن مراسلتك من هنا فصاعدًا يا أبتِ. أشعر بأنّني أهملتك مؤخّرًا.

«تذييل: أخشى أن أكون قد اقترفت أخطاء إملائية في هذه الرّسالة، فأنا لم أجلب معي معجمي.

«22 تمّوز.

«آه يا أبي العزيز، لقد وقعت في ورطة عويسة[2]، ولا أدري ما سأفعل. آه يا أبي، كسّرت كأس عمّتي نانسي اليعقوبيّ، وبدا لي الأمر بمثابة الكابوس.

«ذهبت إلى الرّدهة اليوم لأشاهد الثّعبان المخلّل، وبينما كنت ألتفت، علق كمّي بالكأس اليعقوبي فوقع على الموقد *وتحطّم إلى قطع صغيرة مبعثرة*. في بداية الأمر، لذت بالفرار وتركتها هناك، ولكنّني عدت إليها لاحقًا وجمعتها بحذر في علبة وأخفيتها وراء الأريكة. لم تعد عمّتي نانسي تذهب إلى تلك الرّدهة، وقلّما تدخلها كارولين، فربّما لن يتفطّن أحد إلى أمر الكأس قبل أن أعود إلى البيت. ولكنّ

(1) الصّواب: عُرضة.

(2) الصّواب: عويصة.

المسألة *تأرقني*[1]، وأفكّر فيها طيلة الوقت حتّى أنّني فقدت المتعة في كلّ ما أفعل. فأنا أعلم أنّ عمّتي نانسي ستستعر غضبًا ولن تسامحني لو اكتشفت ما فعلت. ولم يغمظ[2] لي جفن في اللّيل من شدّة ما نهشني القلق. وجاء جيم بريست ليلعب معي اليوم، ولكنّه قال إنّني مملّة، ثمّ عاد إلى بيته. غالبًا ما يقول آل بريست كلّ ما يجول بخاطرهم. طبعًا أنا مملّة، فكيف لي أن أتسلّى؟ يا تُرى هل يُجدي الدّعاء في هذا الصّدد نفعًا. تبدو لي الصّلاة عبثًا لأنّني أكذب على عمّتي نانسي.

«24 تمّوز.

«أبي العزيز، إنّ العالم لمكانٌ غريب حقًّا. لا شيء يحدث فيه كما كنت تتوقّعه. لم يكحّل النّوم جفني البارحة، وكنت قلقة وشعرت بأنّني جبانة تتلاعب سرًّا ولا ترقى إلى مستوى تكاليد[3] عائلتها. وصل بي القلق إلى ما لا طاقة لي به، فبوسعي أن أتحمّل سوء انطباع النّاس عنّي، ولكن يؤلمني أن يسوء رأيي عن ذاتي. غادرت الفراش وانطلقت أشقّ الأروقة نحو الرّدهة الخلفية، ولم تزل عمّتي نانسي هناك بمفردها تلعب لعبة *سوليتير*[4]. سألتني ما الّذي دفعني، بحقّ السّماء، إلى مبارحة فراشي في مثل هذه السّاعة المتأخرة. فقلت في جملة سريعة مقتضبة لأتخلّص من أصعب ما في الأمر، «كسرت

(1) الصّواب: تؤرّقني.
(2) الصّواب: يُغمض.
(3) الصّواب: تقاليد.
(4) لعبة ورق انفراديّة.

كأسك اليعقوبي أمس وأخفيت أجزاءه وراء الأريكة»، ثمّ وقفت منتظرة هبوب *العاصفة*. فقالت العمّة نانسي «بُوركتِ يا صغيرة، كم مرّة أردت تهشيمه ولكن لم أجد الشّجاعة الكافية. كلّ أفراد عائلة بريست ينتظرون موتي ليأخذوا الكأس ويتناحروا من أجله. من المضحك أنّ لا أحدًا فيهم سيحصل عليه الآن، وأنّهم لن يلوموني من أجل انكساره. اذهبي إلى فراشك ونامي نوم العوافي». فقلت «ولستِ غاضبة البتّة يا عمّتي نانسي؟» فقالت «لو كان من موروثات موراي لمزّقت الأرض على سعتها، ولكنّني لا أبالي بأغراض بريست».

«عدت إلى فراشي، يا أبتِ، وشعرت بارتياحٍ شديد، ولكنّي سُلبت بطولتي.

«جاءتني رسالة من إيلسي اليوم، وقالت لي إنّ سوسي سال رُزقت أخيرًا بهريرات، وشعرت بأنّه يجدر بي أن أكون معها في البيت لأرى صغارها لأنّه من الأرجح أن تغرقها خالتي إليزابيث جميعًا قبل عودتي. تلقّيت رسالة من تيدي أيضًا، وهي ليست رسالةً تمامًا، بل عددًا من الرّسوم الصّغيرة الحلوة لإيلسي وبيري ورقعة الطّانسة وأيكة جون المتغطرس. وأشعرتني رسومه بالحنين إلى الدّيار.

«28 تمّوز.

«آه يا أبي العزيز، لقد اكتشفت كلّ خفايا قصّة والدة إيلسي. إنّها شنيعة لدرجة أنّه لا يسعني أن أكتبها، ولو حتّى لكَ أنت. لا

يمكنني أن أصدّق ولكن تقول عمّتي نانسي إنّها صحيحة، لم أظنّ أنّه قد تحدث في العالم أشياء بهذه البشاعة. لا، لا يمكنني أن أصدّق، ولن أصدّق، أيًّا كان مدى صحّتها. بل *أعلم* أنّ والدة إيلسي لا يمكنها أن تكون قد اقترفت شيئًا من هذا القبيل، لا بدّ أنّ هنالك خطأ مريعًا ما. أشعر بحزن خانق، وكأنّني لن أعرف الفرح مجدّدًا. لقد ذرفت كلّ دموعي على وسادي البارحة، مثلما تفعل بطلات كُتب عمّتي نانسي».

«ما كانت لتفعل ذلك»

تعوّدت العمّة نانسي وكارولين بريست على أن تضفيا إلى حياتهما الباهتة ألوانًا تُستقى من ذكرياتٍ قديمة سحيقة زاخرة بالأفراح والمسرّات؛ ولكنّهما تمادَتا في الأمر إلى حدّ استحضار عدد من الأسرار العائليّة الماضية أمام إيميلي دون أخذ صغر سنّها في الاعتبار. فكُشف النّقاب عن قصص الحبّ، والولادات، والوفيّات، والفضائح، والمآسي، عن كلّ ما يجول في بال تيْنك العجوزيْن، ووُصفت تفاصيلها وصفًا مُسهبًا. كانت العمّة نانسي تنتشي بالتّفاصيل، ولا تنسى منها شيئًا، ولا حتّى ما ستره الموتُ من ذنوب وهفوات، بل تفانت العجوز الدّنيئة في كشفها وتشريحها بلا رحمة ولا شفقة. ولم تدرك إيميلي إن كان الأمر يروق لها أم لا. فهو شيّق بلا شكّ -وكأنّه يروي فيها ظمأ الدّراما-، ولكنّه يشعرها بنوع من التّعاسة، كما لو سلّطتا الضّوء، أمام عينيها البريئتيْن، على شيء مريع في غياهب النّسيان. وكما قالت لها خالتها لورا، قد تحميها طفولتها إلى حدّ ما، ولكنّها لن تنقذها من إدراك الحقيقة المرّة الّتي تُخفيها قصّة والدة إيلسي، في تلك العشيّة الّتي شاءت فيها العمّة نانسي إحياء رواية اللّوعة والعار.

كانت إيميلي متكوّرة على الأريكة في الرّدهة الخلفيّة بصدد قراءة *رؤساء الأسكتلنديّين*، وكانت الحرارة لا تُطاق في تلك العشيّة من شهر تموز، حتى أنّه تعذّر عليها الذّهاب إلى شاطئ الخليج. وكانت إيميلي آنذاك في سعادة لا تشوبها شائبة؛ وسيّدة الرّياح تحوم فوق شجرات القيقب الضّخمة وراء العزبة وتداعب أوراقها إلى أن بدت الأشجار مكلّلة ببراعم فضّية شاحبة غريبة؛ بينما ترامت من الحديقة عطور أخّاذة؛ وتجلّى العالم بديعًا لا سيّما وقد تلقّت إيميلي رسالة من خالتها لورا تقول فيها إنّها احتفظت لها بأحد هريْرات سوسي سال. عندما مات مايك الثّاني، ظنّت إيميلي أنّها لن ترغب في تبنّي قطّ آخر، وها هي الآن تغيّر رأيها. كان كلّ شيء على أحسن ما يُرام، ولم يكدّر صفو سعادتها شيء؛ ولو كانت تعلم أيّ شيء عن المعتقدات الوثنيّة القديمة، لقدّمت أغلى ما لديها قرباناً للآلهة الغيورة.

سئمت العمّة نانسي لعبة «سوليتير»، فطرحت الأوراق جانبًا واستأنفت عمل الحياكة. وقالت: «إيميلي، هل لخالتك لورا أيّ نيّة للزّواج من الدّكتور برنلي؟».

استفاقت إيميلي فجأة من جولتها في ميدان بانوكبورن، وبدا عليها الضّجر. لطالما طُرح عليها هذا السّؤال -أو لُمّح إليه- في حلقات القيل والقال بمعبد المياه؛ وها هو ذا يلاحقها حتّى في غدير الكاهن.

وأجابت: «لا، أنا متأكّدة من أنّها لا تنوي ذلك. ثمّ إنّ الدّكتور برنلي يكره النّساء يا عمّتي نانسي».

ضحكت العمّة نانسي.

«ظننت أنّه ربّما تجاوز الأمر. لقد مضى أحد عشر عامًا على هروب زوجته. قلّما يثبت الرّجال على فكرة واحدة طيلة أحد عشر عامًا. ولكن لطالما كان ألان برنلي معنتًا في كلّ شيء، في الحبّ كما في الكره. مازال يحبّ زوجته، وهذا ما يفسّر كرهه لذكراها ولسائر النّساء».

فتدخّلت كارولين قائلة: «لم أسمع قطُّ حقيقة تلك القصّة. من كانت زوجته؟».

«بياتريس ميتشل، ابنة آل ميتشل من مطمر الفأر. لم تتجاوز الثّامنة عشرة من عمرها لمّا تزوّجها ألان كان آنذاك في سنّ الخامسة والثلاثين. إيميلي، إيّاك أن تقعي في خطأ الزّواج من رجل يكبرك بكثير».

لم تنبس إيميلي بكلمة. ذهب رؤساء الأسكتلنديّين في طيّ النّسيان، وسرى البرد في أطراف أناملها مثلما يحدث كلّما تحمّست، وغزا عينيْها سوادٌ عميق. كانت تشعر بأنّها على وشك حلّ لغز حيّرها وعجّزها منذ زمن طويل، وخشيت أن تحيد العمّة نانسي عن الموضوع.

قالت كارولين: «سمعت أنّها كانت آية في الجمال».

فنخرت العمّة نانسي.

«هذا يتوقّف على ذوقك في الجمال. آه، كانت فعلًا حسناء، من تلك العرائس ذوات الشّعر الذّهبي. كانت لها شامة صغيرة فوق

حاجبها الأيسر على شكل قلبٍ صغير أحمر، كانت عيناي لا تريان غير تلك الشّامة كلّما نظرت إليها. ولكن أخبرها بعض المجاملين بأنّها علامة جمالٍ، وأطلقوا عليها اسم «آس القلوب». كان ألان مجنونًا بحبّها، أمّا هي فكانت لعوبًا قبل زواجها. ولكنّني *أقرّ*، من باب إنصاف حقّ النّساء، وقلّما أنصفتهنّ -فأنتِ مثلًا، يا كارولين، عجوزٌ شمطاء ظالمة-، أقرّ بأنّها لم تتلاعب بعد زواجها، أو على الأقلّ لم تجهر بذلك. أمّا قبله فقد كانت ماكرةً، خبيثة، دائمًا تقهقه وتغنّي وترقص، وما كان ذلك ليليق بالدّكتور برنلي، من رأيي. كان بوسعه أن ينال قلب لورا موراي. ولكن أمام امرأة حمقاء وأخرى رصينة، هل يتردّد الرّجال؟ النّصر للحمقاء دومًا يا كارولين، لذلك *أنتِ* لم تحظيْ بزوجٍ قطُّ. كنتِ رصينة أكثر ممّا ينبغي. أمّا أنا، ففُزت بزوجي لأنّني تظاهرت بالحماقة. لا تنسي ذلك يا إيميلي، أُكرمتِ بعقل، فأخفيه. سيفيدك كاحلاك أكثر ممّا سيفعل عقلك».

فقالت كارولين، متلهّفة إلى المزيد من الفضائح: «كفانا من كاحليْ إيميلي، وزيدينا عن آل برنلي».

«كان لديها ابن عمّ من مطمر الفأر، ليو ميتشل. هل تتذكّرين آل ميتشل يا كارولين؟ كان ليو هذا قبطان سفينة بهيّ الطّلعة، وكان متيّمًا ببياتريس، بحسب ما تناقلته الألسنة. وقال بعضهم إنّ بياتريس أرادت الارتباط به، ولكن أجبرها أهلها على الزّواج من ألان لأنّه أكفأ لها. الله أعلم. فالنّميمة تكذب تسع مرّات وتقول نصف الحقيقة في العاشرة. على كلّ حال، تظاهرت بحبّ ألان فصدّقها. ولمّا عاد

ليو من إحدى رحلاته ووجد بياتريس متزوّجة، تقبّل الأمر بشيء من العقلانيّة؛ ولكنّه مكث في معبد المياه. أخرجت بياتريس ألوانًا من الذّرائع: كان ليو ابن عمّها، ونشآ معًا، وهو بمثابة أخيها وهي أخته، وتشعر بالملل منذ انتقلت إلى معبد المياه بعد حياة المدينة، ولا منزل لها إلّا في قلب أخٍ. انطلت على ألان كلّ تلك الأكاذيب، إذ كان شغفه بها حريًّا بجعله يصدّق كلّ ما تقوله. وكان بياتريس وليو لا يفترقان كلّما غادر الدّكتور البيت لعيادة مرضاه. وفي ليلة من اللّيالي، كانت باخرة ليو، *مولاة الأرياح*، تتأهبّ للإبحار من ميناء معبد المياه صوب أمريكا الجنوبيّة، فرحل على متنها ليو، ورحلت معه مولاتي بياتريس».

صدر من ركن إيميلي صوت حادّ مخنوق. ولو نظرت إليها العمّة نانسي او كارولين، لوجدتا الفتاة شاحبة شحوب الموت، وعينيْها الواسعتيْن تنضحان برهبةٍ صارخة. ولكنّها لم تلتفتا نحوها، بل واصلتا الحباكة والثّرثرة في بهجة خالصة.

سألت كارولين: «وكيف تقبّل الدّكتور الأمر؟».

«تقبّله... تقبّله... لا أحد يعلم، ولكن يعرف الجميع ما طرأ عليه من تغيّر منذ تلك اللّيلة. كان قد عاد إلى بيته عند الشّفق، ووجد الرّضيعة في مهدها تغطّ في سباتٍ عميق. وكانت معها الخادمة تراقبها، وأخبرت ألان بأنّ السّيدة برنلي ذهبت إلى الميناء مع ابن عمّها لتشيّعه مشيًا قبل الوداع، وأنّها ستعود مع العاشرة مساء. ولم يتردّد ألان في انتظارها بصبر -إذ لم يشكّ فيها البتّة- ولكنّها

لم تعد. لم تكن تنوي العودة بالمرّة. وفي صباح اليوم الموالي، كانت *مولاة الأرياح* قد رحلت، ورُفعت قلاعها من الميناء في دُجى اللّيلة الماضية، ورحلت بياتريس على متنها. هذا كلّ ما يعلمه النّاس. *ولم* ينبس ألان برنلي بكلمة في هذا الصّدد، ما عدا أنّه منع أن يُذكر اسمها أمامه منذ الحادثة. ولكن ضاعت *مولاة الأرياح* وكلّ من على متنها في عرض بحر هاترس، وكانت تلك نهاية قصّة الفرار، ونهاية بياتريس بجمالها وضحكها وآس قلوبها».

أضافت كارولين بنبرة خبيثة: «ولكن ليست نهاية العار والذّل اللّذين جلبتهما لبيتها. لو بوسعي لسلّطت عقوبة القطران والرّيش[1] على امرأة من هذا القبيل».

«هراء. إن لم يقدّر الرّجل رعاية زوجته، وإن طمس عينه بيده، ... رحمتك يا ربّاه، ما خطبك يا فتاة؟».

انتصبت إيميلي آنذاك أمامها، ومدّت يديْها وكأنّما تدفع عنها شيئًا مريعًا.

وصاحت بنبرة حادّة غير طبيعيّة: «لا أصدّق. لا أصدّق أنّ والدة إيلسي فعلت *ذلك*. لم تفعل، ما كانت لتفعل، إنّها *والدة* إيلسي».

صاحت العمّة نانسي: «أمسكي بها يا كارولين!».

---

(1) «القطران والريش» هو أسلوب تعذيبٍ أمريكيّ يتمثّل في تجريد الشخص من ملابسه وصبّ القطران الساخن فوق جلده العاري وإلقاء الريش عليه، ثمّ استعراضه في جميع أنحاء المدينة.

ورغم أنّ إيميلي شعرت للحظةٍ بالردهة تدور حولها فيما يشبه دوّامة، فإنّها تمالكت نفسها وصاحت منفعلة: «لا تلمسيني! لا تلمسيني! لقد... لقد... لقد *أعجبتك* تلك القصّة!».

انطلقت خارج الغرفة، وظلّت العمّة نانسي تقف في خزي لوهلة من الزّمن. ولأوّل مرّة، أدركت أنّ لسانها المحبّ للفضائح قد ارتكب إثمًا فادحًا. ثمّ هزّت كتفيها استخفافًا.

«لا يمكنها أن تمضي قدمًا في الحياة بهذه الهشاشة. ويجدر بها أن تتعوّد على تسمية الأشياء بمسمّياتها منذ الآن. ظننت أنّها سمعت بالأمر من ذي قبلُ، لو ظلّت أحاديث معبد المياه كما عهدتها. وإن عادت إلى بيتها وكرّرت ما قلت لها، ستهرع إليّ عذراوتا القمر الجديد ناقمتيْن عليّ، بوصفي مفسدة الشّباب. كارولين، إيّاك أن تطلبي منّي المزيد من أخبار عائلتي الفظيعة أمام حفيدة أخي، أيّتها العجوز المُشينة. في عمري أنا! لقد فاجأتني!».

ثمّ عادت العمّة نانسي وكارولين إلى حباكتهما وذكرياتهما الخليعة، بينما مكثت إيميلي في الغرفة الوردية مستلقية على فراشها تبكي لساعات. إنّه لأمر فظيع... هربت والدة إيلسي تاركة رضيعتها، وذاك أبشع ما فعلت في نظر إيميلي، ذاك أغرب أفعالها وأكثرها قسوة وشرًّا. ولم تستطع حمل نفسها على تصديق القصّة، ثمّة خطأ مّا فيها، لا *بدّ أنّ* هنالك خطأ مّا.

قالت إيميلي، في محاولة يائسة لتبرير الأمر: «ربّما اختُطِفت. ربّما صعدت على متن السّفينة لتلقي نظرة فحسب، فرفع هو المرساة

وأخذها معه. مُحال أن تكون هربت بمحض إرادتها تاركة ابنتها الرّضيعة».

لم تبرح القصّة بال إيميلي ولو لحظة. لم يكن بوسعها أن تفكّر في شيء آخر طيلة أيّام. لازمتها وأقلقتها ونخرت كيانها فكاد الألم يكون ملموسًا. توجّست من العودة إلى القمر الجديد لتقابل إيلسي بسرّ دفين يثقل كاهلها ويجب أن تخفيه عنها. كانت إيلسي تجهل الأمر تمامًا، إذ سألتها مرّة عن مكان قبر والدتها فقالت، «أوه، لا أدري. أظنّ أنّه في مطمر الفأر حيث يُدفن آل ميتشل».

ضمّت إيميلي يديها النّحيلتيْن. كان حسّها المرهف يتفاعل مع البشاعة واللّوعة مثلما يفعل مع الجمال والمتعة، وكان هذا الأمر مُقرفًا ومؤلمًا في آنٍ واحد. ولكنّها لم تتمالك نفسها عن التّفكير فيه صباحًا ومساء، وغدا العيش في عزبة ويذر قاحلًا بين عشيّة وضحاها. وكفّت العمّة نانسي وكارولين عن التطرّق إلى حكايا العائلة أمامها، حتّى تلك الّتي لا ضير منها. ونظرًا إلى أنّه يصعب عليهما كبح جماح لسانيْهما، كانتا تدعوانها إلى تفادي مجالستهما. وبدأت إيميلي تشعر بارتياحهما كلّما غادرتهما، فصارت تبتعد عنهما ما أمكن وتقضّي معظم وقتها هائمة على شاطئ الخليج. لم تقدر على تأليف أدنى بيت شعر، ولا على الكتابة في كتاب جيمي، ولا حتّى مراسلة والدها؛ وكأنّ شيئًا ما يحول بينها وبين ملذّاتها السّابقة، وباتت ترى قطرة سمّ في كلّ كأس. حتّى الظّلال الشّفّافة المنسدلة على الخليج العظيم، وسحر هضابه المرصّعة بأشجار التّنوب، وجُزَيْراته البنفسجيّة

الّتي بدت شبيهة بمخافر بلاد العجائب، لم تجلب لها نشوة الماضي، تلك «النّشوة الرّفيعة اللّامبالية». خشيت ألّا تسترجع فرحتها بعد ذلك قطُّ، أي بعد ردّ فعلها العنيف إزّاء أوّل اكتشافٍ لخطايا العالم وآلامه. ومع كلّ ذلك، ظلّ شكّها قائمًا: لا يمكن أن تكون والدة إيلسي قد أقدمت على ذلك، مثله مثل رغبتها البائسة في دحض الرّواية وكشف الحقيقة. ولكن أين هي الحقيقة؟ لا وجود لها. كانت قد حلّت «اللغزَا»، ولكنّها وقعت في آخر أعمق، ألا وهو سبب عدم عودة بياتريس برنلي إلى بيتها في تلك الأمسية الصّيفية الغابرة. فعلى الرّغم من كلّ الدلائل المشيرة إلى العكس، أصرّت إيميلي على اعتقادها سرًّا أنّ سبب رحيل والدة إيلسي، مهما كان هذا السّبب، لا يكمن في هروبها على متن *مولاة الأرياح* عندما أقلعت الباخرة اللّعينة من ميناء معبد المياه وانطلقت في عرض البحر تحت ضوء النّجوم.

على شاطئ الخليج

«يا تُرى كم مازال لي من وقتٍ في الحياة»، تساءلت إيميلي.

تجوّلت على شاطئ الخليج ذاك المساء، فابتعدت أكثر من أيّ مرّة. وهبّت الرّياح في ذاك المساء الدّافئ محمّلة بعبق الأشجار وعذوبتها؛ وبدا الخليج في زرقته شبيهًا بفيروزة نديّة. كان ذاك الجزء من الخليج الّذي قادتها إليه قدماها معزولًا وطاهرًا كأنّما لم تطأه قدم آدميّة قطُّ؛ ما عدا دربًا صغيرًا متعرّجًا، رفيعًا كخيط أحمر، محفوفًا برُقَعٍ واسعة مخمليّة من الطّحالب الخضراء، يتسلّل بين أشجار الصّنوبر الضخمة وأشجار التّنّوب. وكلّما تقدّمت إيميلي في الدّرب، احتدّ انحدار الضّفاف وازدادت صخورها، إلى أن اختفى الطّريق تمامًا وسط حزمة من السّراخس. كانت إيميلي على وشك أن تعود أدراجها لّما لفتت نظرَها مجموعة من أزهار الدّاليا بزغت هناك على شفا الضّفة. عليها أن تقطف بعضها، ولم يسبق لها أن ترى أزهار داليا بذاك اللّون الأرجواني الدّاكن العميق. وتقدّمت نحوها لتصل إليها، وإذا بالتربة المطحلبة الغدّارة تنسحب من تحت قدميها وتنزلق في المنحدر الحادّ. جاهدت إيميلي في محاولة جنونيّة لتتسلّق عودةً إلى الأعلى، ولكن كلّما تضاعفت جهودها، تسارع

انهيار التّراب وانجرفت هي معه. وفي لمح البصر، تجاوز سفح المنحدر ووصل إلى حافة الصّخور الجاثمة مباشرة فوق الشّاطئ وأحجاره النّاتئة على بعد ثلاثين قدمًا أسفلها. بعد لحظة من الهلع واليأس، أدركت أنّ الكتلة التّرابيّة المطحلبة المنشقّة علقت بحافّة صخريّة ضيّقة وظلّت بالكاد مستندة إليها؛ وأنّها هي، إيميلي، ملقاةٌ فوق الكتلة. خُيّل إليها أن أدنى حركة ستندّ عنها خليقة بزعزعة توازنها وكلّ ما تحتها وإرسالهم جميعًا إلى الصّخور الفتّاكة تحتهم. ظلّت مستلقية في سكون تام، تحاول أن تفكّر، وتحاول ألّا تخاف. كانت في منأى عن أيّ منزل كان، ولا أحد سيسمعها إن صرخت. وهي لن تجرؤ حتّى على الصّراخ خشية أن يُحرّك جسدُها كتلةَ التّراب الّتي تعتمد عليها. كم وقتًا ستظلّ بلا حركة؟ ها هو اللّيل سيسدل ستائره عمّا قريب، وستقلق عمّتها نانسي بحلول الظّلام وترسل كارولين بحثًا عنها. ولكن لن تعثر عليها أبدًا. لن يخطر ببال أحد أن يبحث عنها هنا، في هذا المكان النّائي عن العزبة، في أراضي التّنوب بالخليج السّفلي. مكثت إيميلي هناك، مستلقية في العراء بجوف اللّيل، تتخيّل أنّ التّراب ينجرف تحتها وتنتظر نجدةً لن تأتي، وتمالكت نفسها بالكاد عن رجفة قد تودي بحياتها. سبق لها أن واجهت الموت، أو بالأحرى ظنّت أنّها واجهته لمّا أخبرها جون المتغطرس بأنّها أكلت تفّاحة مسمومة، ولكنّ هذا أصعب من ذاك. كيف تموت هنا، وحيدة، بعيدة عن الدّيار! ربّما لن يعرفوا ما آلت إليه، وربّما لن يعثروا عليها.، وستنقر الغربان أو النّوارس

عينيها. كانت قد أسهبت في تخيّل التّفاصيل الدّرامية لدرجة أنّها كادت تصيح من شدّة هولها. إنّها ستختفي من العالم مثلما اختفت منه والدة إيلسي.

ما الّذي حدث لوالدة إيلسي؟ طرحت إيميلي السؤال ذاته حتّى وهي تتخبّط في مأزقها الخاص. لن ترى قمرها الجديد العزيز مرّة أخرى، وتيدي، والملبنة، ورقعة الطّانسة، وأيكة جون المتغطرس، والمزولة المطحلبة العتيقة، وحزمة رسائلها الغالية في رفّ المقعد بالسّقيفة.

فكّرت: «عليّ أن أتحلّى بالشّجاعة والصّبر. فرصتي الوحيدة للنّجاة هي أن أبقى ثابتة لا أتحرّك. وسأصلّي في قرارة نفسي، أنا متأكّدة من أنّ الرّب يسمع الأفكار مثلما يسمع الكلمات. تسرّني فكرة أنّه يسمعني متى لم يسمعني أحد. ربّاه، يا ربّ أبي، أرجوك هب لي مُعجزة وأنقذ حياتي، فأنا أظنّ أنّه لا ينبغي لي أن أموت بعدُ. سامحني لأنّني لا أركع لك، أنت ترى أنّني لا أستطيع الحركة. وإن متُّ، أرجوك لا تسمح لخالتي إليزابيث بإيجاد فواتيري المكتوبة، ولتجدها خالتي لورا. وأرجوك لا تجعل كارولين تحرّك الدّولاب إن نظّفت البيت، لأنّها ستجد كرّاس جيمي وتقرأ ما كتبت فيه عنها. أرجوك اغفر لي ذنوبي، لا سيّما عدم امتناني بما يكفي، وقصّ الغرّة في شعري، وأرجوك لا تجعل أبي يبتعد عنّي كثيرًا. آمين».

ثمّ فكّرت في تذييل، كما تفعل عادةً. «آه، *وأرجوك* أن تتيح لأحد مّا أن يُثبت أنّ والدة إيلسي لم تفعل *ذلك*».

تسمّرت في مكانها. بدأ سطح الماء يصطبغ بمزيج دافئ من الذّهبي والورديّ. وكان على المنحدر أمامها صنوبر عظيم يمتدّ فارشًا أغصانه الكثّة الملتفّة كالخمائل الدّاكنة ويرتسم على خلفيّة عنبريّة بديعة، وما ذاك إلّا نزرٌ يسير من العالم الخلّاب الّذي ينفلت منها. تسرّب إلى أطرافها برد نسيم المساء إذ هبّ على الخليج. وصادف أن تفتّت شيءٌ من التراب من جانبها وسقط، وسمعت إيميلي صوت ارتطام الحصى الصّغير على الصّخور السّفلى. وكان الجزء الّذي أسندت إليه إحدى رجليْها، هو الآخر، رخوًا يكاد لا يُعوّل عليه، وكانت تعلم جيّدًا أنّه قد ينكسر بدوره بين الفينة والأخرى. يا لهوْلِ بقائها هنا، وقد أوشك الظّلام الدّامس على الحلول. رأت مجموعة أزهار الدّاليا الّتي قادتها إلى هلاكها تتمايل فوقها، وقد ظلّت كما هي، بنفسجيّة رائعةً. ثمّ لاح لها، جانب الأزهار، وجه رجلٍ ينظر إليها من الأعلى!

سمعته يخاطب نفسه هاتفًا «يا إلاهي!» في صوت خافت؛ ولاحظت أنّه هزيل وله كتف أعلى بقليل من الآخر: لن يكون هذا إلّا دينْ بريست، المسمّى بـ«خرعان» بريست. لم تجرؤ إيميلي على مناداته، وظلّت تتوسّل إليه عيناها الواسعتان بلونهما الرّمادي الأرجوانيّ قائلتيْن في صمتٍ «النّجدة».

خاطبها دينْ بريست بصوتٍ أجشّ، كأنّما يحدّث نفسه: «كيف لي أن أساعدك؟ لا أستطيع أن ألحقك، ويبدو لي أنّ كتلة التّراب تلك قد تنفلت إلى الأسفل مع أدنى لمسة واهتزاز. عليّ

أن أجلب حبلًا وأتركك لوحدك هكذا. هل لكِ أن تنتظري يا فتاة؟».

لفظت إيميلي: «أجل». وابتسمت له مشجّعة، بتلك الابتسامة الرّقيقة الّتي تنشأ في ركني فمها وتنفرج على كامل وجهها. لم ينسَ دينْ بريست تلك الابتسامة أبدًا، ولا تينك العينيْن الثّاقبتيْن وهما تحملقان فيه من وجه صغير بدا على وشك الانزلاق في هاوية.

وقال: «سأحاول أن أسرع بقدر الإمكان. لست سريعًا للغاية، فأنا كما تريْن أعرج. ولكن لا تخافي، سأنقذك. وسأترك معك كلبي لتستأنسي إليه. تعالَ يا تويدْ».

وصفّر، فلبّى نداءه كلبٌ ضخم ذهبي الفرو.

«اجلس هنا ريثما أعود إليك يا تويد. لا تحرّك مخلبًا، ولا تهزّ ذيلًا، ولا تخاطبها إلّا بعينيك».

فأذعن تويدْ وجلس طيّعًا، وغادر دينْ بريست.

جلست إيميلي هناك تفكّر في كيفيّة إضفاء صبغة دراميّة على الحادثة لتدوّنها في كرّاس جيمي. لم يتبدّد خوفها بعدُ، ولكن لم يبلغ بها الخوف إلى درجة ألّا ترى نفسها تكتب عن الحادثة برمّتها في اليوم الموالي. سيكون نصّا شيّقًا بلا شكّ.

هدأ روعها بوجود الكلب الكبير معها. لم تكن ضليعة في علمها بفصيلة الكلاب مثلما هي في فصيلة القطط. ولكنّه يبدو شبه آدميّ وجديرًا بالثّقة، إذ كان يحرسها بعينيْن واسعتيْن لطيفتيْن. جميلةٌ

هي القطط الرّماديّة الصّغيرة، ولكن ما كان قطٌّ رماديٌّ ليجلس معها هناك ويذكي شجاعتها. وفكّرت إيميلي: «أظنّ أنّ الكلاب أنفع من القطط وقت الشّدائد».

ومرّت نصف ساعة قبل عودة دينْ بريست.

همس الشّاب: «أشكر الرّب أنّك لم تسقطي. لم أضطرّ إلى الابتعاد مثلما كنت أخشى. وجدت حبلًا في زورق فارغ على الشّاطئ وأخذته. والآن، لو ألقيتُ لك بالحبل، هل لديك ما يكفي من القوّة لتمسكي به ريثما تسقط كتلة التّراب، ثم تتشّبثي حتّى أجذبك إلى الأعلى؟».

قالت إيميلي: «سأحاول».

ربط دينْ بريست عقدةً في طرف الحبل وأسدله إليها، ثمّ لفّه حول جذع تنّوب ضخم.

وقال: «الآن».

تضرّعت إيميلي سرًّا: «*رحمتك* يا ربّاه» وأمسكت بالعقدة المتمايلة. وفي غضون لحظة من الزّمن، تدلّى جسدها بكامل كتلته من طرف الحبل؛ وبمجرّد أن تحرّكت، انزلقت من تحتها كتلة التّراب وسقطت. وشعر دينْ بريست بالغثيان والقشعريرة. هل بوسعها أن تتمسّك بالحبل جيّدًا وهو يجذبها إليه؟

ثمّ رأى أنّ ركبتها استقرّت على الجرف الضّيق، فشرع يجذب الحبل بحذر شديد، بينما ساعدته إيميلي، رابطةً جأشها، وهي تغرس

أصابع قدميْها في الكتلة المتحطّمة. وفي غضون لحظات، اقتربت إليه فقبض على ذراعيْها وسحبها إلى جانبه في برّ الأمان. وبينما كان يرفعها فوق أزهار الدّاليا، مدّت إيميلي يدها واقتطفت حزمة منها.

قالت في نشوة: «ها قد أدركتها في نهاية الأمر». ثمّ تذكّرت واجبات حسن السّلوك فاستأنفت: «إنّني ممتنّة لك بحياتي، لقد أنقذتني. و... و... أظنّ أنّني سأجلس هنا قليلًا. أشعر برعشة ودغدغة في رجليّ».

جلست إيميلي وهي ترتجف أكثر ممّا فعلت لمّا كانت في عباب الخطر. وكان دينْ بريست «يرتجف» هو الآخر، فاستند إلى التّنوب المسنّ المتغضّن ومسح جبينه بمنديله. نظرت إليه إيميلي في فضول. كانت تعرف عنه عددًا من المعلومات استقتها من ملاحظات العمّة نانسي العابرة، ولم تكن ملاحظاتها دومًا بريئة، إذ لم يكن لها ميلٌ شديد إلى دينْ على ما يبدو. كانت تناديه بـ«خرعان» في شيء من الازدراء، في حين تحرص كارولين على أن تسمّيه دينْ. وعرفت إيميلي أنّه زاول الجامعة، وأنّه في سنّ السّادسة والثلاثين -وهو سنّ الوقار في نظر إيميلي-، وأنّه ميسور الحال. علمت كذلك أنّ له كتفًا أخرع فيه شيء من العرج، وأنّه لا يبالي -ولم يُبالِ قَطُّ- بشيء ما عدا كُتُبه، وأنّه عاش مع أخيه الأكبر وسافر كثيرًا، وأنّ كلّ أفراد عائلة بريست يندهشون نوعًا ما من لسانه اللّاذع، حتّى أنّ العمّة نانسي تصفه بـ«الماجن». لم تدرِ إيميلي ما معنى ماجن، ولكنّه وصف مثير للانتباه. نظرت إليه مليًّا فلمحت تقاسيمه الرّقيقة الشّاحبة، وشعره

البنّي الدّاكن، وشفتيْه الدّقيقتين المرهفتيْن تنحنيان في ابتسامة طريفة. أعجبها فمه؛ ولو كانت أكبر عمرًا لأدركت السّبب، ألا وهو أنّه ينمّ عن قوّة وحنان وحسّ فكاهة.

وعلى الرّغم من كتفه الخَرِع، شعرت في حضرته بشيء من العظمة اللّامبالية الّتي تميّز عددًا من آل بريست، والّتي دائمًا ما يظنّ بعضهم خطأً أنّها كبرياء. أمّا عيون بريست الخضراء، تلك الّتي تبدو ثاقبة وغريبة لدى كارولين، وجريئة لدى جيم، فكانت حالمة جذّابة لدى دينْ بريست.

قال لها: «هل أبدو لكِ وسيمًا؟» وقد جلس على صخرة أخرى وابتسم إليها. كان صوته جميلًا، رنّانًا وناعمًا.

تورّد وجه إيميلي. كانت تعلم أنّ التحديق في الغير ينافي قواعد اللّياقة، ولم يبدُ لها وسيمًا البتّة، فتنفّست الصّعداء لمّا رأته لم يصرّ على سؤاله، بل استرسل في سؤال آخر.

«هل تعلمين من هو فارسك المُنقذ المغوار؟».

«أظنّ أنّك خر... السّيد دينْ بريست». واحمرّ وجه إيميلي مرّة أخرى خجلًا. كادت تقصّر، مرّة أخرى، تقصيرًا فظيعًا في آدابها.

«أجل، خرعان بريست. لا تُبالي باللّقب، فقد سمعته بما يكفي وزيادة. ذاك هو تصوّر آل بريست للمزاح». وضحك ضحكة صفراء، ثمّ استأنف: «أليس السّبب واضحًا؟ لم أسمع غير ذاك الاسم في المدرسة. كيف وصل بك الأمر إلى الانزلاق في هذا المنحدر؟».

فقالت إيميلي: «أردت قطف هذه»، ولوّحت بأزهار الدّاليا.

«وها قد حصلت عليها! هل تنالين دومًا ما تسعين إليه، حتّى وإن كان الموت يترصّدك عن كثب؟ أظنّ أنّك ولدتِ محظوظة، ورأيت العلامات. ولئن كانت تلك الزّهور الكبيرة قد أغوتك وقادتك إلى خطر محيق، فهي الّتي أنقذتك أيضًا. فلو لم أنحنِ لأفحصها هي، لما رأيتك. كان قد لفت انتباهي حجمها ولونها، وإلّا لكنت مضيت في حال سبيلي، ما الّذي كان ليحدث لك لو فعلتُ؟ من أهلك الّذين تركوك تعرّضين نفسك لخطر هذه المنحدرات؟ وما اسمك، إن كان لكِ اسم؟ بدأت أشكّ في أمرك، فها أنا أرى لديك أذنين مدبّبتيْن. هل نُصب لي كمين لألهو مع الحوريّات، وسأكتشف الآن أنّ عشرين عامًا قد مضت، وصرتُ عجوزًا مفقودًا بين الأنام، ولا شيء معي إلّا ما بقي في كلبي من عظام؟».

فردّت إيميلي بشيء من البرود: «أنا إيميلي بيرد ستار من القمر الجديد». بدأت إيميلي تستحي من أذنيْها بعدما علّق بشأنهما الأب كاسيدي، والآن خرعان بريست. هل فيهما شيء غريبٌ حقًّا؟

ورغم ذلك، كان قد شدّها شيءٌ ما في خرعان ذاك، شيءٌ أعجبها أيّما إعجاب. لا تدوم شكوك إيميلي في أيّ شخصٍ جديد تلقاه، فتراها تقرّر، في غضون دقائق معدودات، إن كانت معجبة به أم لا تبالي بأمره. وساورها شعور غريب بأنّها تعرف خرعان بريست منذ سنوات... ربّما لأنّ الوقت طال بها وهي تنتظر عودته

على تلك التّربة المتداعية. وهو ليس بوسيم، ولكن راق لها وجهه الرّفيع الذّكي بتيْنك العينيْن الخضراوين الجذّابتيْن.

هتف دينْ بريست مندهشًا: «إذن أنت الآنسة الّتي أتت في زيارة إلى عزبة ويذر! أرى أنّه يجدر بعمّتي العزيزة نانسي أن تعتني بكِ أكثر، عمّتي العزيزة *جدًّا* نانسي».

قالت إيميلي في برود: «إنّك لا تحبّ عمّتي نانسي».

«وما الفائدة من حبّ امرأة لن تحبّني؟ لعلّك اكتشفت إلى حدّ الآن أنّ السّيدة عمّتي تكرهني».

قالت إيميلي: «أوه، لا يبدو لي الأمر بهذا السّوء. من الواضح أنّها ترى فيك بعض الخصال، إنّها تقول إنّك الوحيد الّذي سيدخل الجنّة من آل بريست».

«إنّها لا تقول ذلك قصد الإطراء، مهما خُيّل لفكركِ البريء. أأنتِ ابنة دوغلاس ستار؟ كنت أعرف والدك، وكنّا صديقيْن في أكاديميّة كوينز، ثمّ افترقنا بعد التّخرّج، إذ تخصّص هو في الصّحافة وذهبت أنا إلى جامعة مكغيل. ولكنّه كان صديقي الوحيد في المدرسة، والصّبي الوحيد الّذي يبالي بخرعان بريست الخَرِع الأحدب الّذي لا يمارس كرة القدم ولا الهوكي. إيميلي بيرد ستار، كان يجب أن يكون ستار اسمكِ، لا لقبك. فأنتِ كالنّجمة، تشعّ منك شخصيّة لامعة تخطف الأبصار، ويجب أن تكون سماء الغسق موئلَك الطّبيعيّ، أو سماء السّحر. أجل. قد تكون سماء الصّباح أنسب موطن لكِ. أظنّ أنّني سأسمّيك ستار».

فسألت إيميلي بلا تردّد: «هل يعني هذا أنّك تراني حسناء؟».

«ربّاه، لم يخطر ببالي أن أتساءل إن كنت حسناء أم لا. هل تظنّين أنّه على النّجمة أن تكون حسناء؟».

فكّرت إيميلي.

ثمّ قالت أخيرًا: «لا. إنّه وصف لا يناسب النّجمة».

«أرى أنّك فنّانة خبيرة بالكلمات. طبعًا لا يناسبها ذاك الوصف. فالنّجوم وضّاحة، نابضة، مواربة؛ وقلّما تكون لحمًا ودمًا. أظنّ أنّني سأنتظركِ».

قالت إيميلي وهي تنهض: «أوه، أنا مستعدّة للذهاب الآن».

«همم. لم يكن ذلك قصدي. لا بأس. تعالي معي يا ستار، إن لم تُمانعي المشي بتأنٍّ. سأعود بك من أعماق البراري على الأقلّ، لا أدري إن كنت سأصل بك إلى عزبة ويذر اللّيلة. لا أريد أن تُحبطك عمّتي نانسي. إذن لم أبدُ لكِ وسيمًا؟».

هتفت إيميلي: «لم أقل ذلك».

«لم تجهري بالكلمات، ولكن بوسعي أن أقرأ أفكارك يا ستار، يجب ألّا تفكّري في أشياء تريدين إخفاءها عنّي. إنّها موهبة رزقتني إيّاها الآلهة بعد أن حرمتني من سائر الأشياء الّتي أردتها. لا أبدو لك وسيمًا، بل لطيفًا. وأنتِ، هل ترين نفسكِ جميلة؟».

أجابت إيميلي بصراحة: «قليلًا... منذ سمحت لي عمّتي نانسي بإسدال غرّتي».

كشّر خرعان بريست.

«لا تسمّيها بذاك الاسم. إنّها كلمة أفظع من كلمة غَبَن. غرّة وغبن... تؤلمني الكلمتان. أعجبتني الموجة السّوداء الّتي تنكسر على خليج جبهتكِ؛ ولكن أرجوك لا تسمّيها غرّة، أبدًا».

«إنّها فعلًا كلمة بشعة. ولا أستخدمها في قصائدي، طبعًا».

عندئذ، اكتشف دينْ بريست أنّ إيميلي تنظم الشّعر. ثمّ اكتشف تقريبًا كلّ شيءٍ آخر عنها في بقيّة رحلة العودة اللّطيفة إلى غدير الكاهن، وهما يتمشّيان في الغسق المعطّر بريح الصّنوبر، ويمضي بينهما تويدْ ويلامس بأنفِه يدَ صاحبه بين الفينة والأخرى، فيما تغرّد فوقهم طيور أبي الحنّاء أهازيج الفرحة في الشّفق.

كانت إيميلي محتشمة وكتومة مع تسعة أشخاص من أصل عشرة، ولكنّ دينْ بريست كان من بني قومها، وأدركت ذلك في الإبّان. كان يحقّ له دخول معبدها السّري، فأذنت له بذلك دون تردّد؛ وحدّثته بمطلق الحرّيّة. ثمّ إنّها أدركت أنّها *على قيد الحياة* مجدّدًا، واستطابت حلاوة العيش ولذّته بعدما تدلّى وجودها، من تلك الفجوة، بين الحياة والموت. شعرت بأنّ لها «عصفورًا صغيرًا يغنّي في قلبها»، مثلما كتبت لاحقًا لأبيها. آه، ما أحلى ملمس المروج الخضراء تحت قدميْها!

أخبرته عن ذاتها وصفاتها وأفعالها، ولم تخف عنه إلّا شيئًا واحدًا، وهو قلقها إزّاء والدة إيلسي. *هذا* ما لا يمكنها أن تفصح به لأيٍّ كان، ولا حتّى عمّتها نانسي، لكي لا تخشى أن تنقل إيميلي

حكاياتها إلى سكّان القمر الجديد. وقالت: «كتبت قصيدة كاملة البارحة لمّا أمطرت السّماء وتعذّر عليّ الخروج. وهي كالآتي،

«جلست حذو النّافذة غربًا

وخليج مالفرن يلوح منها..».

سألها دينْ: «ألن أسمع بقيّتها؟» وكان يدرك تمامًا أنّ إيميلي في انتظار طلبه ذاك.

فألقت عليه إيميلي كامل القصيدة بسرور، إلى أن بلغت أحبّ بيتيْن إليها، وهما،

«لعلّ في تلك الجزر وأدغالها

الّتي تزيّن صدر الخليج الفخور..».

وألقت إليه نظرة جانبيّة لتعاين إعجابه، ولكنّه كان يمشي مطرقًا ناظريْه، شارد الملامح، فخاب أملها قليلًا. وعند نهاية القصيدة، قال: «همم. قلتِ لي إنّكِ في الثّانية عشرة؟ عندما تكبرين بعشر سنوات، لن أستغرب.. ولكن دعينا من هذا حاليًّا».

فهتفت إيميلي: «قال لي الأب كاسيدي أن أواصل».

«لم تكن هنالك حاجة لذلك. كنتِ ستواصلين بأمره أو بعدمه، فأنتِ وُلدت بلهفةٍ غريزيّة للكتابة، ولا دواء لمثل هذا الدّاء. فماذا عساكِ أن تفعلي به؟».

قالت إيميلي وهي تفكّر: «أظنّ أنّني سأكون شاعرة عظيمة أو روائية مرموقة».

فردّ دينْ بنبرة جافّة: «ما لكِ إلّا أن تختاري. يجدر بك أن تصبحي روائيّة. سمعت أنّ ذلك أكثر إدرارًا للمال».

اعترفت إيميلي قائلة: «ما يقلقني في كتابة الرّوايات هو الحديث عن الحُبّ. أنا متأكّدة من أنّني لن أتقن كتابةً من هذا القبيل أبدًا. لقد جرّبت» واستكملت خلاصتها البريئة: «ولا أجد *ما أقوله* في هذا الصّدد».

فقال دينْ: «لا تحملي همًّا. سأعلّمكِ ذلك يومًا ما».

قالت إيميلي بحماسٍ شديد: «هل... هل ستفعل حقًّا؟ سأكون ممتنّة جدًّا لك لو فعلت. *أظنّ* أنّني أستطيع تدبّر أمر *كلّ* ما تبقّى على ما يُرام».

«اتّفقنا إذن، لا تنسي. وحذارِ من البحث عن مدرّس آخر. وماذا تفعلين في عزبة ويذر، باستثناء كتابة الشّعر؟ ألا تملّين وحدكِ بين تيْنك العجوزيْن؟».

قالت إيميلي بجدٍّ: «لا. أنا أستمتع برفقة نفسي».

«أكيد. يُقال إنّ النّجوم تبقى في عزلة، ويغمرها ضياؤها الخاصّ فتكتفي بذاتها، بطريقة ما. هل أنتِ حقًّا تحبّين العمّة نانسي؟».

«أجل، حقًّا. إنّها تعاملني بطيبة شديدة، ولا تجبرني على ارتداء القبّعات، وتسمح لي بالتّجوّل حافية في الضّحى. ولكن عليّ أن ألبس حذائي المزرّر بعد الظهر، وأنا أكره الأحذية المزرّرة».

«طبعًا. عليك أن تحتذي خفّيْن من ضوء القمر، وتتلحّفي

بوشاح من سديم البحر، وتزيّني شعرك ببعض اليراعات. ستار، أراك لا تُشبهين والدكِ هيأةً، ولكنّنك تذكّرينني به من نواحٍ عديدة. هل تشبهين والدتكِ؟ لم يسبق لي أن رأيْتها».

وانفرجت شفاه إيميلي على الفور عن ابتسامة محتشمة، ونشأ فيها آنذاك حسّ فكاهةٍ حقيقيّ، فلم يحزنها بعد ذلك أيّ شيء حزنًا خالصًا لا يشوبه شعور آخر، وقالت: «لا، لا أشبهها إلّا في أهدابي وابتسامتي. ولكن لديّ جبين أبي، وشعر جدّتي ستار وعيناها، وأنف خالي الأكبر جورج، ومرفقا ابنة خالتي سوزان، وكاحلا جدّة جدّتي موراي، وحاجبا جدّي موراي».

ضحك دينْ بريست، وقال: «فسيفساء... مثلنا جميعًا. أمّا روحكِ فملكُكِ وحدك، ولم يسبق لها نظير، صدِّقيني».

فقالت إيميلي في اندفاع: «آه، كم أنا سعيدة بإعجابي بك. سيكون مريعًا لو أنقذني شخص لا يروق لي، ولكنّني سعيدةٌ جدًّا بأن تكون *أنتَ* الّذي أنقذت حياتي».

«جميل، لأنّ حياتكِ ملكي من هنا فصاعدًا. بما أنّني أنقذتها، فهي لي. لا تنسي هذا».

راود إيميلي شعور غريب بالتّمرّد. لم ترُق لها فكرة إعطاء حياتها ملكًا لشخصٍ آخر دونها، مهما كان الشّخص، حتّى ولو كان يعجبها مثل دينْ بريست. رمقها دينْ وأدرك ما يجول بخاطرها، فابتسم بتلك الابتسامة الظّريفة الّتي تبدو وكأنّها تخفي في طيّاتها أكثر من مجرّد ابتسامة.

«ألا يروق لك هذا؟ آه، اعلمي أنّ المرء يسدّد ضريبة متى أراد شيئًا خارقًا للعادة، ويلتزم في المقابل بنوعٍ من العبودية. خُذي زهرتكِ إلى البيت واحتفظي بها قدر ما استطعت، فقد بذلت حرّيتك في سبيلها».

كان يضحك -فلم يكن الأمر إلّا مزحةً، طبعًا-، ولكن شعرت إيميلي وكأنّ عنكبوتًا ينسج حولها شبكته ويكبّلها. وانقادت إلى نزوةٍ مفاجئة فطرحت زهرة الدّاليا أرضًا وداستها بقدمها.

شاهدها دينْ بريست ضاحكًا، والتقت عيناه الغريبتان بعينيها في نظرةٍ شديدة اللّطف، وقال:

«إنّكِ حقًّا لفتاةٌ نادرة، متّقدةٌ، كالنّجوم تمامًا! سنصبح صديقيْن حميميْن، لا بل نحنُ صديقان حميمان *بالفعل*. سأزورك غدًا في عزبة ويذر لأرى تلك الأوصاف الّتي كتبتها في كرّاس جيمي عن كارولين وعمّتي المقدّسة. أنا متأكّد من أنّها بديعة. ها هو ذا طريقك، لا تحيدي عنه مجدّدًا فتبتعدي عن مناطق العمران. مساء الخير يا نجمتي، نجمةَ الصّبح».

ثمّ وقف في مفترق الطّرقات ليشاهدها وهي تتوارى عن ناظريْه.

وهمس: «يا لها من طفلة! لن أنسى أبدًا عينيْها وهي مستلقية هناك على شفا الموت، تلك الصّغيرة الباسلة. لم يسبق لي أن رأيتُ مخلوقًا مليئًا ببهجة خالصة مثلها. إنّها ابنة دوغلاس ستار، *ذاك* الّذي لم يسمِّني خرعان أبدًا».

توقّف لالتقاط الزّهرة المنكسرة، كان كعب إيميلي قد انهال عليها مباشرة فسحقها شرّ سحقٍ، ولكنّه وضعها بين صفحات كتاب جين *آير* في تلك اللّيلة، حيث أشار بعلامةٍ إلى بيتيْن،

«ذلك بأنّ ابن المطر والضّياء هذا

ارتفع أمام ناظريّ بهيًّا سنيًّا»[1].

---

(1) جين آير، شارلوت برونتي، الفصل 24، ترجمة منير بعلبكي.

عهد إيميلي

وجدت إيميلي في دينْ بريست، للمرّة الأولى منذ رحيل والدها، رفيقًا يتعاطف معها تعاطفًا تامًّا. وكلّما كانت معه، تجلّت له في أفضل حالاتها، ولازمها شعور لذيذ بأنّ هنالك من يتفهّمها. فمن السّهل أن يحبّ المرء -وهذا ما يجعل الحبّ شائعًا- أمّا أن يتفهّم فتلك عملةٌ نادرة حقًّا! وفي أيّام آب السّاحرة الّتي تلت مغامرة إيميلي على شاطئ الخليج، سافرا معًا في ربوع أرض الأحلام العجيبة، وتحدّثا عن أشياء رائعة أبديّة، واتّخذا «نِعَمَ الطّبيعةِ القديمةَ» بيتًا، كما وصفها وردزورث[1] بكلماته البهيجة. أطلعته إيميلي على كلّ قصائدها وأوصافها المدوّنة في كرّاس جيمي، فقرأها باهتمام عميق، وأدلى ببعض الملاحظات النّقديّة الّتي لم تجرحها -مثلما كان يفعل والدها تمامًا-، لأنّها تعلمُ أنّها في محلّها. أمّا فيما يخصّ دينْ بريست، فقد انبثقت فيه عينٌ سرّية من الخيال ظنّها قد نضبت منذ زمن بعيد، فإذا بها تفيض مرّة أخرى فيضًا رقراقًا.

(1) ويليام وردزورث (1770-1850) شاعر إنجليزيّ من مُفتتِحي العصر الرومانسيّ في الأدب الإنجليزيّ.

وقال لها: «جعلتني أؤمن بالحوريّات، سواء أأحببتُ ذلك أم كرهت، ويعني هذا أنّني استرجعت شبابي. طالما آمن المرء بالحوريّات، لا يمكنه أن يكبر».

احتجّت إيميلي متحسّرة: «ولكنّني لا أستطيع، أنا نفسي، تصديق وجودها. ليتني كنت أقدر».

«ولكنّكِ حوريّة –وإلّا لما استطعت العثور على بلاد العجائب. لا تُباع تذاكر هناك، لو تعلمين. إمّا أن تمنحك الحوريّات رخصة الدّخول عند تعميدك، أو لا تفعل. هكذا تجري الأمور».

فقالت إيميلي حالمةً: «أليست «بلاد العجائب» *أعذب* عبارة في الوجود؟».

ردّ دينْ: «لأنّها تبلور كلّ ما يتوق إليه قلب البشر».

عندما كان دينْ يخاطبها، تشعر إيميلي وكأنّها تنظر في مرآة سحريّة تعكس أحلامها وآمالها الدّفينة وتضفي عليها رونقًا خاصًّا. ولو كان دينْ بريست مجونيًّا بالفعل، فهو لم يُظهِر لإيميلي مجونًا. ولكنّه لم يكن مجونيًّا في حضرتها، بل ينفض عنه غبار السّنين ويعود صبيًّا بكلّ ما يحمله الصّبا من رؤى نقيّة. وأحبّته بسبب العالم الّذي بسطه أمام عينيْها المتلهّفتيْن.

كانت تتسلّى برفقته أيضًا، تسلية مدهشة ماكرة. إذ كان يخبرها بعددٍ من النّكات فيُضحكها؛ علاوة على قصص غريبة عن آلهة منسيّة باهرة، وعن حفلات البلاط وزفّات الملوك. كان يبدو حاملًا تاريخ العالم أجمع على أطراف أنامله، فتراه يصف لها الأشياء في جُمل لا تُنسى

وهما يتمشّيان على شاطئ الخليج أو يجلسان في ظلال الحديقة اليانعة العتيقة بعزبة ويذر. ولمّا حدّثها عن أثينا، «المدينة المتوّجة بالبنفسج»، أدركت إيميلي لأوّل مرّة أنّ السّحر يكمن حيثما تناسقت الكلمات المناسبة، وراق لها أن تفكّر في روما بوصفها «مدينة التّلال السّبع». كان دينْ قد زار روما وأثينا –وكلّ الأماكن الأخرى تقريبًا.

وقالت له: «لم أظنّ أنّ هنالك من يتحدّث مثلك، ما عدا في الكُتُب».

ضحك دينْ بشيء من المرارة الّتي يكاد لا يخلو منها ضحكه، ولو أنّ تلك المرارة لم تظهر عليه مع إيميلي مثلما تظهر مع الآخرين. وفي الواقع، كانت ضحكة دينْ هي الّتي أذاعت عنه سمعة المجونية؛ إذ دائمًا ما يظنّ النّاس أنّه يضحك منهم، لا معهم.

وقال: «لم يكن لي من رفيقٍ في حياتي سوى الكتب. هل عجبٌ أنّني صرت أتحدّث مثلها؟».

فقالت إيميلي: «أيقنت أنّني سأستمتع بدروس التّاريخ من هنا فصاعدًا؛ باستثناء تاريخ كندا. لن يعجبني *تاريخها* أبدًا،إنّه مملّ للغاية. لم يكن كذلك في البداية عندما كنّا تابعين لفرنسا وكان هنالك صراع محتدم، أمّا بعدها فصار الأمر سياسة بحتة».

قال دينْ: «أسعد البلدان، مثل أسعد النّساء، هي تلك الّتي لا تاريخ لها».

فهتفت إيميلي: «أتمنّى أن يكون لي تاريخ. أريد أن أعيش مسيرة مهنيّة *مثيرة*».

«هذا مراد الجميع، أيّتها السّخيفة. أتعلمين بما تُرسَم معالم التّاريخ؟ بالألم، والعار، والتمرّد، وسفك الدّماء، وكسر الخواطر. تساءلي، يا ستار، كم قلبًا تألّم وتحطّم لتُخطّ على صفحات التّاريخ تلك السّطور الحمراء والأرجوانيّة الّتي خلبت ألبابك. لقد أخبرتك منذ أيّام بقصّة ليونيداس مع الإسبرطيّين. جميعهم كان لديهم أمّهات وأخوات وحبيبات. أما كان أفضل لهم لو استطاعوا خوض صراعٍ بلا دماء؟ وإن كان ذلك قد يفقد الحبكة شيئًا من مأساويّتها».

فردّت إيلي في ارتباك: «لا... *أشعر*... بذلك... تمامًا».

كان أصغر ممّا يسمح لها بأن تفكّر، أو تقول، مثلما ستفعل بعد عشر سنوات، «إنّ أبطال ترموبيل[1] مصدر إلهام للبشريّة جمعاء منذ قرون خلت. فهل من صراع بشأن صناديق الاقتراع لينافس بطولةً من ذاك القبيل؟».

«وأنتِ، مثل كلّ الإناث، تبنين آراءك استنادًا إلى المشاعر. حسنًا، لكِ أن تربّي الأمل إزاء مستقبلك المهنيّ، ولكن تذكّري أنّ عنصر الدّراما لا يظهر في حياتكِ إلّا ودفع أحدهم ضريبة العذاب. وإن لم تدفعيها أنتِ، فسيدفعها شخصٌ آخر».

«أوه، لا، *هذا* لن يروق لي».

«عليك إذن أن تقنَعي بالإثارات الصّغيرة. ماذا عن زلّتك هناك في المنحدر؟ كاد الأمر أن يسفر عن مأساة. ماذا لو لم أجدك؟».

---

(1) نسبة إلى معركة ترموبيل الّتي نشبت في عام 480 ق.م. بين الفرس والإغريق.

فهتفت إيميلي: «ولكنّك وجدتني». ثمّ أضافت: «تعجبني النّجاة بأعجوبة، بعد مرور الأزمة، بالطّبع. لو كان جميعنا سعداء طيلة الوقت لما كانت لنا كتبٌ نقرؤها».

كان تويد يرافقهما في رحلاتهما وصارت إيميلي شديدة التّعلّق به، دون أن تفقد شيئًا من ولائها لمعشر القطط.

وقالت: «أحبّ القطط بجزء من فكري، والكلاب بالجزء الآخر».

فردّ دين: «أحبّ القطط ولكنّني لا أبقيها عندي. فالعناية بها مرهقة جدًّا، وطلباتها كثيرة. لا تريد الكلاب منّا إلّا الحبّ، أمّا القطط فتطالبنا بتقديسها. إنّها لم تُشفَ بعدُ من العادات الألوهيّة في تلّ بسطة»[1].

فهمت إيميلي قصده -كان قد أخبرها بكلّ قصص مصر القديمة والرّبّة باستت- ولكنّها لم تشاطره الرّأي تمامًا.

فقالت: «لا تبحث الهرْيرات عن القداسة. كلّ ما تريده هي الأحضان والحنان».

«أحضان كاهناتها، أجل. لو ولدت على ضفاف النّيل منذ خمسة آلاف سنة يا إيميلي، لكنت من كاهنات الرّبّة باستت، فتاة لطيفة، هيفاء، سمراء، ولديكِ عقد ذهبيّ يكلّل شعرك الفاحم، وأسورة

---

(1) كانت مدينة تل بسطة مركز عبادة باستت، ربّة المرح والسّعادة في مصر القديمة، وهي تُمثَّل في شكل قطّة.

فضّيّة تزيّن كاحليك اللّذين نالا إعجاب عمّتي نانسي، وتجلسين في ساحة المعبد تحت النّخيل، وحولك عشرات الآلهة الصّغيرة».

شهقت إيميلي قائلةً: «أوه، لقد جاءني *البرق* وأنا أصغي إلى كلامك»، ثمّ أضافت في شرود: «وللحظةٍ، شعرت *بالحنين إلى الدّيار* أيضًا. لماذا؟».

«لماذا؟ لأنّني لا أشكّ في أنّك كنت كاهنة من هذا القبيل في أحد تجسّداتك السّابقة، وتذكّرته روحك من خلال كلماتي. هل تؤمنين بعقيدة تناسخ الأرواح يا ستار؟ طبعًا لا، ما دُمت نشأت على يد الكالفينيّتين[1] المتزمّتينْ في القمر الجديد».

سألت إيميلي: «وما معنى ذلك؟» ولمّا شرح لها دينْ الكلمة، بدا لها المُعتقد لطيفًا، ولكنّها كانت شبه متأكدة أنّ خالتها إليزابيث لن توافق عليه.

قالت بجدٍّ: «إذن لن أؤمن بها... بعدُ».

ثمّ سرعان ما شارفت زيارة إيميلي على الانتهاء. كان بقاؤها في عزبة ويذر إلى نهاية شهر آب أمرًا مفروغًا منه لكلّ المعنيّين بالأمر. ولكن فاجأتها العمّة نانسي ذات يومٍ في منتصف آب، وقالت:

«عودي إلى بيتك يا إيميلي. لقد سئمت وجودك معي. أحببتك كثيرًا، فأنتِ لست غبيّة، وجمالكِ مقبول، ولا تشوب أدبَك شائبة،

(1) نسبةً إلى الكالفينيّة (أو اللاّهوت المُصلح)، وهي مذهب مسيحيّ وفرع أساسيّ من البروتستانتيّة.

أخبري إليزابيث بأنّك شرّفت سمعة آل موراي، ولكنّني سئمت وجودك. انصرفي».

تضاربت في إيميلي المشاعر، آلمها أن تقول لها عمّتها نانسي إنّها ضاقت بها ذرعًا، وكان ذلك ليؤلم أيّ شخصٍ آخر. وظلّت كلمات العجوز تتردّد في ذهنها أيّامًا، إلى أن فكّرت في ردّ لاذع يليق بكلام العمّة نانسي وكتبته في كرّاس جيمي. وأشعرها ذلك بالارتياح كما لو قالت لها الكلام بالفعل.

تأسّفت إيميلي لمغادرة عزبة ويذر؛ إذ تعلّقت أيّما تعلّق بالمنزل العتيق الأنيق ونكهة غموضه، وفي تلك النّكهة يكمن سرّ رونقه؛ إذ لم يشهد المنزل إلّا قصص الولادات والوفيّات والزّفّات والحياة اليوميّة الّتي تكاد لا تغيب عن بيتٍ. وتأسّفت لمغادرة شاطئ الخليج والحديقة المدهشة وكرة التّأمّل وقطّ تشيشير وفراش الحرّية في الغرفة الورديّة؛ ولكنّها لم تتأسّف لكلّ ما سبق مثلما تأسّفت لمغادرة دينْ بريست. بيد أنّها سُرّت بعودتها إلى القمر الجديد وكلٍّ أحبّائها هناك: تيدي وصفيره العزيز، وإيلسي ورفقتها المنعشة، وبيري وطموحه إلى الأفضل، وسوسي سال ووليدها الجديد الّذي قد يحتاج الآن إلى تدريب خاصّ، وعالم المسرح السحريّ مع *حلم ليلة في منتصف الصّيف*. ستكون حديقة ابن العمّ جيمي في أوج بهائها، وسيكون التّفاح قد نضج. وفي لمح البصر، غدت إيميلي على أتمّ الاستعداد للرّحيل. جمعت أمتعتها في الحقيبة السّوداء بسرور، بل وجدت في ذلك فرصة ممتازة لتجسّد بيتًا شعريًّا قرأه لها دينْ مؤخّرًا فلم يبرح عقلها.

«مع السّلامة، أيّها العالم الأبيّ، سأعود إلى الدّيار»، هكذا هتفت إيميلي بكلّ جوارحها، واقفةً على ناصية السُّلّم الطّويل الأسود اللّامع تنادي موتى آل بريست المتجهّمين المرصّفين على الجدار.

ولكن كان هنالك شيء يكدّر صفوها؛ إذ رفضت العمّة نانسي أن تعيد إليها صورتها الّتي رسمها بيري.

قالت العمّة نانسي وهي تكشّر وتحرّك أقراطها الذّهبيّة: «سأحتفظ بها. سترتفع قيمة هذه الصّورة يومًا ما، وتُثمَّن بوصفها أولى أعمال فنّان مشهور».

فقالت إيميلي مستنكرةً: «أعرتكِ إيّاها فحسب، وأخبرتكِ بذلك سلفًا».

أجابت العمّة نانسي ببرود: «أجل، أنا شيطان عديم الضّمير. هكذا يصفني آل بريست في غيابي. أليس هذا صحيحًا يا كارولين؟ لعلّه من الأفضل أن يطابق الاسم مسمّاه. لقد نالت الصّورة إعجابي، هذا كلّ ما في الأمر. سأضعها في إطار وأعلّقها في ردهتي. ولكنّني سأتركها لك في وصيّتي، هي وقطّ تشيشير وكرة التّأمّل وأقراطي الذّهبيّة. ولن أترك لك شيئًا آخر، إيّاك أن تنتظري أموالًا، فأنا لن أترك لك سنتًا واحدًا من ثروتي».

فردّت إيميلي بغرور: «لا حاجة لي بها. سأكسب أكداسًا من الأموال بمفردي. ولكن ليس عدلًا أن تأخذي صورتي، لقد قُدّمت لي هديّة».

فقالت العمّة نانسي: «ليس العدل من طبعي. أليس كذلك يا كارولين؟».

قالت كارولين بلهجة خبيثة: «كلّا».

«ها أنتِ ترين. لا تهوّلي الأمر يا إيميلي. لقد أحسنت السّلوك، ولكن أشعر بأنّني أدّيت واجبي إزاءك هذه السّنة. عودي إلى القمر الجديد، وكلّما منعتك إليزابيث عن فعل شيء ما، أخبريها بأنّني كنت دومًا أسمح لك به. لا أدري إن كانت الحيلة ناجعة ولكن جرّبيها. إليزابيث، مثل جميع أقاربي، تتساءل عمّا سأفعل بثروتي».

جاء ابن العمّ جيمي ليعود بإيميلي إلى البيت. كم فرحت بلقاء وجهه الحليم، وعينيْه اللّطيفتيْن كعيون العفاريت، ولحيته الشّعثاء! ولكن غلبها الشّجن لمّا التفتت إلى دينْ.

قالت بصوتٍ مختنق: «سأودّعك بقُبلة لو أردت».

لم تكن إيميلي تحبّ تقبيل النّاس، ولم ترغب في تقبيل دينْ حقًّا، ولكنّها تعلّقت به إلى درجة أنّها أرادت مجاملته إلى أقصى حدّ.

ابتسم دينْ مطرقًا بصره نحو وجهها، ذاك الوجه النّضر النّقيّ البضّ.

«لا، لا أريدكِ أن تقبّليني... بعدُ. ويجب ألّا تحمل قبلتنا الأولى طعم الوداع، فقد يكون ذلك نذير شؤم. ستار، يا نجمة الصّبح، أنا آسفٌ لرحيلك. ولكنّنا سنلتقي عمّا قريب. تعيش أختي الكبرى في معبد المياه، وها أنا ذا أشعر بنوبة أخوّة محمومةٍ إزاءها، ويبدو أنّني

سأواظب على زيارتها من هنا فصاعدًا. وفي الأثناء، لا تنسي أنّك وعدتني بكتابة رسالةٍ لي كلّ أسبوع، وسأراسلكِ أيضًا».

فقالت إيميلي بدلال: «أريد رسائل جميلة مُعتبَرة، فأنا أحبّ الرّسائل من العيار الثّقيل».

«من العيار الثّقيل! ستكون شحيمة لحيمة يا ستار. والآن لن أقول للكِ وداعًا. لن يودّع أحدنا الآخر، سنبتسم ونمضي».

جاهدت إيميلي نفسها إكرامًا له، فابتسمت، ومضت. وعادت العمّة نانسي وكارولين إلى ردهتها ولعبهما بالورق؛ وصفّر دينْ بريست إلى تويدْ واصطحبه إلى شاطئ الخليج، وخنقته الوِحدة حتّى إنّه ضحك من نفسه.

كانت إيميلي وابن العمّ جيمي في غاية الشّوق لتبادل أطراف الحديث لدرجة أنّ طريق العودة بدا لهما قصيرًا. ولاح بياض القمر الجديد غارقًا في ضياء المساء، وقد امتدّت ذاك الضّياء ببطءٍ شديد إلى الحظائر الرّماديّة العتيقة. وكانت الأميرات الثّلاث يمددن فروعهنّ إلى السّماء الفضّية، شاهقاتٍ متبخترات كما عهدتهنّ إيميلي، فيما ترامى إليها نشيد الخليج القديم وراء البراري.

ركضت إليهما الخالة لورا لاستقبالهما وقد لمعت عيناها الزّرقاوان من شدّة فرحها. أمّا الخالة إليزابيث فكانت في المطبخ الخارجي بصدد إعداد العشاء، واكتفت بمصافحة إيميلي، ولكنّها بدت أقلّ حدّةً وتجهّمًا من العادة، كما أنّها أعدّت لها فطيرة الكريمة المفضّلة لديها. كان بيري يتجوّل حافيًا، أسمرَ، ويروي لها قصص

القطط والعجول والخنانيص والمهر الجديد. وانضمّت إيلسي فجأة إليهما، فأدركت إيميلي أنّها نسيت مدى إشعاع إيلسي بعينيْها العسليّتيْن المتلألئتيْن، وشعرها الحريريّ الذّهبي الكثيف، وقد ضاعفت بريقَه قلنسوة الحرير الزّرقاء الّتي اشترتها لها السّيدة سيمز من مطمر الفأر. تحرّكت أشجان الخالة لورا وآلامها لمرأى تلك القلنسوة، وما هي إلّا مجرّد قطعة قماش، ولكن عزّز لونها فعلًا جمال شعر الفتاة. طوّقت إيلسي صديقتها في عناق بهيج، ثمّ تشابكت معها قليلًا لأنّ إيميلي رفضت إعطاءها النّاجي الوحيد من صغار سوسي سال.

صاحت إيلسي: «أنا أجدر منكِ بأخذه، أيّتها الضّبعانة المتطفّلة. إنّه لي مثلما هو لكِ يا خنزيرة! والده قطّنا من الحظيرة القديمة».

فقاطعتها الخالة إليزابيث، وقد امتقع وجهها من شدّة الهلع: «لا يليق الحديث في مثل هذه المواضيع. ولو تشاجرتما بشأن ذاك القطّ لأُغرِقنَّه، لا تنسيا ذلك».

رضيت إيلسي في نهاية الأمر بعدما اقترحت عليها إيميلي أن تشتركا في ملكيّته وأن تختار له إيلسي اسمًا. فأطلقت عليه إيلسي اسم قرنفلة. لم يبدُ الاسم ملائمًا في نظر إيميلي، فقد حدّثها عنه ابن العمّ جيمي باسم طومي الصّغير، ما جعلها تشكّ في أنّه ذكر. ولكن بدلًا من إثارة سُخط الخالة إليزابيث بالنّقاش في مواضيع محظورة، وافقت على الاسم قائلةً في قرارة نفسها: «يمكنني أن أناديه بـ«قرن»، يبدو لي هذا أقرب إلى أسماء *الذّكور*».

كان الهُرَيْر مخلوقًا صغيرًا رماديًّا مخطّطًا ذكّر إيميلي في حبيبيْها المفقوديْن مايك الأوّل والثّاني. وكانت تعبق منه رائحة لذيذة، رائحة فرو دافئ نظيف، تشوبها نفحات النّفل حيث حطّت سوسي سال رحال أمومتها.

بعد العشاء، سمعت إيميلي صفير تيدي آتيًا من البستان القديم، إنّه النّداء السّاحر المعهود ذاته. وهربا في جولة رائعة برقعة الطّانسة لرؤية جرو جديد أهداه الدّكتور برنلي لتيدي. لم تبدُ السّيدة كينت سعيدة جدًّا برؤية إيميلي، بل كانت أكثر جفاء وبرودًا من أيّ وقت مضى، وجلست تشاهد الطّفليْن يلعبان مع الجرو المكتنز الظّريف، وقد استعرت عيناها الدّاكنتان إلى أن شعرت إيميلي بحرج كلّما رفعت نظرها والتقت عينيهما. لم يسبق لها أن استشفّت بُغض السّيدة كينت بوضوحٍ مثل تلك اللّيلة.

وبينما كانا يأخذان ليُو الصّغير إلى الحظيرة، لم تتردّد في سؤال تيدي قائلةً: «لمَ لا تحبّني والدتك؟».

فأجاب تيدي باقتضاب: «لأنّكِ تُعجبينني *أنا*. إنّها لا تحبّ *أيّ شيء* يعجبني. وأشكّ في أنّها ستسمّم لِيُو عمّا قريب. ليتها... ليتها لم تتعلّق بي إلى هذا الحدّ». انفجر تيدي، وقد بدأ يضيق ذرعًا بغيرة الحبّ هذه، غيرة لا طبيعيّة صار يشعر -أكثر ممّا يفهم- بأنّها قيدٌ يثقل كاهله باطّراد. واستأنف قائلًا: «تقول إنّها لن تسمح لي بدراسة اللّاتينيّة والجبر هذه السّنة -تعلمين أنّ السيّدة براونيل قالت إنّه بإمكاني دراستها-، بذريعة أنّني لن ألتحق بالجامعة.

وتقول إنّها لن تتحمّل البقاء بعيدة عنّي... أبدًا. ولا يهمّني في اللّاتينيّة أو غيرها، كلّ ما أريده هو أن أصبح رسّامًا، وأودّ يومًا ما أن ألتحق بالمدارس الّتي توفّر دروسًا في هذا الصّدد. ولكنّها لن تسمح لي بذلك، بل هي تكره رسومي ظنًّا منها أنّني أحبّ الرّسوم أكثر منها. وهذا غير صحيح، أنا أحبّ أمّي، فهي لطيفة جدًّا وطيّبة القلب معي في كلّ ما دون ذلك. ولكنّها تغار من رسومي، وأحرقت بعضها. أعلم أنّها فعلت، فقد اختفت من جدار الحظيرة ولم أجدها في أيّ مكان آخر. ولو أساءت إلى لِيُو... فسوف... سوف *أكرهها*».

أجابته إيميلي برصانة، وقد ظهرت عليها علامات الحنكة الّتي تميّز آل موراي: «أخبرها بذلك. إنّها لا تظنّك تعلم بأنّها سمّمت عجاجًا وزبدة. أخبرها بأنّك تعلم وأنّك لن تحبّها إذا ما فعلت أيّ شيء للِيُو. ستخاف من *فقدان* حبّك لدرجة أنّها لن تلمس لِيُو، أنا *متأكّدة* من ذلك. وأخبرها بلطفٍ، دون أن تجرح مشاعرها، ولكن *أخبرها*». ثمّ ختمت إيميلي في تقليد بارع لخالتها إليزابيث وهي تطرح إنذارها النّهائي: «سيكون ذلك خيرًا لكلّ الأطراف المعنيّة».

فردّ تيدي، منبهرًا بخطاب إيميلي: «أظنّني سأفعل. لا يمكنني أن أفقد لِيُو مثلما فقدت قططي، إنّه كلبي الأوّل والوحيد، ولطالما أردت أن أربّي كلبًا. آه يا إيميلي، كم أنا سعيد بعودتك!».

إنّ المرء ليطرب عند سماع كلماتٍ من هذا القبيل، ولا سيّما لمّا

سمعتها إيميلي من تيدي. عادت إيميلي إلى القمر الجديد مبتهجة، فوجدت لهب الشّموع المشتعلة في المطبخ يتراقص في مهبّ نسمات ليلة آب وهي تتسرّب من الباب والنّافذة.

قالت الخالة لورا: «أظنّ أنّ الشّمع لم يعد يروق لك كثيرًا يا إيميلي، بعدما تعوّدت على الفوانيس في عزبة ويذر»، وتنهّدت. فمن جملة ما تعانيه لورا موراي من مرارةٍ في الحياة، كانت تبغض امتداد جبروت إليزابيث إلى حدّ الشّموع.

نظرت إيميلي حولها متأمّلة؛ فرأت أمامها شمعة تطقطق وتتذبذب وكأنّها تحيّيها. ثمّ رأت أخرى طويلة الفتيلة تضطرم ثم تخمد كشيطان صغير عبوس. كانت هنالك شمعة حكيمة متأمّلة تشعّ بشعلة ضئيلة، وأخرى تتثنّى برشاقة مدهشة محمومة على إيقاع تيّار هواء آتٍ من الباب، بينما تقف إحداها ثابتة مستقيمة الشّعلة كنفس مؤمنة.

أجابت إيميلي ببطء: «لا-لا أدري... خالتي لورا. يمكنني... أن أربط صداقات... مع الشّموع. أظنّ أنّني أفضّلها على الفوانيس، في نهاية الأمر».

دخلت آنذاك الخالة إليزابيث من المطبخ الخارجي فسمعتها، ولاح في عينيْها الزّرقاوين كموج البحر بريق شبيه بالمُتعة.

وقالت: «أراكِ ازددت حكمة وتعقّلًا».

ففكّرت إيميلي: «هذه المرّة الثّانية الّتي تمدحني فيها».

تمعّنت الخالة لورا في إيميلي بشيء من الأسى ثمّ قالت: «أظنّ أنّ إيميلي ازدادت طولًا منذ ذهابها إلى عزبة ويذر».

نفخت الخالة إليزابيث على الشّموع، وحدجتها من وراء نظّاراتها قائلةً:

«لا أرى ذلك. مازال فستانها في الطّول ذاته عليها».

وأصرّت لورا: «أنا متأكّدة من كلامي».

ولفضّ النّزاع، قاس ابن العمّ جيمي طول إيميلي على باب غرفة الجلوس، فلامس طولها العلامة السّابقة.

وقالت إليزابيث بنبرة الانتصار: «ها أنتِ ترين». كانت تستمتع بأن تكون على حقّ، ولو في مثل تلك المسائل البسيطة.

فردّت لورا وهي تتنهّد: «تبدو لي... مختلفة».

وفي الواقع، كانت لورا على حقّ. لقد كبرت إيميلي *بالفعل*، وازداد طولها وسنّها في الرّوح إن لم يكن في الجسد. كان ذاك التّغيّر الّذي شعرت به لورا، فسرعان ما تشعر العاطفة الحميمة الحنون بأدنى تغيّر يطرأ. لم تكن إيميلي الّتي ذهبت إلى عزبة ويذر مثل تلك الّتي عادت منها، وفقدت في الأثناء شيئًا من طفولتها. فمن تفكيرها المطوّل في حكايات العمّة نانسي عن تاريخ العائلة، وشدّة لوعتها على قصّة والدة إيلسي، إلى تلك السّاعة الأليمة الّتي قضّتها تحدّق في وجه الموت على منحدرات شاطئ الخليج، مرورًا بصداقتها مع دينْ بريست، تضافرت العوامل لتنتقل بها إلى مرحلة

نضج فكري وعاطفي. وفي صباح اليوم الموالي، ذهبت إلى السّقيفة لأخذ حزمة مخطوطاتها الصغيرة النّفيسة لتعيد قراءتها في حنوّ؛ فما راعها -وأحزنها قليلًا- إلّا أنّها لم تكن بالجودة الّتي ظنّتها عليها. بدت لها بعضها سخيفة بأتمّ معنى الكلمة، وخجلت منها، خجلت لدرجة أنّها زجّت بها في فرن المطبخ الخارجي وأحرقتها، الأمر الّذي أزعج الخالة إليزابيث عندما تأهّبت لإعداد العشاء فوجدت فرنها مسدودًا بالورق المحروق.

لم تعد إيميلي تتساءل إن كانت الآنسة براونيل تستهزئ بكتاباتها، رغم أنّ ذلك لم يخفّف من مرارة ذكرى تلك المرأة بأيّ طريقة كانت. ثمّ وضعت البقيّة في رفّ المقعد، بما في ذلك «فتاة البحر» الّتي لم تزل تنال إعجابها وتبدو لها جيّدةً إلى حدّ ما، وإن لم يكن النّص رائعًا كما اعتبره سلفًا. شعرت أنّه بإمكانها أن تعيد كتابة بعض مقاطعه قصد تحسينها؛ ثمّ شرعت مباشرة في كتابة قصيدة جديدة، «عن العودة إلى الدّيار بعد غياب أسابيع». أزمعت أن تذكر فيها كلّ الأشخاص والأشياء المعنيّين بشأن القمر الجديد، فبدت لها القصيدة طويلة ستملأ كتابتها أوقات فراغ إيميلي طيلة الأسابيع القادمة، فما أحلى العودة إلى الدّيار.

فكّرت إيميلي: «لا مثيل لمكانٍ كالقمر الجديد، بيتي العزيز».

ثمّة شيءٌ مّا ميّز عودتها، وكان ذلك من «المراحل» الأسريّة الصّغيرة الّتي تترك في الذّاكرة والخيال أثرًا أعمق ممّا تتطلّبه أهمّيتها الحقيقيّة، ألا وهو إعطاؤها غرفتها الخاصّة. فقد اكتشفت الخالة

إليزابيث أنّ النّوم بلا شريك يزاحمها في الفراش أحلى من أن تفرّط فيه مرّة أخرى؛ ورأت أنّها لن تتحمّل المزيد من تقلّب إيميلي في فراشها وأسئلتها الغريبة في كلّ ساعات اللّيل، فاتّخذت في المسألة قرارًا حاسمًا. وبعد مشاورات طويلة مع لورا، اتُّفِقَ على أنّ إيميلي ستبقى في غرفة والدتها، أو «الشّرفة» كما كانوا يطلقون عليها، ولو أنّها لم تكن شرفة بالفعل. ولكنّها كانت تشغل أعلى مكان في القمر الجديد وتطلّ على الباب الأمامي والحديقة، مثل الشّرفات الحقيقيّة في منازل معبد المياه، فظلّت تحمل ذاك الاسم. جُهّزت الغرفة لاستقبال إيميلي في فترة غيابها، ولّما حان وقت النّوم ليلة عودتها، أخبرتها خالتها إليزابيث، في كلمات مقتضبة، بأنّها ستُمنح غرفة والدتها من هنا فصاعدًا.

هتفت إيميلي: «لي أنا وحدي؟».

«أجل. وننتظر منك أن تعتني بها وتحافظي على نظامها ونظافتها».

قالت الخالة لورا: «لم ينم فيها أحد منذ اللّيلة قبل أن... تذهب والدتك»، وكان في صوتها نبرة غريبة، نبرة استهجنتها الخالة إليزابيث فرمقت إيميلي ببرود -وأضفى ذلك طابعًا مريعًا على تقاسيم وجهها الحادّة- وقالت: «والدتك هربت،هجرت عائلتها وكسرت خاطر والدها. لقد كانت فتاة سخيفة، متمرّدة، ناكرة للجميل؛ وأتمنّى *لكِ* ألّا تجلبي الخزي لعائلتك بمثل تلك التّصرّفات».

فقالت إيميلي بنفس متقطّع: «آه، يا خالتي إليزابيث، عندما

تمسكين الشّمعة على هذا النّحو يبدو وجهك شبيهًا بوجه جثّة! إنّها حقًّا صورة تلفت الانتباه».

فالتفتت الخالة إليزابيث وقادتها إلى الطّابق العلوي في صمتٍ مُطبق. لا فائدة من تبديد مثل هذه الإنذارات المفيدة على طفلة من هذا القبيل. وتُركت إيميلي لوحدها في شُرفتها، تنيرها شمعة صغيرة واحدة خافتة الضّياء، فنظرت حولها بأشدّ الحماس والاهتمام، ولم تقدر على النّوم قبل أن تستكشف أدنى تفاصيلها. كانت الغرفة مؤثّثة على الطّراز القديم، مثل كلّ غرف القمر الجديد. وكان على جدرانها ورق مزيّن بألماسات صغيرة ذهبيّة تتوسّطها نجوم لامعة، وعُلّقت عليه شعارات من الصّوف المغزول وصورٌ كانت تُعدّ من «الكماليّات» في طفولة خالاتها. وعُلّقت فوق مقدّمة السّرير صورة منها تُمثّل ملاكين حارسيْن. ورغم أنّها نالت إعجاب معظم النّاس في الأيّام الخوالي، نظرت إليها إيميلي مشمئزّة، ثمّ قالت بحزم:

«لا أحبّ أن تكون للملائكة أجنحة من الرّيش، بل ينبغي أن تكون أجنحتها بألوان قوس قزح».

فُرش على الأرض بساط جميل من النّسيج اليدويّ وحصائر دائريّة مضفورة. وكان هنالك سرير عالٍ أسود منقوش الأعمدة، وفوقه فراش سميك من الرّيش يعلوه تطريز إيرلنديّ من المربّعات المتسلسلة، ولكن لاحظت إيميلي بسرور أنّه لم تكن فيها ستائر. وحذو النّافذة المحجوبة بقماش موصلي مكشكش، وُضعت طاولة صغيرة ذات أرجل غريبة على شكل مخالب فيها أدراج مذهّبة المقابض. كان

في النّافذة لوحٌ من البلّور يجعل في المشهد اعوجاجًا طريفًا، فيرى النّاظر منه تلالًا حيث لا وجود لتلال. وراق الأمر لإيميلي، دون أن تدرك السّبب، وهي في الحقيقة استحسنت أن يكون لذاك اللّوح طابع فريد خاصّ. وعُلّقت فوق الطّاولة مرآة ذات إطار مُذهّب باهتٍ؛ ففرحت إيميلي لمّا اكتشفت أنّها تستطيع أن ترى صورتها فيها -«كلّي إلّا حذائي»- دون أن تلجأ إلى رفعها أو إمالتها. فكرّت مبتهجة: «وهي لا تشوّه ملامحي ولا تبدي بشرتي خضراء». واكتمل الأثاث بكرسيّين أسودَيْن عاليي الظّهر حيكت قاعدتاهما من وبر الحصان، ومغسلة صغيرة فيها إبريق وحوض أزرق، ومقعد عثماني باهت اللّون مزيّن بورود مطرّزة من الصّوف. وعلى رفّ المدفأة الصّغير، رأت مزهريّات تملؤها مختلف الأعشاب المجفّفة الملوّنة، وزجاجة مكوّرة رائعة فيها أصداف من غرب الهند. وُضعت على جانبي الرّف خزانتان لطيفتان لهما بابان من البلّور المزخرف مثل ذاك الّذي في غرفة الجلوس؛ بينما كانت أسفله مدفأة صغيرة.

فكّرت إيميلي: «يا ترى هل ستسمح لي خالتي إليزابيث بأن أشعل فيها نارًا ضئيلةً».

كانت الغرفة تزخر بذاك السحر الغامض الّذي يسم غرفًا تسودها الألفة بين قطع الأثاث، جديدةً كانت أم قديمة، وتكون فيها الجدران والأرضية على وفاق تامٍّ. وهذا ما شعرت به إيميلي وهي تتجوّل من ركن إلى آخر وتفحص كلّ ما فيها. إنّها حقًّا غرفتها، وأحبّتها منذ البداية، وشعرت فيها بسَكينة المسكن.

وقالت في نفَس هنيء: «إنّني أنتمي إلى هنا».

ساور إيميلي شعور لذيذ بالقرب من والدتها، وكأنّ جوليات ستار تجسّدت فجأة أمامها لحمًا ودمًا. جذلت لفكرة أنّ والدتها قد تكون هي الّتي حاكت غطاء الدّانتيل على وسادة الدّبابيس الدّائريّة فوق الطّاولة؛ وربّما هي الّتي ملأت ذاك الإناء المسطّح الأسود بزهوره المجفّفة. وحالما رفعت إيميلي عنه الغطاء، فاحت منه رائحة خافتة عطرة، وكأنّ أرواح كلّ الورود الّتي تفتّحت في القمر الجديد على مرّ فصول الصّيف القديمة حُبست هناك، في ما يبدو مطهرًا للورود. شيءٌ ما في تلك الرّائحة العنيدة الرّوحانيّة المراوِغة استدعى *البرق* فجاء، ودشّنت إيميلي بذلك غرفتها على أحسن وجه.

وكانت صورة والدتها معلّقة فوق رفّ المدفأة صورة داغيريّة كبيرة التُقطت لها حين كانت صغيرة، ورنت إليها إيميلي في حنوّ. ترَك لها والدها صورة لأمّها التُقطَت بعد زواجهما، ولكن لمّا جلبتها الخالة إليزابيث من مايوود إلى القمر الجديد، علّقتها في الرّدهة حيث لا تراها إيميلي إلّا نادرًا. أمّا هذه الصّورة، صورة تلك الفتاة ذات الشّعر الذّهبي والوجنتين المتورّدتين، فهي في غرفتها ولها وحدها، وبإمكانها أن تنظر إليها وتحدّثها كما تشاء.

وقالت: «آه يا أمّي، ما الّذي كنت تفكّرين فيه هنا لمّا كنت فتاة صغيرة مثلي؟ ليتني عرفتكِ *في تلك الفترة*. أكاد لا أصدّق أنّه لم ينم أحدٌ هنا منذ اللّيلة الأخيرة قبل هروبك مع أبي. تقول خالتي إليزابيث إنّك شرّيرة، ولكنّني لا أشاطرها الرّأي. ليس الأمر كما لو

هربت مع شخص غريب. على كلّ حالٍ، أنا سعيدة بهروبك. فلو لم تفعلي، لما *وُجِدْتُ أنا*».

كانت إيميلي مسرورة بوجودها، وفتحت نافذة شرفتها إلى أعلى ما يمكن، ثمّ اندّست في فراشها وخلدت إلى النّوم، غارقة في سعادة عميقة تكاد تنقلب ألمًا، وهي تصغي إلى أزيز الرّياح العاتية بين الأشجار الضخمة في أيكة جون المتغطرس. وفي الأيّام الموالية، لمّا شرعت في مراسلة والدها، افتتحت الرّسالة كالآتي:

«أبي وأمّي العزيزيْن».

«سأوجّه رسائلي، من هنا فصاعدًا، إليك أيضًا يا أمّي. آسفة لأنّني استبعدتك طيلة هذه المدّة، ولكن لم يبدُ لي أنّك *حقيقيّة* قبل ليلة عودتي إلى البيت تلك. في صباح اليوم الموالي، رتّبت فراشي على نحو جميل، ولم تجد فيه خالتي إليزابيث أيّ عيبٍ، ونفضت الغبار عن *كلّ ما في الغرفة*، ولمّا خرجت منها ركعت وقبّلت العتبة. ظننت أنّ خالتي إليزابيث لم ترني، ولكنّها رأتني وقالت إنّني فقدت صوابي. لماذا تتّهم خالتي إليزابيث غيرها بالجنون كلّما فعلوا ما لا تفعله هي؟ قلت لها «لا، كلّ ما في الأمر هو أنّني أحبّ غرفتي كثيرًا» فنخرت وقالت «من الأجدر بك أن تحبّي إلهك». ولكنّني أحبّه يا أبي -وأمّي-[1]، وأحببته أكثر منذ سكنت غرفتي الحبيبة. بوسعي أن أرى منها الحديقة وأيكة جون المتغطرس وشيئًا من معبد

(1) تتردّد إيميلي هنا لأنّها تعوّدت على مُراسلة والدها وحده.

المياه بين ثغرات الأشجار، حيث يمرّ درب الأمس. صرت أحبّ الذّهاب إلى فراشي باكرًا، إذ يحلو لي أن أستلقي في غرفتي الخاصّة بمفردي وأؤلّف الشّعر وأفكّر في أوصاف الأشياء، وأنا أنظر من خلال النّافذة المفتوحة وأتأمّل النّجوم والأشجار العظيمة اللّطيفة الهادئة في أيكة جون المتغطرس.

آه، يا أبي وأمّي، سيأتينا مدرّس جديد. لن تعود الآنسة براونيل لأنّها ستتزوّج، وقالت إيلسي إنّها سمعت والدها يقول «كان الرّب في عون الرّجل». مدرّسنا الجديد اسمه السّيد كاربنتر. رأته إيلسي عندما زار والدها بشأن المدرسة -فهو وصيّ في مجلس المدرسة هذه السّنة- وقالت إنّه أشعث الشّعر والشّارب شائبهما. وهو متزوّج أيضًا، وسيسكن المنزل القديم الصّغير في الوادي وراء المدرسة. من الطّريف أن أتخيّل مدرّسًا له زوجة وشارب.

«إنّني سعيدة بعودتي إلى المنزل، ولكنّني اشتقت إلى دينْ وكرة التّأمّل. لمّا رأت خالتي إليزابيث الغرّة في شعري، بدا عليها الانزعاج ولكنّها لم تقل شيئًا. ونصحتني خالتي لورا بأن أُبقيها وألزم الصّمت بشأنها. ولكن لا يرتاح ضميري لعصيان أوامر خالتي إليزابيث، فمشطتها إلى الوراء باستثناء بعض الخصلات *الصّغيرة*. لم يتبدّد حرجي *تمامًا*، ولكن عليّ أن أتحمّل بعض الحرج في سبيل جمال مظهري. تقول خالتي لورا إنّ المنافج غدت موضة قديمة ولن أضطرّ إلى لباسها. ولكن لا يهمّني الأمر لأنّها تبدو لي بشعة. وستغضب رودا ستيوارت لأنّها كانت تتحرّق شوقًا لبلوغ

سنّ يسمح لها بارتداء منفجة. أتمنّى أن أحصل على زجاجة جنْ لي وحدي عندما يبرد الطّقس. ثمّة عدد من قوارير الجنْ المرصّفة على رفّ المطبخ الخارجي.

«لقد عشنا أروع *المغامرات* يومَ أمس، أنا وتيدي. وسنكتمها عن الجميع، لأنّنا استمتعنا بها للغاية، من جهة، ومن جهةٍ أخرى لأنّنا نخشى توبيخًا شنيعًا بسبب شيءٍ ما فعلناه.

«ذهبنا إلى المنزل المُحبَط، وكان في إحدى النّوافذ لوحٌ شبه سائب. فخلعناه وزحفنا داخل المنزل لاستكشافه. وجدنا الألواح الخشبيّة مصقولة دون أن يتمَّ إلصاقها، وتناثرت النّجارة على الأرض مثلما تركها النّجّارون منذ سنوات خلت؛ فبدا المنزل محبطًا أكثر من أيّ وقت مضى، وشعرت برغبةٍ في البكاء. كانت هنالك مدفأة في إحدى الغرف، فانغمسنا في العمل وأشعلنا فيها نارًا باستعمال النّجارة وقطعٍ من الخشب (وهذا ما قد يتسبّب لنا في التّوبيخ) ثمّ جلسنا أمامها على طاولة نجارة قديمة نتبادل أطراف الحديث. قرّرنا أنّنا سنشتري المنزل المُحبط عندما نكبر، ونعيش فيه معًا. وقال تيدي إنّه من الأرجح أن يتوجّب علينا الزّواج، ولكن فكّرت في أنّه بإمكاننا إيجاد حلّ نوفّر به كلّ ذاك العناء. سيرسم تيدي صورًا، وسأكتب أنا شعرًا، وسنأكل الخبز المحمّص واللّحم المقدّد والمربّى في الفطور *كلّ* صباح -كما في عزبة ويدز-، ولن نتناول الثّريد *أبدًا*. وسيزخر مخزننا بكلّ ما لذّ وطاب، وسأعدّ الكثير من المعجون، وسيساعدني تيدي دومًا على غسل الأواني،

وسنعلّق كرة التّأمّل وسط السّقف في غرفة المدفأة لأنّه من الأرجح أن تكون عمّتي نانسي ميّتة آنذاك.

«لمّا خمدت نار المدفأة، حشرنا اللّوح في مكانه بالنّافذة وعدنا. ومنذئذ، يقول لي تيدي من حينٍ إلى آخر «خبز محمّص ولحم مقدّد ومربّى» بنبرة عميقة الغموض، فيجنّ جنون إيلسي وبيري لأنّهما لا يفهمان قصدنا.

«اتّفق ابن عمّي جيمي مع جيمي جو بال ليساعده في موسم الحصاد. وجيمي جو بال أصيل منطقةٍ وراء الطّريق إلى غدير ديري، وهي منطقة تزخر بالفرنسيّين. عندما تتزوّج فتاة فرنسيّة، غالبًا ما تُسمّى باسم زوجها، لا بلقبه مثلما يفعل الإنجليزيّون. فلو تزوّجت فتاة اسمها ماري برجل يُدعى ليون، ستُسمّى بعد زواجها بماري ليون. أمّا بالنّسبة إلى جيمي جو بال فانعكست الآية وسُمّي هو باسم زوجته. لّما سألت ابن عمّي جيمي عن السّبب، قال إنّ جيمي جو مخلوق رثّ لا حول له ولا قوّة، بينما بال هي الّتي تلبس العمامة. ولكنّني لم أفهم تمامًا، فقد كان جيمي يلبس عمامةً هو الآخر -وهي نوع من القبّعات-، فلماذا عليه أن يُسمّى جيمي جو بال بدلًا من أن تُسمّى هي بال جيمي جو لمجرّد أنّها تلبس العمامة أيضًا! لن أبرح حتّى أبلغ الحقيقة.

«صارت حديقة ابن عمّي جيمي تخلب الأنظار. أزهرت فيها زنابق النّمر، وأحاول أن أرغم نفسي على حبّها لأنّها تبدو منبوذة من الجميع. ولكنّني أعلم، في أعماق قلبي، أنّني أفضّل الورود. لا يسع المرء إلّا أن يعشق الورود.

«فتّشنا، أنا وإيلسي، عن نفل رباعي الأوراق في كلّ أنحاء البستان القديم ولم نجد. ثمّ عثرت اللّيلة على واحدٍ منها وسط حزمة نفلٍ بجوار درجات الملبنة، بينما كنت أقشّد اللّبن ولا أفكّر في النّفل بتاتًا. وقال لي ابن عمّي جيمي إنّ الحظّ لا يحالفنا إلّا هكذا، فلا فائدة من السّعي وراءه».

«سعدت بلقاء إيلسي مرّة أخرى. ولم نتشاجر منذ عودتي إلّا مرّتيْن. سأحاول أن أتفادى الخصام مع إيلسي من هنا فصاعدًا لأنّ ذلك لا يبدو لي لائقًا، مهما كان الأمر شيّقًا. ولكن ليس ذلك بالهيّن لأنّ إيلسي ترى حتّى في صمتي وهدوئي استفزازًا، فتزداد غضبًا وتتفوّه بأسوإ ما لديها من بذاءات. وتقول خالتي إليزابيث إنّ الشّجار يتطلّب طرفيْن، ولكنّها لا تعرف إيلسي مثلما أعرفها أنا. لقد نعتتني بالقطرس الحقير اليوم. يا تُرى كم بقي لها من حيوان لتنعتني به. إنّها لا تكرّر الشّتيمة ذاتها مرّتيْن. ليتها لا تقدح في بيري بتلك الطّريقة، (تعلّمت فعل «يقدح» من عمّتي نانسي، ويبدو لي شديد الوقع) وكأنّها لا تطيقه. بيري تحدّى تيدي أن يقفز من سطح قنّ الدّجاج إلى سطح حظيرة الخنازير، فرفض تيدي قائلًا إنّه قد يجرّب لو توجّب عليه الأمر أو كانت فيه فائدة تُذكر، ولكنّه لن يفعل ذلك لمجرّد التّباهي. أمّا بيري فقد قفز وحطّ على السّطح بأمان، وكان بإمكانه أن يكسر عنقه في ظروف أخرى. ثمّ ظلّ يتبجّح بإنجازه ويقول إنّ تيدي كان خائفًا؛ فاحتقن وجه إيلسي وقالت له أن يصمت وإلّا ستعضّ خرطومه. إنّها لا تتحمّل أن

يُقال شيءٌ عن تيدي، ولكن أظنّ أنّه قادر على تحمّل مسؤوليّته بنفسه.

«لن تستطيع إيلسي الدّراسة لامتحان الالتحاق بالجامعة، هي الأخرى، لأنّ والدها لم يسمح لها. ولكنّها تقول إنّها لا تبالي، وإنّها ستهرب حالما تكبر قليلًا وستدرس لتحرز على شهادة. يبدو لي ذلك عيبًا، ولكنّها قد تكون مغامرة مثيرة.

«عندما قابلت إيلسي للمرّة الأولى بعد عودتي، شعرت بحرج وذنبٍ شديديْن لأنّني أعلم بقصّة والدتها. ولا أدري لماذا شعرت بالذّنب، فأنا لا دخل لي في القصّة. وبدأ الشّعور يتلاشى شيئًا فشيئًا، ولكن يروادني حزن عميق أحيانًا بسبب تلك القصّة. ليتني أنساها برمّتها، أو أعرف الحقيقة كلّ الحقيقة؛ لأنّني على يقينٍ من أنّ لا أحد يعلم بها.

«تلقّيت اليوم رسالة من دينْ. إنّه يكتب لي رسائل لطيفة، ويخاطبني فيها وكأنّني راشدة. وأرسل لي قصيدة قصيرة قصّها من صحيفةٍ، عنوانها *الجنتيانا المهدّبة*، وأخبرني بأنّها تذكّره بي. إنّها بديعة بأكملها، ولكنّني أفضّل منها المقطع الأخير، وهو كالآتي:

زوريني، يا زهرةُ، في غباب أحلامي

واهديني إلى مرادي الكؤود

كيف أسلك دربًا جمّ المهاوي

لأبلغ قمّة الألب بعد الصّمود

كيف أمضي نحو هدفي ومآلي،

هدف الشّرف ولذّة الظَّفَر،

لأقف حياله، وامرأة في بالي

فأكتب عليه اسمها العَطِر.

«جاءني *البرق* حالما قرأت ذاك المقطع، فأخذت ورقةً، نسيت أن أخبركما بأنّ ابن عمّي جيمي أعطاني علبة صغيرة من الورق والظّروف -*خلسةً*- وكتبتُ عليها:

إنّي، الممضية أدناه إيميلي بيرد ستار، أتعهّد اليوم رسميًّا بأن أتسلّق درب الألب وأكتب اسمي على قمّته.

«ثمّ وضعتها في ظرف مختوم عنونته كالآتي: *عهدُ إيميلي بيرد ستار، البالغة من العمر اثني عشر عاماً وثلاثة أشهر*، وأخفيتها في رفّ المقعد بالسّقيفة.

«أنا بصدد كتابة قصّة جريمة قتل، وأحاول أن أتخيّل ما يشعر به القاتل. شعور مُريبٌ حقًّا، ولكنّه مثير. أحسست وكأنّني ارتكبت جريمة قتل *بالفعل*.

«ليلةً سعيدةً، أبي وأمّي العزيزيْن.

«ابنتكما المُخلصة، *إيميلي*.

«تذييل: تساءلت عن كيفيّة توقيع مؤلّفاتي عندما أكبر وأنشرها. ولا أدري أيّ الخيارات أفضل: إيميلي بيرد ستار كاملًا، أو إيميلي ب. ستار، أو إ. ب. ستار، أو إ. بيرد ستار. أفكّر أحيانًا في اتّخاذ اسم

قلمٍ، أي اسم مستعار يختاره الأديب لنفسه. وجدت العبارة في ظهر معجمي، بين «العبارات الفرنسية». ولو اخترت اسم قلم، سيكون بوسعي أن أسمع النّاس يتحدثون عن مؤلّفاتي أمامي دون أدنى شكّ في هويّتي، ويعربون عن آرائهم بمنتهى الصّراحة. قد يكون الأمر ممتعًا، ولكن مُحرجًا في بعض الأحيان. أظنّ أنّني سأكتفي بـــ *إ. بيرد ستار*».

نسّاج الأحلام

مرّت أسابيع قبل أن تقرّر إيميلي ما إذا كان السّيد كاربنتر قد نال إعجابها أم لا. كانت تعلم أنّها لم تنفر منه؛ على الرّغم من لقائهما الأوّل في العودة المدرسيّة حيث صاح بصوته الأجشّ، رافعًا حاجبيْه الرّماديّيْن الشّائكيْن على نحوٍ مخيف، «إذن أنتِ الفتاة الّتي تنظم الشّعر، هاه؟ من الأفضل لك أن تقنعي بإبرتكِ ومنفضتكِ. العالم يزخر بأغبياء يحاولون كتابة الشّعر فتبوء جهودهم بالفشل. أنا نفسي جرّبت مرّة. وها أنا ذا عدت إلى رشدي الآن».

قالت إيميلي سرًّا: «أنت لا تنظّف أظافرك».

ولكنّه سرعان ما قلب جميع عادات المدرسة رأسًا على عقب، فكانت إيلسي، وهي تعشق بلبلة الأمور وتمقت الرّوتين، التّلميذة الوحيدة الّتي أُعجبت به منذ البداية. ثمّة آخرون لم يحبوه قطُّ -من نوع رودا ستيوارت مثلًا- ولكن تقبّله معظمهم بعدما تعوّدوا على ألّا يتعوّدوا على شيء. وفي نهاية المطاف، قرّرت إيميلي أنّها أُعجبت به منتهى الإعجاب.

كان السّيد كاربنتر بين الأربعين والخمسين من عمره، وهو رجل طويل القامة اشتعل رأسه الكثّ شيبًا، ذو حاجبيْن وشوارب

منفّشة شائبة، تطوّق وجهه لحية شعثاء، وتشعّ عيناه الزّرقاوان ببريق لم تخمده تجارب الحياة بعدُ، تلك التّجارب الّتي حفرت على وجهه الطّويل النحيف الأغبر تجاعيد عميقة. استقرّ السّيد كاربنتر في بيت ذي غرفتين وراء المدرسة مع زوجته الخجول، ولم يتطرّق إلى ماضيه، ولا فسّر لَمَاذا لم يجد بدًّا من التّدريس، في سنّه المتقدّمة، في مدرسة قرية نائية مقابل أجر زهيد. ولكن بما أنّ جزيرة الأمير إدوارد مقاطعة صغيرة يعرف كلّ من فيها شيئًا مّا عن غيره، سرعان ما ذاعت الحقيقة بشأن المدرّس. وأدرك سكّان معبد المياه، حتّى التّلاميذ الصّغار منهم، أنّ السّيد كاربنتر كان في شبابه تلميذًا ممتازًا يطمح إلى الوزارة. ولكنّه انساق في الجامعة وراء «أصحاب السوء»، كان سكّان معبد المياه يهزّون رؤوسهم ببطء وهم يهمسون العبارة اللّعينة بنبرة لا تنذر بخير، فدمّر أصحاب السّوء حياته. «انزلق في هاوية شرب الخمر»، فضلّ سعيه وخاب أمله. كانت النّتيجة أنّ فرنسيس كاربنتر، الّذي كان الأوّل على صفّه في السّنتيْن الأولى والثّانية بجامعة مكغيل، والّذي تنبّأ له أساتذته بمستقبل باهر، أمسى مدرّس مرحلةٍ ابتدائية بإحدى القُرى في سنّ الخامسة والأربعين، ولا أمل له في أن يصبح غير ذلك أبدًا. ربّما رضي بالأمر الواقع، وربّما لا. لا أحد يعلم، ولا حتّى زوجته الخجول السّمراء. ولم يبالِ بذلك أحدٌ في معبد المياه؛ إذ كان السّيد كاربنتر مدرّسًا جيّدًا، وهذا كلّ ما يهمّهم. وحتّى وإن كانت له «نزوات طيشٍ» أحيانًا، كان يخصّص لها يوم السّبت ولا يعود يوم الاثنين إلّا صاحيًا

بما فيه الكفاية. فتراه يأتي يقظًا، ذا هيبةٍ خاصّة، مرتديًا معطفًا طويلًا أغبر السّواد، ولا يرتديه في أيّ يومٍ آخر من الأسبوع، فلا يستدعي الشّفقة ولا يتقمّص أدوارًا مأساويّة. ولكن تتطلّع إيميلي أحيانًا إلى وجهه إذا انحنى ليمعن نظره في مسألة حسابيّة من برنامج مدرسة معبد المياه، فتشعر بأسف شديد حياله دون أن تجد لذلك أدنى تفسير.

كان غضبه سريع الانفجار، فتراه يفقد أعصابه مرّة في اليوم على الأقلّ. حينئذٍ، يظلّ هائجًا مائجًا طيلة دقائق، يشدّ لحيته ويتوسّل إلى الرّب لإعطائه صبر أيّوب، ويشتم الجميع ولا سيّما ذاك الّذي أثار سخطه. ولكن لا تطول نوباته تلك أبدًا. ففي غضون دقائق معدودات، تعود البسمة إلى محيّى السّيد كاربنتر كشمسٍ بزغت بين السّحب بعد العاصفة وأشرقت على التّلميذ ذاته الّذي كان يزجره. لم يكنّ له أحدٌ أيّة ضغينة مهما وبّخه، إذ لم يكن يتفوّه بالأقوال اللّاذعة الّتي دأبتها الآنسة براونيل دأبًا، تلك الّتي تفتح في القلب جرحًا يلتهب ويتعفّن طيلة أسابيع. أمّا هو فكانت أقواله تمطر على الأبرار والظّالمين[1] على حدّ سواء ولا تسبّب أذىً.

كان يتقبّل المزاح عن نفسه بطيبة خاطر، زمجر ذات مرّة على بيري ميلر قائلًا: «هل تسمعني؟ هل تسمعني يا سيّدي؟» فردّ بيري بهدوء: «طبعًا أسمعك. حتّى سكّان شارلوتتاون يسمعونك». حدّق فيه السّيد كاربنتر للحظةٍ، ثمّ انفجر في ضحكٍ مجلجلٍ صاخب.

---

(1) إنجيل متى 5:45.

اختلفت أساليبه في التّدريس عن أساليب الآنسة براونيل تمام الاختلاف، لدرجة أنّ الأمور التبست على تلاميذ معبد المياه. إذ كانت الآنسة براونيل تحرص على النّظام حرص الآمر النّاهي، فيما لم يسعَ السّيد كاربنتر، ظاهريًّا، إلى الحفاظ على الانضباط. ولكن كانت له طريقة لإبقاء التّلاميذ مشغولين بعملهم بحيث لا يتبقّى لهم وقتٌ للشّغب. ودرّسهم التّاريخ طيلة شهرٍ بلا هوادة، فجعل التّلاميذ يتقمّصون أدوار مختلف الشّخصيّات التّاريخيّة ويمثّلون الأحداث. ورغم أنّه لم يُجبر أحدًا على حفظ التّواريخ، كانت تعلق بذاكرتهم كما لو فعلوا. فلو كنتِ أنتِ ماري، ملكة اسكتلندا، على وشك أن تُشنَقي بفأس المدرسة، تركعين معصوبة العينيْن على عتبة القسم، وأمامك السّفّاح بيري ميلر مرتديًا قناعًا من حرير الخالة لورا القديم الأسود، وتتساءلين عمّا قد يحدث لك لو انهال الفأس *بأقوى* ممّا ينبغي، فلن تنسي تاريخ حدوث تلك المأساة. وإن خُضت معركة واترلو في كلّ أرجاء ساحة المدرسة، وسمعت تيدي كينت يصيح، «هبّوا إليهم يا جنود!» وهو يقود آخر هجوم محموم، لتذكّرت عام 1815 دون أن تبذل أيّ جهد.

في الشّهر الموالي، طُرح التّاريخ جانبًا لصالح الجغرافيا، فأُعيد تصميم المدرسة والسّاحة على شكل خريطة بمختلف البلدان وكان التّلاميذ يتنكّرون بأزياء الحيوانات الّتي تقطنها، أو يتبادلون سلعًا متنوّعة عبر الأنهار والمدن. وإن غشّتك رودا ستيوارت في صفقةٍ لبيع الجلود، فلن تنسى أنّها ابتاعت البضاعة من جمهورية

الأرجنتين؛ وعندما يرفض بيري ميلر أن يشرب قطرة ماء واحدة طيلة يوم صيفيّ قائض، لأنّه كان بصدد عبور الصحراء العربيّة على قافلة من الجمال ولم يجد واحةً، ثمّ أفرط في شرب الماء إلى أن تشنّجت معدته وتوجّب على الخالة لورا أن تسهر معه ليلة كاملة، فمن المحال أن تنسى موقع تلك الصّحراء. وأثارت أساليبه هلع الأوصياء الّذين أيقنوا من أنّ الأطفال كانوا يلعبون ويتسلّون أكثر ممّا هم يتعلّمون.

وإن أردت أن تتعلّم اللّاتينيّة والفرنسية، فعليك أن تُنجر تمارينك شفويًّا، لا كتابيًّا. أمّا في يوم الجمعة بعد الظّهر، فيُنحّي السّيد كاربنتر الدّروس جانبًا، ويطلق العنان للتّلاميذ كي يلقوا القصائد والخُطَب، ويقرؤوا مقاطع من نصوص شكسبير والإنجيل، وكان ذلك أحبّ يومٍ إلى قلب إيلسي. انقضّ السّيد كاربنتر على موهبتها انقضاض كلب جائع على عظم، فراح يدرّبها بلا هوادة. كانا يتخاصمان طيلة الوقت فتدقّ إيلسي الأرض بقدمها وتشتمه، ويتساءل سائر التّلاميذ لمَ لا تُعاقب؟ ولكنّها تُذعن في نهاية المطاف وتفعل كما طلب منها. واظبت إيلسي على المدرسة -وهو أمر غير مسبوق-، لا سيّما وقد أخبرها السّيد كاربنتر أنّها لو غابت دون مبرّر معقول، فلن تشارك في «تمارين» يوم الجمعة، وكان ذلك أمرًا لا يُطاق بالنسبة إليها.

صادف، ذات يومٍ، أن تناول السّيد كاربنتر لوحة تيدي فوجد عليها رسمًا له هو، وتعلو وجهه تكشيرته المفضّلة لدى تيدي،

وإن لم تكن أجملها. وعَنْوَنَ تيدي الرّسم بـ«الموت الأسود»، إذ كان الطّاعون العظيم قد أزهق حياة نصف تلاميذ المدرسة في ذاك اليوم، فحُمِلوا على المحفّات على سواعد أخلافهم المرعوبين إلى حقل الخزّاف.

توقّع تيدي أن ينهال عليه وابلٌ من التوبيخ اللّاذع، نظرًا إلى أنّ غاريت مارشال سُحق سحقًا البارحة بعدما اكتشف المدرّس على لوحته صورة مجرّد بقرة، أو ما سمّاه غاريت ببقرة. ولكن في تلك اللّحظة، عقد السّيد كاربنتر الرّائع حاجبيه المدبّبيْن، ونظر مليًّا إلى لوحة تيدي، ثمّ وضعها على مكتبه ورنا إلى الصّبي قائلًا:

«أنا لست خبيرًا في الرّسم، ولا يمكنني مساعدتك في هذا الصّدد، ولكنّني أظنّ، والرّب على ما أقول شهيد، أنّه يجدر بك من هنا فصاعدًا أن تترك مسائل الحساب جانبًا بعد الظّهر، وتركّز في رسم الصّور».

عاد غاريت مارشال إلى بيته بعد تلك الحادثة ليخبر والده أنّ «العجوز كاربنتر» لم يكن عادلًا وخصّ تيدي كينت بـ«محاباةٍ استثنائية».

في مساء ذاك اليوم، اتّجه السّيد كاربنتر إلى رقعة الطّانسة لمعاينة رسوم تيدي في عليّة الحظيرة القديمة. ثمّ دخل ليتحدّث إلى السّيدة كينت في المنزل، ولم يعلم أحدٌ ما قالت له. ولكن غادر السّيد كاربنتر منقبض الأسارير، وكأنّه خاض معركة لم ينتظرها. ومنذئذٍ، أولى عناية خاصّة لأعمال تيدي المدرسية عمومًا، ومنحه

مراجع أساسيّة عن الرّسم جلبها له من مكان ما، وأوصاه بألّا يأخذها معه إلى منزله، وكان تيدي في غنى عن ذاك التحذير، فهو يعلم حقّ العلم أنّها قد تختفي بين عشيّة وضحاها، مثلما اختفت قططه. كان قد اتّبع نصيحة إيميلي وأخبر والدته بأنّه لن يحبّها إن حدث مكروه لِليُو، فكبر الجرو وصار كلبًا سليمًا ممتلئًا. ولكنّ طيبة قلب تيدي وحبّه العميق لوالدته لم يسمحا له بتهديدها أكثر من مرّة واحدة. كان يعلم أنّها ذرفت الدّموع طيلة اللّيل بعد زيارة السّيد كاربنتر، وأمضت معظم اليوم الموالي راكعة تصلّي في غرفتها الصّغيرة، وظلّت ترمقه بنظرة مريرة نافذة أسبوعًا كاملًا. كان يتمنّى لو كانت أشبهَ بأمّهات أصدقائه قليلًا، ولكن جمعهما حبّ خالص وأوقات ثمينة يقضّيانها معًا في المنزل الرّمادي الصّغير برقعة الطّانسة. ولا يثير غيرة السّيدة كينت وتصرّفاتها الغريبة إلّا تدخّل أطرافٍ أخرى.

قال تيدي لإيميلي: «إنّها شديدة الحنان دومًا عندما نكون بمفردنا».

أمّا بالنّسبة إلى سائر الأولاد، فلم يهتمّ السّيد كاربنتر إلّا ببيري ميلر في شأن أساليب الخطاب، وكان يقسو عليه مثلما يقسو على إيلسي. وبذل بيري قصارى جهده لينال رضا مدرّسه، وتدرّب على خطاباته داخل الحظيرة وخارجها،وحتّى ليلًا في سقيفة المطبخ، إلى أن نهته عن ذلك الخالة إليزابيث. ولم تفهم إيميلي لماذا يغمغم نيدي غراي خطابًا مرتجلًا لا روح فيه ولا طعم، فيكافئه السّيد كاربنتر

بـ«أحسنتَ يا ولدي»، بينما يصبّ جام غضبه على تيدي وينعته بالأحمق والأخرق إذا، لا سمح الله، لم يفخّم الكلمة الملائمة في الجملة، أو حرّك يده في ربع ثانية بعد الوقت المناسب أو قبله.

ولم تفهم أيضًا لماذا يملأ ورقة إنشائها بإصلاحاتٍ بالقلم الأحمر، ويوبّخها إذا ما أكثرت من الجمل الاسميّة أو أطنبت في سرد النّعوت، ويهرول جيئة وذهابًا في ممرّ القسم ويطلق عليها السّباب لأنّها لم تعرف «متى يجب أن تتوقّف، بحقّ الإله»، بينما يخبر رودا ستيوارت ونان لي أنّ نصوصهما جميلة جدًّا ويعطيهما ورقتيْهما دون أن يشوبها سطر أحمر واحد. ورغم كلّ ذلك، كانت تحبّه باطّراد كلّ يومٍ. مرّ الخريف وحلّ محلّه الشّتاء بأشجارٍ عارية، وسماء رماديّة متلألئة تتصدّع في الأصيل فتنفرج عن أخاديد ذهبيّة؛ ثمّ ينقشع الضّياء ليفسح المجال إلى موكبٍ من النجوم اللّامعة يحوم فوق التّلال البيضاء العظيمة والوديان المجاورة للقمر الجديد.

ازداد طول إيميلي زيادة ملحوظة في ذاك الشّتاء، فاضطرّت الخالة لورا إلى أن تحلّ كلّ عطفات فساتينها. وجاءت الخالة روث لتمضي عندهم أسبوعًا، فقالت إنّ نموّ جسدها سيزهق طاقتها، وهذا هو حال الأطفال المصابين بالسلّ.

فقالت إيميلي: «لست مصابة بالسّل». وأضافت: «بل آل ستار طويلو القامة» بشيءٍ من المكر يكاد لا يُلحَظ لدى فتاة تناهز الثّالث عشرة. أمّا الخالة روث، وقد كانت حسّاسة إزّاء قصر قامتها، فنخرت في ضجر وقالت:

«من الأفضل لك أن تكون *هذه* السّمةَ الوحيدة الّتي تشاركينهم فيها. كيف حالك في المدرسة؟».

فأجابت إيميلي بحزم: «أبلي بلاء حسنًا. أنا أذكى تلميذة في صفّي».

هتفت الخالة روث: «يا للطّفلة المغرورة!».

ردّت إيميلي بامتعاض يشوبه الازدراء: «*لست* مغرورة. هذا ما قاله السّيد كاربنتر، وهو لا يجامل أحدًا. ثمّ إنّه لا يسعني إلّا أن أرى ذلك».

قالت الخالة روث: «حسنًا، نأمل أن يكون لك عقلٌ تتداركين به نقص جمالكِ. لا أرى لونًا في بشرتك، وهذا الشّعر الفاحم المحيط بوجهك الشّاحب ينفّر كلّ من يراه. يبدو لي أنّك ستكونين فتاة مملّة».

فقالت إيميلي: «ما كنتِ لتقولي ذلك لشخص راشد»، وتحدّثت بتلك النّبرة الجديّة الحازمة الّتي تنزعج منها الخالة روث لأنّها لا تبدو لها لائقة بالأطفال.

استأنفت إيميلي: «أظنّكِ لن تتألّمي لو خاطبتني بالاحترام ذاته الّذي تخاطبين به غيري».

فردّت الخالة روث في جفاء: «إنّي أُعلمكِ بأخطائك لكي يتسنّى لكِ إصلاحها».

احتجّت إيميلي قائلة: «*ليس* خطئي إن كان وجهي شاحبًا وشعري أسود، ولا يمكنني إصلاح ذلك».

فقالت الخالة روث: «لو كنتِ فتاةً أخرى لـ..».

قاطعتها إيميلي بلهجة ثابتة: «ولكنّني لا *أريد* أن أكون فتاةً أخرى». كانت مصمّمة على ألّا تخنع ابنةُ ستار أمام الخالة روث. وواصلت بصوت جهوري، وقد التفتت لتغادر الغرفة: «لا أريد أن أكون غير نفسي، حتّى وإن كنت مملّة. وقد لا أكون جميلة جدًّا الآن، ولكنّني أعتقد أنّني سأصير حسناء عندما أدخل الجنّة».

انتظرت الخالة لورا أن تبتعد إيميلي، كما في عادة آل موراي، ثمّ قالت: «يرى بعضهم أنّ إيميلي حلوةٌ».

فعلّقت الخالة روث: «لا أدري أين رأوا حلاوتها. إنّها متكبّرة ومتطاولة وتتكلّم لتتظاهر بالذّكاء. ها أنتما سمعتماها الآن. ولكن أكثر ما أمقته فيها هو اختلافها الشّديد عن سائر الأطفال... وهي أعمق من البحر. أجل يا لورا، أعمق من البحر، وستكتشفان ما تضمر لكما في أعماقها، وقد يكون الثّمن غاليًا إذا ما تجاهلتما تنبيهي. إنّها قادرة على كلّ شيء. والخُبث هو أقلّ ما يُقال عنها. أنتِ وإليزابيث لا تُحكمان عليها الخناق بما فيه الكفاية».

ردّت إليزابيث بصرامة: «لقد قمت بواجبي وزيادة». وكانت تظنّ بدورها أنّها تساهلت أكثر ممّا يجب إزّاء إيميلي -فقد كانت بمفردها مقابل لورا وجيمي المتسامحيْن-، ولكن أغاظتها روث بالإشارة إلى الأمر. وفي الشّتاء ذاته، أعرب الخال والاس عمّا ينتابه من قلق بشأن إيميلي.

وبينما كان معهم في القمر الجديد ذات يومٍ، رمقها ولاحظ أنّها على وشك أن تبلغ مرحلة النّضج. سألها السؤال ذاته الّذي يكرّره كلّما زار القمر الجديد: «كم عمرك يا إيميلي؟».

«سأبلغ الثالثة عشر في شهر أيار».

«همم. وماذا ستفعلين بها يا إليزابيث؟».

فردّت الخالة إليزابيث ببرود، أو بأبرد ما يمكن للمرء أن يكون وهو يسكب الدّهن في قوالب الشّموع: «لا أفهم قصدك».

«أقصد أنّها ستصبح فتاة ناضجة عمّا قريب. لا يمكنها أن تنتظر منك التّكفّل بها إلى الأبد..».

فهمست إيميلي في سُخط وقالت: «لا أنتظر ذلك».

«... وآن لنا أن نقرّر أفضل ما ينبغي فعله لها».

قالت الخالة إليزابيث: «لم تعمل نساء موراي يومًا لكسب قوتهنّ»، وكأنّها حسمت بذلك المسألة نهائيًا وإلى الأبد.

فقال والاس: «ولكنّ إيميلي نصف موراي فقط. ثمّ إنّ الزّمن قد تغيّر، ولن تعيشي أنتِ ولورا أبد الدّهر يا إليزابيث، وستؤول مزرعة القمر الجديد بعد رحيلك إلى أندرو، ابن أوليفر. أرى أنّه يجدر بإيميلي أن تستعدّ للقيام بذاتها إن توجّب الأمر».

لم تحبّ إيميلي خالها والاس البتّة، ولكنّها كانت شديدة الامتنان له في تلك اللّحظة. وأيًّا كانت نواياه، فقد اقترح ما كانت ترنو إليه سرًّا بالتّحديد.

وقال الخال والاس: «أقترح أن تُرسل إلى أكاديميّة كوينز للحصول على إجازة مدرّسة. فالتّدريس مهنة نبيلة وتليق بالنّساء، وسأتكفّل *أنا* بحصّتي من تكاليف دراستها».

ما كان ليخفى حتّى على شخصٍ ضرير أنّ الخال والاس ظنّ نفسه أكرَمَ من حاتم الطّائي[1] آنذاك.

وقالت إيميلي لنفسها: «لو فعلتَ، فسأسدّد حصّتك تلك إلى آخر سنتٍ حالما أغدو قادرةً على كسب المال».

ولكن لم تتزحزح الخالة إليزابيث عن رأيها.

وقالت: «لا أؤمن بخروج الفتيات إلى السّاحة الاجتماعيّة. ولم أنوِ ذهاب إيميلي إلى كوينز. هذا ما أخبرت به السّيد كاربنتر لمّا فاتحني في موضوع اجتيازها امتحان الالتحاق بالجامعة. حدّثني بفضاضة شديدة، كان المدرّسون يلزمون حدودهم أكثر في عهد والدي. ولكنّني وضّحت له موقفي، على ما أظنّ. غريبٌ *أمرك* يا والاس، فأنت لم ترسل ابنتك إلى العمل».

فردّ الخال والاس متعاليًا: «ابنتي لديها والدان يتكفّلان بها، أمّا إيميلي فيتيمة. وظننت ممّا سمعته عنها أنّها قد تفضّل كسب رزقها بنفسها بدلًا من العيش على الصّدقة».

صاحت إيميلي: «بلى، أفضّل. أفضّل ذلك يا خالي والاس. آه، أرجوك يا خالتي إليزابيث، اسمحي لي بالدّراسة للامتحان.

(1) حاتم الطّائي شاعر عربيّ يُضرب به المثل في الجود والسّخاء ومساعدة الغير، فيُقال عمّن يُمدح كرمه إنّه «أكرم من حاتم».

أرجوك! سأسدّد لك كلّ سنتٍ أنفقته عليّ فيه، سأفعل بالتأكيد. وأقطع لك في ذلك عهد شرف».

فأجابتها الخالة إليزابيث بكلّ ما لديها من هيبةٍ: «لا تتعلّق المسألة بالمال. لقد تعهّدت برعايتك يا إيميلي، وسأوفي بعهدي. قد أرسلك إلى معهد مطمر الفأر بضعة سنوات عندما تكبرين، فأنا لا أندّد بالتعليم في حدّ ذاته. ولكنني لن أتركك لقمة هيّنة للعالم الخارجي، لم يكن *ذلك* مصير أيّ فتاة من بنات موراي».

أدركت إيميلي أنّ لا فائدة تُرجى من التّوسّل، فغادرت بالمرارة ذاتها الّتي غمرتها بعد زيارة السّيد موراي. ثمّ نظرت الخالة إليزابيث إلى والاس، وسألته بلهجة توحي بالكثير:

«هل نسيت ما جنينا من التحاق جوليات بكوينز؟».

لئن لم يُسمح لإيميلي بحضور دروس المراجعة للامتحان، فإنّ لبيري لم يكن أحدٌ يمنعه عنها، وواظب عليها بالحزم عينه الّذي يدفعه في سائر أعماله. وتغيّرت مرتبته في القمر الجديد بأناةٍ وثبات؛ ولم تعد الخالة إليزابيث تشير إليه في ازدراءٍ بـ«الخادم المأجور». فحتّى هي أقرّت، رغم أنّه مازال بلا شكّ خادمًا مأجورًا، بأنّه لن يبقى على الحال ذاته، ولم تعد تعترض عندما ترتق لورا ثيابه الرّثّة، أو لمّا تساعده إيميلي على مراجعة دروسه في المطبخ بعد العشاء؛ ولم تتذمّر أيضًا عندما بدأ ابن العمّ جيمي يدفع له راتبًا زهيدًا، رغم أنّ بقيّة الخدم الّذين يكبرون بيري سنًّا يقنعون في سرورٍ بأداء المهام المنزليّة في أشهر الشّتاء القاسية مقابل القوت والمأوى في بيت مريح.

فلو شهد القمر الجديد نشأة رئيس وزراء مستقبلي، كانت الخالة إليزابيث تودّ المساهمة في نشأته. كان معقولًا، بل محمودًا، أن يطمح الصبيّ دومًا إلى الأفضل. أمّا الفتاة، فتلك قصّة أخرى، ومكان الفتاة في بيتها.

مدّت إيميلي يد المساعدة إلى بيري لحلّ مسائل الجبر، وراجعت معه دروس الفرنسية واللّاتينيّة؛ فاستوعبت من البرنامج أكثر ممّا قد توافق عليه خالتها إليزابيث، وتعلّمت المزيد كلّما تحدّث المترشّحون للامتحان تيْنك اللّغتين في المدرسة؛ إذ كان الأمر هيّنًا بالنّسبة إلى فتاة ابتكرت في يومٍ من الأيّام لغةً خاصّة بها. ولمّا حاول جورج بايتس ذات يومٍ أن يتبجّح أمامها فسألها بالفرنسيّة،فرنسيّته هو، تلك الّتي قال عنها السّيد كاربنتر مرتابًا، «لعلّ الرّب سبحانه يفهمها»، «هل لديك حبر جدّتي وفرشاة ابن خالي ومظلّة زوج عمّتي في مكتبك؟» فأجابته إيميلي بمثل طلاقته و«تفرنسه» قائلة، «لا، ولكن لديّ قلم والدك وجبن الحارس ومنشفة خادمة عمّك في سلّتي».

حاولت إيميلي أن تجد عزاءها عن خيبة الامتحان في الكتابة، فازداد إنتاجها الشّعري أكثر من ذي قبل. كانت متعة كتابة الشّعر تبلغ أوجها في أمسيات الشّتاء عندما تهيج العواصف وتموج فتملأ الحديقة والبستان برياح شبحيّة ترصّعها أضواء خافتة. وكتبت إيميلي قصصًا أيضًا -علاقات حبّ يائسة تكبّدت فيها، بصبر بطوليّ، مغبّة كتابة الحوارات الغراميّة؛ وقصص لصوص وقراصنة -وتروق لها لأنّه لا حاجة إلى كلام معسول بين اللّصوص

والقراصنة؛ ومآسي أمراء وأميرات تتسلّى في حواراتهم بإضفاء كلمات فرنسيّة؛ وعشرات المواضيع الأخرى الّتي ليست لها عنها أدنى فكرة. ساورتها فكرة أن تبدأ في رواية، ثمّ قرّرت أنّه لن يكون لها ما يكفي من الورق لكتابتها. كانت قد استنفدت ذخيرتها من فواتير الرّسائل، ولم تكن كراريس جيمي كفيلة باستيعاب مشروع بذاك الحجم، رغم أنّها وجدت كرّاسًا جديدًا في حقيبة المدرسة لمّا شارف القديم على الامتلاء. يبدو ابن العمّ جيمي خبيرًا في اختيار الوقت المناسب، وكأنّ ذلك جزء لا يتجزّأ من كينونته.

وفي ليلة من اللّيالي، بينما كانت مستلقية في فراش شرفتها تتأمّل قمرًا مكتملًا يشعّ بأنواره على الوادي من سماء لا تشوبها غيمة، لمعت في ذهنها فكرة رائعة.

سوف ترسل قصيدتها الأخيرة إلى صحيفة *المشروع الجديد* بشارلوتتاون.

كان في تلك الصّحيفة عمودٌ خاصّ بالشّعراء تُنشر فيه «أروع» أبياتهم بانتظام. ورأت إيميلي، في قرارة نفسها، أنّ أبياتها لا تقلّ عمّا قرأت في الصّحيفة جودةً، ولعلّها كانت محقّة، إذ كان مُعظم ما يُنشر في *المشروع* من حثالة القصائد.

تحمّست إيميلي للفكرة حماسًا أطرد النّوم عنها في جلّ ساعات اللّيل، بل أبت هي نفسها النّوم. كانت تتلذّذ بتلك اللّحظات، وهي ممدّدة في الظّلام تتخيّل الأمر بحذافيره. فرأت أبياتها مطبوعةً وموقّعة باسم إ. بيرد ستار؛ ورأت عيني خالتها لورا تطفحان فخرًا؛

ورأت السّيد كاربنتر يريها للغرباء قائلًا «إنّه عمل إحدى تلميذاتي، بحقّ الإله»؛ ورأت ردود فعل زملائها بين حاسد ومعجبٍ؛ ورأت نفسها تطأ أولى درجات المجد، وترتقي أولى عقبات طريق الألب، فتلوح لها في الأفق تباشير مستقبل واعد.

وحلّ الصّباح، فذهبت إيميلي إلى المدرسة بذهنٍ شاردٍ بسبب سرّها، الأمر الّذي أسفر عن سوء أدائها بكلّ المواد وأثار سخط السّيد كاربنتر؛ ولكن انزلقت كلماته عليها انزلاق الماء على ريش البطّ. ولئن كان جسدها في معبد المياه، سافرت روحها في ملكوت السّماء.

حالما انتهت الدّروس، انطلقت إلى السّقيفة حاملة معها نصف ورقة ذات خطوط زرقاء. وفي جهدٍ جهيد، نقلت قصيدتها مولية اهتمامًا خاصًّا لتنقيط الحروف وتشكيل الكلمات. وملأت بها وجهيْ الورقة، غير مدركة، في نعيم جهلها، ما أقدمت عليه من ذنبٍ. ثمّ قرأت بصوت جهوريّ وفرح شديد، دون أن تغفل عن العنوان، *أحلام المساء*. وأعادت قراءة أحدَ الأبيات مرتين أو ثلاثًا لتتلذّذ به:

وينضح الهواء بسحر موسيقى السّماء.

قالت إيميلي: «يبدو لي بيتًا *رائعًا*، بل أتساءل الآن كيف خطر ببالي».

وفي اليوم الموالي، أرسلت قصيدتها وظلّت تختلج في روحها نشوة عارمة إلى حدّ يوم السّبت الموالي. وأتت صحيفة *المشروع*

الجديد في الموعد ففتحها إيميلي بيد مرتجفة وأنامل متجمّدة وقلب متلهّف، وطوت الصّفحات طيًّا إلى أن بلغت عمود الشّعراء. والآن، حانت لحظتها الحاسمة!

فلم تجد أثرًا لأحلام مساءٍ فيها!

طرحت إيميلي المشروع أرضًا وهرعت إلى روشن السّقيفة حيث انبطحت على المقعد القديم القماشي بوجهها وذرفت دموع المرارة والخيبة. لقد تجرّعت عصارة الفشل حتّى الثّمالة، وبدا لها الأمر بمثابة مأساة صارخة الواقعيّة. شعرت إيميلي وكأنّها صُفعت على وجهها، فسُحقت حتّى صارت محض رذاذ من الذّل، وأيقنت أنّها لن تستعيد كرامتها مجدّدًا.

كم كانت ممتنّةً لأنّها لم تخبر تيدي بشيء، رغم أنّها رغبت في ذلك رغبة شديدة، ولم تمتنع إلّا لأنّها أبت أن تفسد إثارة المفاجئة عندما ستريه الأبيات في الصّحيفة موقّعة باسمها. بيد أنّها أخبرت بيري، واستشاط غضبًا لّما لمح آثار الدّموع على وجهها لاحقًا عندما كانا بصدد تصفية اللّبن في الملبنة. كانت تلك من أحبّ المهامّ لدى إيميلي، ولكنّ العالم فقد طعمه في تلك اللّيلة. رونق ليالي الشّتاء البيضاء وهدوئها، البراعم الأرجوانية على شجر التّلال المبشّرة بانصهار الثّلج، كلّها أضحت عديمة الجدوى أمام روحٍ لا تشعر بسحر ولا انتشاء.

قال بيري: «سأذهب إلى شارلوتتاون لو توجّب الأمر، وسأهشّم رأس ناشر *المشروع*»، بنبرة ستغدو، بعد ثلاثين عامًا، بمثابة جرس إنذار يعلم أفراد حزبه بضرورة الفرار منه.

فردّت إيميلي بصوت كئيب: «لن يجدي ذلك نفعًا. لم تبدُ له القصيدة جديرةً بأن تُنشر، وهذا ما يؤلمني يا بيري، ألّا تنال قصيدتي إعجابه. ولن يتغيّر *ذلك* حتّى ولو هشّمت رأسه».

مرّ أسبوع قبل أن تتعافى إيميلي من صدمتها، ثمّ كتبت قصّة جعلت فيها ناشر جريدة *المشروع* يتقمّص شخصيّةَ شرّير خبيث يائس زُجّ به في النّهاية وراء القضبان، وبذلك حرّرت نفسها من السّموم الّتي تنخر كيانها، ثمّ ألّفت قصيدةً إلى «السّيدة نيسان العذبة»، فأنستها متعةُ الكتابة أمره تمامًا. ولكن قد يُطرح سؤال ما إذا كانت قد سامحته حقًّا، حتّى بعدما اكتشفت أنّه لا يجدر بها أن تكتب على وجهي الورقة، وحتّى بعدما أعادت قراءة *أحلام المساء* بعد مضيّ عام تساءلت كيف بدت لها القصيدة جيّدة آنذاك.

كثيرًا ما تحدث الآن أشياء من هذا القبيل. فكلّما أعادت إيميلي قراءة نصوصٍ من ذخيرة مخطوطاتها، اكتشف أنّ ما كان في بعضها ذهبًا قد استحال أوراقًا ذابلة لا تصلح إلّا للحرق. وحَرَقتها إيميلي... بشيءٍ من الألم. لا متعة للمرء أبدًا في التّخلّي عمّا يحبّ.

تدنيس المقدّسات

تواترت الاشتباكات بين إيميلي وخالتها إليزابيث في ذاك الشّتاء والرّبيع الّذي تلاه. وغالبًا ما كان النّصر حليف الخالة إليزابيث؛ إذ كان شيءٌ ما فيها يأبى إلّا أن يحصل على ما يرضيه حتّى في المسائل التّافهة. ولكن يحدث أن تجد الخالة إليزابيث في طينة إيميلي شظايا من الصّخور النّارية تجعلها لا تخنع ولا تنحني ولا تنكسر. منذ مائة عام خلت، كانت ماري موراي امرأة وديعة مطيعةً عمومًا، بحسب الرّوايات المتناقلة في العائلة؛ ولكنّ فيها الشّظايا الصّخرية ذاتها، مثلما تشهد بذلك قولتها «هنا أبقى». وكلّما حاولت الخالة إليزابيث أن تستخلص شيئًا ما من جانب إيميلي ذاك، كانت النّتيجة دائمًا من أسوإ ما يكون. ورغم ذلك، لم تزدد من تجربتها حكمةً وواصلت نظامها القمعيّ، بل شدّدته؛ إذ تتذكّر أحيانًا، عندما تسدل لورا طيّات ثياب إيميلي، أنّ الفتاة على وشك أن تكبر، فتلوح لها في الأفق بوادر عواصف هوجاء، وقد فاقمت حجمَها غياهب سنوات الغيب. عليها إذن ألّا تسمح لإيميلي بأن تخرج عن سيطرتها الآن، خشية أن تضيع لاحقًا في متاهات لا مخرج لها منها، مثلما فعلت والدتها، أو بالأحرى، مثلما

تعتقد إليزابيث موراي اعتقادًا جازمًا أنّها فعلت. وباختصارٍ، لن يشهد القمر الجديد هروبًا آخر قطعًا.

ومن جملة ما اختلفتا بشأنه، ولم تكتشفه الخالة إليزابيث إلّا مؤخّرًا، هو أنّ إيميلي تعوّدت على إنفاق قسط كبير من أرباح البيض لتشتري أوراقًا أكثر ممّا ترضاه الخالة إليزابيث. ماذا عسى إيميلي أن تفعل بهذا الكمّ من الأوراق؟ احتدم نقاشهما في هذا الصّدد إلى أن اكتشفت الخالة إليزابيث أنّ إيميلي تكتب قصصًا. أمضت إيميلي شتاءها في كتابة القصص وراء ظهر الخالة إليزابيث، وهي لم تشكّ فيها أبدًا، بل ظنّت بمنتهى السّذاجة أنّ إيميلي تكتب مواضيع إنشاء للمدرسة. كان قد تناهى إلى علمها أنّ إيميلي تكتب قوافي تافهة وتسمّيها «شعرًا»، ولكنّها لم تعبأ بالأمر كثيرًا. كان جيمي قد ألّف الكثير من تلك الخزعبلات، والأمر سخيف ولكن لا ضير فيه، وما لإيميلي إلّا أن تسأمه وتتخلّى عنه. صحيحٌ أنّ جيمي لم يتخلّ عن شعره، ولكنّ حادثه -اهتزّت جذور قلب إليزابيث كلّما تذكّرته- جعله، إلى حدٍّ ما، طفلًا مدى الحياة.

ولكنّ كتابة القصص مسألة مختلفة تمامًا، وصُعقت الخالة إليزابيث من هول ما اكتشفت. فالخيال في شتّى تجلّياته أمرٌ مريع. لُقّنت إليزابيث موراي تلك الفكرة منذ نعومة أظفارها، ولم تتنصّل منها حتّى بعدما تقدّم بها العمر. وكانت تؤمن إيمانًا صادقًا بأنّه لذنبٌ عظيمٌ للمرء أن يلعب الورق، أو يرقص، أو يرتاد المسرح، أو يقرأ الرّوايات أو يكتبها. وفيما يخصّ إيميلي، كان يوجد عامل أنكى

وأمرّ، ألا وهو انتسابها إلى آل ستار، ولا سيّما إلى دوغلاس ستار. لم يسبق لأحدٍ من آل موراي أن اقترف ذنب كتابة «القصص» أو حتّى الرّغبة في كتابتها. إنّه ورمٌ مُريب يجب استئصاله بلا شفقة. ولمّا مرّرت الخالة إليزابيث عليه المبضع، لم تجد جذورًا ليّنة سهلة الاستئصال، بل تلك الشّظايا الصخرية العنيدة ذاتها. وأظهرت إيميلي احترامًا وتعقّلًا وصراحةً تامّة، ولم تشترِ المزيد من الأوراق بأرباح البيض، ولكنّها أخبرت الخالة إليزابيث أنّها لا تستطيع التّخلّي عن كتابة القصص؛ بل واصلت كتابتها حتّى على قطع أوراق تغليف بنّية، وفي فراغات ظهور المناشير الّتي ترسلها شركات الآلات الزّراعية إلى ابن العمّ جيمي.

سألتها الخالة إليزابيث: «ألا تعلمين أنّ كتابة الرّوايات إثمٌ؟».

فقالت إيميلي: «أوه، لم أشرع في كتابة الرّوايات بعدُ، ليس بحوزتي ما يكفي من الأوراق. إنّها مجرّد أقاصيص. وهذا ليس إثمًا، كان أبي يحبّ الرّوايات».

بدأت الخالة إليزابيث تقول: «كان والدك..». ثمّ توقّفت، إذ تذكّرت أنّه سبق لإيميلي أن «ردّت الفعل» عندما قيل أمامها شيءٌ يحطّ من قدر أبيها. ولكن استاءت إليزابيث من مجرّد شعورها الغامض بضرورة التّوقف عن الكلام، وهي الّتي تكلّمت طيلة حياتها في القمر الجديد كما يحلو لها دون إعارة أدنى اهتمامٍ لمشاعر غيرها.

ثمّ أخرجت الخالة إليزابيث «سرّ القلعة» ولوّحت به أمام

إيميلي باحتقار قائلةً: «لن تكتبي المزيد من *هذه الأشياء*. لقد حرّمت عليك الكتابة، لا تنسي، حرّمتها عليك».

ضمّت إيميلي يديها النّحيلتين الجميلتين على الطّاولة وحدّقت، بلا رمشة عينٍ، في وجه الخالة إليزابيث الغاضب بنظرة ثابتة –تلك الّتي وصفتها الخالة روث بالاختلاف عن نظرة الأطفال– ثمّ قالت بنبرةٍ جدّية: «آه، يجب أن أكتب يا خالتي إليزابيث. عليك أن تعلمي أنّ هكذا تسير الأمور، إنّه شيءٌ في باطني، ولا حول لي فيه ولا قوّة. ثمّ إنّ أبي حثّني على مواصلة الكتابة *دائمًا وأبدًا*، وأخبرني بأنّني سأصير مشهورة يومًا ما. ألا تريدين أن تكون لكِ ابنة أختٍ مشهورة يا خالتي إليزابيث؟».

فردّت الخالة إليزابيث: «لن أناقش الموضوع».

«لست أناقش، أنا أشرح فحسب». لم تتهاون إيميلي عن الاحترام ولو قيد أنملة. وواصلت: «أريدك فقط أن تفهمي أنّه يجب عليّ مواصلة كتابة القصص، رغم أنّني آسفة جدًّا لأنّك لست راضية».

«إيميلي، لو لم تتخلّي عن هذا –هذا أبشع من الهراء–، فسوف... سوف..».

توقّفت إليزابيث ولم تدرِ ما ستهدّد بفعله، فقد أضحت إيميلي أكبر ممّا يسمح لها بصفعها أو أمرها بالصّمت؛ وقاومت رغبتها في أن تقول لها «سوف أطردك من القمر الجديد» لأنّ لا فائدة من ذلك، إذ تدرك إليزابيث موراي جيّدًا أنّها لن تطرد إيميلي من القمر الجديد،

بل لن تقدر على طردها أصلًا، رغم أنّ ذاك اليقين كان راسخًا في قلبها دون أن يدركه فكرها بعدُ. ولم تشعر إلّا بالعجز فغضبت؛ ولكن سيطرت إيميلي على الوضع وواصلت كتابة قصصها في سلام. ولو سألتها الخالة إليزابيث أن تتخلّى عن حياكة الدّانتيل، أو صنع حلوى دبس السّكر، أو أكل بسكويت الخالة لورا اللّذيذ، لأذعنت بطيبة خاطر على الرّغم من حبّها لكلّ تلك الأشياء. أمّا التّخلي عن كتابة القصص، فكأنّها بالخالة إليزابيث تطلب منها أن تكفّ عن التّنفّس. *لم* لا تفهم؟ كان الأمر يبدو بسيطًا ومفروغًا منه في نظر إيميلي.

«لا يستطيع تيدي التّوقّف عن الرّسم، ولا تستطيع إيلسي التّوقّف عن إلقاء الخطب، ولا أستطيع أنا التّوقف عن الكتابة. *ألا* ترَيْنَ ذلك يا خالتي إليزابيث؟».

فقالت الخالة إليزابيث: «كلّ ما أراه هو أنّك فتاة جاحدة تعصي الأوامر».

آلم قولها إيميلي، ولكنّ الفتاة أبت الاستسلام لها. وظلّ حاجزٌ من الجفاء والمرارة يحول بينها والخالة إليزابيث في أبسط تفاصيل الحياة اليوميّة، فنغّص إلى حدّ ما عيش إيميلي، وقد كانت شديدة المراعاة لبيئتها وأحاسيس أقاربها. ولم يفارقها ذاك الشّعور، ما عدا في الوقت الّذي تكتب فيه قصصها. *آنذاك*، تنسى إيميلي كلّ شيء وتحلّق صوب بلدان بين الشّمس والقمر، حيث ترى كائناتٍ خارقة تحاول وصفها، وتشهد مغامرات رائعة تحاول توثيقها متى عادت

إلى المطبخ تحت ضوء الشّموع، وقد دبّ فيها شيء من الخدر وكأنّها أمضت سنوات في أرض قفراء. حتّى الخالة لورا لم تكن في صفّها لتساندها، إذ كانت تظنّ أنّه يجدر بإيميلي أن تستسلم في مسألة بهذه التّفاهة من أجل إرضاء الخالة إليزابيث.

فقالت إيميلي في يأس: «ولكنّها ليست تافهة، بل هي أهمّ ما لي في حياتي يا خالتي لورا. آه، ظننت أنّك ستتفهّمين».

«أتفهمّ تعلّقك بها يا حبيبتي، وأظنّ أنّها مجرّد تسلية لا ضرر فيها. ولكن يبدو أنّ الأمر يزعج خالتك إليزابيث بطريقة أو بأخرى، وأرى حقًّا أنّه من الأفضل أن تمتثلي لأوامرها. ليست المسألة ذات أهمّية بالغة، بل هي *فعلا* مضيعة للوقت».

احتجّت إيميلي في حزن: «لا... لا يا خالي لورا. سأؤلّف كتبًا حقيقيّة يومًا ما، وستدرّ عليّ مالًا وفيرًا»، وأضافت ملاحظتها الأخيرة لإدراكها أنّ آل موراي مولعون بالأعمال ويقيسون قيمة معظم الأشياء بالمال.

ابتسمت لها لورا بشيء من الشّفقة.

«أخشى أنّك لن تصيري بالثّراء الّذي تتخيّلين يا فتاتي، ولعلّه من الحكمة أن تستغلّي وقتك استعدادًا لعمل مفيد».

اغتاظت إيميلي وهي ترى خالتها تتعالى عليها على ذاك النّحو، واغتاظت لأنّ لا أحد يدرك أنّ *عليها* أن تكتب، واغتاظت لرؤية خالتها اللّطيفة الحنون تتناول الأمر بهذا الغباء.

وفكّرت بمرارة: «آه، لو نُشرت قصيدتي في صحيفة *المشروع* البغيضة تلك، *لكانوا* صدّقوني».

ونصحتها الخالة لورا قائلةً: «على كلّ حال، تفادي الكتابة على *مرأى من* إليزابيث».

ولكن، لسبب ما، لم تأخذ إيميلي بتلك النّصيحة الحصيفة. وسبق لها أن تآمرت مع الخالة لورا على الخالة إليزابيث بشأن بعض المسائل البسيطة، ولكنّها ارتأت أنّها لن تستطيع التّآمر في *هذا الشّأن*، بل عليها أن تتوخّى الصّراحة والوضوح التّام. يجب أن تكتب قصصها، *ويجب* أن تعلم بذلك الخالة إليزابيث، وهكذا ستمضي الأمور. لن تخادع نفسها، ولن *تتظاهر* بمخادعة نفسها. وحدّثت والدها في الموضوع في رسالة صبّت فيها جام مرارتها وارتباكها، دون أن تشكّ لحظة في أنّها ستكون آخر رسالة تكتبها له. وفي تلك الفترة، تراكمت أكوام الرّسائل في رفّ المقعد القديم بالسّقيفة، إذ كتبت إيميلي لوالدها رسائل أكثر ممّا وثّقته صفحات هذه الرّواية. وكان فيها كمّ هائل من المقاطع الّتي تحدّثت فيها إيميلي عن خالتها إليزابيث، ومعظمها خالية من المجاملة، ولكن فيها مقاطع أخرى قد تعترف إيميلي نفسها، بعد تجاوز مرارة اللّحظات الأولى، بأنّ فيها إطنابًا ومبالغةً لا يُعقلان. وقد كتبت مقاطع من ذاك القبيل عندما كانت روحها الغاضبة الجريحة في أمسّ الحاجة إلى مصبٍّ لأشجانها، فتغمس آنذاك قلمها في محبرة مسمومة قبل أن تكتب، ولم يصعب على إيميلي اللّجوء إلى أسلوب المكر والدّهاء متى

أرادت. وبمجرّد أن تفرغ من كتابة تلك المقاطع، يكفّ عنها الألم ولا تفكّر فيه مجدّدًا، أمّا النّصوص، فتبقى.

وفي يومٍ من أيّام الرّبيع أخذت الخالة إليزابيث تنظّف السّقيفة بينما كانت إيميلي تلعب بسرور مع تيدي في رقعة الطّانسة، فعثرت على حزمة الرّسائل في رفّ المقعد، وجلست، وقرأتها كلّها.

ما كانت إليزابيث موراي لتجرؤ على قراءة أيّ نصّ يتبع شخصًا راشدًا. ولكن لم يجر لها ببالٍ أنّه من العيب أن تقرأ رسائل أفرغت فيها إيميلي -تلك الفتاة الوحيدة، والمظلومة أحيانًا- أشجان قلبها إلى والدٍ بادلته وبادلها حبًّا وعطفًا وتفهّمًا. ظنّت الخالة إليزابيث أنّه يحقّ لها معرفة كلّ ما تفعله أو تقوله أو تفكّر فيه تلك الّتي تعيش على نفقتها. فقرأت الرّسائل واكتشفت رأي إيميلي فيها، هي، إليزابيث موراي، الطّاغية الّتي لا يُشقّ لها غبار، والّتي لم يجرؤ أحدٌ على أن يتفوّه أمامها بما تكره. كان موقفًا لا يُحسد عليه، لا في الشّيب ولا في الشّباب. ولمّا طوت إليزابيث موراي الرّسالة الأخيرة، كانت يداها ترتجفان من الغضب، ومن شيء آخر وراءه لم يكن غضبًا.

«إيميلي، خالتك إليزابيث تودّ الحديث إليك في الرّدهة»، هكذا استقبلت الخالة لورا إيميلي عندما عادت من رقعة الطّانسة لأنّ مطرًا قاتمة خفيفة بدأت تهطل على البساتين المخضرّة. أنذرتها نبرة الخالة لورا، فضلًا عن نظرتها الحزينة، بحدوث أمرٍ وخيم. ولم تدرك إيميلي ما حدث، إذ لم تتذكّر ما فعلته لتُؤمر بالمثول أمام تلك المحكمة الّتي تقيمها الخالة إليزابيث أحيانًا في

الرّدهة. ولا ريْبَ في أنّ الموضوع مهمّ ليتوجّب الحديث عنه في الرّدهة، فقد كانت الخالة إليزابيث، لأسبابٍ غامضة، تخصّصها لمقابلات حسّاسة من هذا القبيل. لعلّ ذلك لأنّها تجد في صور آل موراي المعلّقة وراءها السّند الّذي تحتاجه في تعاملها مع أجانب مثل إيميلي. وللسّبب ذاته، كانت إيميلي تبغض محاكمات الرّدهة، وتشعر، في مثل تلك المناسبات، وكأنّها فأرة ضئيلة محاطة بزمرة من القطط الشّرسة.

وثبت إيميلي تشقّ البهو الواسع، وتوقّفت في الأثناء، رغم ما يساورها من قلق، لتتأمّل في العالم البديع المُحمَرّ من خلال البلّور القرمزيّ، ثمّ فتحت باب الرّدهة. كانت الغرفة غارقة في عتمة خفّفتها حصيرة نصف مرفوعة في أحد الشّبابيك. كانت الخالة إليزابيث تجلس متكئة على مقعد وبر الحصان الأسود، مقعد الجدّ موراي. بادرت إيميلي بالنّظر إلى وجه خالتها المتجهّم الغاضب، ثمّ لمحت ما على ركبتيْها.

وفهمت.

كان ردّ فعلها الأوّل أن تستردّ رسائلها الثّمينة؛ فخطفت الحزمة من فوق ركبتي الخالة إليزابيث بسرعة خاطفة وارتدّت إلى الباب؛ ووقفت هناك وجهًا لوجهٍ مع خالتها، تستعر سخطًا وحنقًا. لقد دُنّست مقدّساتها، وانتُهكت حرمة أعماق روحها.

وقالت: «كيف تجرئين؟ كيف تجرئين على لمس *أوراقي الخاصّة*، خالتي إليزابيث؟».

هذا ما لم تتوقّعه الخالة إليزابيث. كانت تنتظر ارتباكًا، ذعرًا، خجلًا، خوفًا، أيّ شيءٍ آخر إلّا هذا السّخط، سخط من يخال نفسه على حقّ، وكأنّها هي، الخالة إليزابيث، أضحت مذنبةً.

«أعطيني تلك الرّسائل يا إيميلي».

أحكمت إيميلي قبضتها على الحزمة وقد امتقع وجهها من الغضب، وردّت: «كلّا، لن أعطيك إيّاها. إنّها لي ولأبي فحسبُ، ليست لكِ أنتِ. لا يحقّ لكِ لمسها. لن أسامحك *أبدًا*!».

انقلبت الموازين وحان الانتقام. وبُهتت الخالة إليزابيث حتّى إنّها لم تكد تعلم ما تقول أو تفعل. ولكنّ الأدهى والأمرّ هو الشكّ البغيض الّذي ساورها إزّاء تصرّفها، ولعلّ ذلك يُعزى إلى قوّة الاتّهامات الّتي وجّهتها إليها إيميلي. وتساءلت إليزابيث موراي، للمرّة الأولى في حياتها، إن كانت قد أصابت فيما فعلت. وللمرّة الأولى في حياتها، شعرت بالخزي، ولم يزدها الخزي إلّا غضبًا. لم تحتمل أن تُرغَم على الشّعور بالخزي.

وفي تلك اللّحظة، واجهت كلٌّ منهما الأخرى، لا بوصفهما خالةً وابنة أختها، ولا طفلةً وراشدة، بل إنسانتيْن تمقت كلٌّ منهما الأخرى: إليزابيث موراي، امرأة طويلة صارمة دقيقة الفم؛ وإيميلي ستار، فتاة شاحبة الوجه، في عينيْها شعلتان سوداوان، وبين ذراعيْها المرتجفتيْن رسائلها النّفيسة.

قالت الخالة إليزابيث: «*هذا* هو اعترافك بالجميل إذن. كنتِ يتيمة مُعدَمة، فأخذتك إلى بيتي، ووفّرت لك المسكن والقوت

والدّراسة والعطف، *وها هو ذا* جزائي». وإلى حدّ تلك اللحظة، لم تتأثّر إيميلي بلسعة أقوال خالتها من شدّة ما يتملّكها من حنق وحقدٍ.

وردّت: «أنتِ لم تريدي أخذي. لقد قُدّمت لي أوراق لأختار منها بالقرعة، ثمّ أخذتني لأنّني سحبت اسمك. كنتم تعلمون أنّ أحدًا منكم سيتكفّل بي لأنّكم آل موراي ولن يسمح لكم كبرياؤكم بترك إحدى قريباتكم في ملجأ الأيتام. تحبّني خالتي لورا الآن، أمّا أنتِ فلا. إذن لماذا يجدر بي أن أحبّك؟».

«ما أنتِ إلّا طفلة جاحدة لا تمتنّ بالجميل!».

«بلى، أمتنّ بالجميل. لقد بذلت قصارى جهدي لأكون حسنة السّلوك، وحاولت أن أطيعك وأرضيك، وأؤدّي كلّ الأعمال المنزليّة الممكنة لأساعد على سداد تكلفة عيشي. ولا *حقّ لك* في أن تقرئي رسائلي لأبي».

فردّت الخالة إليزابيث: «إنّها رسائل شائنة، ويجب التّخلّص منها».

ضيّقت إيميلي قبضتها على رسائلها وقالت: «لا، أفضّل حرق نفسي على أن أحرقها. لن تأخذيها، خالتي إليزابيث».

وشعرت بجبينها يقطّب، وأدركت أنّ نظرة موراي تطفح على وجهها، فأيقنت أنّ نصرها وشيك.

ازداد وجه إليزابيث موراي شحوبًا، لو أمكن الأمر. كان

بوسعها، في وقتٍ ما، أن تسلّط نظرة موراي بدورها؛ ولكن لم يكن ذلك سببَ هلعها، بل كان ذاك الشّيء الغريب الّذي يلوح وراء نظرة موراي ويثبّط عزيمتها، فارتجفت، وارتبكت، واستسلمت.

وقالت بمرارة: «احتفظي برسائلك، وأهيني العجوز الّتي فتحت لك بيتها».

ثمّ غادرت الرّدهة. وظلّت فيها إيميلي سيّدة الميدان، ولكن سرعان ما استحالت لذّة نصرها رمادًا منثورًا.

عادت إلى غرفتها فأخفت رسائلها في الصّوان فوق المدفأة، ثمّ اندسّت في فراشها وانكمشت على نفسها موارية وجهها في الوسادة. لم يزل وخز الغضب يسري في جسدها، ولكنّها شعرت وراءه بوجع آخر بدأ يؤلمها ألمًا فظيعًا.

دبّ فيها الألم لأنّها جرحت خالتها إليزابيث، إذ شعرت بأنّ غيظ خالتها يخفي وراءه جرحًا *عميقًا*. وتفاجأت إيميلي. كانت تتوقّع من خالتها إليزابيث أن تغضب طبعًا، ولكنّها لم تعتقد أبدًا أنّ الأمر قد يؤثّر فيها بأيّ طريقة أخرى. ورغم ذلك، فقد تراءى لها شيء ما في عيني خالتها، وهي ترمي لها بتلك الجملة الأخيرة اللّاذعة، شيء يفصح عن حرقة مريرة.

شهقت إيميلي: «أوه! أوه!» وراحت تبكي كاتمة عبراتها في الوسادة. وأخذ البأس منها مأخذًا حتّى إنّها لم تستطع الخروج عن ذاتها لتتأمّل ألمها ومأساتها بشيء من المتعة -مُحاوِلةً تحليل مشاعرها-، وعندما تكون إيميلي بائسة فلا حدّ لبؤسها ولا عزاء.

لن تبقيها الخالة إليزابيث في القمر الجديد بعد خصام مسموم من هذا القبيل. ستطردها طبعًا. هذا ما صدّقته إيميلي بالفعل، إذ لم يكن هنالك ما لا تصدّقه آنذاك، مهما كان مريعًا. كيف لها أن تعيش بعيدة عن القمر الجديد؟».

تأوّهت إيميلي: «وقد أعيش ثمانين عامًا».

ولكن ما من شيء آلمها مثل ذكرى تلك النّظرة الّتي رأتها في عيني الخالة إليزابيث.

وفي ظلّ تلك الذّكرى، تلاشى غضبها إزّاء انتهاك مقدّساتها. تذكّرت كلّ الأشياء الّتي كتبها عن الخالة إليزابيث لأبيها، أشياء قاسية، مريرة، بعضها في محلّه، وبعضها الآخر مبالغ فيه. وبدأت تشعر بأنّه ما كان يجدر بها كتابة أشياء من ذاك القبيل. فصحيحٌ أنّ خالتها إليزابيث لم تحبّها ولم ترغب في أخذها إلى القمر الجديد؛ ولكنّها أخذتها *بالفعل*، ولا يمكن إنكار الفعل حتّى ولو نبع من واجبٍ، لا من حبّ. ولا فائدة من إقناع نفسها بأنّ الرّسائل لم تكتب لأحد على قيد الحياة ولم يكن من المفروض أن يراها أحدٌ أو يقرأها. فهي تعيش تحت سقف الخالة إليزابيث، وهي مدينة لها بأكلها وملابسها، وينبغي إذن ألّا تقول عنها أقوالًا قاسية، ولا حتّى لوالدها، هذا ما لا يليق بابنة ستار.

وفي نهاية المطاف، فكّرت إيميلي: «عليّ أن أعتذر إلى خالتي إليزابيث وألتمس منها أن تسامحني. أتوقّع أنّ هذا مُحال،بل ستكرهني إلى الأبد. ولكن يجب أن أذهب إليها».

لمّا استدارت إيميلي، انفتح الباب ودخلت الخالة إليزابيث. شقّت الغرفة لتجلس على جانب الفراش، وأطرقت نظرها نحو الوجه الصّغير الحزين على الوسادة. وفي عتمة الشّفق الممطر، رأت عليه آثار دموعٍ وهالتيْن سوداويْن، فبدا لها ضامرًا وأكبر سنًّا مما هو عليه.

لم تزل إليزابيث موراي على حالها، صارمة، باردة. ورغم ما يبدو في صوتها من شدّة، نطقت بشيء مذهل:

«إيميلي، لم يكن لي الحقّ في قراءة رسائلك، وأقرّ بأنّني أخطأت. هلّا سامحتني؟».

«آه!» خرج الصّوت من حلق إيميلي كالنّحيب. لقد وجدت الخالة إليزابيث سبيلًا للانتصار على إيميلي في نهاية المطاف. نهضت الفتاة وطوّقت خالتها بذراعيْها قائلة بصوتٍ مختنق:

«آه -خالتي إليزابيث -أنا آسفة -آسفة جدًّا -ما كان يجدر بي أن أكتب تلك الأشياء... ولكنّني كتبتها تحت وطأة الغضب، ولم أقصد *كلّ* ما فيها... أنا فعلًا لم أقصد أسوأها. أتصدّقينني يا خالتي إليزابيث؟».

«أريد أن أصدّق يا إيميلي». وسرت رعشة في الجسد الطّويل المتصلّب. «أنا... أنا لا أريد أن أفكّر في أنّك -تكرهينني-أنتِ، ابنة أختي... ابنة جوليات الصّغيرة».

فانتحبت إيميلي قائلة: «كلّا -لا أكرهك. وسوف *أحبّك* يا خالتي إليزابيث، لو سمحت لي... لو تريدينني أن أحبّك. ظننتك لا تبالين يا خالتي *العزيزة* إليزابيث».

عانقت إيميلي خالتَها عناقًا طويلًا وطبعت قبلة حارّة على وجنتها الشاحبة المجعّدة، فلثمتها الخالة إليزابيث على جبهتها باحتشام، ثمّ قالت وكأنّها تغلق الموضوع نهائيًّا:

«فلتغسلي وجهك وتنزلي لتناول العشاء».

ولكن هنالك مسألة مازال يتعيّن فضّها.

همست إيميلي: «خالتي إليزابيث، لا يمكنني أن أحرق تلك الرّسائل، فهي لأبي، كما تعلمين. ولكن سأخبرك بما سأفعل: سأتصفّحها كلّها وأضع نجمة أمام كلّ ما قلته بشأنه، ثمّ أضيف حاشية توضيحيّة لأشرح أنّني كنت مخطئة».

أمضت إيميلي أيّامًا عديدةً في وضع «حواشيها التّوضيحية»، فارتاح ضميرها أخيرًا. ولكن لمّا حاولت أن تكتب رسالة أخرى لأبيها، اكتشفت أنّ ذلك لم يعد يعني لها شيئًا، وكأنّ شعور الحقيقة، والقرب، والوصال، قد تلاشى فجأة. ولعلّها بدأت تتنصّل من الأمر تدريجيًّا منذ أخذت طفولتها تتحوّل إلى شباب، أو ربّما ساهم خصامها المرير مع الخالة إليزابيث في نفض الغبار عن شيء هجرته روحها سلفًا. ولكن أيًّا كان السّبب، لم يكن بوسعها كتابة المزيد من الرّسائل. واشتاقت إليها كثيرًا ولكن لا سبيل إلى الرّجوع إليها؛ وكأنّ بابًا من أبواب الحياة أُطبق خلفها ولن يُفتح مجدّدًا.

ما وراء السّتار

قد يكون لطيفًا أن نقول إنّ الصُّلح بين إيميلي والخالة إليزابيث في الشّرفة قد أسفر عن عيش هنيء في كنف المودّة والانسجام. ولكنّ الحقيقة هي أنّ مجرى الأمور لم يتغيّر. حاولت إيميلي، بلطف شديد، أن تقتدي بشيء من حكمة الأفعى ولين الحمامة -بنسب معقولة- ولكنّ آراءها كانت تختلف عن آراء خالتها لدرجة أنّهما ستتشابكان بالتّأكيد؛ ثمّ إنّهما لم تتحدّثا اللغة ذاتها، فلا مفرّ من سوء التّفاهم.

ورغم ذلك، طرأ تغيّر حيويّ. إذ تعلّمت إليزابيث موراي درسًا، ألا وهو أنّ قواعد العدل والظّلم لدى الأطفال لا تختلف عن تلك الّتي تُطبّق على الرّاشدين. وواصلت استبدادها الأبديّ، ولكنّها لم تعد تقول لإيميلي أو تفعل لها ما تتجنّب قوله أو فعله للورا.

أمّا إيميلي فقد اكتشفت أنّ خالتها إليزابيث، رغم صرامتها وبرودها، تكنّ لها محبّة صادقة. وقد أدخل ذلك في حياتها تغييرًا جذريًّا رائعًا، إذ خفّف من وطأة «أساليب» الخالة إليزابيث وكلماتها، وداوى الجرح الّذي ظلّ مفتوحًا في قلبها، دون أن تعي به تمامًا، منذ حادثة القرعة في مايوود.

«أظنّ أنّني لم أعد مجرّد مهمّة في نظر خالتي إليزابيث».

وفي ذاك الصّيف، نضجت إيميلي جسدًا وعقلًا وروحًا بسرعة فائقة. وعلى غرار وردة تتفتّح، كانت الحياة رائعة، تزداد ازدهارًا في كلّ دقيقة تمرّ. وكان خيالها مترعًا بالجمال في شتّى تجلّياته، فتنقله بقدر المستطاع على الورق، ولو أنّ نقلها لم يفِ برونق الواقع، ومرّت إيميلي بتلك اللّحظة الأليمة الّتي يكتشف فيها الفنّان الفذّ أنّ،

لوحاته، مهما كان فيها من جمال،

لن تضاهي ما يجود به الخيال.

وأحرقت الكثير من «كتاباتها القديمة»، حتّى *فتاة البحر* التهمتها ألسنة النّار. ولكن تعاظمت كومة نصوصها باطّراد في الخزانة فوق المدفأة. صارت إيميلي تحتفظ بنصوصها هناك بعد أن انتُهكت حرمة مقعد السّقيفة؛ فضلًا عن أنّها شعرت، بطريقة ما، أنّ خالتها إليزابيث لن تتدخّل مرّة أخرى في «أوراقها الخاصّة»، أينما وُضِعت. ولم تعد تلجأ إلى السّقيفة للكتابة أو القراءة أو التّأمل، فقد كانت شرفتها العزيزة أفضل ملاذ لذلك. وأحبّت مخدعها القديم الفريد ذاك حبًّا جمًّا؛ فكان بمثابة كائن حيّ بالنّسبة إليها، يشاركها أفراحها ويواسيها في أتراحها.

كبُرت إيلسي أيضًا، فتفتّحت براعم حسنها الغريب الأخّاذ، ولم يكن لها وازع لها سوى متعتها، ولا رادع لها سوى نزواتها، وقلقت الخالة لورا بشأنها أيّما قلق.

«ستصير امرأة عمّا قريب، من ذا الّذي سيرعاها آنذاك؟ لن يرعاها ألان».

انقبضت أسارير الخالة إليزابيث وقالت: «لا صبر لي مع ألان. إنّه لا يتورّع عن إسداء النّصح والعظة للآخرين، في حين يجدر به أن يهتمّ بما يحدث في بيته. يأتي هنا ويأمرني بأن أفعل هذا وذاك لإيميلي، أو ينهاني عنه، ولكن لو تفوّهت بكلمة واحدة في شأن إيلسي، يقوم العالم ولا يقعد. لا أدري كيف لرجل أن ينقلب على ابنته ويهملها كما يفعل هو، لمجرّد أنّ والدتها لم تكن كما توقّعها، وكأنّ الطّفلة لها ذنب فيما *حدث*».

همست الخالة لورا: «ش-ش-ششش» لمّا مرّت إيميلي من غرفة الجلوس لتصعد إلى غرفتها.

ابتسمت إيميلي لنفسها في أسى، لا فائدة من الوشوشة يا خالة لورا، فلم يخف عن إيميلي شيء بخصوص والدة إيلسي، ولا شيء، باستثناء أهمّ الأشياء على الإطلاق، وهو ما لا تعلمه الخالة لورا ولا غيرها. إذ لم تتخلّ إيميلي عن قناعتها الرّاسخة بأنّ الحقيقة الكاملة لقصّة بياتريس برنلي لم تزل مجهولة. وكثيرًا ما كانت تفكّر فيها بقلق عندما تتكوّر ليلًا في فراشها الجوزيّ لتصغي إلى نواح الخليج وأنغام سيّدة الرّياح بين الأشجار، ثمّ تغرق في سبات عميق وهي تفكّر في كيفيّة حلّ اللّغز الغامض القديم وتبديد ما انجرّ عنه من خزيٍ وألم.

صعدت إيميلي إلى الشّرفة تجرّ خطاها جرًّا، كانت تنوي كتابة المزيد من قصّتها *شبح البئر* الّتي نسجت فيها على منوال خرافة

البئر في حقل لِي؛ ولكنّها لم تجد في نفسها ما يكفي من الحماس، فأعادت المخطوطة إلى خزانة المدفأة، ثمّ راحت تعيد قراءة رسالة وصلتها من دينْ بريست ذاك اليوم، إحدى رسائله الطّويلة البهيجة الظّريفة. وأعلمها فيها بمجيئه إلى معبد المياه ليمكث لدى أخته شهرًا فتساءلت إيميلي لمَ لم يُسعدها ذاك الخبر أكثر؟ كانت متعبةً ولديها صداع، ولم تذكر إصابتها بالصّداع من ذي قبلُ. وبما أنّها لم تقدر على الكتابة، استلقت على سريرها لتمثّل دور *السّيدة تريفانيون* لوهلة من الزّمن. كانت إيميلي قد تقمّصت دور *السّيدة تريفانيون* مرّات عديدة في إحدى الحيوات الخياليّة الّتي صارت تنسجها في خيالها. و*السّيدة تريفانيون* زوجة إيرل إنجليزي، وهي روائيّة مشهورة، فضلًا عن كونها عضو في مجلس عموم المملكة المتّحدة، حيث تحلّ بلباس من المخمل الأسود وعلى شعرها الفاحم تويج فخمٌ من اللّؤلؤ. كانت المرأة الوحيدة في المجلس، إذ حدثت القصّة قبل حصول المرأة على حقّ التّصويت، فكانت *السّيدة تريفانيون* عرضةً للسّخرية والهمز واللّمز والشّتم من قبل الرّجال الأفظاظ المحيطين بها. وكان أحبّ مشهد خياليّ لدى إيميلي هو ذاك الّذي تقف فيه *السّيدة تريفانيون* لتلقي خطابها الأوّل، وهي لحظةٌ شيّقة حقًّا. لاقت إيميلي صعوبة في أداء خطاب يليق بالمشهد اعتمادًا على أفكارها فحسبُ، فكانت تلجأ إلى «ردّ بيت على وابول»، وقد قرأته في كتابها *القارئ الملكيّ*؛ فتلقي الخطاب مع تكييفه بحسب ما يقتضي سياق قصّتها. كان أحد المتكلّمين قد دفع *بالسّيدة تريفانيون*

إلى الحديث عندما عايرها بأنّها امرأة، فوقفت السّيدة الرّائعة في مخملها ولآلئها في موقف ألجم الأفواه وأطبق السكون، وقالت:

«اتّهمني السّيد العضو المحترم، في منتهى الفطنة واللّباقة، بجريمة جسيمة تتمثّل في كوني امرأةً، ولن أحاول تخفيف هذه الجريمة ولا إنكارها، ولكنّني سأكتفي بأملٍ أن أكون من أولئك اللّواتي تقتصر حماقتهنّ على جنسهنّ، بدلًا من أن أمسي من أولئك الّذين يغرقون في الجهل رغم *الرّجولة* والتّجارب».

(وقاطعتها موجة عارمة من التّصفيق).

ولكن بدا المشهد وكأنّه لا طعم له ولا مذاق في ذاك اليوم، وما بلغت إيميلي «ولكنّ الأنوثة، يا سيّدي، ليست بجريمتي الوحيدة» إلّا وغلبها الضجر؛ فعاودتها الهواجس بشأن والدة إيلسي، وقد انضافت إليها بعض الأفكار المزعجة بخصوص نهاية قصّتها عن شبح البئر، فضلًا عمّا انتابها من أوجاع جسدية.

فقد آلمتها عيناها كلّما حرّكتهما، وشعرت بالبرد رغم أنّه كان يومًا قائظًا من شهر تمّوز. ولم تزل مستلقية هناك لّما دخلت عليها الخالة إليزابيث لتسألها لمَ لم تُرجع البقرات من المرعى.

فقالت إيميلي بصوت مضطرب: «لم، لم أدرك أنّ الوقت صار متأخّرًا. أنا... لديّ صداع، خالتي إليزابيث».

رفعت الخالة إليزابيث الستار الأبيض القطني، وحدّقت في إيميلي فلمحت في وجهها احتقانًا، وجسّت نبضها، ثمّ سألتها أن تبقى في مكانها، وأرسلت بيري لطلب الدّكتور برنلي.

قال الدّكتور: «من الأرجح أنّها حصبة». كان يتحدّث بخشونته المعتادة، إذ لم يبلغ المرض بإيميلي أشدّه لكي يلاطفها. وواصل قائلًا: «تفشّى المرض في غدير ديري. ربّما أصابتها العدوى من هناك؟».

«جاء ابنا جيمي جو بال منذ عشرة أيّام تقريبًا وأمضوا العشية هنا، ولعبت إيميلي معهما. إنّها دومًا تلعب مع أشخاص لا يليق بها أن تخالطهم. ولكنّني لم أعلم بأنّهما مريضان أو أُصيبا بمرض».

ولّما سُؤل جيمي جو بال صريح السّؤال، أقرّ بأنّ «أصغر أبنائه» أصيبا بالحصبة في اليوم ذاته الّذي زارا فيه القمر الجديد، ومن ثمّ تبدّد الشكّ في شأن مرض إيميلي.

قال الدّكتور: «يبدو أنّها من أنواع الحصبة الخبيثة. مات بسببها عددٌ من أطفال غدير ديري. ولكن معظمهم فرنسيّون، فأطفالهم يرتعون خارج الفراش في وقت النّوم إلى أن يصيبهم الزّكام. أظنّ أنّ لا شيء يدعو للقلق في ما يخصّ إيميلي. فلتبقَ دافئة في غرفة عاتمة، وسأمرّ صباح غدٍ للاطمئنان عليها».

مرّت ثلاثة أيّام أو أربعة دون أي قلق يُذكر، فالحصبة مرض يُصاب به الجميع حتمًا. وسهرت الخالة إليزابيث على رعاية إيميلي ونامت على أريكة نُقلت إلى الشّرفة خصّيصًا، بل حتّى النّافذة تُركت مفتوحةً ليلًا. ورغم ذلك، أو بسببه، برأي الخالة إليزابيث، استفحل المرض بإيميلي، وفي اليوم الخامس، تطوّر وضعها تطوّرًا مفاجئًا إلى الأسوأ. فسرعان ما ارتفعت حرارتها ارتفاعًا حادًّا، وانتابها الهذيان. وجاء الدّكتور برنلي ففحصها في قلق، وقطّب

جبينه، ثمّ غيّر لها الدّواء وقال: «طُلبتُ إلى عيادة حالة خطيرة من الالتهاب الرّئوي في كنيسة الصّليب الأبيض، وعليّ أن أذهب صباح الغد إلى شارلوتتاون لحضور عمليّة السّيدة جاكوال، فقد وعدتها بأن أرافقها. سأعود مساء الغد، إيميلي مضطربة جدًّا، ومن الواضح أنّ جهازها العصبيّ المتشنّج تأثّر كثيرًا بالحمّى. ما الّذي تقوله من هراء عن سيّدة الرّياح؟».

فقالت الخالة إليزابيث في قلق: «أوه، لا أدري يا دكتور. أسمع منها الكثير من الهراء حتّى وهي في صحّة جيّدة. ألان، أخبرني بصراحة، هل ثمّة خطر عليها؟».

«الخطر وارد دائمًا في هذا النّوع من الحصبة. ولست مطمئنًّا لهذه الأعراض، كان ينبغي أن يبرز الطّفح الجلدي الآن، ولا أرى له أثرًا. وحرارتها مرتفعة جدًّا، ولكن أظنّ أنّه لا داعي للفزع. ولو كنت أظنّ خلاف ذلك لما ذهبت إلى المدينة. حاولي أن تبقيها هادئة بقدر المستطاع، وسايريها في نزواتها لو أمكن ذلك. لم يرق لي اضطرابها العقلي، وبدت لي مهمومة جدًّا، وكأنّ شيئًا ما يقضّ مضجعها. هل شغلها أمرٌ ما مؤخّرًا؟».

فقالت الخالة إليزابيث: «لا... ليس على حدّ علمي»، وأدركت آنذاك بمرارة أنّها لا تعلم الكثير عمّا يجول بخاطر تلك الفتاة. من المُحال أن تفاتحها إيميلي بشأن مخاوفها وأشجانها الصّغيرة.

وبرفق شديد، سألها الدكتور برنلي: «إيميلي، ما الّذي يقلقك؟» وأخذ اليد الحامية المتقلّبة بلطف ورقّة في راحة يده الكبيرة.

نظرت إليه إيميلي بعينيْن مسعورتيْن لاح فيهما بريق المرض والبُطاح.

«ما كانت لتفعل ذلك... *ما كانت* لتفعل ذلك».

فقال الدّكتور بصوت بشوش: «طبعًا ما كان لها أن تفعل. لا تقلقي، إنّها لم تفعل ذلك».

انتقلت عيناه إلى الخالة إليزابيث: «ماذا تقصد؟» ولكنّها هزّت رأسها نفيًا.

وسألت إيميلي: «ما الّذي تتحدّثين عنه يا عزيزتي؟» كانت تلك المرّة الأولى الّتي تنادي فيها إيميلي بـ«عزيزتي».

ولكن انتقلت إيميلي إلى حكاية أخرى. وراحت تقول إنّ البئر مازال مفتوحًا في حقل السّيد لي، ولا ريب في أنّ أحدًا ما سيقع فيه. لمَ لم يسدّه السّيد لي؟ وكانت الخالة إليزابيث تحاول طمأنة إيميلي في هذا الصّدد، فتركها الدّكتور برنلي وسارع بالذّهاب إلى كنيسة الصّليب الأبيض.

كاد يتعثّر في الباب بسبب بيري الّذي كان رابضًا على العتبة الحجريّة، يضمّ رجليه السمراويْن في يأس. وأمسك بطرف معطف الدّكتور برنلي فسأله: «كيف حال إيميلي؟».

أجاب الدّكتور متبرّمًا: «لا تزعجني، أنا في عجلةٍ من أمري».

فأصرّ بيري: «أخبرني كيف حال إيميلي وإلّا سأتشبّث بمعطفك إلى أن تنفتق غُرَزه. لم أظفر بكلمة واحدة من تيْنك العانستيْن. *أخبرني*».

«إنّها مريضة ولكنّني لا أشعر بقلق شديد حيالها بعدُ». جذب الدّكتور معطفه مرّة أخرى، ولكن تمسّك به بيري من أجل كلمة أخيرة. وقال:

«يجب أن تداويها. لو حدث مكروه لإيميلي فسأُغرِق نفسي في الغدير، لا تنس ذلك».

أطلق سراح المعطف فجأة حتّى كاد الدّكتور برنلي يقع مباشرة على الأرض. وتكوّر بيري مرّة أخرى على عتبة الباب، فمكث هناك إلى أن انصرف كلّ من الخالة لورا وابن العمّ جيمي إلى غرفته، ثمّ تسلّل إلى المنزل وجلس على درجات السّلم متنصّتا إلى أدنى صوتٍ يصدر من غرفة إيميلي. وظلّ هناك طيلة اللّيل مطبقًا قبضتيْه وكأنّما يحرس المكان ضدّ عدوّ مستتر.

قالت الخالة إليزابيث: «لقد كثُر هذيانها. ليتني أعلم ما يقلقها، ثمّة شيءٌ مّا، أنا متأكّدة. ليس كلّ ذلك من محض البُطاح. إنّها تردّد «ما كانت لتفعل ذلك» بصوتٍ يكاد يكون نواحًا. يا ترى... آه يا لورا، أتتذّكرين لمّا قرأت رسائلها؟ هل تظنّين أنّها تتحدّث عنّي؟».

هزّت لورا رأسها نفيًا. لم يسبق لها أن رأت إليزابيث مضطربة إلى ذاك الحدّ.

قالت الخالة إليزابيث: «إن لم... تتماثل الطّفلة... للشّفاء..».

ولم تتفوّه بالمزيد، بل غادرت الغرفة بسرعة.

جلست لورا على حافة السّرير. كانت شاحبة، وأخذت منها

مخاوفها ومتاعبها مأخذًا، ولم يغمض لها جفنٌ. كانت تحبّ إيميلي حبّها لصغير من رحمها، ولم ينزح الهلع عن قلبها ولو للحظة. فجلست هناك تصلّي في صمت. وغرقت إيميلي في نومٍ مضطرب حتّى انفلق في الأفق فجر رماديّ وتسلّل ضياؤه من الشّرفة. فتحت عينيها آنذاك ونظرت إلى الخالة لورا، بل نظرت من خلالها، بل إلى ما وراءها.

وقالت في صوتٍ عالٍ جليّ: «أراها تشقّ الحقول آتية. إنّها تأتي بسرور، تغنّي وتفكّر في رضيعتها، أوه، أرجعوها، أرجعوها إلى الوراء، إنّها لا ترى البئرـ لقد عمّ الظّلام فلم تره، أوه، ها هي تهوي فيه، لقد وقعت فيه!».

وعلا صوت إيميلي حتّى صار صراخًا مدوّيًا ترامى إلى غرفة الخالة إليزابيث، فجاءت في لمح البصر متلفّعة في ثوب نومٍ من الفَانلّة.

وهتفت: «ما خطبها يا لورا؟».

كانت لورا تحاول أن تهدّئ من روع إيميلي وهي تهتّز لتستوي جلوسًا على فراشها. كانت وجنتاها محتقنتيْن، وفي عينيْها النّظرة الشّاردة المسعورة ذاتها.

«إيميلي، عزيزتي إيميلي، لم يكن إلّا مجرّد كابوس. بئر السّيد لي ليس مفتوحًا، ولم يسقط فيه أحد».

قالت إيميلي بصوتٍ أجشّ: «بلى، هي سقطت. لقد رأيتها، رأيتها، ورأيت آس القلوب على جبهتها. أتظنّان أنّني لا أعرفها؟».

وانبطحت على وسادتها تئنّ وتبعد عنها يد خالتها لورا الّتي تراخت من وقع الصّدمة.

تبادلت سيّدتا القمر الجديد النظرات من جهتيْ الفراش في ذهول... وشيء من الهلع.

وسألت الخالة إليزابيث: «من ذا الّذي ترين، يا إيميلي؟».

«والدة إيلسي، طبعًا. لطالما أيقنتُ أنّها لم تقدم على ذاك الفعل الشنيع. لقد سقطت في البئر القديم، وهي هناك الآن، اذهبي، اذهبي إليها الآن وأخرجيها يا خالتي لورا. *أرجوك*».

فقالت الخالة لورا برقّة: «أجل، أجل، طبعًا سأذهب لإخراجها يا حبيبتي».

جلست إيميلي على فراشها وحدّقت في خالتها لورا مرّةً أخرى. ولكن لم تنظر من خلالها هذه المرّة، بل في أعماقها. وشعرت لورا موراي بلسعة تلك النّظرة وهي تفكّ طلاسم روحها.

صاحت إيميلي: «أنت تكذبين عليّ. ولا تنوين الذّهاب لنجدتها. تقولين ذلك لتتخلّصي منّي فحسب». ثمّ التفتت فجأة إلى الخالة إليزابيث وأمسكت بيدها قائلة: «خالتي إليزابيث، ألن تفعلي ذلك من أجلي؟ ستذهبين لإخراجها من البئر القديم، أليس كذلك؟».

تذكّرت الخالة إليزابيث ما قاله الدّكتور برنلي عن ضرورة مسايرة إيميلي في نزواتها. كانت جذور قلبها ترتعد لما تراه في حالة الطّفلة.

وقالت: «أجل، سأخرجها حتمًا إن كانت هناك».

فأطلقت إيميلي يدها وتراخت. خبا في عينيْها البريق المحموم، ولاح فجأةً على وجهها الصّغير المغموم هدوءٌ عميق.

وقالت: «أعلم أنّك ستفين بوعدك، خالتي إليزابيث أنتِ صارمة جدًّا، ولكنّك لا تكذبين أبدًا يا خالتي».

وعادت الخالة إليزابيث إلى غرفتها، وارتدت ثيابها بيديْن مرتجفتيْن. ولمّا غرقت إيميلي في سبات عميق لاحقًا، نزلت لورا فوجدت إليزابيث تملي بعض الأوامر على ابن العمّ جيمي.

«إليزابيث، أنت لا تنوين حقًّا تفتيش البئر القديم، أليس كذلك؟».

فردّت إليزابيث بحزم: «بلى. أعلم مثلك تمامًا أنّ الأمر لا طائل منه، ولكن توجّب عليّ أن أعدها لتهدأ، وسأفي بوعدي. سمعت ما قالته، إنّها متأكّدة من أنّني لن أخادعها. ولن أفعل. جيمي، ستذهب إلى جايمس لي بعد الفطور وتطلب منه أن يأتينا إلى هنا».

قالت لورا: «كيف علمت بالقصّة؟».

«لا أدري... أخبرها أحدٌ ما. لعلّها تلك العجوز الشّمطاء نانسي بريست. لا يهمّنا فيمن أخبرها؛ فهي على علمٍ بالأمر وعلينا أن نهدّئ من روعها. وليس من الصّعب أن نسدل في البئر سلّمًا وينزل إليه شخص ما، ولكن ما يهمّنا هو سخافة الأمر في حدّ ذاته».

التهب في نفس لورا كبرياء موراي فاحتجّت قائلةً: «سنصبح

أضحوكةً لدى القاصي والدّاني. ثمّ إنّ ذلك سيثير فضيحتنا القديمة مرّة أخرى».

فردّت إليزابيث بعنادٍ: «لا يهمّ، سأوفي بوعدي للطّفلة».

وعند المغرب، مرّ ألان برنلي بالقمر الجديد وهو في طريق العودة من المدينة. كان متعبًا من العمل ليلًا نهارًا طيلة أسبوع أو أكثر؛ وقلقًا بشأن إيميلي أكثر ممّا يقرّ به. ودخل مطبخ القمر الجديد بوجه متغضّن يعلوه شيء من الأسى.

لم يكن هنالك إلّا ابن العمّ جيمي، وكان يبدو بلا مشاغل رغم أنّه يوم جيّد لجمع التّبن، وكان جيمي جو بال قد انغمس في الأكوام المجفّفة العابقة مع بيري. أمّا ابن العمّ جيمي، فقد جلس حذو النّافذة الغربيّة بوجه غريب السّنحة.

«مرحبًا جيمي، أين لورا وإليزابيث؟ وكيف حال إيميلي؟».

قال ابن العمّ جيمي: «تحسّنت إيميلي. ظهر الطّفح الجلدي وتراجعت حرارتها. أظنّ أنّها نائمة».

«جيّد. لا يمكننا أن نفرّط في تلك الفتاة الصّغيرة، أليس كذلك يا جيمي؟».

«أجل». ولكن بدا جيمي غير راغب في التّطرق إلى الموضوع، وقال: «لورا وإليزابيث في غرفة الجلوس، وتودّان الحديث إليك». ثمّ أضاف بنبرة غريبة: «كلّ مخفيّ وإن طال غيابه سينكشف يومًا ما».

وبدا سلوك جيمي غامضًا في نظر ألان برنلي؛ ولو أرادت لورا وإليزابيث الحديث معه، فلمَ لم تخرجا إليه؟ لم تتعوّدا على مثل هذه الرّسميّات، وفتح باب غرفة الجلوس باستياء.

كانت لورا موراي تجلس على الأريكة مسندة رأسها إلى ذراعها، ولم يستطع رؤية وجهها ولكنّه أدرك أنّها تبكي؛ بينما كانت إليزابيث تجلس باستقامةٍ على كرسي، وقد ارتدت ثاني أجمل ثوب حريري أسود لها، مع ثاني أجمل قبعة دانتيل. ومن الواضح أنّها كانت تبكي، هي الأخرى. لم يكن الدّكتور برنلي يعير دموع لورا اهتمامًا، فهي سهلة الانهمار كدموع سائر النّساء. أمّا بكاء إليزابيث موراي... وهل رآها تبكي من ذي قبل؟

وخطرت في باله إيلسي، ابنته الصّغيرة المُهملة. هل حدث شيءٌ ما لإيلسي؟ وفي لحظةٍ واحدةٍ مريرة، دفع ألان برنلي ثمن سوء معاملته لابنته.

وهتف بأغلظ ما يكون: «ما الأمر؟».

قالت إليزابيث موراي: «آه يا ألان، سامحنا الله... سامحنا الله جميعًا!».

فهمس الدّكتور برنلي بصوتٍ متقطّع: «هل... هي... إيلسي؟».

«لا، لا، ليست إيلسي».

ثمّ أخبرته، أخبرته بما وُجد في قاع بئر لي القديم، وأخبرته بالمصير الحقيقيّ الّذي آلت إليه زوجته اللّطيفة الضّاحكة الّتي

لم يسر اسمها على شفتيه منذ اثنتي عشرة سنةً مريرةً. لم ترَ إيميلي الدّكتور إلّا في مساء اليوم الموالي. كانت مستلقية على الفراش، منهكة، مترهّلة الجسم، وقد استحالت بشرتها قرمزيّة من الحصبة، ولكنّها عادت إلى حالتها الطّبيعيّة.

«إيميلي، صغيرتي العزيزة، هل تعلمين ما فعلته لي؟ والله أعلم كيف فعلتِ».

فتساءلت إيميلي بحيرة: «ظننت أنّك لا تؤمن بالله».

«أنتِ الّتي أعدتِ إليّ إيماني به يا إيميلي».

«ربّاه، ماذا فعلت؟».

أدرك الدّكتور برنلي أنّها لا تتذكّر شيئًا من هذيانها. فأخبرته لورا بأنّها غطّت في سبات عميق طويل بعد وعد إليزابيث؛ ولمّا استفاقت، كانت حرارتها قد اعتدلت وسرعان ما ظهر الطّفح على جلدها. ولم تسأل شيئًا فلم يخبروها بشيء.

فقال لها: «سأخبرك بكلّ شيء حالما تتماثلين للشّفاء»، وابتسم لها ابتسامة عذبة، يشوبها شيءٌ من الحزن.

وفكّرت إيميلي: «إنّه يبتسم بعينيه مثلما بفمه».

ولمّا نزل الدّكتور، همست إليه لورا موراي: «كيف... كيف علمت بالأمر؟ لم... لم أفهم يا ألان».

فردّ بنبرةٍ جدّية: «ولا أنا. إنّها أشياء تفوق حدود إدراكنا يا لورا. كلّ ما أعلمه هو أنّ تلك الطّفلة أعادت إليّ بياتريس، نقيّة

ومحبوبة. ربّما يمكن أن نجد لذلك تفسيرًا منطقيًّا إلى حدّ مّا. من الواضح أنّ هنالك من أخبر إيميلي بقصّة بياتريس فأقلقها الأمر، وهذا ما يبيّنه ترديدها «ما كانت لتفعل ذلك». ثمّ إنّه من الطّبيعيّ أن تؤثّر الحكايات المتناقلة عن بئر لي القديم تأثيرًا عميقًا في ذهن صغيرة مرهفة الإحساس إزّاء كلّ ما فيه إثارة وغموض. وفي نوبة هذيانها، خلطت كلّ تلك العناصر مع عثرة جيمي الشهيرة في بئر القمر الجديد، وما الباقي إلّا من محض الصُّدَف. وكان بوسعي أن أشرح الأمر بنفسي سابقًا،أمّا الآن يا لورا فسأكتفي بالقول بتواضعٍ، «ويَسُوقها جميعًا صبيٌّ صغير»[1].

وقالت إليزابيث: «كانت زوجة والدنا أصيلة مرتفعات اسكتلندا. ويُقال إنّ لديها ملَكَة التّنبّؤ بالغيب. لم أكن أصدّق الأمر، سابقًا».

فتر الحماس في معبد المياه قبل أن تستردّ إيميلي عافيةً تسمح لها بالاستماع إلى الحكاية. ودُفن ما عُثر عليه في بئر لي القديم في مقبرة آل ميتشل بمطمر الفأر، ووُضعت على قبرها شاهدة من الرّخام كُتب عليها «إلى روح بياتريس برنلي، زوجة ألان برنلي المحبوبة». وسرعان ما انتهت الضّجّة الّتي أحدثها حضور الدّكتور برنلي في الكنيسة كلّ يوم أحدٍ. وفي المساء الأوّل الّذي سُمح في لإيميلي بأن تستوي جلوسًا، أخبرتها خالتها لورا بالقصّة كاملةً. ومحا أسلوبها في الحديث ما خلّفته العمّة نانسي من وصمٍ وإيحاءاتٍ شائنة.

---

(1) سفر إشعياء 11:6.

قالت إيميلي بنبرة الانتصار: «كنت *أعلم* أنّ والدة إيلسي ما كانت لتفعل ذلك».

فقالت الخالة لورا: «لقد لمنا أنفسنا لضعف إيماننا. كان يجدر بنا أن نتفطّن للأمر أيضًا، ولكنّ المؤشّرات *لم تكن* في صالحها آنذاك يا إيميلي. فقد كانت امرأة مشرقة، جميلة، لا تبرح البسمة محيّاها. وظننّا صداقتَها الحميمة مع ابن عمّها عاديّةً وبريئة، وها نحن نعلم الآن أنّها كذلك حقًّا. ولكن بدا الأمر مختلفًا طيلة سنوات اختفائها. وتبيّن أنّ السّيد جايمس لي يتذكّر جيّدًا أنّ البئر كان مفتوحًا ليلة اختفاء بياتريس. كان خادمه قد نزع الألواح المتعفّنة منه ذاك المساء بنيّة أن يعوّضها بأخرى جديدة مباشرةً. ولكن نشب حريق في منزل روبرت غريرسن في اللّيلة ذاتها، وهرع إليه الخادم مع الآخرين ليساعد على إطفائه. وعندما خمدت النّيران، كان الظّلام دامسًا لا يسمح بإنهاء سدّ فوهة البئر، ولم يقل الخادم شيئًا بشأنه حتّى صباح اليوم الموالي. ووبّخه السّيد لي، قائلًا إنّه لا يُعقل أن يُترك البئر عاريًا بتلك الطّريقة. ثمّ سارع إليه ليثبّت الألواح الجديدة بنفسه. ولم ينظر إلى القاع، وحتّى لو نظر فما كان ليرى شيئًا لأنّ السّراخس اجتاحت جوانب البئر وحجبت الرّؤية عن قاعه. حدث الأمر مباشرةً بعد الحصاد، فلم يطأ أحد الحقل مجدّدًا قبل الرّبيع الموالي، ولم يربط السّيد لي اختفاء بياتريس بالبئر المكشوف، وتساءل الآن لمَ لم يفعل؟ ولكن، أترين يا حبيبتي، دارت الكثير من الأقاويل الخبيثة بشأن بياتريس، وذاع خبر صعودها على متن *مولاة الأرياح*، فأضحى

رحيلها أمرًا مسلّمًا به. ولكنّها نزلت، وساقتها قدماها إلى موتها المحتوم في حقل السّيد لي. يا لها من نهاية مأساويّة لشبابها وحياتها البهيجة، ولكنّها، في نهاية الأمر، ليست بالمأساويّة الّتي ظننّاها. ظلمنا امرأة في دار الحقّ طيلة اثنتي عشرة سنة. ولكن... كيف تفطّنت إلى الأمر يا إيميلي؟».

«لا... أدري. لمّا جاءني الدّكتور منذ أيّام، لم أتذكّر شيئًا، ولكن يبدو لي الآن أنّني تذكّرت شيئًا ما، وكأنّني حلمت بأنّي أرى والدة إيلسي تأتي عبر الحقول وتغنّي. وكان الظّلام مخيّمًا، ولكنّني استطعت رؤية آس القلوب ... آه يا خالتي، لا أدري... ويبدو لي أنّني لا أريد أن أفكّر في الأمر».

فقالت الخالة لورا برفق: «إذن لن نتحدّث في الموضوع مجدّدًا. إنّها من تلك الأشياء الّتي يجدر بها أن تُكتم... من أسرار الرّب سبحانه».

سألتها إيميلي بلهفة: «وماذا عن إيلسي؟ هل صار والدها يحبّها الآن؟».

«يحبّها! يكاد العالم لا يتّسع لحبّه، وبدا كأنّه يودّ أن يغدق عليها ما راكمه من حبّ مكتوم طيلة اثني عشر عامًا».

دخلت آنذاك الخالة إليزابيث بعشاء إيميلي، فسمعت جواب لَورا وقالت: «من الأرجح أن يفرط الآن في دلالها مثلما أفرط في إهمالها من ذي قبل».

ضحكت لورا قائلةً: «سيتطلّب الأمر كمًّا هائلًا من الحبّ،

وإيلسي تنهله كالعطشان بعد طول ظمأ، وتقابله بالحبّ ذاته، فهي لم تضمر له في قلبها أدنى ضغينة على إهماله المطوّل لها».

نضّدت الخالة إليزابيث الوسادة خلف إيميلي بمنتهى اللّطف، وقالت متجهّمة: «لن يغيّر ذلك شيئًا، ولن يسهل عليه رعايتها بعدما تركتها ترتع كما يحلو لها اثنتي عشر عامًا. سيصعب عليه تسوية سلوكها الآن، هذا لو فكّر في ذلك أصلًا».

قالت الخالة لورا بصوتٍ ناعم: «الحبّ حريّ بصنع المعجزات. بطبيعة الحال، إيلسي تتحرّق شوقًا لرؤيتك يا إيميلي. ولكن عليها الانتظار إلى أن يمرّ خطر العدوى. قلت لها إنّه بإمكانها مراسلتك، ولكنّها رفضت لمّا أخبرتها بأنّني سأقرؤها لك لأنّ نظركِ مُتعب، وقالت إنّها ستنتظر حتّى تتمكّني من قراءتها بنفسك». وضحكت لورا مرّة أخرى ثمّ قالت: «يبدو أنّ لها أسرارًا خطيرة ستبوح بها إليك».

قالت إيميلي: «لم أكن اعلم أنّه بإمكان المرء أن يفرح بقدر ما أنا فرحة الآن. آه يا خالتي إليزابيث، ما أحلى أن أشعر بالجوع مجدّدًا وأن أستمتع بمضغ شيء ما».

مجد إيميلي المُنتظَر

تماثلت إيميلي للشّفاء ببطء. وتعافى جسدها بنسقٍ طبيعي، ولكن لازمها شيء من الإنهاك الفكري والعاطفيّ فترةً ما، فمن المُحال أن يغوص المرء في أعماق المجهول دون أن يدفع الثّمن. وقالت الخالة إليزابيث إنّها «مكتئبة». ولكن كانت إيميلي سعيدة وراضية بعيشها أكثر ممّا يجعلها «مكتئبة». كلّ ما في الأمر هو أنّها فقدت طعم الحياة لمدّة مّا، وكأنّها استنزفت سيلًا من طاقتها الحيوية واسترجعته ببطء شديد. ولم يكن معها آنذاك أحدٌ لتلعب معه، إذ أُصيب كلٌّ من بيري وإيلسي وتيدي بالحصبة في اليوم ذاته. أصرّت السّيدة كينت بمرارة على أنّ العدوى انتقلت إلى تيدي من القمر الجديد، ولكنّ الإصابة حدثت في نزهة يوم الأحد، حيث التقى تلاميذ مدرسة معبد المياه بأطفال غدير ديري، وانتشرت الحصبة بينهم انتشار النّار في الهشيم. ولم تكن الأعراض لدى إيلسي وتيدي عنيفة؛ أمّا بيري، وقد أصرّ على العودة إلى عمّته توم حالما ظهرت لديه أولى بوادر المرض، فقد كاد يقضي نحبه. ولم يُسمَح لإيميلي بمعرفة الخطر الّذي داهمه إلّا بعد مروره، خشية أن تفرط من القلق بشأن صديقها. وعجبت لمدى اشتياق كلّ من في المنزل إلى بيري.

ولحسن حظّ إيميلي، كان دينْ بريست موجودًا بمعبد المياه في تلك الفترة الكَدِرة، فكان لها نعمَ الرّفيق في طريقها إلى الشّفاء التّام. أخذها في نزهات رائعة في ربوع معبد المياه برفقة تويدْ ونباحه الظّريف، فاستكشفا أماكن ودروبًا لم ترها إيميلي من ذي قبلُ. تأمّلا قمرًا جديدًا يكتمل ليلةً بعد ليلة فيستحيل بدرًا؛ وتجاذبا أطراف الحديث تحت ستائر الغسق القاتمة العطرة تتدلّى فوق دروب غامضة حمراء؛ وانساقا إلى إغراء رياح التّلال؛ وشاهدا النّجوم تتعالى في السّماء فحدّثها عنها دينْ، وأخبرها عن كوكبات الأساطير القديمة. كان شهرًا رائعًا؛ ولكن منذ اليوم الأوّل من نقاهة تيدي، سارعت إيميلي إلى رقعة الطّانسة لقضاء العشيّة، تاركة خرعان بريست يتنزّه -لو تنزّه أصلًا- لوحده.

عاملته الخالة إليزابيث بأدب شديد، ولو أنّ آل بريست من غدير الكاهن لا يروقون لها كثيرًا، ولم تطمئنّ تمامًا لبريق الاستخفاف الّذي يلوح في عيني «خرعان» الخضراويْن، ولا لشبح الازدراء في ابتسامته الّتي تبدو وكأنّها تستنقص من قيمة تقاليد آل موراي وكبريائهم.

أخبرت لورا: «أشتمّ منه رائحة بريست، ولو أنّها لا تعبق منه مثلما تعبق من معظمهم. ولا ريْبَ في أنّه يساعد إيميلي، فقد اسَتردّت حيويّتها منذ مجيئه».

واسترجعت إيميلي «حيويّتها» باطّراد. وبحلول شهر أيلول، كان وباء الحصبة قد انجلى، وسافر دينْ بريست في إحدى رحلاته

الفجئية لقضاء الخريف في أوروبا، وكانت إيميلي على أتمّ الاستعداد لاستئناف الدّروس، فقد ازداد طولها وانحسرت طفولتها، وغدت عيناها الرّماديّتان مظلّلتيْن كمن حدّق في وجه الموت وسبر أغوار لغز مطمور، فلم تبرح ذهنها ذكرى غابرةٌ عمّا رأت من أهوال ذاك العالم وراء السّتار. ولم يخفَ الأمر عن دينْ بريست، ولا عن السّيد كاربنتر لمّا ابتسمت له من وراء مقعدها الدّراسي.

وهمهم قائلًا: «لقد هجرت روحُها طفولةً لم تبرح جسدَها بعدُ».

وفي تشرين الأوّل، ذات يوم يغشاه سديمٌ من ذهب، جاءها السّيد كاربنتر وسألها بفظاظة أن تُطلعه على بعض أشعارها.

وقال: «لم أنوِ يومًا تشجيعك على نظم الشّعر، ولا أنوي ذلك الآن. ومن الأرجح أن أكتشف أنّك لا تجيدين كتابة بيتٍ واحد من الشّعر ولا أملَ لك في ذلك. ولكن أريني ما كتبتِ. لو كان سيّئًا إلى حدٍّ ميؤوس منه فسأخبرك. لن أسمح لك بإهدار سنواتٍ من حياتك في السّعي إلى ما لا طائل منه، أو بالأحرى سأؤدّي واجبي لأخلّص ضميري من عبء المسؤوليّة لو فعلتِ. ولو وجدت فيها بوادر واعدة فسأخبرك بها أيضًا. واجلبي بعض قصصك أيضًا، من *المؤكّد* أنّها رديئة، ولكن أودّ أن أبحث فيها عمّا يستحقّ المواصلة».

أمضت إيميلي مساءها في الكدّ والجدّ، تقيّم وتنتقي وتقصي. وأضافت إلى حزمة قصائدها الصّغيرة كرّاسًا من كراريس جيمي ظنّت أنّه يأوي أفضل قصصها. وذهبت إلى المدرسة في اليوم الموالي

تتكتّم في غموضٍ أغضبَ إيلسي، فبدأت تنعتها بشتّى الألقاب، ثمّ توقّفت. كانت قد وعدت والدها بأن تحاول الإقلاع عن عادة الشّتم. وأحرزت تقدّمًا ملحوظًا، فغدا حديثها أقرب إلى معايير القمر الجديد، ولو أنّه فقد شيئًا من حماسه.

وفي ذاك اليوم، قصّرت إيميلي في أداء واجباتها أثناء الدّروس لشدّة ارتباكها وخوفها، إذ كانت تقدّر رأي السّيد كاربنتر تقديرًا عظيمًا. حثّها الأب كاسيدي على أن تواصل، وأخبرها دينْ بأنّها قد تجد مكانتها بين الكتّاب الحقيقيّين يومًا مّا، ولكن ربّما كان ذلك مجرّد تشجيع، لأنّهما يحبّانها ولا يريدان أن يجرحا مشاعرها. ولكن أيقنت إيميلي أنّ السّيد كاربنتر لن يجاملها مثلهما. ولن يثنيه ودّه إزاءها عن اجتثاث أحلامها من جذورها لو رأى أنّها غير قادرة على تحقيقها. وفي المقابل، لو تمنّى لها التّوفيق، فسيكون تشجيعه درعًا لها ضدّ العالم أجمع، ولن تفقد زخمها مهما تلقّت من نقدٍ في المستقبل. لا عجب إذن في أنّ اليوم بدا لإيميلي مشحونًا برهانات جسيمة.

طلب منها السّيد كاربنتر البقاء معه بعد نهاية الدّروس. ومن شدّة ما كانت شاحبة ومتوتّرة، ظنّ سائر التّلاميذ أنّ السّيد كاربنتر ضبطها متلبّسة بفعل شنيع و«سينال» منها. ابتسمت لها رودا ستيوارت ابتسامة شامتة من الرّواق -ولم ترها إيميلي أصلًا. فقد كانت على وشك خوض محاكمة مصيريّة اعتلى فيها السّيد كاربنتر كرسيّ القاضي الأعلى، وتتوقّف مسيرتها المهنيّة برمّتها -في نظرها- على حكمه.

رحل التّلاميذ وعمّ في القاعة القديمة سكون لطيف وغمرها الضّياء. وتناول السّيد كاربنتر من مكتبه الحزمة الصغيرة الّتي قدّمتها له في الصّباح، ثمّ تقدّم نحوها في الممرّ وجلس حيالها في المقعد المقابل. وعلى مهلٍ شديد، وضع نظّاراته على أنفه المعقوف، وأخرج المخطوطات، وشرع في القراءة، أو بالأحرى في النّظر إليها وهو يقذف إيميلي بشراذم تعاليق يتخلّلها نخرٌ ونفخٌ ونعقٌ. شبكت إيميلي يديْها الباردتيْن على المكتب وأسندت قدميها إليه كي لا ترتجف ركبتاها. كان الموقف مريعًا، وتمنّت لو لم تقدّم أشعارها إلى السّيد كاربنتر، فهي رديئة، كان واضحًا أنّها رديئة. ألم تتذكّر إيميلي محرّر صحيفة *المشروع*؟

قال السيّد كاربنتر: «*غروب* -يا ربّ، كم قصيدةً كُتبَت عن «الغروب»،

تجمّعت الغيوم في كتل رائعة
وفي غرب الجنان فتحت بابا واسعا
تحرسه أرواح في عيونها نجوم-
ربّاه، ما معنى كلامك هذا؟».

تعثّرت إيميلي وهي تقول في ذهول: «لا... لا أعلم»، وتاه على فمها التّعبير أمام نظرته الحادّة.

نخر السيّد كاربنتر وقال: «بحقّ السّماء يا فتاة، لا تكتبي ما لا تفهمينه أنتِ نفسك. وهذا -*إلى الحياة*- «لن أسألك، يا حياةُ،

فرحة زاهية الألوان» هل أنتِ صادقة هنا؟ هل تتحدّثين بصدق يا فتاة؟ فكّري مليًّا. *ألا* تطلبين من الحياة «فرحة زاهية الألوان»؟».

وحدّق فيها مجدّدًا. ورغمَ أنّها بدأت تتمالك نفسها قليلًا، ساورها فجأة خجلٌ غريب من الزُّهد والإيثار اللّذيْن عبّرت عنهما في القصيدة.

فأجابت متردّدة: «بلى، بلى. *أريد* فرحة زاهية الألوان، بل أريد منها الكثير».

«طبعًا تريدين. كلّنا نريد. قد لا نحصل عليها، وربّما لن تحصلي عليها، ولكن إيّاكِ أن تنافقي وتتظاهري بأنّك لا تريدينها، ولا حتّى في قصيدة. *أبياتٌ إلى شلّال الجبل* «تتكسّر على الصّخور فتحاكي وشاح العروس» -أين رأيت شلّالا جبليًّا في جزيرة الأمير إدوارد؟».

«لم أره في أيّ مكان، كنت قد رأيته في صورة عثرت عليها في كتاب من مكتبة الدّكتور برنلي».

«جدول في الغاب

اختلجت أشعّة شمس النّهار

وارتجفت في أنحائها الأشجار

فـجَرَت من تحتها الأنهار

فكّرتُ في قافية أخرى تتناسب مع معجم الطّبيعة هنا، وهي «الأحجار». لمَ لم تستخدميها؟».

تألّمت إيميلي.

«أنشودة الرّيح

نفضتُ في حقلٍ بلا صدى

عن ثوب النّفل قطر النّدى-

جميل، ولكن ضعيف. حزيران، *حزيران*، آه من حزيران، لا تكتبي عن حزيران يا فتاة. إنّه أهزل المواضيع إلهامًا في الشّعر، وكُتب عنه الكثير فاستُزِف».

فصاحت إيميلي: «كلّا، حزيران خصبٌ لا ينضب أبدًا»، وقد تلاشى من عينيها الإرهاق ولمع فيهما بريق ثائر. لن تسمح للسّيد كاربنتر بقمع آرائها.

ولكن طرح السّيد كاربنتر قصيدة *حزيران* جانبًا دون أن يقرأ منها بيتًا واحدًا.

«»ضقت ذرعًا بقسوة العالم»،ما الّذي تعرفينه عن قسوة العالم؟ أنتِ، في عزلتك بالقمر الجديد بين الأشجار المسنّة والعانستَيْن؟ ولكنّه عالم قاسٍ *حقًّا*. *أغنيّةٌ للشّتاء*، يبدو لي أنّ الفصول بمثابة مرضٍ لا مفرّ للشّعراء الجدد منه،آه! «لن تُمحى ذاكرة الرّبيع» -*هذا* بيتٌ جميل -بل البيت الجميل الوحيد في القصيدة. هممم -شرود -

سمعت أشجار الصنوبر تتهامس

سرّ طلاسم لم يفكّها الزّمن

سمعتها يا إيميلي؟ سمعت السّر حقًّا؟».

قالت إيميلي حالمة: «يبدو لي أنّني أعلمه منذ زمن بعيد». كان قد مرّ بها ذاك *البرق* الخاطف فأرشفها عذوبة تفوق الخيال. «*ثابر في سعيك*» -هذا نصح وعظة، وأكثر ممّا ينبغي. لا يحقّ لك أن تلقّني دروسًا حتّى تكبري، وعندئذٍ ستأبين تَلْقِينَهَا

وجهها في شحوبه ناصع كالنّجوم

هل كنت تنظرين إلى المرآة عندما ألّفت هذا البيت؟».

قالت إيميلي محتجّة: «كلّا».

«لاح ضوء الصّباح يرفرف كراية على التّلال» جميل -جميلٌ جدًّا هذا البيت -

يا لهنائي بحياة تهدينا

صباحًا يغطّي الكون تبرًا

أرى في هذا صدًى خافتًا لأسلوب وردزورث. *البحرُ في أيلول* -«أزرق عميق البريق» -«عميق البريق» -كيف لكِ أن توائمي الأوصاف المناسبة هكذا يا فتاة؟ *صباح* -«ولا تفارقنا مخاوف اللّيل الدّفينة» -ما الّذي تعرفينه عن مخاوف اللّيل الدّفينة؟».

قالت إيميلي بحزم: «أعرف عنها أشياء»، وتذكّرت ليلتها الأولى في عزبة ويذر.

«إلى يومٍ هامد

سكنَ ولاح على جبهته جمود

لا ينعم به إلّا من في اللّحود

هل سبق لك أن رأيت الجمود على جبهة من في اللّحود يا إيميلي؟».

فأجابت بصوت خافت: «أجل»، واستحضرت ذاك الفجر القاتم في بيتها القديم بالوادي.

«هذا ما ظننته، وإلّا لَما كنتِ كتبتِ هذا، ومع ذلك... كم عمرك يا صغيرة؟».

«بلغت ثلاثة عشر عامًا في شهر أيار الماضي».

«همم! *أبياتٌ لرضيع السّيدة حرم جورج إيرفنغ*، عليك أن تدرسي فنّ الألقاب يا إيميلي. إنّ فيها أسلوبًا وقواعد مثلما في سائر الأمور. وأنت تستخدمين ألقابًا عفا عليها الزّمن كالشّموع في القمر الجديد،

نامَ في هدوء، يضغط فمه القاني

كزهرة حمراء حذو صدرها الحاني

لا فائدة من قراءة الباقي. *أيلول*، ألم تنسي منها شهرًا واحدًا؟ «حملت رياح البراري بشائر الحصاد»، هذا بيت جيّد. *معبد المياه تحت ضوء القمر*،هزيل يا إيميلي، هذا هزيل.

حديقة القمر الجديد

جلجلة ضحكات وصخب أغنيات

ينشدها بسرور الرّجال والآنسات

هذا جيّد، أتصوّر أنّ القمر الجديد يزخر فعلًا بالأشباح.

«تفانى خادم الموت في أداء واجبه»، ربّما ينطبق هذا في فترة وباء، أمّا الآن فالوقت غير مناسب يا إيميلي

غمّازاتك عميقة، سحيقة كالقبور

تلعب فيها ملايين الأشعّة في حبور

فظيع، يا فتاة. هذا فظيع. منذ متى صارت القبور ملعبًا؟ هل تنوين اللّعب فيها عندما تُدفَنين؟».

ارتجفت إيميلي مرّة أخرى واحمرّت خجلًا. لمَ لم تفطن لذلك بمفردها؟ هذا لا يخفى على أيّ مخلوق كان.

أبحري، يا سفن، وارفعي أشرعتك الملِاح،

تقدّمي إلى خطّ الأفق الأرجواني

وتواري عن الأنظار، في الفجر الوضّاح

أبحري، وتحت نجوم المساء الفاني-

رديء، رديء، ورغم ذلك فإنّ الصّورة معبّرة .

سِر على مهل، يا موج الأرجوان،

فأحلامي عذبةٌ ولن أصحو الآن

ولكن عليك أن تصحي لو أردتِ تحقيق مساعيك. لقد استعملت كلمة *الأرجوان* مرّتيْن في القصيدة ذاتها يا فتاة.

زهر الحوذان في نوبة ذهبيّة هوجاء

«نوبة ذهبيّة هوجاء» إنّي *أرى* الرّيح يحرّك زهر الحوذان يا فتاة،

جئت من بوابة الغرب الأرجوانية

أنتِ مولعة بالأرجوان يا إيميلي».

قالت إيميلي: «إنّها كلمة لطيفة جدًّا».

«تبدو الأحلام زاهية لا ترضى الموت

دائمًا *تبدو* ولا تكون أبدًا يا إيميلي

ما الشّهرة إلّا إغواء وصدى صوت بعيدٍ

سمعته أيضًا؟ إنّها فعلًا إغواء، وليست إلّا صدى بالنّسبة إلى معظمنا. وها نحن قد أنهينا آخر بيتٍ من المجموعة».

أزاح السّيد كاربنتر كومة الأوراق جانبًا، وشبك ذراعيه على المكتب، ثمّ رمق إيميلي من وراء نظّاراته.

وبادلته إيميلي نظرات واجمة واهنة، وهي تشعر بأنّ كلّ ما فيها من حياة قد غادر جسدها وتركّز في عينيها.

«عشرة أبيات جيّدة من أصل أربعمئة يا إيميلي -أقصد أنّها جيّدة نسبيًّا-، أمّا الباقي فما هي إلّا ترّهات، ترّهات باطلة يا إيميلي».

قالت إيميلي بصوت ضعيف: «ر-ربّما».

اغرورقت عيناها دموعًا وارتجفت شفتاها. لم يكن بيدها حيلة، فقد خرّ كبرياؤها أمام مرارة الخيبة وشعرت وكأنّها شمعة أُخمدت شعلتها على حين غرّة.

فسألها السّيد كاربنتر: «علامَ تبكين؟».

رمشت إيميلي لتواري دموعها وحاولت أن ترسم على فمها ابتسامةً. وقالت: «آسفة... آسفة لأنّها لم تعجبك».

ضرب السّيد كاربنتر مكتبه ضربة زعزعته.

«لم تُعجبني! ألم أخبرك بأنّ عشرةً منها جيّدة؟ لقد صفح الرّبّ عن سَدُوم من أجل عشرة أبرار يا صغيرة».

«هل تقصد... أنّ... في نهاية الأمر..». بدأت الشّمعة تشتعل مجدّدًا.

«طبعًا أقصد ما أقصده. لو كتبت عشرة أبيات جيّدة في الثّالثة عشر من عمرك، فستكتبين عشرة أضعافها في العشرين، لو رأفت بك الأقدار. ولكن كفاكِ ثرثرةً عن الأشهر، ولا تخالي أنّك نابغة أيضًا لمجرّد أنّك كتبت عشرة أبيات مقبولة. أظنّ أنّ لديك *شيئًا ما* يحاول الجهر بصوته من خلالك، ولكن يجب أن تبرهني أنّك جديرة بالمهمّة. عليك ألّا تدّخري جهدًا في سعيك إلى هدفك، وأن تبذلي الغالي والنّفيس في سبيله. ربّاه يا فتاة، لقد اخترت آلهة غيورة لا تطلق سراح أتباعها، حتّى وإن تجاهلت نداءَهم إلى الأبد، ماذا عندك هنا؟».

قدّمت له إيميلي كرّاس جيمي بقلبٍ خافق، وكان الفرح قد غمر كيانها وأضفى عليها نورًا وضّاحًا. وتراءى لها المستقبل واعدًا مشرقًا... آه، ستصغي آلهتها إلى ندائها هي، «إيميلي ب. ستار، الشّاعرة المرموقة»، «إ. بيرد ستار، الرّوائيّة الشّابّة الصّاعدة».

لم تصح من غيبوبة أحلامها الورديّة إلّا عندما سمعت ضحك السّيد كاربنتر، وتساءلت إيميلي في حرجٍ عمّا أضحكه، فهي لم تظنّ أنّ في *ذاك* الكرّاس شيئًا مُضحكًا. كانت فيه ثلاثة أو أربعة من قصصها

الأخيرة، *ملكة الفراشات*، قصّة خياليّة قصيرة؛ *والمنزل المُحبَط*، وقد ألّفت فيها ملامح حلم جميل عسى أن يتحقّق بعد سنوات طويلة؛ *وسّر الوادي*، وهو -على خلاف ما يوحي به العنوان- حوار وهميّ بين «طيف الثّلوج»، و«طيف المطر الرّمادية»، و«طيف السّديم»، و«طيف ضوء القمر».

قال السّيد كاربنتر: «ترين إذن أنّني لست جميلًا حينما أتلو صلواتي؟».

شهقت إيميلي، وأدركت ما حدث، ثمّ هرعت إلى الكرّاس تحاول خطفه عبثًا، إذ رفعه السّيد كاربنتر بعيدًا عن متناولها وجعل يستهزئ بها.

لقد أعطته الكرّاس الخطأ! ويا للهول، تُرى عمّا يحتوي هذا الّذي بين يديْه؟ أو بالأحرى، ما الّذي لم يكن فيه؟ لقد كانت فيه نصوصٌ عن كلّ من تعرفه في معبد المياه، ووصف مفصّل، بل مفعم بالتّفاصيل، للسّيد كاربنتر نفسه. وكانت قد كتبت عنه بأقصى الصّراحة وأقساها رغبةً منها في وصفه بدقّة تامّة، لا سيّما فيما يخصّ التّعابير الّتي تظهر على وجهه حين يستهلّ يوم الدّراسة بالصّلاة. وبفضل براعتها المذهلة في الرّسم بالكلمات، شعر السّيد كاربنتر بأنّه يعيش أدنى تفاصيل الصورة الّتي رسمتها عنه. ولم تدرك إيميلي آنذاك أنّه شاهد نفسه في مرآة فنّية واستمتع بالصّورة الّتي عكستها له فأبى إلّا أن ينغمس فيها. ثمّ إنّها وصفت خصاله بالوضوح ذاته الّذي صوّرت به عيوبه. واستوقفته بعض الجمل:

«يبدو وكأنّ في ذهنه علم واسعٌ لا ينفعه في شيء»؛ «أظنّ أنّه يلبس معطفًا أسود يوم الاثنين لكي يشعر وكأنّه لم يكن ثملًا بالمرّة». مَنْ -أو ما- الّذي علّم هذه الطّفلة الصّغيرة كلّ تلك الأشياء؟ آه، لا ريْبَ في أنّ الآلهة لن تمرّ على إيميلي مرور الكرام!

قالت إيميلي وقد علت وجهها الشّاحب حمرة الخجل: «أنا... أنا آسفة».

«ربّاه، ما كنت لأفرّط في هذا من أجل كلّ الشّعر الّذي كتبتِه أو ستكتبينه يومًا! هذا هو الأدب، بحقّ السّماء، الأدب بعينه؛ وها أنتِ ذي لم تتجاوزين الثّالثة عشر. ولكنّكِ لا تعلمين ما ينتظرك من تلال عسيرة ومرتفعات حادّة وضربات مباغتة وكلمات محبطة. ولعلّه من الحكمة أن تبقي في كنف الوادي. إيميلي، *لماذا* تريدين أن تكتبي؟ أعطيني سببكِ».

قالت إيميلي ببرود: «أريد أن أصبح مشهورة وثريّة».

«هذا ما يريده الجميع. هل هذا كلّ ما في الأمر؟».

«كلّا. أنا/عشق الكتابة».

«هذا سببٌ أوقع. ولكنّه غير كافٍ، لا يكفي ذلك. أخبريني، لو علمت أنّك ستظلّين أفقر من فأر في كنيسة طيلة حياتك، ولو علمت أنّه لن يُنشر سطرٌ واحد من أعمالك، هل ستواصلين الكتابة حقًّا؟».

فقالت إيميلي بازدراء: «طبعًا سأواصل. يجب أن أكتب، فالأمر ليس بيدي أحيانًا. عليّ أن أكتب فحسبُ».

«آه، إذن لن أهدر نفَسي في إسداء النّصائح. لو كُتب عليك أن تتسلّقي القمم فعليكِ أن تفعلي. هنالك أشخاص لا يسعهم إلّا أن يرنوا إلى التّلال، وتضيق صدورهم في سفحها. وليكن الرّب في عون من فيه ضعف لا يسمح له بالتّسلّق. إنّك لا تفهمين كلمةً واحدةً ممّا أقول... بعدُ. ولكن انطلقي، تسلّقي! خذي كرّاسك وعودي إلى بيتك. وبعد ثلاثين عامًا، سيكون لي الشّرف أن أقول إنّ إيميلي بيرد ستار كانت تلميذتي يومًا ما. اذهبي، اذهبي قبل أن أتذكّر وقاحةَ صغيرةٍ تتجرّأ على كتابة أشياء من ذاك القبيل عن مدرّسها، فأغضب كما ينبغي لي أن أغضب».

ذهبت إيميلي وقد لازمها شيءٌ من الخوف طغت عليه النّشوة والطّرب. لم تسع السّعادة قلبها، فتفجّرت من كلّ جوارحها وملأت العالم حولها بفيضٍ من الجمال؛ وبدت لها الطّبيعة وكأنّها تعبّر بألحانها العذبة عن فرحتها هي. وشاهدها السيّد كاربنتر تتوارى عن الأنظار وراء العتبة القديمة البالية.

وغمغم قائلًا: «ريح، ونار، وماء! تفاجئنا الطّبيعة دائمًا وأبدًا. في هذه الطّفلة شيءٌ... لم يكن لي أبدًا وما كنت لأضحّي من أجله. ولكن «لا تسمح لنا الآلهة بأن نكون مدينين لها»، وستسدّد إيميلي دينها. أجل، ستسدّده».

وعند الغروب، جلست إيميلي في غرفة الشّرفة، وقد سادها سحرٌ ناعم، لطيف. وتأمّلت في الخارج، فتراءت لها السّماء تفيض بألوان دافئة وتعكس ظلال الأشجار، وهبّ عليها الهواء حاملًا

في طيّاته همسات خافتة. كان «قرن» في الحديقة يطارد الأوراق الجافّة على الممرّات الحمراء، ومرأى فروه النّاعم المخطّط وحركاته الرّشيقة يملأ قلب إيميلي حبورًا،مثله مثل جمال الأخاديد اللّامعة المحفورة متوازيةً في الحقول وراء الطّريق، ولمعان النّجمة البيضاء الأولى في سماءٍ بلّوريّة خضراء.

صفّرت رياح الخريف أنغام بلاد العجائب فوق التّلال، وترامت من أيكة جون المتغطرس جلجة ضحكات، كضحك الفون[1]. كانت إيلسي في انتظارها هناك مع بيري وتيدي، وكانت إيميلي على موعدٍ معهم ليلعبوا وقت الشّفق. وستلتحق بهم، ولكن ليس في الحال. غمرتها آنذاك فرحة عارمة لا يسعها إلّا أن تكتبها قبل مغادرة عالم أحلامها لتعود إلى الواقع. وفي زمن غابر، كانت لتسكب ما يختلج في صدرها في رسالة إلى والدها، أمّا الآن فالأمر محال. ولكن ها هو ذا كرّاس جيمي الجديد أمامها على الطّاولة. جذبته إليها، وتناولت قلمها، ثمّ كتبت على صفحته الأولى الشّاغرة،

القمر الجديد،

معبد المياه،

جزيرة الأمير إدوارد.

8 تشرين الأوّل.

سوف أكتب مذكّراتي، عساها أن تُنشر بعد موتي.

(1) الفون كائن خياليّ من الميثولوجيا الإغريقيّة، نصفه العلويّ كجسد الإنسان ونصفه السفليّ كالماعز.



أينما حلّتْ إيميلي ستار، رنَتْ بناظريْها إلى السّماء بحثًا عن غيمةٍ عابرة، عن شمسٍ ضاحكة، عن نجمةٍ تُلوّح لها ببريق الأمل، عن قمرٍ جديد يُذكّرها بنشوةِ البداياتِ وتَجدُّدِ طعم الحياة. ترعرعت الفتاةُ في حضن والدها الحنون، ثمّ شاءت الأقدار أن تأخذها إلى مزرعةِ القمرِ الجديد حيث ستبدأ حياةً جديدةً وسطَ عائلةِ موراي. هنالك سنُرافق إيميلي في اكتشافاتِ الطّفولة الأولى، اكتشافات خدشَتْ براءتها وأفقدَتْ عالَمَها شيئًا من ألوانه؛ فأبَتْ إيميلي إلّا أن تستردّها بالكتابة، وما لها من سلاح غيرُها لجبرِ خاطرها ومقاومةِ وطأة وحدتها. فالكتابةُ ملاذُها، وحبلُ نجاتها، وشريانُ حياتها. كيف لها، لَوْلَا الكتابةُ، أن تتحدّثَ عن مغامراتها الرّائعة برفقةِ أصدقائها الّذين أعطوا لحياتها في «القمر الجديد» معنًى ورونقًا؟ وكيف لها، لَوْلَا أشعارُها، أن تصفَ ما استوعبَتْهُ عيناها من سحرِ الكونِ الفسيح؟ وكيف لها، لَوْلَا قلمُها، أن تخاطبَ والديها، خارقةً بذلك قواعدَ الزّمانِ والمكانِ، والحياة والموت؟ تلك هي إيميلي، فتاةٌ تخرق المألوف، وتجهر بآرائها، ولا تخنع أمام الظّلم، ولا تعتذر عمّا تكون.

يخاطب العالم إيميلي فتلبّي النّداء، وتُطوّعه بين يديها فيستحيل كلماتٍ، كلمات تكتبها على كلّ ما تجده من أوراق، فتتراكم فيها القصص والقصائد وتُمهّد سبيلَها صوبَ مسيرةٍ أدبيّةٍ واعدة.

نور الشعّار


ISBN: 978-9938-74-047-9
9 789938 740479